انطون فيسل

التوراة، الإنجيل، والقرآن

ثلاثة كتب، مدينتان، قصة واحدة



ترجمة

حسني زينه

منشورات الجمل

انطون فيسل:
التوراة، الإنجيل، والقرآن
ثلاثة كتب، مدينتان، قصة واحدة

انطون فيسل

التوراة، الإنجيل، والقرآن
ثلاثة كتب، مدينتان، قصة واحدة

ترجمة

حسني زينه

منشورات الجمل

انطون فيسل: التوراة، الإنجيل، والقرآن ثلاثة كتب، مدينتان، قصة واحدة

ترجمة: حسني زينه

التدقيق والإشراف اللغوي: دراسات عراقية

الطبعة الأولى ٢٠١٥

توزيع منشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٥

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Anton Wessels: The Torah, the Gospel, and the Qur'an

Three Books, Two Cities, One Tale

Al-Kamel Verlag 2015

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى زوجتي

تمهيد

في هذه الأيام المظلمة من الجهل، والتعصب، واللاتسامح، والمخاوف المرَضية والمخاوف المضادة لها، كتب أنطون فيسل كتاباً يذكرنا بالبواطن العميقة الكامنة تحت سطح النصوص المقدسة الثلاثة: التوراه، والإنجيل، والقرآن. هذا عمل ينتمي إلى نوع قد نسمّيه «الأركيولوجية الدينية أو علم الآثار الديني»، عمل لا يتجاهل خطوط الصدع، بل يسعى بإيمان عميق وعلم يضارعه عمقاً، إلى تتبع أسلاك الرواية الكبرى المشتركة بين الكتب الثلاثة كلها.

لقد دأب وسلز في معظم أعماله العلمية السابقة على الدعوة باستمرار إلى نظرة مفادها أنه ما لم يقرأ المرء هذه النصوص قراءة متوازية ودقيقة فلن يمكنه أن يصل إلى موقف يتيح له تلمس معالم رؤية مشتركة تربط النصوص الثلاثة بعضها ببعض: ثلاثة كتب، مدينتان، قصة واحدة، كما كتب في العنوان الفرعي. تكاد هذه «القصة الواحدة» أن تكون «عالماً واحداً»، لأن الثيمات المنتقاة هنا تنتمي إلى إنسانية مشتركة نادراً ما استُفتيَت بمثل هذا الإحساس المرهف وهذا العمق.

إن ما يقع بين يدينا في هذا العمل شيء يجوز لنا أن ندعوه عولمة لحقل الرؤية، عولمة تتجاوز الجدران المشيّدة حول الجماعات الدينية الثلاث، وهي أمر تحتاج إليه الدراسات الدينية المعاصرة أشد الحاجة.

فمن مساءلة الكتب الثلاثة بالتفصيل تبرز ثيمات لم تزل تعني البشر، منها استعمال السلطة الدنيوية وسوء استعمالها، ومنها ترك الخطيئة عبر

الهجرة من مدينة الفساد إلى مدينة الله؛ كما تلوح تجارب النبوة بحيوية خاصة. إنه كتاب مليء بالأصداء الداخلية، ومع هذا فهو كتاب حافل بالتلميحات إلى الهموم الحديثة، والتوترات، والمآزق. ومن التجارب الحياتية المباشرة لهذه الجماعات الدينية الثلاث يستمد وسلز ذلك اللون من الحكمة الذي لا يتأتى إلا لأولئك العلماء الذين يألفون مواقع هذه الجماعات وأصواتها في كلا الشرق والغرب: الذين يألفون حقاً العنف الذي ينفجر أحياناً فيما بين هذه الجماعات. إن ما بين أيدينا هنا ليس مجرد تمرين في تحليل النصوص، بل رحلة روحية بحثاً عن إيمان مشترك، رحلة مسكونة بالتعاطف العميق مع حميمية المعتقدات والرموز الدينية.

حين تسائل فأنت تسأل، ويصوّب وسلز نحو قرائه بطارية متواصلة من الأسئلة، سعياً لإشراكهم كلّياً في ما يقرأون، ليتجدّوا المجاملة، والرضا عن الذات، والجهل، وينظروا إلى ما وراء المظاهر الخارجية المتنوعة وصياغات النصوص ليكتشفوا تواصلها الداخلي الأعمق دلالة. فكأن هذا العمل يذكّر قراءه، عبر تساؤلاته المتكررة، بجوامع الكلم الدينية من أمثال «أطلبوا تجدوا»، أو «إقرعوا يفتح لكم»، أو «المعرفة خزانة مفتاحها سؤال»، التي كثيراً ما يسهل على المرء أن يغفل فيها عن معنى الحبكة إذا ما فسرها بأنها مجرد دعوة إلى الطاعة.

ينبغي أن يستقبل هذا العمل بترحيب حار وشعور عميق بالعرفان لاصطحابنا في رحلته هذه، ولمعالجته هذه النصوص المحورية الثلاثة بهذا القدر من التفهم والتعاطف.

طريف خالدي
بروفيسور علم الاجتماع
في الجامعة الأميركية ببيروت
١٥ أيلول ٢٠١٣

التوراة، الإنجيل، والقرآن:
ثلاثة كتب، مدينتان، قصة واحدة

«هكذا كان مؤسس المدينة الأرضية [سفر التكوين ٤ : ١٧] قاتل أخيه، ألا وهو قابيل. إذ لما استحوذ الحسد عليه صرع أخاه هابيل، مواطن المدينة الأبدية، ونزيل الأرض. فلا قبل لنا أن نستغرب أن يكون النموذج الأول، أو أن تكون أم الجرائم، على ما يقول الإغريق، قد وجد بعد ردح طويل من الزمن، جريمة موازية عند تأسيس تلك المدينة التي قيّض لها أن تسود على الكثير الكثير من الأمم، وأن ترأس هذه المدينة الأرضية التي نتكلم عليها. ذلك أن أوائل جدران تلك المدينة قد «تضرجت بدماء أخ قتيل..». على ما قال أحد شعرائهم.

Augustine, City of God, Book XV, Ch.5

(القديس أغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر، الفصل الخامس)[١]

---

(١) Augustine, *The City of God*, translated Marcus Dods, The Nicene and Post-Nicene, first series, Vol. II, ed. Philip Schaff, reprint (Grand Rapids: Eerdmans. 1983), Book XV, Ch. 5, p. 286. ويستشهد أغسطين هنا بماركوس لوكانوس (٣٩-٦٥)، وهو شاعر روماني من أقارب سينيكا [مؤدّب الإمبراطور الروماني نيرون].

A Tale of Two Cities, Charles Dickens

(قصة مدينتين، تشارلز ديكنز)

يدور كتاب قصة مدينتين للكاتب الإنكليزي الشهير تشارلز ديكنز، وهو من كتّاب القرن التاسع عشر، حول الثورة الفرنسية في العام ١٧٨٩، تلك الثورة التي خلّفت أثراً هائلاً في التاريخ. يوم كنت أرتاد المدرسة الثانوية كان مقرر التاريخ الحديث يبدأ من الثورة الفرنسية. كتب ديكنز عن باريس ولندن، وهو يستهل كتابه بالقول: «كان ذلك أفضل الأزمنة، وكان أردأ الأزمنة؛ كان عصر الحكمة وكان عصر الحماقة؛ كان عصر الإيمان، وكان عصر الشكوك؛ كان عصر الأنوار وكان عصر الظلام..»[١]. كان منظومة من التناقضات التي انفجرت في الثورة الفرنسية. لقد حاول ديكنز في كتبه، ومن جملتها هذا الكتاب، أن يفهم، وأن يفسر الزمن الذي عاش فيه وأن يقدم استبصاراً في كنهه. كان مقتنعاً بأن الثورة مسخ وكابوس. كيف يتوجب على الإنسان أن يتجاوب مع ثورة كهذه؟ لا يمكن أن يكافح هذا المسخ بشنق المزيد من الناس أو بفرض المزيد من أحكام السجن. والوقاية الوحيدة الممكنة هي اكتناه ما أفضى إلى الثورة. وقد حاول ديكنز أن يفهم الشقاء الاجتماعي الخطير في عصره: فانتقد الظلامات الاجتماعية التي زادها تفاقماً الجشع المسيطر على ذلك الزمان. لقد فهم ديكنز ما عبّر عنه الشاعر W. H. Auden بقوله:

(1) Charles Dickens, *A Tale of Two Cities*, edited with an Introduction by George Woodcock, Penguin 1970, reprint (London: Penguin, 1985), p.35

من عُومل بالسوء
بالسوء عامَل[١]

بهذين البيتين أدان أودن معاهدة فرساي التي فرضت عقوبات ساحقة على العدو المهزوم في نهاية الحرب العظمى (على ما كانت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ توصف به في البداية) إلى حد أن ذلك السلم اعتبر لاحقاً بداية للحرب العالمية الثانية[٢]. [p.1]

نحن نعيش في زمن يعتبر، في نظر كل فرد وتجربته، زمن تحوّل، أو زمن ثورة. وكثيراً ما يقال إن العالم تغير بعد الحادي عشر من أيلول، والكلمة التي نستعملها للدلالة على التغير اليوم ليست كلمة ثورة، بالمناسبة، بل إرهاب. لقد شنّت الحرب على الإرهاب منذ الحادي عشر من أيلول. ما هو أصل هذا الإرهاب؟ هل ينبغي لنا في أزمنة الثورة هذه، أزمنة الإرهاب، أن نتفكر في ما يقوله أودن، أي «من عومل بالسوء بالسوء عامَل»؟ كثيرون في الغرب سوف يزعمون حتماً أننا قد عُوملنا بالسوء. وثمة بالإضافة إلى الحادي عشر من أيلول الهجمات في مدريد ولندن، واغتيال المخرج السينمائي ثيو فان غوغ على يد محمد ب. في أمستردام. إنه لأمر رهيب! ولكن أليس من المهم للغرب أن يتساءل ما السوء الذي عاملنا «نحن» به الغير؟

«قصص المدينتين الكبرى»

لقد دأب الناس عبر التاريخ على تقسيم العالم إلى معسكرين. وقد

(1) W. H. Auden, "September 1, 1939". *Selected Poems* (New York: Vintage, 1979), 11, 21-22.

(2) Woodcock, "Introduction," to Dickens, *A Tale of Two Cities*, pp. 20-21

عرف في القرن العشرين بخاصة ما سمّي بالصراع بين الشرق والغرب، ذلك الصراع الذي استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠-١٩٤٥) حتى عام انهيار الاتحاد السوفييتي: العالم الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، واشنطن، من جهة، والعالم الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتي، موسكو، من الجهة الأخرى. ومنذ انهيار جدار برلين في العام ١٩٨٩ بات ينظر إليالإسلام باعتباره عدو الغرب الأول - الإسلام في مواجهة الغرب - وسرعان ما أطلقت نظرية «صدام الحضارات» (برنارد لويس، صامويل هانتنغتن) في وجهه. إن هذا الصراع بين الإسلام وبين «العالم» الغربي، هذا الصراع الذي كان يعتقد أنه مستمر منذ قرون، كان يعتبره الكثيرون حقيقياً ويعتبرون أنه قد تأكد بفضل الهجمات على مدينتي نيويورك وواشنطن. وقد اعتُبر أسامه بن لادن بمثابة الأب الروحي لهذه الهجمات. في البداية، كان الرئيس جورج بوش الابن قد أطلق على «حربه على الإرهاب» التي باشر بها بعد هجمات الحادي عشر من أيلولوصف الحملة الصليبية، مؤكداً بذلك ما رأى أسامه بن لادن أنه غرض الغرب. كان بن لادن يطلب «حرباً مقدسة» جهاداً ضد الغرب، ضد «الصليبيين». وكانت حرب بوش على «محور الشر» (العراق، إيران، وكوريا الشمالية) في خطابه المتعلق بحال الاتحاد في كانون الثاني ٢٠٠٢ صدى مقصوداً للصراع مع الاتحاد السوفييتي، «امبراطورية الشر»، وهي العبارة التي أطلقها الرئيس الأمريكي رونالد ريغان سنة ١٩٨٣ (واستعارها من فيلم حرب النجوم [١٩٧٧]).

هذه هي «الرواية أو القصة العظيمة» لصراع الخير والشر، الديمقراطية والتوتاليتارية. فقد تكلم بن لادن نفسه على «التحالف الصهيوني الصليبي» الذي شكّل ضده الجبهة الإسلامية العالمية، ضد اليهود

والصليبيين». هذه هي الرواية الكبرى للجهاد المظفر بمعنى الحرب المقدسة، قصة «العملية الاستشهادية المشهدية»، كعملية الحادي عشر من أيلول. والمسلمون الذين يفكرون على طريقة أسامة بن لادن يفسرون كامل تاريخ قرون الإسلام الأربعة عشر بواسطة هذه المقولات. ففتوحاتالإسلام تفسر باعتبارها صراعاً ضد «الصهيونيين» و«الصليبيين»، عندما قام أمير بربري من شمال أفريقيا بدحر الإسبان في القرن الحادي عشر للميلاد، ويوم دحر السلطان صلاح الدين الأيوبي الكردي الفرنجة وطردهم من القدس في القرن الثاني عشر الميلادي، أو يوم استولى السلطان العثماني محمد الفاتح على القسطنطينية في القرن الخامس عشر. والعبرة المستخلصة من ذلك هي أن «هذه الحضارة الإسلامية العظيمة التي قوضت بيزنطية تمجيداً لاسم الله، قد غدت منذ الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ في طريقها ثانية لإعادة فتح [p.2] العالم». وبينما يعمل المحافظون الجدد الأمريكيون على نشر قصة عظيمة عن «الحرب على الإرهاب»، تتكلم بعض الجماعات من ناحية المسلمين على قصة عظيمة عن الجهاد عبر الاستشهاد. من ذلك أن العمليات الانتحارية في مدريد وبريطانيا العظمى، واغتيال ثيو فان غوغ في أمستردام، ورسام الكاريكاتور الدنماركي، ينظر إليها من خلال هذه المصطلحات[1].

الكتاب المقدس والقرآن من حيث هما قصة مدينتين

كثيراً ما يشار إلى الأديان باعتبارها سبب العداوة في صراعات العالم المعاصر: «اليهودية» (من حيث العلاقة بدولة إسرائيل)، «الإسلام»

(1) Gilles Kepel, *Beyond Terror and Martyrdom. The Future of the Middle East* (Cambridge MA/London: The Belknap Press of Harvard University Press, 2008), pp. 4, 8, 97-98, 133, 120, 136, 177, 255

و«الغرب المسيحي». ولذلك كان من المهم جداً أن يسأل المرء هل يمكن تقصي أصول هذه العداوة السياسية وصولاً إلى النصوص المقدسة التي يستعين بها كل من اليهود، والمسيحيين، والمسلمين: التناخ (وهو مختصر يرمز إلى التوراه، والنبيين [Nevi'im] والكتابات [Ketuvim]، التي تنتمي إليها المزامير)[1]، أو العهد القديم، العهد الجديد، اللذين يشكلان ما يسميه المسيحيون بالكتاب المقدس، والقرآن.

سوف أحاول الإجابة عن هذا السؤال في هذا الكتاب، وسوف أقوم بذلك عبر مناقشة هذه النصوص الثلاثة وتفسيرها من حيث علاقة كل واحد منها بالآخرَين. ونقطة انطلاقي هي الفكرة القائلة إن النصوص الثلاثة، التناخ، الكتاب المقدس، والقرآن يمكن أن تفهم أيضاً باعتبارها «قصصاً لمدينتين»، أي القدس وبابل، مكة والمدينة.

فالمدينة الأولى، القدس، هي رمز لمدينة العدل والسلام؛ والأخرى، بابل، تمثل مدينة الظلم والقهر. والأفق المستقبلي الأبعد هو مدينة جديدة، قدس جديدة (سفر الرؤيا ٢١-٢٢). وتركز هذه الرؤية على المدينة التي صمم الله نفسه أساساتها (عب ١١ : ١٠). وتشير هذه العبارة إلى الخلود والخلاص اللذين سوف يتحققان في نهاية الزمان. ويقال إن حشداً من الشهود هم في طريقهم إلى هذه المدينة التي أنشأها الله لهم (عب ١١ : ١٦)، جبل صهيون، مدينة الله الحي، القدس السماوية (عب ١٢ : ٢٢).

لا يؤتى على ذكر القدس في أي موضع من القرآن، ولا على ذكر أي من أسمائها الأخرى كبيت المقدس مثلاً. ولكن المدينة والهيكل هما

---

(١) Sir. 1:1; 39:1. الناموس، الحكمة، النبوءات - هذا ما صار إليه تقسيم الكتاب المقدس العبري.

المقصودتان بوضوح عندما يذكر أمر الضربتين اللتين أنزلهما الله بها في سورة الإسراء، الآيات ٤ إلى ٨[١].

والقرآن أيضاً يمكن أن يوصف بأنه «قصة مدينتين»، ألا وهما مكة والمدينة. تقع مكة في واد صخري غير ذي زرع، وفيها بيت مقدّس هو الكعبة (سورة إبراهيم، الآية ٣٧). كانت مكة، التي تعني: طريق «sanctum»، مركزاً دينياً قبل سنين من ولادة محمد، كما كانت في الوقت نفسه مدينة نقل وعبور للبضائع التي تحملها القوافل. فالإبل كما هو معروف هي سفن الصحراء. وكانت طريق الأفاويه من الجنوب إلى الشمال تمرّ عبر مكة التي كانت محطة تتوسط الطريق بين مأرب في جنوب الجزيرة العربية وغزه.

أما المدينة، وهي واحة كانت تسمى يثرب، فتقع على مسافة ٤٠٠ كلم شمالي شرق مكة. وهي علاوة على كونها تقع على طريق الأفاويه بين اليمن وسوريا، بقعة مؤاتية تماماً لزراعة النخيل. وقد أصبحت المدينة بفضل القبائل اليهودية المقيمة فيها، من أمثال بني القينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، [p.3] مركزاً زراعياً هاماً. وإذا ما حكمنا استناداً إلى أسماء هؤلاء اليهود فمن المرجح أن يكونوا من أصل عربي أو آرامي وإن كان جلّهم يتحدر من اليهود الذين لجأوا إلى شبه الجزيرة العربية بعد استيلاء الرومان على فلسطين. ومن المحتمل أن يكون اليهود هم الذين أطلقوا الاسم على المدينة التي صارت تعرف لاحقاً بمدينة النبي[٢].

---

(1) Frank E. Peters, *Islam en de joods - Chistelijketraditie. Eenverkenningt.* (Amesterdam: Boom, 2005) pp.250-51.

(2) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (New York: Macmillan & Co. 1964) pp. 102-04.

ولد محمد في مكة حوالي العام ٥٧٠، وبدأ نشاطه كنبي فيها سنة ٦١٠. في الفترة الأولى من نشاطه (٦١٠-٢٢)، كانت مكة مدينة ظلم وقهر، واضطهاد. وبالمقابل، كانت المدينة تمثل البلدة التي يحكم فيهابالعدل، ثم لقبت لاحقاً بالمدينة المنورة. وثمة فن من فنون الشعر العربي يتمثل في مدح المدينة والحنين إليها[١].

اليهود، المسيحيون اليهود، والمسيحيون في شبه الجزيرة العربية

لم يكن اليهود والمسيحيون غير معروفين في شبه الجزيرة العربية. فقد وفد اليهود لاجئين بعد تقويض الهيكل للمرة الأولى (٥٨٦ق.م) ثم مرة أخريبعد تهديم القدس للمرة الثانية في العام ٧٠ للميلاد، ثم في القرن الميلادي الثاني بعد هزيمة التمرد اليهودي بقيادة بار كوخبا (ابن الكوكب). فقد اعتبر هذا الأخير مسيحاً في بعض الأحيان وسمي «بابن الكوكب» انسجاماً مع النص القائل «يبرز كوكب من يعقوب» (عد ٢٤: ١٧). وبالإضافة إلى الجنوب يمكن أن يوجد منهم في كافة الواحات في الشمال وفي المدينة كما سبقت الإشارة. وثمة أيضاً عرب اعتنقوا اليهودية[٢].

---

(١) *Encyclopaedia of the Qur'an* by Jane Damme McAuliffe (Leiden/Boston/ Cologne: Brill, 2001) *s. v.* "Medina, tashawwuq ila l-Madina" وسوف يشار في ما يلي إلى كافة الإحالات إلى هذا المرجع بالحرفين *E.Q.*

(٢) *The Encyclopaedia of Islam,* new ed. (Leiden/London: E.J. Brill/Luzac & Co., 1960) *s. v.* al-Madina;. وسوف يشار في ما يلي إلى كافة الإحالات إلى هذا المرجع بالحرفين *E. I.*. D. S. Attema, *Het oudste Christendom in Zuid-Arabie,* (Amsterdam: Noord-Hollandschet itgeversMaatschappij) 1949.

ضمّت الموجة الثانية من اللاجئين اليهود إلى الجزيرة العربيةعدداً من المسيحيين اليهود! وهؤلاء هم جزء من الكنيسة المسيحية غاب عن بال الكنيسة في الغرب، تلك الكنيسة التي تتكون من «المسيحيين من الأمم» حصراً. ولكن المسيحيين اليهود ظلوا يقومون بدورهم في القرون الأولى من تاريخ الكنيسة في الشرق الأوسط حتى أيام محمد. أما بقية المسيحيين في شبه الجزيرة فهم «مسيحيون شرقيون»، سريان أرثوذكس، ونساطرة أو آشوريون[(١)].

كانت خلفية المسيحية القائمة في شبه الجزيرة العربية تتصل مباشرة بالبلدات الناطقة بالسريانية على أطراف شبه الجزيرة[(٢)]. فأناشيد إفراييم السرياني (٣٠٦-٧٣) أكبر كاتب وشاعر في المسيحيين السريان الأرثوذكس، كانت تنشدها مختلف الجماعات في شبه الجزيرة العربية[(٣)]. وثمة أيضاً كنيسة «الملكيين»، أي الكنيسة المتصلة بالملك، (ملكوس) السلطة الإمبراطورية للإمبراطور البيزنطي. وكان ثمة مقبرة للمسيحيين في مكة خلال حياة محمد. واستناداً إلى مؤرخ قديم للأماكن المقدسة الإسلامية، فقد كانت ثمة أيقونة [p.4] للسيدة مريم وابنها يسوع بين الصور الموجودة داخل الكعبة. ويوم طهّر محمد الكعبة من الأوثان بعد احتلال مكة سنة ٦٣٠، منع صراحة إزالة الأيقونة.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن محمداً قد أعلن رسالته في بيئة تألف قصص الكتاب المقدس. ولما بدأ محمد دعوته كنبي، إنغمر في

(1) Tilman Nagel, *Der Koran und sein religioses und kulturelles Umfeld* (Munich: Oldebourg, 2010; Anton Wessels, Arab and Christian? Christians in the Middle East (Leuven: Peeters, 1995)
(2) *E.Q. s.v.* , Christians and Christianity
(3) Nagel, *Der Koran*, p.195

نقاش قائم بين اليهود، والمسيحيين اليهود، ووسط اليهود حول فهم جوهر ما تقوله التوراة عن الالتزام بالعدل وبمحبة القريب.

قراءة التناخ، والإنجيل، والقرآن معاً؟

لعل قراءة الكتاب المقدس والقرآن في نَفَس واحدتؤدي إلى التسبب بشيء من المفاجأة. فاليهود يتمسكون «بالتوراة العبرية» وحدها، والمسيحيون بالكتاب المقدس (بعهديه القديم والجديد)، والمسلمون بالقرآن.

لقد رفض المسيجيون أحياناً العهد القديم. فقد ذهب رجل يدعى مرقيون (حوالي ١١٠-٦٠ للميلاد)، مؤسس كنيسة سُميت باسمه، إلى أن إله العهد القديم ليس إله يسوع المسيح. ولذلك فهو لم يقم أي وزن للعهد القديم، وفي رأيه أنه يجب أنتحذف من العهد الجديد كل إشارة إلى العهد القديم. فكان أن طُرد من الكنيسة وفرضعليه الحرم الكنسي. وينظر المسلمون إلى العلاقة بين العهدين القديم والجديد على نحو مختلف بعض الشيء، ذلك لأن القرآن يعتبر اليهود والمسيحيين من أهل الكتاب، أي التوراة والإنجيل (سورة المائدة: ٤٧؛ وانظر سورة البقرة: ١٠٥). ويعتقد أن لفظ «الكتاب» يدل على كلمة الله المتلوّة، المقدمَّة، أكثر مما يدل على كتاب يُقرأ. حرفياً تدل كلمة قرآن على ما يُتلى.وفيما اعترف المسيحيون بالعهد القديم وضمّنوه كتابهم المقدس، فإن موقف اليهود والمسيحيين من القرآن مختلف عادة. فهم كثيراً ما أنكروا، إجمالاً، وما زالوا ينكرون أن محمداً نبي وأن القرآن هو أيضاً كلمة الله. ويجد المسلمون صعوبة في فهم هذا الأمر لأنهم لا يفهمون لِمَ لا يبدي اليهود والمسيحيون لمحمد الاحترام نفسه الذي يبدونه هم لموسى ويسوع.

من المفيد أن نذكر هنا أن موسى لم يكن «يهودياً» وأن يسوع لم يكن

«مسيحياً»، وأن محمداً لم يكن «مسلما». وما أبتغيه من هذا القول هو الإشارة إلى أن أية من الجماعات والتقاليد الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام لا تتلاقى مع موسى، يسوع، ومحمد على التوالي. فهؤلاء الشخصيات الثلاثة على أهميتهم المركزية في الديانات اليهودية، والمسيحية، والإسلامية ليسوا «ملكاً» تحتازه كل واحدة منها حيازة حصرية وكأن كلا منها تمتلك «براءة» بحيازة شخصيتها المركزية (موسى، يسوع، محمد)، وكأن لكل واحدة منها حقاً حصرياً بالتفسير الكامل لنصها، أي التناخ، العهد الجديد، أو القرآن. وقد أطلق العالم اليهودي دايفيد هارتمان مرة من القدس هذه الملاحظة القاطعة: «نحن، اليهود، لسنا المشروع الوحيد في البلد».

وأنا أستلهم مقاربتي من الفيلسوف اليهودي الكبير موسى ابن ميمون، الذي ولد سنة ١١٣٥ للميلاد في قرطبة بالأندلس وتوفي في القاهرة سنة ١٢٠٤، ودفن في طبرية. كان ابن ميمون طبيباً وعمل في مصر طبيباً في بلاط السلطان صلاح الدين (١١٣٨-١١٩٣). وكان صلاح الدين قد هزم الصليبيين سنة ١١٨٧ في حطّين بجوار طبرية واستنقذ القدس. وهكذا عاش ابن ميمون وعمل في عالم يسوده المسلمون [p.5] وتأمّل في مغزى التقليدين الآخرين المسيحية والإسلام، اللذين تطورا من مصدر الإلهام نفسه، أي الديانة اليهودية. وقد أعلن في الكتاب الذي وضعه أصلاً بالعربية تحت عنوان دليل الحيران: «والمسلمون، في الجملة، ليسوا من عبدة الأوثان، وهم يعلنون وحدانية الله الكاملة على النحو الصحيح»[١] ويكتب في موضع آخر قائلاً:

---

(١) مقتبس في: Geoffrey Widoger, *JoodseCultuur: Oorsprong en bloei* (Baarn: Ambo, 1994) p. 71.

«لا قِبَل لعقل الإنسان أن يكتنه مرامي الخالق؛ لأن سبلنا ليست سبله، ولا أفكارنا أفكاره (أشعيا ٥٥ : ٨). كل هذه الأمور المتصلة بيسوع الناصري، وابن إسمعيل (محمد) الذي جاء بعده إنما هي لتمهيد الطريق أمام الملك المسيح، وتهيئة العالم كله لعبادة الله بالإجماع، على ما هو مكتوب، لأنني سأعيد الشعوب كلها يومئذ إلى لغة نقية فيدعون اسم الرب جميعاً ليعبدوه بالإجماع» (زيفانيا ٣ : ٩)[(١)].

ويمكن أن يجيب اليهود والمسيحيون بالإيجاب أيضاً عن السؤال «هل محمد من الأنبياء؟» ذلك أنه في غاية الأهمية أن يقرأ اليهود والمسيحيون والمسلمون التوراة، والإنجيل، والقرآن معاً في محاولة لفهم هذه الكتب بقدر الإمكان من حيث صلة كل واحد منها بالآخَرين. هذا هو، أكثر من أي وقت آخر، «جدول الأعمال اليوم»، نظراً لكون هذه النصوص المقدسة الثلاثة كثيراً ما قُرئت، وما تزال تُقرأ، وتُفهم، وتُفسّر أحدها ضد الآخَرين. إن هذه الكتب الثلاثة تستدعي الأجوبة أحدها من الآخر، بحيث يستجوب كل منها الآخر، إذا جاز القول. كما ينبغي أن توضع باستمرار في حوار، وتدعى إلى نقاش أحدها مع الآخر.

الرسالة المشتركة بين الكتب الثلاثة موجهة لكافة الذين يريدون أن يسمعوها، كافة الذين يعرفون أنهم «مدعوون»: الذين دعاهم الله عبر الأنبياء. تاريخياً، هذا يعني الجماعات الدينية *المنفصلة* الثلاث: الجماعة اليهودية أو قاهال، التي تعني حرفياً «المدعوون». والجماعة المسيحية تسمى إكليزيا (كنيسة) وهي في الترجمة اليونانية السبعينية للعهد الجديد

---

(١) مقتبس في Harold Kasimov and Byron L. Sherwin (eds.), *No Religion is an Island: Abraham Joshua Heschel and Interreligious Dialogue*, (New York: Orbis Books, 1991), pp. 20-21.

المقابل اليوناني لكلمة قاهال العبرية. والجماعة المسلمة تسمى الأمة. وتشير الأمة في القرآن إلى جماعة تشارك في عبادة جماعية لله. وكان إبراهيم أمة (سورة النحل: ١٢٠)، بذاته، مثال المؤمنين الحقيقيين (راجع سورة آل عمران: ٦٧؛ سورة البقرة: ١٢٨؛ ١٣٤، ١٤١)[١]. لقد أُرسل إلى كل أمة رسول (سورة يونس: ٤٧). وثمة ذكر لأمة البشر كأمة واحدة وربّها الله (سورة المؤمنون: ٥٢)، كما أن أمة الرسل تعتبر أمة واحدة (سورة الأنبياء: ٩٢). وقد تقسّمت (سورة الأنبياء: ٩٣) هذه الأمة الواحدة على مرّ الأزمان (سورة النحل: ١٢٠؛ راجع سورة البقرة: ٢١٣). كان الناس أمة واحدة لكنهم اختلفوا في الآراء (سورة يونس: ١٩). «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (سورة آل عمران: ١٠٤)[٢].
[p.6]

هل تحتوي هذه الكتب على رسالة للمدن المعاصرة؟

وكما أن كتاب ديكنز «قصة مدينتين» يمكن أن يستعمل مفتاحاً لفهم الثورة الفرنسية وعواقبها، فسوف أحاول في هذا الكتاب أن أجيب عن السؤال: ماذا يستطيع الكتاب المقدس والقرآن باعتبارهما «قصة مدينتين» أن يقولا لنا عن مدننا المعاصرة؟ ألا يزال لهذه القصص النبوية معنى اليوم؟ أم أن ليس أمام مدننا الحديثة ما تتعلمه من الكتاب المقدس والقرآن؟ هذا ما يفكر به الكثيرون على الأقل: أليست «الكتب المقدسة»

(١) Rudi Paret, Der Koran. Kommentar und Konkordanz (Stuttgart/Berlin/ Cologne/Mainz: W. Kohlhammer 1971) حول سورة النحل: ١٢٠.

(2) *E. I.* s.v. *Umma*

-لا القرآن فحسب - سبباً للعنف والإرهاب أكثر مما هما حل للعنف والإرهاب؟

ينطوي عنوان الكتاب «التوراه، الإنجيل، والقرآن: ثلاثة كتب، مدينتان، وقصة واحدة» على رسالة. وسوف أحاول في متن هذا الكتاب أن أبيّن إلى أي مدى تشكل الكتب الثلاثة قصة واحدة، وما هو السلك الذي يخترقها عبر الرسالة النبوية النقدية، التي ليست في المقام الأخير رسالة اجتماعية - نقدية، ويربط الكتب الثلاثة. إن مرادي من هذا العمل هو أن أظهر مدى أهمية هذه القصة الواحدة بالنسبة إلى اليهود، والمسيحيين، والمسلمين جميعاً، وبذلك لكافة شعوب العالم اليوم.

المخطط العام

في ما يلي بنية هذا الكتاب. فهو يبدأ من «قصة مدينتين» في التاريخ، وكيف تكلم المؤرخون، والكتّاب، والشعراء على التناقضات والصراعات بين «المملكتين» (١). ثم ننظر بعد ذلك كيف ينبغي فهم دعوة محمد كنبي من حيث علاقتها بدعوات أنبياء التوراة الآخرين. ومن شأن هذا أن يبرهن ويبلور بمزيد من الدقة الصلة بين الكتب الثلاثة (٢). من البيّن أن البشر قد واجهوا الخيارات منذ بدء الخليقة: أن يكونوا ممثلين لله على الأرض، خلائف، أو ظَلَمَة (٣). إن إبراهيم، وموسى، ويسوع، ومحمد يدعون الناس إلى الهجرة، والانقطاع عن مدينة الظلم والتوجه إلى أرض الميعاد، إلى «المدينة الجديدة»، لأن فيها يتم إحقاق الحق والبرّ (٤). ولكن ماذا ينشأ عن هذا المثال الأعلى إذا ما أتم الناس الذين يقودهم النبي الرحلة عبر الصحراء، وعاشوا في أرض الميعاد ومدينة الميعاد؟ هل يتحقق الحق والبر حقاً (٥)؟ ما هي سمة الملكية الصالحة أو الظالمة وفقاً لرواية الملك العظيم سليمان، وبخاصة رواية

بلقيس ملكة سبأ في القدس (٦)؟ كيف تتعامل الكتب الثلاثة مع مسائل العنف، والجزاء، والحرب المقدسة، والجهاد (٧)؟ لِمَ أُهلكت مدن الظلم والشر كسدوم وعمورة؟ هل يتصل هلاكها باللواط أم أن ثمة شيئاً آخر كان يحدث فيها. إبراهيم يصلّي للمدينة (٨). في القصص المتعلقة «بالأيام الأخيرة» تبرز الجدية المطلقة للقضية كلها: ما الذي يتهدد المدينة في النهاية؟ نناقش هنا شخصيات تحولت إلى أساطير ورموز من أمثال يأجوج ومأجوج، و«ذي القرنين» الإسكندر الكبير (٩). كيف فسر المسيحيون والمسلمون على مدى التاريخ قصصهم عن المدينتين (١٠)؟ وأخيراً كيف يجب أن تفهم قصة المدينتين هذه وفقاً للكتب الثلاثة معاً؟ ولمن سيكتب النصر في النهاية (١١)؟ [p.7]

الفصل الأول

«قصة مدينتين» في التاريخ

نيرون

ذلك الشعب الذي آتاه نصراً | هو بالسبّة من «نيرون» أحرى
أي شيء كان «نيرون» الذي | عبدوه؟ كان فظّ الطبع غرّاً
بارز الصدعين رهلاً بادناً | ليس بالاتلع يمشي مسبطرّاً
خائب الهمة خوّار الحشا | أن يواقف لحظه باللحظ فرّا
قزمة هم نصبوه عالياً | وجثوا بين يديه فاشمخرا
ضخموه واطالوا فيئه | فترامى يملأ الافاق فُجرا
منحوه من قواهم ما به | صار طاغوتاً عليهم واضرّا

خليل مطران، لبنان[1]

مدخل

لم يزل التاريخ يُفسّر، على مرّ القرون، بهذه الطريقة أو تلك، باعتباره قصة مدينتين متعاديتين، مملكتين، قوتين عظميين، أو كتلتين من القوى العظمى: الشرق في مواجهة الغرب. من ذلك إلياذة

---

(١) قصيدة من.نيرون من ديوان «الخليل»، خليل مطران.

هوميروس عن مدينة إسبرطة الإغريقية في مواجهة مدينة طروادة الآسيوية: الإغريق في مواجهة البرابرة. ويقال إن غزو الفرس لبلاد الإغريق في العقد الثاني من القرن الخامس قبل المسيح قد أفضى إلى ابتكار فكرة «البرابرة». وقد خدمت فكرة البرابرة المنمّطة مصلحة الثقافة السائدة. وفي الحقبة الهيلينية (٣٢٣-١٤٦ق.م) التي بدأت بوفاة الإسكندر الأكبر وانتهت بضم بلاد الإغريق إلى الإمبراطورية الرومانية، عملت الأفكار المنمطة السلبية عن الأعداء على توطيد الصراع ضد الفرس. وبعد عدة قرون، وخلال العصور الوسطى، شكّلت صور سلبية مماثلة الموقف المسيحي من اليهود وسوّغت الظلم الاجتماعي حيالهم. كما عملت النعوت التي أُطلقت على المسلمين طيلة فترة الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١) وما بعدها على إذكاء النزعة العدوانية عند مسيحيي [الغرب] [1]. كان كل جانب متيقناً ممن هو على حق ومن هو على باطل. كان الكتّاب، والشعراء والمؤرخون يكتبون قصصهم عن ذلك. وكما أن التساؤل «لِمَ يكرهوننا؟» قد نشأ بعد الحادي عشر من أيلول، فقد طرح السؤال نفسه منذ آلاف السنين: لِمَ تجد شعوب الغرب والشرق تلك الصعوبة في العيش بسلام في ما بينها.

ومن أشهر الأعمال الأدبية في هذا الباب إلياذة هوميروس. وقد خاطبت قصص هوميروس المخيلة على مرّ القرون وما تزال. وفي العام ١٩٩٠ أنشأت وزارة الثقافة الكولومبية مكتبات جوّالة قصد منها إيصال الكتب إلى أهالي المناطق النائية. وكانت الكتب المستعارة تعاد إلى المكتبة حسب الأصول إلى أن جاء يوم استعيرت فيه إلياذة هوميروس

(1) Debra Higgs Strickland, *Saracens, Demons, Jews: Making Monsters in Medieval Art* (Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2003), p.40

في ترجمتها الإسبانية ولم تعد. وعندما طلب من القرويين إعادة الكتب رفضوا. وفي النهاية سمح لهم بالاحتفاظ بتلك النسخ ولكنهم سئلوا لِمَ أرادوا الاحتفاظ بهذا الكتاب تحديداً. جاءت إجابتهم كما يلي: هذه القصة هي قصتنا؛ إنها قصة بلد مزقته حرب يخالط فيها الآلهة المجانين الرجال والنساء الذين لا يعرفون أبداً ما سبب القتال ولا متى يرضون، ولا لِمَ يموتون[١]. [p.10]

يستعرض هذا الفصل عدداً من قصص المدينتين بدءاً ببابل والقدس. وسوف ننظر إلى الصراعات التي نشبت في التاريخ يوم تعادت مدينتان، مملكتان: إسبرطة وطرواده، الإغريق والطرواديون، على ما وصفهم هوميروس. ولئن كانت أسباب هذا الصراع الموصوف على نحو لا يضاهى قد ضاعت في ضباب الأساطير، فإن آثار هذه الأسباب لم تضع[٢].

والأساس التاريخي أوضح في ما يتصل بالصراع بين أثينا وبرسيبولس، أي بين الإغريق والفرس: داريوس الأول الكبير ومعركة ماراثون سنة ٤٩٠ق.م. ومعركة سلاميس في عهد أحشويرش سنة ٤٨٠ق.م.. وفي القرن الرابع ق.م. تجابه الفرس والإغريق ثانية أيام الإسكندر الكبير. أخيراً، تجابهت روما - طروادة الجديدة - التي تغنى بها الشاعر الروماني فرجيل مع قرطاجة، المدينة الفينيقية، ثم مع الاسكندرية في معركة أكتيوم في العام ٣١ق.م.. وسوف نربط هذه القصص بقصص التوراة والقرآن حيثما يكون ذلك ممكناً وقابلاً للتطبيق.

(1) Alberto Manguel, *De Ilias en de Odyssee van Homerus: Een biografie* (Amesterdam and Roeselare: Mets & Schilt, and Roularta, 2008), p.13

(2) Tom Holland, Persian Fire (London: Abacus, 2006), p.XV

بابل

تدين معظم المدن العظمى في العصور القديمة في وجودها وتطورها، بالكثير لكونها على ضفة نهر (ممفيس، طيبة، بابل) أو بحر (أوغاريت، صور، الاسكندرية) أو طريق عظمى (دمشق، تدمر، صالحية الفرات، ومكة). وتعد بابل من أقدم المدن في بلاد شنعار، وهو اسم بلاد بابل القديم (تك ١٠ : ١٠؛ ١١ : ٢؛ راجع تك ١٤ : ١، ٩؛ أش ١١ : ١١؛ زك ٥ : ١١؛ دانيال ١ : ٢)[١].

يتكلّم التناخ على وعي شديد لحضور بابل دولياً والأثر الذي خلّفته في مصير القدس. فعقب سلسلة من الحملات العسكرية، قوّض الملك البابلي المحدث نبوخذنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ق.م.) القدس وحمل معه أعداداً كبيرة من اليهود/ سكان اليهودية إلى المنفى في بابل. وقد بدأت هذه الحملات في نهاية القرن السابع ق.م. وبلغت ذروتها سنة ٥٨٦ق.م. بتقويض القدس وهيكلها كلياً. وهذا ما وضع حداً لمملكة يهوذا ولما سمّي بفترة الهيكل الأول. [p.11]

وتتيح لنا كتابات العهد القديم استبصاراً عن مجتمع اليهودية، وتبرز النزاعات بين الأنبياء والملوك، بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء المزيفين، بحيث أن الأنبياء الحقيقيين يعارضون سياسات الملوك بدلاً من مباركتها[٢]. وتبدأ واحدة من أهم القصص مع إبراهيم الذي غادر موطنه أور الكلداني، ليبدأ «أمة» جديدة في بلاد كنعان. غير أن هذا الشعب نفي من تلك الأرض على مراحل: أولاً على أيدي الآشوريين من شمال

(1) Gwendolyn Leick, The Babylonian World (New York and London: Routledge, 2009), p.542

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤١-٥٤٢.

بلاد الرافدين/ ما بين النهرين، ثم على يد نبوخذنصر الثاني، ملك الكلدانيين، من بابل[1].

ثمة في التاريخ الذي تجري فيه قصص التوراة والقرآن عالم تتعارض فيه باستمرار مدينتان، مملكتان. ويشتمل هذا التاريخ على آشور وبابل، ومراكز الفرس (برسيبوليس، طيسفون/ المدائن)، ومصر (ممفيس، الاسكندرية)، والإغريق (أثينا، إسبرطا) والرومان (روما). وكان على محمد، خلال حياته، أن يواجه القسطنطينية، مدينة البيزنطيين، وطيسفون/ المدائن مدينة الفرس.

بنيت بابل على ضفتي الفرات اليمنى واليسرى، وكانت بين سنتي ١٧٧٠ و١٦٧٠ق.م. أكبر مدينة في العالم، كما كانت كذلك بين ٦١٢ (سقوط نينوى) و٣٢٠ق.م.. في العام ٦١٢ق.م. بدأت الإمبراطورية البابلية المحدثة. ثم سقطت المدينة في أيدي الفرس في العام ٥٣٩ق.م. ثم في يد الإسكندر الكبير الذي دفن فيها في أول الأمر سنة ٣٢٠ق.م.. بقيت المدينة، منذ العام ٢٠٠٠ق.م.، تقوم بدور بالغ الأهمية وتتمتع بدلالة رمزية عظيمة. كان البابليون يعتبرون مدينتهم سرّة الكون التي يرتكز إليها العالم. وكان مردوخأبرز الآلهة في مجمع الآلهة البابلية. وكانت بابل المركز الأيديولوجي الديني لقوة إمبريالية عالمية تمتد من آسيا الصغرى، وأطراف مصر، وسوريا، وفلسطين وإيران الغربية. كانت عاصمة ذات بيئة متعددة الثقافات[2]، يعيش فيها الألوف معاً بلغاتهم وثقافاتهم المختلفة. حتى من بعد فقدان استقلالها وخضوعها للملك

(١) المرجع السابق، ص ٥٥٩.

(2) Joachim Marzahn et al. *Babylon-Mythos: Babylon Wahrheit*, Vols I-II (Munich: Hirmer, SMB Staatlische Museen zu Berlin), 2008, p.487

الفارسي قورش الكبير [٥٥٩-٥٢٩ق.م]، ظلّت بابل[١] أهم بوتقة صهر اجتماعية في الشرق الأدنى. كان المهاجرون، والعبيد، والمنفيون، والمرتزقة يملأون شوارعها، كانت أولى المدن متعددة الثقافات [p.12] حقاً في التاريخ! من أيام الملك حمورابي الشهير (حوالي ١٧٩٥-١٧٥٠ق.م.) صاحب الشرائع الذي عاش في بابل، كانت مدينة بابل المركز الثقافي والديني لبلاد الرافدين/ ما بين النهرين وظلّت كذلك حتى النهاية[٢].

يجري نهر الفرات عبر المدينة ويقسمها إلى نصفين. وفي وسط كل نصف يرتفع صرح عملاق: القصر الملكي في هذا النصف، وفي ذاك هيكل مردوخ البابلي الذي تنتصب في وسطه زقورة/ برج الهيكل[٣] إجلالاً لإله المدينة. نمرود هو مؤسس بابل السيء السمعة، والمقارن أيضاً بالملك الآشوري الأسطوري نينوس.

سميراميس، ملكة آشورية أسطورية يفترض أنها كانت زوجة الملك نينوس. وقد حكمت كملكة على كامل آسيا ووصفت بأنها هي التي منحت مدينة بابل اللامعة جنائنهاالمعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع. غير أنها توصف أيضاً بأنها امرأة شبِقة، مغوية،فاسقة، نزّاعة إلى القتل[٤].

يوصف نمرود بأنه صانع «برج بابل». وكانت المدينة القديمة تضم

(1) Holland, Persian Fire, p. 40
(2) Anton Gills, Gateway of the Gods: The Rise and Fàll of Babylon (London: Quercus, 2008), p. 8
(3) Marzahn, *Babylon-Mythos: Babylon Wahrheit*, p. 491; Moritz Wullen and Gunther Schauerte, eds,
(4) Wullen, *Babylon Mythos*, p. 75

زقورة لإله المدينة مردوخ، وهي عبارة عن هيكل هرمي بمدرجات عريضة. وفي نسخة فيينا للوحة برج بابل للرسام الهولندي بيتر بروغل الأكبر (١٥٢٠-١٥٦٩) يظهر نمرود على يسار أسفل اللوحة[١]. واستناداً إلى الطبري، المؤرخ الإسلامي في القرن التاسع للميلاد، فإن نمرود هو الذي شيّد البرج الذي قوّضه الله، ثم بلبل لسان الناس الأصلي إلى اثنين وسبعين لساناً.

ويذهب كتاب عربي قديم إلى أن نمرود هو الذي بنى مدينتي سلوقية وطيسفون/ المدائن. وكانت الأخيرة، المعروفة بمدائن كسرى، مدينة في بلاد الرافدين قريبة من بغداد؛ ولا تزال آثارها على بعد ٢٦ كلم إلى الجنوب من بغداد. وقد اتخذها الفرتيون لاحقاً عاصمة لهم، ثم صارت لاحقاً عاصمة لإمبراطورية الفرس الساسانيين الثانية. وقد احتل الرومان المدينة عدة مرات (تراجان سنة ١١٦م، وسبتيموس سويروس سنة ١٩٧م) وفتحها البيزنطيون بضعمراتثم أعادوها بعد مفاوضات الصلح. وكان فيها حي يهودي آهل بعد تقويض الهيكل بالقدس سنة ٧٠ م. وفي العام ٦٣٧ فتحها العرب. وآذن تأسيس العاصمة الجديدة، بغداد، في العام ٧٥١ بنهاية المدائن. [p.13]

تنتشر القصص عن بابل في عدة أسفار من الكتاب المقدس. أما في القرآن، فإن مدينة بابل، التي كانت معروفة جيداً قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية، فلا تذكر إلا مرة واحدة (سورة البقرة: ١٠٢)[٢]. ونمرود هو الملك الذي حاجج إبراهيم في ربّه (سورة البقرة: ٢٥٨).

---

(1) Wullen, *Babylon Mythos*, p. 169

(2) Arthur Jeffery, *The Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Baroda: Oriental Institute, 1938), pp.74-75. *E.Q. s.v.* Bâbil

وتقع آثار المدينة على مسافة ٨٧ كلم إلى الجنوب من بغداد وهي تعتبر الأقدم في العراق[1].

الحقيقة والوهم عن بابل

تتداعى مع اسم بابل صور إيجابية وأخرى سلبية. الصور الإيجابية الفردوسية هي الجنائنالمعلّقة وأسوار المدينة التي لا تضاهى، والسلبية هي برج بابل، رمز التعالي والكبرياء. المدينة وبرجها هما الدليل على هذا التعالي في نظر اليهود. وقد ذهب البعض إلى اشتقاق اسمها من كلمة عبرية تعني «البلبلة» وإن كان الاسم يتحدر بالفعل من اسم بابلي يعني «باب الإله»[2]. وفي التقاليد المسيحية يقترن اسم بابل بأم الزواني (رؤيا يوحنا الإصحاح السابع عشر) وبالمسيح الدجال.

لم تزل أسطورة بابل أقوى، حتى يومنا هذا، من حقيقة بابل. وعلى الرغم من أن أسطورة بابل تتناول سيناريو الاستعباد، والظلم، والأشغال القسرية، فإن حقيقة بابل أغنى بالتلاوين من هذا التبسيط. من ذلك أنه لم تحدث اعتقالات جماعية أيام النفي إلى بابل. بل كان نفياً جبرياً لجماعة من النخبة من موطنها إلى المدينة التي يقيم فيها الفاتح، وهي ممارسة كانت دارجة في ذلك العصر. وتظهر الاكتشافات التاريخية والأثرية أن بابل كانت أقرب إلى مدينة متعددة الثقافات وبوتقة صهر ليبرالية. وكانت أقليات كثيرة تعامل في بابل معاملة حسنة سمحت باستمرار التقاليد اليهودية وتطور الهوية الدينية! ولكن التقاليد المسيحية

---

(1) *E.I. s.v.* Bâbil

(2) Remco Groetlaers and Jan van Laarhoven. *De waannzin ten top: Driezuidend jaar toren van Babel* (Nijmegen: SUN, 1998), pp. 3, 32

جعلت من سبي اليهود صورة بارزة للاضطهاد، والاستعباد، والظلم، والعنف[١].

وقد سبق أن أشار البعض إلى أن هذه القصص عن بابل أشبه بـ«الفيديو كليب». فقد اكتسبت بابل عبر الكتاب المقدس، ومنذ أقدم أيام المسيحية، [p.14] موقعاً مركزياً في الوعي والخيال الأوروبيين والعالميين[٢]. وقد استمرت هذه الصورة منذ ألفي سنة وظلّت كما هي: بابل هي مسرح الرؤيا الأخروية، ومقر الحكام الرهيبين كنبوخذنصر هادم القدس (٥٨٧ق.م.). ولكل «كليب» تاريخ لتأثيره على امتداد الألفي سنة الماضية، وهو يعكس باستمرار الزمن الذي نشأ فيه[٣].

المنفى البابلي

في العام ٧٢٢ق.م.، فتح الآشوريون مدينة السامرة. واعتمد البابليون استراتيجية الآشوريين في نفي نخبة الولايات المتمردة. كان نبوخذنصر الثاني ملك بابل (٦٠٥-٥٦٢ق.م.) وفي عهده بلغت الإمبراطورية البابلية المحدثة ذروتها. وقد عرف هذا الملك بمشاريعه العمرانية. فتح القدس سنة ٥٩٧ق.م. ثم احتلها ثانية في ٥٨٧ق.م.، وفي المرة الثانية حمل معه قسماً كبيراً من السكان إلى المنفى. وهكذا سُبيت نخبة القدس ومن جملتهم الملك يهوياكيم إلى بابل (أنظر العهد القديم، سفر الملوك الثاني ٢٤: ١٥): قادة الجيش كلهم والجنود، عشرة آلاف رجل، وكل الحرفيين والحدادين. ولم يترك إلا أقل الناس شأناً وخطراً (الملوك الثاني ٢٤: ١٤). وهكذا برزت بابل كمدينة للعبودية والنفي، كمدينة

(1) Wullen, *Babylon Mythos*, pp. 17, 27
(2) Gills, *Gateway of the Gods*, p.9
(3) Wullen, Babylon Mythos, p.169

للخطيئة وزانية بابل (رؤيا يوحنا ١٧ : ٣، ٥). انقلب كاتب سفر الرؤيا، الذي يرقى إلى العام ٩٠ للميلاد، أيام اضطهادات الإمبراطور دوميتيانوس (حكم من سنة ٨١ إلى ٩٦م)، ضد روما الوثنية مشبّهاً إياها «بزانية بابل العظيمة». باتت بابل تعتبر نموذجاً للقوة العالمية المناهضة لله، وهذه تورية عن القوة العالمية الرومانية التي انقلبت على كنيسة المسيح (رؤيا ١٤ :٨؛ ١٦ :١٩؛ ١٧ :٥؛ ١٨ :٢، ١٠، ٢١)[1].

بغداد وبابل

يوم أسس الخليفة المنصور بغداد على الضفة الغربية من دجلة سنة ٧٦٢م، أسماها مدينة السلام مشيراً إلى الفردوس: «لهم دار السلام عند ربهم» (سورة الأنعام: ١٢٧). وكثيراً ما يُخلط بين مدينة بغداد ومدينة بابل بسبب الرحالة الأوروبيين. ويصح الأمر نفسه أيضاً على [p.15] الأدبيات التفسيرية التلمودية للتلمود البابلي في العصر العباسي وذاك الذي وضعه كتّاب يهود متأخرون. وتستقي «عدن» من الفرات ودجلة، اللذين يزودان الهلال الخصيب بالماء. وفي التلمود رواية تربط جنة عدن ببابل. ويعتقد أن نخل مدينة بابل يرقى إلى أيام آدم وحواء[2].

ويروى أن بغداد لا مثيل لها في العالم، وأنها أوجدت بفعل عصا سحرية. وهكذا أصبحت مدينة المنصور وريثة لقوة ومكانة طيسفون/ مدائن كسرى، بابل، نينوى، أور، وسواها من مدن الشرق القديم، وبلغت مكانة وبهاء ربما لم تضارعها فيه خلال العصور الوسطى إلا القسطنطينية[3].

---

(1) *B. E. s.v.* Babel

(2) *E.I. s.v.* Baghdad

(3) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (New York: Macmillan & Co. 1964), pp.302, 293

أورشليم/القدس

تسمى القدس في العهد القديم جيرو شالوم. والاسم الأخير يوحي «مدينتان توأمان» ويعني «بيت السلام»، «مؤسس بأمان». «أرسى الله أساسته الثابتة في جبل صهيون» (المزمور ٨٧). تسمى أورشليم مدينة القدس وبيت العلي (أشعيا ٤٨ : ٢؛ نحميا ١١ : ١؛ دانيال ٩ : ٢٤). ولم يكن اسم صهيون في الأصل أكثر من إشارة إلى قلعة اليبوسيين أو مدينة داود (الملوك الأول ٨ : ١) ثم توسع ليدل على جبل الهيكل وأخيراً على كامل مدينة القدس وأهاليها. وسالم هو المختصر (تكوين ١٤ :١٨؛ مزمور ٧٦ : ٣). ويسمى الكاهن الملك ملكيصادق، من أيام إبراهيم (تكوين ١٤ : ١٨)، ملك سالم أيضاً، أي ملك البِرّ والسلام» (عبرانيين ٥ : ٦).

يذكر القرآن عدة حوادث هامة وقعت في القدس: إدانة داود بعدما زنا ببثشبع زوجة أوريا الحثي (صموئيل الثاني الإصحاح الثاني عشر)، التي تعتبر امتحاناً (سورة ص ٢١-٢٥)، وتبشير زكريا الذي بلغه الكبر بولادة غلام هو يحيى، يوحنا (سورة آل عمران: ٣٩؛ سورة مريم: ٧) وإقامة مريم الشابة في الهيكل بكفالة زكريا (سورة آل عمران: ٣٧)[١]. وبالعربية تسمى أورشليم القدس، أو المقدّس، المقدَّس، أو بيت المقدِس[٢]، بسبب [p.16] الدلالة الدينية للمدينة. وللأخيرة ثلاث دلالات. فهي أولاً، تعني الهيكل اليهودي، جبل الهيكل الذي تقوم عليه قبة الأقصى، الحرم الشريف، أو المسجد الأقصى (سورة الإسراء: ١)؛

---

(١) مأخوذ من إنجيل يعقوب. راجع A.F.J. Klijn, Apokriefen van het Nieuwe Testament (Kampen: Kok, 1984)

(٢) مستمد من العبرية بيت ها مقداش، أي الهيكل.

أي محجة إسراء محمد ليلاً من مكة إلى القدس ومعراجه السماوي. وهو الموضع الذي كان يقوم فيه الهيكل اليهودي الذي قوّضه الرومان سنة سبعين للميلاد، والقِبلة الأولى قبل مكة. وهي تعني ثانياً، مدينة القدس. وهي تشير ثالثاً إلى الأرض المقدسة. ومن الممكن للآية القرآنية القائلة «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها؟» (سورة البقرة: ١١٤) أن تعتبر إشارة إلى تدمير الهيكل على يد نبوخذ نصر سنة ٤٨٦ق.م. أو تقويضه على يد الإمبراطور الروماني تيتس سنة سبعين للميلاد. ويربط ما بين النبي إرميا الذي يبكي على خراب الهيكل وبين «الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها» (سورة البقرة: ٢٥٩؛ راجع Lam 1:17)[1].

ويلاحظ العالم الفارسي البيروني (٩٧٣-١٠٤٨م) عند مناقشته فتح القدس على يد الإمبراطور الروماني المتأخر تيتوس سنة ٧٠ م أن سكان القدس كانوا يطلقون على كل من هدم المدينة اسم نبوخذنصر. وفي منمنمة فريدة من القرن الرابع عشر للميلاد، يوصف نبوخذنصر بأنه هو الذي خرّب القدس. وتبدو في المنمنمة بوضوح قبة الصخرة التي لم تبن إلا في القرن السابع للميلاد. ويرتبط هذا التداعي بفكرة كون القبة كانت جزءاً من الهيكل الذي يزعم أن سليمان شيّده[2].

هوميروس: إسبرطة وطروادة

تدور قصص هوميروس في الإلياذة والأوديسة حول إغراء الحرب

(١) *E.Q. s.v.* Jerusalem. وتعطى معان أخرى أيضاً.

(2) L. L. Finkeland, M.J. Seymour, *Babylon: Myth and Reality* (London: The British Museum Press, 2008), p. 149

والسعي إلى السلم. ما كان سبب حرب طرواده؟ باريس، ابن ملك طرواده، خطف هيلانة زوجة مينيلاوس ملك إسبرطة. يروي المغني أو الشاعر الأعمى هوميروس خراب مدينة طرواده جراء الحرب التي شنّت على هذه المدينة لهذا السبب. وهو يبدأ بالغناء عن [p.17] غضب أخيل، أعظم أبطال الإغريق في هذه الحرب. ذلك أنه تعرّض، خلال حصار طرواده، للإهانة من قبل أغاممنون ملك ميسينا، وشقيق مينيلاوس، وقائد الحملة على طرواده. فقد خاصم أغاممنون أخيل وزاحمه على امتلاك بريزيس، المرأة التي سباها الأخير أثناء اجتياح مدينتها. وانتهى الأمر بأن استولى عليها أغاممنون وانتزعها منه بالقوة. وهذا هو السبب في حقد أخيل عليه. يقول أغاممنون:

سالِمْ بخيمتك، يا أخيل، وأذهب بسبيّتك الحسناء بريزيس، لأبيّن لك أنني أقوَى منك وأعلّم الآخرين ألا يجادلوا الملك علناً ويتحدوه[1].

وإذ همّ أخيل بأن ينقض بسيفه على أغاممنون، ظهرت له الإلهة أثينا فجأة، بحيث لا يراها أحد غيره:

فخاطبها بجرأة قائلاً: لِمَ أتيتِ إلى هنا يا ابنة زيوس حامل ترس آيجيس؟[2] *هل أتيت لتشهدي غطرسة مولاي أغاممنون؟* (Iliad, I, 201-202).

تطلب منه أثينا أن يرد سيفه إلى غمده وتتنبأ:

---

(١) هوميروس، الإلياذة، ترجمها عن اليونانية R.V. Rieu (Harmondsworth: Penguin Books, 1950), I, 11, 184-87.

(٢) أيجيس هو اسم ترس زيوس

«سيأتي اليوم الذي ستطرح فيه أمام قدميك هدايا أثمن ثلاث مرات مما قد فقدت الآن تعويضاً عن هذه الإهانة. أمسك نفسك إذاً واعمل بنصيحتنا. (*Iliad*, I, 212-214)[١]».

ينسحب أخيل من المعركة حانقاً ولا يعود إلى حمل السلاح ثانية إلا بعد مصرع صديقه الحميم باتروكلوس، فيتقدم ليثأر من قاتله هكطور ابن بريام ملك طرواده.

تبدأ الإلياذة كما يلي:

غضب أخيل هو موضوعي، ذلك الغضب الفاتك الذي أنزل بالآخيين[٢] ذلك القدر من الألم وأرسل، بمشيئة زيوس، الأرواح الشهمة لكثير من النبلاء إلى دار هايديس[٣]، تاركاً جثثهم جيفاً تنهشها الكلاب والطيور العابرة. لنبدأ يا إلاهة الغناء بالتباعد الكبير الذي نشأ بين أغاممنون، ملك الرجال، وأخيل العظيم ابن [p.18] بيليوس. فأي الآلهة جعلهما يتشاجران؟ (Iliad, I, 1-7)

يكتب هوميروس، في ملحمته الثانية، الأوديسة عن مغامرات أوديسيوس. وهو يتكلم على أعقاب تدمير طرواده الذي يصبح قصة منفى. المدن تخرب ويتوه الناجون في أقطار الأرض كالقراصنة والمتسولين. تضع ثيتيس، أم أخيل، ابنها أمام خيارين: شيخوخة هانئة خاملة الذكر، أو وفاة مجيدة مبكرة. لا يتردد أخيل في الميل إلى الخيار الثاني. فهو سيموت شاباً شهيراً[٤].

---

(١) زيوس وأثينا

(٢) الإغريق.

(٣) العالم السفلي.

(4) Holland, *Persian Fire*, p.268

يجعل هوميروس قرّاءه وجمهوره يتعاطفون مع الطرواديين والإغريق، وربما جعلهم أميَلَ إلى بريام، ملك طرواده، وابنه هكتور، منهم إلى أخيل وأغاممنون[1]. الإلياذة صرح منذور للحرب. ومن الأمثلة على لحظات التعلّم المدهشة يمكننا الإشارة إلى القوة التي توصف بها دواعي الغالبين. إنها حقاً قصة كتبها الغالبون، ولكن ربما تذكر القارئ أو الجمهور أولاً الجانب الإنساني في الطرواديين، من أمثال بريام وهكتور، وأندروماخ زوجة هكتور. ثمة حب عنيد للسلام[2].

الجانب الأنثوي في الإلياذة كان موضع اهتمام. «فالعلاقات بين الرجال والنساء في المجتمع البشري ثيمة كبرى في الإلياذة، بالرغم من الإطار العسكري؛ أما في الأوديسة فالعلاقات بين الجنسين هي في القلب من القصة». قبل المعركة التي يقتل فيها، يذهب هكتور إلى داخل مدينة طروادة ويقابل ثلاث نساء. وتعرب النساء الثلاث عن الرجاء نفسه، كل واحدة بتلاوينها العاطفية الخاصة: السلام. أمه تطلب منه أن يصلّي معها، هيلانة تطلب منه أن يستلقي إلى جانبها ليرتاح، وأخيراً زوجته أندروماخ، تطلب منه أن يغلّب دوره كأب وزوج على دوره كمحارب بطل. يتقابل عالمان ممكنان، ولكل منهما دواعيه الخاصة: عالم هكتور المتصلب الأقصر نظراً، وعالم أندروماخ الحديث الأقرب إلى الإنسانية. والأبطال في فقرات لا تحصى من الإلياذة يتحادثون بدلاً

(1) John Burrow, *A History of Histories: Epics, Chronicles, Romances & Inquiries from Herodotus & Thucydides to the Twentieth Century* (London, etc: Penguin Books, 2009). P.11

(2) Andrew Dalby, *Rediscovering Homer: Inside the Origins of the Epic* (New York and London: W. W. Norton & Company, 2006), p.128. Cf. pp. 86-88

من أن *يتقاتلوا*. هناك اجتماعات لا نهاية لها، ونقاشات لا نهاية لها، وهي طريقة لتأجيل المعركة إلى أطول وقت ممكن. ومن شأن هذا أن يذكر المرء بشهرزاد ألف ليلة وليلة [p.19] التي تنجو من الموت بقصّ قصة جديدة ليلة بعد ليلة. الكلمة هي السلاح الذي تخدع به الموت. «كلّهم محكوم عليهم بالموت، ولكنهم يجعلون السيجارة الأخيرة تدوم فترة أبدية، وهم يدخنونها مع الكلمات» (Book IV)[١].

تحتوي الأوديسة على حوار قصير بين أوديسيوس وطيف أخيل المتوفى. وبعد أن خاطب أوديسيوس طيف أخيل بأعظم عبارات المدح، أجابه الطيف:

أفضّل أن أكون قناً في منزل رجل لا أرض له، ولا قوت يقيته إلا الكفاف، على أن أكون ملكاً على هؤلاء الأموات الذين لا حياة لهم[٢].

ويذهب تعليق على هذا الاقتباس إلى أنه ما كان لأخيل أن يقول هذا أبداً في حياته. ولو أنه فعل، إذاً لكان هذا يعني السلام لطروادة! أولم تقع هذه الكارثة الكبرى على الإغريق والطرواديين في جزء منها جراء غضب أخيل الموصوف في السطور الافتتاحية للإلياذة؟ وقد ذهب البعض إلى أن هوميروس، بعد أن كتب الإلياذة وبات أكبر سناً، قد راح في انفجار أخيل هذا في الأوديسة يتساءل عن صحة الدافع الأصلي إلى الإلياذة. فالأخيرة تتسم «بقسوة الشباب وخلوهم من الرحمة». ولعل هوميروس اعتبر نظرته في الإلياذة ناقصة. ومن الجائز أن هذا الرجل الواسع الترحال قد عاد في عشايا العمر إلى عالم إلياذته، وبات تساوره

(1) Alessandro Baricco, *De Ilias van Homerus* (Breda: De Geus, 2004), pp.182-84

(2) Homer, *Odyssey*, XI, 11, 488-91

الشكوك في المشروع برمّته[1]. ولكن الواقع أن في وسع المرء أن يقول عن هذا التحفظ إن النظرة التبسيطية بالأبيض والأسود غير موجودة في الإلياذة أصلاً، وأن فيها نظرة نقدية إلى استعمال العنف والحرب.

قصة مدينتين عند هيرودوتس

كثيراً ما يعتبر الرحالة الإغريقي، في القرن الخامسق.م.، هيرودوتس (حوالي ٤٨٥-٤٢٥ق.م.)، أول مؤرخ في العالم و«أبو التأريخ» على قول شيشرون الروماني. وقد اعتبر هذا المؤرخ الصراع بين الشرق والغرب الثيمة الأساسية في حياته. وقد نظر إلى هذا السؤال عن سبب هذا الصراع باعتباره السؤال الذي ولد منه التاريخ والتأرخة. ويصف هيرودوتس في عمله الشامل الموسوم بالتواريخ *The Histories* تاريخ الصدامات العنيفة بين الشرق [p.20] والغرب، بين الإغريق و«البرابرة»، تلك الصدامات التي بلغت ذروتها في الحروب الفارسية.

وهو يضع ما يفهمه من «كون المرء إغريقياً» في أفواه خطباء أثينا الذين ناشدوا حلفاءهم الإسبرطيين في لحظة حاسمة من الصراع بين «الإغريق» و«البرابرة»، أي الفرس غير الإغريق، خلال شتاء ٤٨٠/ ٤٧٩ق.م.:

ما من ذهب مهما كثر ولا أرض مهما حسنت نقبلهما ثمناً للانضمام إلى العدو المشترك وإخضاع بلاد الإغريق للعبودية. ثمة الكثير من الأسباب الموجبة لعدم انضمامنا، حتى وإن رغبنا في ذلك: إن أولها

(1) G. Steiner, "Homer and the Scholars," in *Language and Silence* (London: Boston, 1985), pp. 200, 211, 213. Cf. Dalby, *Rediscovering Homer*, Chapter 5, pp. 11-114.

وأعظمها حرق الهياكل وصور آلهتنا - التي أمست الآن رماداً وركاماً. إن من وأجبنا الملزم أن نثأر لهذا التدنيس بكل ما أوتينا من قوة - لا لنربتعلى اليد التي ارتكبته. وثمة أيضاً الأمة الإغريقية - اشتراكنا في الدم واللغة، والمعابد والشعائر؛ وطريقتنا المشتركة في العيش؛ إن خانت أثينا ذلك كله، فبئس ما تفعل. لذلك نودّ أن نعلمكم، إن لم تكونوا قد علمتم بعد، أننا لن نعقد صلحاً مع أحشويرش ما دام في أثينا رجل حيّ واحد[1].

ترقى أصول هيرودوتس إلى مستعمرة هاليكارناسوس على الساحل الشرقي لبحر إيجه. ولذلك فهو كان ينتمي إلى ذلك القسم من العالم الإغريقي الذي نقل إلى آسيا واستوطن فيها، وهي منطقة كانت مصدر صراع بين الإغريق والفرس. وقد لعب هذا الأمر دوراً هاماً في رواية هيرودوتس للتاريخ. فقد كان من حيث مولده من رعايا الملك الفارسي قورش الكبير (٥٥٩-٥٢٩ق.م.) الذي كسر إمبراطورية الميديين الكبيرة يوم فتح عاصمتهم إكتابانا Ectabana (٥٥٣ق.م.) وأخضع المدن الأيونية الإغريقية سنة ٥٤٦ق.م. وبابل سنة ٥٣٩ق.م. لأن كهنة الإله مردوخ فتحوا له أبواب المدينة. وبهذا نشأت الإمبراطورية الفارسية القديمة التي سمحت لليهود المنفيين بالعودة منبابلإلى ديارهم سنة ٥٣٨ق.م..

عرض هيرودوتس أمثلة على الاحتكاكات الأسطورية والوهمية بين أوروبا وآسيا. بالنسبة إلى الأخيرة، [p.21] يخطر ببال المرء هنا حملة

(1) Paul Cartledge, *Ancient Greece: A History in Eleven Cities* (Oxford and New York: Oxford University Press, 2009), pp.4-5; Herodotus, The *Histories*, translated by Aubrey de Sélincourt, revised, with an Introduction by A.R. Burn (Harmondsworth: Penguin Books, 1972), vol. VIII, p. 144.

الأرغونوت(*) بقيادة جايسون. وفي وسعه أيضاً أن يسمع هنا صدى رحلات التجارة إلى الشرق الغني. ولا يترك هيرودوتس أي شك حول كون قلب مقاومة الفرس يأتي من مدينة أثينا.

بالرغم من أن هيرودوتس لا يتكلم أبداً بازدراء عن الفرس، إلا أن الفوارق السياسية والأخلاقية بينهم وبين الإغريق تشكل قسماً هاماً من رسالته. فهو يصف أثينا بأنها رائدة الحرية الإغريقية الكبرى في مواجهة الاستبداد الشرقي. وقد قيّض لهذا التباين أن يصبح الثيمة الدائمة في الفكر السياسي والتأريخ الغربيين: توضع *الحرية* في مقابل *العبودية*، *والقانون* في وجه *نزوة* الطغاة.

وقد رأي هيرودوتس منطلق هذا الصراع في الأفعال غير الشرعية التي ارتكبها الملك كروزوس، ملك ليديا (حكم من سنة ٥٦٠ إلى ٥٤٦ق.م.) الذي كان أسطورياً بسبب ثروته. كان أغنى رجل على الأرض، وكانت ليديا بلداً قوياً بين بلاد الإغريق وبلاد فارس. وقد احتل كروزوس المدن «الإغريقية الآسيوية» على ساحل آسيا الصغرى، كمدينة أفسس، وكان أول آسيوي نعرفه ويقومبذلك، وفرض الجزية على تلك المدن[1].

كان الإمبراطور داريوس الأول الكبير (٥٤١-٤٨٦ق.م.) أعظم حاكم فارسي في العصر القديم. وقد شق الطرق الاستراتيجية الكبرى (٢٦٨٤ كلم)، «الطرق الملكية»، وربط بذلك ولايات إمبراطوريته من مدينة شوشن في (خوزستان) بفارس إلى مدينة سرديس بآسيا الصغرى. كافح

(*) مجموعة من المغامرين الإغريق الأبطال الذين ذهبوا إلى بلاد كولخيس (جورجيا الحالية) على البحر الأسود بحثاً عن الجزة الذهبية-المترجم.

(1) Holland, Persian Fire, p.XV

داريوس من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٤٩٤ق.م. تمرداً للإغريق الأيونيين، وطالب باستسلام المدن-الدول الإغريقية على ساحل آسيا الصغرى. فنزل الكثير عند طلب داريوس غير أن أثينا وإسبرطة امتنعتا. وبذلك باتت الساحة مهيأة لأول اجتياح لأوروبا تقوم به آسيا ضد الإغريق الأوروبيين، وبالمحل الأول الأثينيين والإسبرطيين[١]. عاد اليهود من المنفى في بابل في عهده، واستمرت عملية إعادة بناء الهيكل. وكان داريوس قد سمح، في السنة الثانية من حكمه بإعادة بناء، الهيكل (عزرا ٤ : ٢٤)، عليأن تدفع كامل تكاليفه من الخزانة الملكية (عزرا ٦ : ٦-١٥) [p.22] وقد ظهر النبيان حجي وزكريا في تلك السنة نفسها (سفر حجي ١ : ١؛ ٢ : ١٠؛ زكريا ١ : ٧)، كما ظهر زكريا في السنة الرابعة من حكمه أيضاً (زكريا ٧ : ١).

كانت شوشن من أبرز المدن في الإمبراطورية الفارسية. وكانت مسرح سفر إستير خلال حكم الملك أحشويرش أو أحاسفيروش (حوالي ٤٨٦ -٤٤٦). طلب نحميا، ساقي الملك أرتحششتا الأول (٤٦٥-٤٢٤ق.م.) في شوشن القصر في آذار ٤٤٦ق.م. من الملك أن يأذن له بصفته والياً على اليهودية أن يعيد بناء أسوار القدس (نحميا ٢ : ٣). وقد سمح لليهود في عهده بأن يعودوا من بلاد بابل وبأن يتابعوا إعادة بناء الهيكل بالقدس. وقد توسل نحميا والنبي حجي إلى الملك بأن يسمح بإعادة بناء الهيكل الذي خرّبه نبوخذنصر سنة ٥٨٦ق.م.. (عزرا ٥ : ١-٥؛ ٦ : ١٤). أذن لهم الملك بذلك ولكن عملية البناء انطلقت ببطء.

(1) Burrow, *A History of Histories*, pp. 12-13, 17-18. G.J.M. Bartelink, *Klassieke letterkunde: Overzicht van de Griekse en Latijnse literature* (Utrecht: Het Spectrum, 1989), s.v. "Agonauten"; Kaven Farrokh, *Shadows in the Desert: Ancient Persia at War* (New York: Midland House, 2009), p.72

وشوشن هي المكان الذي رأى فيه النبي دانيال رؤيا تتعلق بإمبراطوريتي الميديين والفرس، وصعود الاسكندر الكبير وخلفائه (دانيال ٨).

معركة ماراثون (٤٩٠ق.م.)

حوالي الثاني عشر من أيلول سنة ٤٩٠ق.م.، دارت معركة ماراثون التي باتت شهيرة الآن على الساحل الشرقي لأتيكا بين الفرس والأثينيين الذين كانوا تحت قيادة رجل الدولة والقائد العسكري الكاريزمي ملتيادس (حوالي ٥٥٠-٤٨٩ق.م.). وقد عيّن قائداً سنة ٤٩٠ق.م. بسبب مشاعره المعادية للفرس وألفته بالتكتيكات العسكرية الفارسية. وبهذا الدور حققذلك الانتصار الشهير على الجيش الفارسي الغازي في معركة ماراثون في الحرب الإغريقية الفارسية الأولى التي حاول فيها الفرس ضم المدن-الدول الإغريقية إلى إمبراطوريتهم. كان الجيش الفارسي بقيادة داتيس، قائد قوات البر والبحر. كان داتيس أميرالاً ميدياً يخدم الإمبراطورية الفارسية في ظل حكم داريوس الأول في الحملة الأولى على الإغريق. جرّ أسطوله الهائل إلى ماراثون وحمل معه قطع الرخام متوقعاً إقامة نصب احتفاء بانتصاره. وعلى الرغم من أن الفرس كانوا أكثر عدداً من حوالي عشرة آلاف من المشاة الإغريق المدججين بالسلاح، فقد تمكن الإغريق. من هزم الفرس. [p.23]

والماراثون كما نعرفه في الرياضة المعاصرة مستمد من هذه الحادثة: يقال إن ساعياً راح يعدو حوالي ٤٠ كلم من ساحة المعركة إلى أثينا حاملاً نبأ الانتصار، مع أن ذلك كلّفه حياته. ومن الجائز أيضاً أن هذه رواية منمقة لتسابق قوات ميليتيادس الأساسية لحماية مدينة أثينا من الفرس. وزبدة القول إن الانتصار في ماراثون تحقق بفضل مشاة أثينا

المدججين بالسلاح، تحت قيادة ميليتيادس، العقل المدبر[1]. كانت معركة ماراثون الأولى في سلسلة من الصدامات العسكرية والسياسية التي أفضت في نهاية المطاف إلى انهيار الإمبراطورية الفارسية. توفي داريوس سنة ٤٨٦ق.م.، بعد أربع سنوات من ماراثون، وانتقلت عباءة الملك إلى ابنه أحشويرش الأول. وشيّد الأثينيون البارثينون تمجيداً لذكرى انتصارهم في ماراثون. فقد أراد القائد العسكري ورجل الدولة بريكليس (٤٩٠-٤٢٩ق.م.)، من جملة مخططاته للأكروبوليس، أن يخلّد ذكرى معركة ماراثون. وكان الأثينيون يعتبرونها أعظم نصر في التاريخ. أما الفرس فكانت لهم، طبعاً، نظرة أخرى في هذا الشأن[2].

الهجوم الفارسي على المدن الإغريقية

كان الملك الفارسي أحشويرش الأول (حوالي ٤٨٦- ٤٤٦ق.م.) قد عُيّن خلفاً لوالده داريوس الأول الكبير، بينما كان الأخير لا يزال حياً. ويظهر أحشويرش هذا في التوراة تحت اسم أحاسفيروش الذي تزوج امرأة يهودية هي إستير. وترتبط قصة وزيره هامان بهاتين الشخصيتين. وفي القرآن دعا هامان وزير الفرعون المصري (سورة القصص: ٦؛ ٨) الذي أمره ببناء صرح رفيع، تنويهاً ببرج بابل، المعبّر عن الاستكبار والتعالي (سورة القصص: ٢٨؛ سورة غافر: ٣٦، ٣٧). وقد اعتبر أحشويرش أقلباعاً من والده. فقد واجهته الثورات في مصر وبابل. انتهت حملة مصر سنة ٤٨٤ق.م.، وقمعت الثورات في بابل بلا رحمة. وقد كان من شأن تزايد استعداء الشعوب المخضعة عبر التدابير القمعية أن

---

(1) Cartledge, *Ancient Greece*, p.98.

(2) Holland, *Persian Fire*, pp.368-69, 202; Farrokh, *Shadows in the Desert*, pp.74, 77-79, 46; Holland, *Persian Fire*, p.73.

زرع البذور التي أفضت إلى انحطاط الإمبراطورية الفارسية بعد ١٥٠ سنة.

اختار أحشويرش أن يحارب الإغريق ثانية بعد عشر سنوات على هزيمة ماراثون. وكان من رأيه أن غزو بلاد الإغريق جزء من المهمة التي باشرها والده ولم يكملها. فقد عصى الإغريق سلطة الملك، في نظر الفرس، وكان لا بد من جعلهم [p.24] يجثون أمامه. اجتاح أحشويرش بلاد الإغريق بجيش هائل. وأتاح جسر عائم عملاق مركَب من ٦٧٠ سفينة عبور جيشه المؤلف من ١٢٠٠٠٠ عسكري فوق الهلّسبونت(*) من آسيا إلى أوروبا. وفي ١٧ أيلول ٤٨٠ق.م. اقترب أحشويرش من مضيق ترموبيلي. وكان ليونيداس الأول ملك إسبرطه في ذلك الوقت، من ٤٨٨ إلى ٤٨٠ق.م.. حارب ثلاثمئة إسبرطي يؤازرهم ٣٠٠ من المشاة المدججين بالسلاح، تحت قيادته حتى الرجل الأخير في ذلك المضيق قوى الجيش الغازي الهائلة. هُزم ليونيداس وقتل مع كافة رجاله. كان النصر، في نظر الفرس، حقاً موروثاً، وكان شيء كإكليل الغلبة يرفرف فوق هاماتهم. وعلى الرغم من المقاومة البطولية التي أبداها الإغريق، فقد احتلت مدينة أثينا وقوّضت معابدها. واحتلت عساكر الفرس المرتفعات المقابلة للأكروبوليس أي المدينة العليا المسماة أحياناً (بوليس) أي المدينة[١]. نهبت أثينا في ٢٧ أيلول وأحرقت. خرّب الفرس هيكل أثينا القديم وهيكلها الجديد الذي كانوا قد بدأوا بناءه حديثاً، وهو المسمى بروتوبارثينون[٢].

(*) مضيق الدردنيل - المترجم

(1) Cartledge, *AncientGreece*, p. 92.

(2) Farrokh, *Shadows in the Desert*, pp. 74, 77-79, 46; Holland, *Persian Fire*, p.XV.

معركة سلاميس (٤٨٠ق.م.)

بعد عشر سنوات من معركة ماراثون نشبت معركة أخرى تحولت إلى مادة للأساطير. قاد أحشويرش الأول القوات البحرية في المعركة البحرية، في الحرب الفارسية الثانية بين المدن الدول الإغريقية وفارس، في المضيق الواقع بين بيرايوس وسلاميس. وقد صاحب القوات البرية الفارسية أسطول من ١٢٠٧ سفن. ويروي هيرودوتس أن أحشويرش ارتكب خطيئة الغرور يوم عاقب مضيق الهلّسبونت (الدردنيل) بعد أن هبّت عاصفة ودمرت جسر السفن الذي أقامه. وأثار خبر الكارثة ثورة غضبه، ويكتب هيرودوتس: «أصدر أوامره بأن يجلد المضيق ثلاثمئة جلدة وأن يرمى فيه زوج من الأغلال. وقد سمعت قبل الآن أنه أرسل أناساً لكيّه بالحديد المحمّى»[1]. وثمة حادثة تظهر أحشويرش بمظهر إنساني محبّب. فبينما هو جالس على عرش من الرخام يشاهد منه جيشه كله والأسطول، انفجر باكياً في لحظة مجده الأعظم.

أراد أحشويرش أن يستعرض جيشه [في أبيدوس من مدن الهلّسبونت]. أعدّ له أهل أبيدوس عرشاً من الرخام الأبيض على مرتفع من الأر ض. جلس الملك على هذا العرش وتمكن من أن يشاهد بنظرة واحدة إلى الأسفل جيشه كله وأسطوله. وبينما كان ينظر إليهم استحوذت عليه الرغبة في أن يشاهد مباراة في التجذيف. فأقيمت المباراة وفاز فيها فينيقيون من صيدون، وهذا ما سُرّ به الملك سروراً عظيماً يضاهي سروره بجيشه. وعندما رأى سفنه تحجب الهلّسبونت كله ورجاله يملأون شواطئ أبيدوس وبطاحها، هنأ نفسه - وفي اللحظة

(1) Herodotus, *The Histories*, VII, p. 35. Burrow, *A History of Histories*, p. 16

التالية انفجر باكياً. كان عمه أرتبانوس، الرجل الذي كان صريحاً في محاولة ثنيه عن القيام بهذه الحملة، إلى جانبه، فلما رأى أحشويرش يبكي قال له: «يا مولاي، يقيناً، ثمة تناقض غريب في ما تفعله الآن وفي ما فعلته منذ هنيهة. أنت دعوت نفسك رجلاً مسعوداً - وها أنت الآن تبكي». فأجابه أحشويرش: «كنت أفكر، وقد لاح لي مدى قصر حياة الإنسان - فمن ألوف الرجال هؤلاء لن يبقى واحد حياً بعد مئة سنة من الآن»[١].

«إنها لحظة فريدة ذابت فيها، بفضل أحشويرش أو بفضل هيرودوتس، الفوارق السياسية بين الناس، وامّحت، حتى بالنسبة إلينا، الهوة بين القدماء والمحدثين، أمام مشهد المصير الإنساني المشترك»[٢].

كان الأميرال ورجل الدولة الأثيني ثيميستوكلس (حوالي ٥٢٤-٤٦٠ق.م.) الذي توقع أن يعود الفرس للثأر بعد هزيمتهم في ماراثون، يذهب إلى أنه لن يحمي أثينا من هزيمة تامة إلا بناء أسطول معزّز. والعامل الحاسم في تقرير هيرودوتس هو تأويل تنبؤات كهنة دلفي الذين أعلنوا بطريقة غامضة كالمعتاد، أن السور الخشبي وحده لن يقع». وقد اعتقد أن هذه النبؤة تشير إلى سفن أثينا[٣].

ما إن وصل أحشويرش حتى أدرك ثيميستوكلس أنه سيختار القتال في عرض البحر نظراً لتفوقه العددي. فتوصل ثيميستوكلس إلى إقناع بقية الإغريق بالإبحار نحو مضيق سلاميس وإغراء أحشويرش بأن يلحق بهم [p.26]. وقع الفرس في الفخ القاتل. أما الأثينيون الذين كانوا قد

(1) Herodotus, *The Histories*, VII, pp. 44-46
(2) Burrow, *A History of Histories*, p. 17
(3) Herodotus, *The Histories*, VII, pp. 141-44

انسحبوا إلى «قلاعهم الخشبية»، فقد انتظروا السفن الفارسية في خليج جزيرة سلاميس. كان النصر بالنسبة إلى أحشويرش وأسطوله الهائل، يبدو مسألة وقت. كان «ملك الملوك» الواثق من نفسه *والمتعالي* قد اتخذ موقعاً يستطيع منه أن يشاهد بعينه المعركة البحرية بين الأسطولين. كان يوماً صيفياً جميلاً. كانت الشمس المشرقة وراء ظهره، ونسمة رائقة تهب من حوله. وكانت قد علّقت شبه مظلّة مذهبة فوق عرشه. جلس هناك في درعه المذهب، وعلى رأسه إكليل جديد رفيع. كانت لحيته السوداء قد عطّرت، وكان يتلفت بلطف ورضا إلى ما حوله. فإله الفرس سوف يساعده ويساعد من معه. ثم بدأت المعركة، وبالرغم من أن قوات الملك الفارسي كانت أكثر عدداً إلا أنه أساء تقدير الوضع. لقد فقد تفوقه العددي لما ترك أسطوله الضخم ينجرّ إلى داخل خليج ضيق جداً، وهذا ما أدى إلى هزيمته في النهاية. اتهم عدداً من قادته الفينيقيين بالجبن فأمر في ثورة غضبه بإعدامهم. ثم كان على هذا الملك المتعالي المغترّ بنفسه أن يهرب بأسرع ما يمكن للنجاة بحياته، ولكنه نجا على نحو مخز. كانت معركة سلاميس منعطفاً هاماً في الحرب وتوقف الزحف الفارسي. وقد توسع هيرودوتس في وصف هذه المعركة ووضعها في قلب تاريخ العالم الذي أراد فيه اكتشاف أسباب الحروب الفارسية الإغريقية[١].

آشيلوس وسلاميس

ألّف الكاتب آشيلوس (حوالي ٥٢٥-٤٢٦ق.م.) الذي كان شاهد عيان لمعركة سلاميس، مسرحية عن الحادثة. وتصف مسرحية «الفُرسّ»

---

(1) Farrokh, *Shadows in the Desert*, pp. 80-81

(٤٧٢ق.م.)، وهي المسرحية الوحيدة ذات الموضوع التاريخي التي بقيت لنا، المعركة وأثرها في الفرس في مدينة شوشن العاصمة. يصف آشيلوس الذعر الذي خلفته الهزيمة في المدينة وعودة أحشويرش المهزوم. كان الناس في شوشن ينتظرون أنباء الجيش في بلاد الإغريق بشيء من القلق. كان الملك قد غادر بلاد فارس بأبهةٍ وموكب عظيم ولكنه عاد في الأسمال. وفيما كانت حاشيته تظن أنها سوف تستقبله استقبال الأبطال الظافرين [p.27] بات بكاء التعاسة يسمع من كل صوب. عاشت أتوسّا، الملكة الأم، وهي ملكة أخيمينية، ابنة قورش الكبير (٥٥٠-٤٧٥ق.م.) زوجة داريوس الأول ووالدة ابنه البكر أحشويرش، مراحل غزو بلاد الإغريق. وكان أحشويرش يدين لمكانتها بتولّيه خلافة والده. وقد رأت في منامها حلماً رهيباً حمل فيه أحد السعاة نبأ الكارثة. وظهر طيف داريوس، والد أحشويرش، من العالم السفلي ليعلن أن غرور الفرس كان سبب هزيمتهم النكراء. وفي نهاية المسرحية، يظهر أحشويرش بمظهر رجل مهزوم[1]. كان آشيلوس يريد أن يطمئن مواطنيه، ويرى أن أثينا، المدينة التي هزمت أحشويرش، قد أضحت منارة حرية للأمم أينما كان: وقد أصبح العالم آمن لأثينا والديمقراطية[2].

الإغريق والفرس في أيام الإسكندر الكبير

بُعيد فتحه بلاد الإغريق، كُلّف فيليب الثاني، ملك مقدونيا (حكم من ٣٥٩-٣٣٦ق.م.) والد الإمبراطور اسكندر الثالث (٣٥٦-

(1) Bartelink, *Klassieke Letterkunde*, p.51
(2) Holland, *Persian Fire*, p.360

٣٢٣ق.م.)، المعروف بالإسكندر الكبير، بمهمة الثأر من بلاد فارس. ولم يكن تدنيس معابد أثينا خلال اجتياح أحشويرش، في تلك الحرب التي اعتبرت «حرباً مقدسة» أيضاً، من أقل دواعي الحرب التي كلّف بها. فقد تفكر الإغريق في الانتقام من عدوهم الأكبر مدة طويلة. أنيطت بالإسكندر مهمة «الحرب المقدسة» على بلاد فارس التي كانت آنذاك تحت حكم داريوس الثالث (٣٣٥-٣٣٠ق.م.).

كان من أعاظم مؤدبي الإسكندر الفيلسوف الشهير أرسطو. ويوم خلف الإسكندر في سن العشرين والده بعد اغتياله (هل كان الإسكندر متورطاً في ذلك) صار أحد أكابر الفاتحين الذين عرفهم العالم. كانت تحرك الإسكندر منذ صباه *طموحات* كبرى. وكان كتابه المفضل في كافة حملاته *إلياذة* هوميروس. وفي العام ٣٣٦ق.م.، عبر الإسكندر الهلسبونت (الدردنيل) بجيش من ٥٠٠٠٠ مقاتل، وغزا آسيا للاشتباك مع ملك الفرس. وكان أول ما فعله الاسكندر عندما أبرَّ على البر الآسيوي أن غرز رمحاً في الأرض قرب طرواده رمزاً لمطالبه في هذه المنطقة. وزار في طرواده قبر أخيل، البطل الإغريقي الكبير [p.28] في حرب طرواده، ومثله الأعظم. حمل معه درع أخيل في حملاته اللاحقة، وكان من شأن هذه الدرع أن تنقذ حياته مرة. وفي أوائل حزيران ٣٣٤ق.م. هزم الإسكندر قوات الملك داريوس المحتلة عند نهر غرانيكوس. وكانت تلك المعركة الأولى. وفي العام ٣٣٣ق.م. كسر الملك الفارسي ثانية عند إيسوس، وإن كان داريوس نفسه قد تمكن من الفرار. بعد هذه المعركة استسلمت مدينة صيدون، صيدا الحالية بلبنان، طوعاً للإسكندر، ولكن الاستيلاء سنة ٣٣٢ق.م. على مدينة صور الواقعة في البحر كان أصعب منالاً. كانت صور، ومعنى اسمها «الصخرة» مركزاً تجارياً في جزيرة داخل البحر.

ازدهرت صور في عهد حيرام الأول (٩٦٩-٩٣٦ق.م.) صديق الملك داود، وسليمان الذي أرسل إليه حيرام الأرز والنجارين، والبنّائين لبناء قصر داود (٢ صموئيل ٥ : ١١) وهيكل سليمان بالقدس (١ ملوك ٥ : ١٥-٣٢). كان ملك صور يعتبر نفسه مساوياً للآلهة ولذلك تنبأ له نبيّ بالخراب: «يا ابن آدم قل لرئيس صور. هكذا قال السيد الرب: من أجل أنه قد ارتفع قلبك وقلت أنا إله. في مجلس الآلهة أجلس في قلب البحار وأنت إنسان لا إله وإن جعلت قلبك كقلب الآلهة». (حزقيال ٢٨ : ٢). تنبأ الأنبياء بخراب المدينة العظيمة (أشعيا ٢٣؛ حزقيال ٢٦، ٢٨؛ عاموس ١ : ٩، ١٠). ولكن الاستيلاء على صور كلّف الإسكندر حصاراً دام سبعة أشهر شيّد خلالها سدّاً طوله ٦٠٠ متر يمتد من الشاطئ إلى صخر الجزيرة الذي بنيت عليه صور: وتلك كانت نهاية سيادة صور.

وفي السنة نفسها فتح الإسكندر مصر، حيث توّج «ابن الإله» في معبد زيوس-أمّون، بواحة سيوه. وفيها أسس مدينة الإسكندرية. ويكمن أعظم ميراث عمراني خلفه الإسكندر في المدن التي أنشأها هو وخلفاؤه: فقد شيدوا أنطاكية وسلوقية بالإضافة إلى الاسكندرية. كانت كل مدينة تنشأ من الأساس تصمم وفق خطة تقضي باحتوائها على أغورا (ساحة سوق)وهيكل، ومبان حكومية. كانت الإسكندرية أعظم هذه المدن. وقد صممت كصلة وصل للتجارة والشحن بين أفريقيا، والشرق الأدنى ومنطقة البحر المتوسط[1]. وباتتالإسكندرية في القرن الأول للميلاد تضم حوالي مليون نسمة وكانت ثاني المدن الكبرى في العالم

(1) Joel Kotkin, *The City: A Global History* (New York: Modern Library, 2005), p. 24-25.

وأضخم مركز تجاري، تصدّر [p.29] ورق البردي، والكتان، والحبوب إلى روما بخاصة (أعمال الرسل ٢٧ : ٦ ؛ ٢٨ : ١١). وكانت منارتها على جزيرة فاروس واحدة من عجائب الدنيا السبع.

في غاوغاملا، من سهل الموصل، ببلاد الرافدينتمكن الإسكندر مرة ثانية من إجبار داريوس على الفرار. كانت المدينة حاضرة كبيرة ذات نظام زراعي جيد يمكنها من تحمل حصارات طويلة. أما بابل فلم تبد أية مقاومة: فتح الفرس أبوابها أمامه. تم الإستيلاء على شيء عظيم من الثروات المنهوبة وتقسيمها على عساكره. وفي العام ٣٣٠ق.م. أتت النيران على مدينة برسيبوليس بعد الاستيلاء عليها. كان داريوس الأول الكبير قد بدأ تشييد مدينة بارسا سنة ٥٢٠ق.م.، والمعروفة أكثر باسم برسيبوليس «مدينة الفرس» عند الإغريق، وأكملها خلفه أحشويرش (٤٨٦-٤٦٥ق.م.) الذي كان قد أشرف على بنائها أيام كان ولياً للعهد. كانت برسيبوليس، مقرّاً للأخيمينيين بالإضافة إلى إكتبانا وشوشن. وكان الاسم الفارسي لبرسيبوليس يعني «عرش جمشيد». ومن أهم المناسبات التي كانت تجري فيها عيد النوروز، رأس السنة الفارسية، الذي نسب أصله إلى الملك الأسطوري جمشيد. والنوروز، وهو حرفياً «العام الجديد»، يعني التناغم، والاحترام، والتنوع، والوحدة، والتجدد، وتبادل الهدايا. وما زال الناس يحتفون بهذا العيد في إيران إلى اليوم كعيد لرأس السنة، في بداية الربيع، وهو لا يقتصر على فئة دينية مخصوصة. وجد الإسكندر كنوزاً ملكية هائلة في شوشن وبرسيبوليس. وتأمل في الأخيرة في دُوَل الدهر عندما شاهد تمثالاً عملاقاً للإمبراطور أحشويرش الكبير كان جنوده قد قلبوه على الأرض وقطعوا رأسه. فتح الإسكندر بلاد فارس وبلغ الهند في نهاية المطاف. ثم توفي في بابل سنة ٣٢٣ في طريق عودته وخلال حملة على القبائل العربية.

ومع ذلك، كان الإسكندر يريد اتحاداً بين الفرس والإغريق تحت سلطته الإمبراطورية. لذلك شجع الزيجات المختلطة بين الضباط المقدونيين وبنات الأشراف بشوشن. غير أن المصادر الزرادشتية تنظر إلى الإسكندر باعتباره المخرب الكبير لأنه قتل «الناس الحكماء» بفارس. فقد فقدت الكثير من الأعمال العلمية والنصوص الزرادشتية إبان غزوات الإسكندر. وفي الفترة الإسلامية، حوالي العام ١٠٠٠ للميلاد، كتب الفردوسي (٩٣٥-١٠٢٠م)، الكاتب والشاعر، *ملحمة الشاهنامه*، ملحمة الفرس القومية. وتروي هذه القصيدة [p.30] ماضي إيران الأسطوري والتاريخي من بدء الخليقة حتى الفتح الإسلامي في القرن السابع للميلاد. هنا يوصف داريوس والإسكندر بأنهما أخوان غير شقيقين. ربما كان الإسكندر قد طلب الثأر لحرق أحشويرش هياكل بلاد الإغريق كما أن المصادر الزرادشتية ربما كانت تبالغ في ما أقدم عليه الإسكندر من تخريب، ولكن الواقع هو أن الفرس قد عانوا كثيراً على يديه[١].

ينوّه سفر دانيال الرؤيوي بإمبراطورية الإسكندر إذ يصفها بمملكة الحديد (دانيال ٧). وفي القرآن يوصف الإسكندر «بذي القرنين» (سورة الكهف: ٨٣-٩٨)[٢].

في العام ٨٧١ للميلاد عرض المؤرخ إبن عبد الحكم لمساجد الإسكندرية، فأتى على ذكر مسجد ذي القرنين قرب مرفأ الإسكندرية. وفي القرن اللاحق، في العامين ٩٤٣ و٩٤٤، تحدث أحد المفسّرين عن وجود بنية متواضعة تدعى «قبر النبي والملك إسكندر»[٣].

---

(1) Farrokh, *Shadows in the Desert*, pp. 105-10.

(٢) أنظر الفصل الحادي عشر.

(3) Andrew Michael Chugg, Alexandre le Grand: Le Tombeau Perdu (London: Periplus Publishing, 2004, 2005), p. 168.

خلفاء الإسكندر أو ديادوخن

اندلع النزاع المسلح من إيران إلى البلقان. حوصرت المدن ونهبت، واجتاحت العساكر الجائعة الأرياف. لم يكد الإسكندر يتولى السلطة حتى تقطّعت إمبراطوريته إرباً وانقسمت إلى أربع أقطار الأرض. لم تنتقل إمبراطوريته إلى نسله ولم يكن لخلفائه القوة التي كانت له، بل تمزق ملكه وأعطي لآخرين. وحكم الإسكندر وخلفاؤه يشكل الإطار التاريخي الذي حدثت فيه الحوادث التي دوّنها دانيال النبي. مضى أنطيوخوس الرابع أبيفانس (حكم من ١٧٥ إلى ١٦٤ق.م.) في عملية اعتماد الثقافة والعادات الإغريقية. وهو واحد من الحكام المحيرين جداً في التاريخ. فقد وصل قاب قوسين أو أدنى من فتح مصر، وكان يتجوّل متنكراً، كالخلفاء في قصص ألف ليلة وليلة في شوارع أنطاكية ليطلع على آراء رعاياه. وهو معروف أولاً لمحاولته تأليه نفسه ومطالبة الناس بعبادته. ويشار إلى أنطاكيه باعتبارها تجسيداً للشر في الكتب اليهودية كالمكابيين، ودانيال الذي كتب قبيل وفاته. [p.31] وهو النموذج لشخصية المسيح الدجال في سفر رؤيا يوحنا، آخر أسفار الإنجيل.

كانت انتفاضة المكابيين (١٤٣-١٣٥ق.م.) موجهة ضد عملية اعتماد الثقافة والعادات الإغريقية. ولعل الاسم مستمد من الكلمة الآرامية التي تعني «مطرقة». تم تدوين سفر المكابيين الأول في القرن الثانيق.م. من وجهة نظر ولاية متمردة. وقد أنشئ عيد حانوكاه أو عيد الأنوار الذي يدوم ثمانية أيام، من ١٠ إلى ١٨ كانون الأول تخليداً لذكرى انتصار يوداس مكابي العجائبي على الملك السلوقي أنطيوخس الرابع أبيفانس سنة ١٦٠ق.م..

بعد موت الإسكندر المبكر والمفاجئ، شعر قادة جيوشه أنهم

مجبرون على حكم أجزاء من الإمبراطورية التي انهارت فور وفاته: بطليموس على مصر، وسلوقس على بلاد الرافدين (بابل)، وأنتيغونس على آسيا الصغرى (تركيا اليوم). أنشأ بطليموس وسلوقس إمبراطوريتين سيطرتا على الشرق الأوسط ردحاً من الزمن. حكم البطالسة مصر مدة ثلاثة قرون من الإسكندرية. وكانت كليوباترا السابعة آخر عضو حاكم من هذه السلالة (٦٩-٣٠ق.م.). ونقل سلوقس عاصمته من بابل إلى سلوقية أولاً، وهي مدينة جديدة على الفرات، ثم إلى أنطاكية. وتنازع ورثة الإسكندر في ما بينهم على القدس وسواها من مدن المنطقة. وهكذا، كان أنطيوخوس الرابع أبيفانس واحداً من عدة ورثة لجزء من إمبراطورية الإسكندر. وقد عاش أنطيوخوس فترة في أثينا ناذراً نفسه لكل ما هو إغريقي حتى خلف شقيقه المقتول في العام ١٧٥ق.م. كانت تحدوه طموحات لحكم العالم. وفي أثناء انسحابه من مصر التي حاول فيها فتح الإسكندرية، دخل القدس، تلك المدينة التي كانت في حال اضطراب شديد جراء الحرب الأهلية المستعرة فيها بين اليهود المحافظين واليهود الميالين إلى الأخذ بالثقافة الإغريقية. فدعم الهيلينيين، أي الفريق الثاني، الذين سمحوا له بنهب الهيكل وسرقة كنوزه لتمويل حربه.

عيّن أنطيوخس الرابع جايسن (وهو اسم يوناني، بدلاً من يشوع أو يسوع) كاهناً أعظم سنة ١٧٤ق.م. (٢ مكابيون ٤ :٧). كان جايسن يريد أن يجعل القدس مدينة إغريقية. ولما كان رجلاً يهودياً هيلّينياً، فقد حاول بمساعدة من أكثرية السكان، تطبيق إجراءات بعيدة الأثر لتغيير وضع القدس من مدينة هيكل [p.32] إلى مدينة إغريقية الطراز (٢ مكابيون ٤ :٧-٢٠). فبدأ تغيير مواطنيه وفقاً للنموذج الإغريقي. ومن

قبيل تكريم الملك سمى القدس أنطاكيا. غير أنه أزيح سنة ١٧١ق.م. وفرّ عبر الأردن، (٢ مكابيون ٤ : ٢٤-٢٦). وبعد محاولة فاشلة لاستعادة منصبه، رحل إلى إسبرطه حيث توفي. «كان جايسن شقياً ملحداً لا كاهناً أعظم، ولم يكن لكفره حدود؛ والواقع أن عملية اعتماد الثقافة الهيلينية بلغت ذروة لم يعد معها الكهنة يهتمون بخدمة المذبح» (٢ مكابيون ٤ : ١٣-١٤). حاول أنطيوخس فرض الثقافة والديانة الإغريقية على اليهود. وقد بلغ الدرك الأسفل سنة ١٦٨ق.م. يوم نصب صنماً للإله الإغريقي زيوس على مذبح الأضاحي في هيكل اليهود بالقدس (١ مكابيون ١ : ٥٤). فقد حاول أن يضع حداً نهائياً لعبادة الله إله اليهود، وكان يأمل في استيعاب اليهود عبر إدخال عبادة زيوسالأولمبإلى الهيكل. كان هدف سياسته «أن يصبح الجميع شعباً واحداً بعد اطراح كل أمة تقاليدها الخاصة» (١ مكابيون ١ : ٤١). وقد وُصف تخصيص هذا المذبح لوثن من الأوثان بأنه «رجسة الخراب» (سفر دانيال ٨ : ١٣ ؛ ٩ : ٢٧ ؛ وراجع أيضاً دانيال ١١ : ٣١ ؛ ١٢ : ١١ ؛ ١ مكابيون ١ : ٥٤ ؛ راجع إنجيل متى ٢٤ : ١٥). أدى هذا الشيء وغيره إلى التمرد واندلعت حرب عصابات بقيادة يوداس، الملقّب مكابي (١٦٦-١١٠ق.م.) وإخوته (السلالة الحشمونية) على القهر السياسي والديني الذي مارسه أنطيوخس (دانيال ١١ : ٢١-٤٥ ؛ ١ مكابيون ١-٦ ؛ ٢ مكابيون ٣-٩). ثم إن الهيكل كرّس ثانية لله في العام ١٦٤ق.م.).

لما كان من خلفاء الإسكندر، فقد نظر أنطيوخس الرابع إلى نفسه باعتباره تجلياً من تجليات الله، وذلك معنى اتخاذه لقب أبيفانس. وكان من رأي بوليبيوس (٢٠٣-١٢٠ق.م.)، وهو مؤرخ إغريقي من الفترة الهيلينية شغل مناصب عسكرية وسياسية، أن لقب أبيمانس أي «ذو

الهلوسات» كان أليق به. فأنطيوخس هو تجسيد لسلطة معادية لله. ويسمّيه دانيال (١١ : ٤٠) «ملك الشمال»[١].

لم تكن عبادة الغزو الظافر مجرد استعراض طنان بل مسألة عملية. فالممالك الهيلينية كانت ماكنات حرب تستلزم استيداء الجزية لتمويل القوة العسكرية التي كانت تفرض استيداء الجزية. وقد ذهب القديس أوغسطين، وهو من آباء الكنيسة، إلى أن الممالك الهيلينية ليست إلا «عصابات إجرامية كبرى». وفي معرض محاكاة الملوك الآشوريين والفرس، ذهب الإسكندر - والسلوقيون من بعده - [p.33] بعساكرهم إلى ما كانوا يعتقدونه يومها أطراف الأرض، أي القفقاس، وسهوب آسيا الوسطى، والمحيط الهندي، من ضمن ما كان، جزئياً، استعراضاً شعائرياً لما كانوا يعتقدون امتلاكه من قوة.

في الشرق، كثيراً ما كانت المدن يحكمها في الأصل ملك يكون أحياناً كاهناً أعظم، يؤازره كهنة أهم العبادات في المدينة، كعبادة مردوخ في بابل، وملقرت في صور. وخلال الفترة الهيلينية، كان الملوك يقومون بدور ملك المدينة. كان اسم مردوخ مقدساً إلى حد أنه لم يكن يجهر به أحد، بل كان الناس يقولون «بعل» كناية عنه، وكانوا يكنون عن زوجة مردوخ باسم «السيدة». كانت الإمبراطورية السلوقية دولة متعددة الإثنيات فعلاً. كانت كبيرة إلى حد أنها اشتملت على عدة عواصم: ساردس في ليديا، أنطاكية ودمشق في سوريا، سلوقية، بابل وشوشن في بلاد الرافدين، وإكتبانا في إيران، سمرقند في الشرق[٢].

---

(١) راجع الفصل التاسع.

(2) Strootman, *Gekroonde Goden*, pp.49, 55, 59- 61

روما وقرطاجة

في القرن الثالث قبل المسيح، وخلال الحروب البونية، شنّت روما حرباً طويلة وأنتصرت في نهايتها على قرطاجة، وهي مدينة في شمال أفريقيا (بتونس الحالية). والبونية تعني الفينيقية، ذلك لأن الفينيقيين هم الذين أنشأوا أكبر مراكز التجارة الفينيقية على الإطلاق سنة ٨١٤ق.م. حاكم مدينة صور هو الذي أسس مدينة قرطاجة، «قرت حدشت: أي القرية/المدينة الحديثة».

خدمت قرطاجة توسع التجارة الفينيقية مع البلدان الواقعة على الشاطئ الغربي للبحر المتوسط. وفي القرن الخامسق.م.، كان عدد سكان قرطاجة يساوي عدد سكان صور وصيدون مجتمعتين. وقد أصبحت هذه المدينة خصم روما الأكبر.

غادر هنيبعل (٢٤٧-١٨٣)، القائد القرطاجي في أوائل العام ٢١٨ق.م. بجيش يتراوح عدده بين ٣٥٠٠٠ و٤٠٠٠٠ رجل وعدد من الفيَلة في ما صار يعرف بالحرب البونية الثانية (٢١٨-٢٠١ق.م.). أحرز انتصارات كبيرة على الرومان، واجتاز جبال الألب وبلغ أبواب روما سنة ٢١١ق.م.، حتى قال الرومان هنيبعل على الأبواب! فقاتله كاتو الأكبر (٢٣٤-١٤٩ق.م.) شاباً. وفي ٢١٦ق.م. أنزل هنيبعل بالرومان هزيمة نكراء في كاناي، وظل مدة ١٥ عاماً القائد الاستراتيجي الأكبر في إيطاليا. غير أن قرطاجة دمرت في الحرب البونية الثالثة [p.34] (١٤٩-١٤٦ق.م.) سنة ١٤٦.

روما والاسكندرية: معركة أكتيوم (٣١ق.م.)

بعد اغتيال يوليوس قيصر في الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ق.م.، قام أوكتافيان - الذي سمي لاحقاً بالإمبراطور أغسطس (٦٣-١٤ق.م.)

والذي اعتبره قيصر ابناً له في وصيته، بدور هام. وفي العام ٤٠ق.م. عيّن مجلس الشيوخ هيرودس الأول الكبير، ملكاً على اليهودية. وكان مارك أنطوني راعيه في الأرستقراطية الرومانية. كان ليوليوس قيصر علاقة بكليوباترا السابعة فيلوباتور (٦٩-٣٠ق.م.) ملكة مصر، آخر عضو في سلالة البطالسة. كانت أسرتها تتحدر من أصل مقدوني إغريقي. وكانت ملكة مصر القديمة آخر حاكمهيليني. وقد ربطتها علاقة غرامية مع يوليوس قيصر ويقال إنها حملت منه. ويوم كان في الاسكندرية زار قيصر قبر الإسكندر الكبير[١]. غير أن موضع قبر الإسكندر غير مؤكد. فقد «اختطف» بطليموس الأول الجثمان يوم كان ينقل من بابل ليعاد دفنه في مقدونيا. أم هل أن رفاته ترقد، على ما زعم البعض، تحت كاتدرائية القديس مرقص في البندقية؟ يقال إن أهل البندقية قد حملوا رفات الإسكندر الكبير من الإسكندرية متوهمين أنها رفات القديس مرقص[٢].

بعد اغتيال قيصر، تحالفت كليوباترا مع مارك أنطوني (حوالي ٨٣-٣٠ق.م.). وقد شكل أنطوني، ولبيدس، وأوكتافيان ثلاثياً حكم الإمبراطورية الرومانية، وكان مارك أنطوني في الأصل أقوى الثلاثة. أُخِذ الأخير بكليوباترا وتزوجها وأنجب منها بعض الأولاد. وقد أوحى هذا بشبح «الاستبداد الشرقي» في روما، وأجاد أوكتافيان استعمال ذلك. في ٢ أيلول سنة ٣١ق.م. نشبت معركة بحرية في أكتيوم، على الساحل الغربي لبلاد الإغريق، بين أسطول أنطوني وكليوباترا وأسطول أوكتافيان. كُسِر أنطوني وكليوباترا، وخرج أوكتافيان منتصراً. ولما بلغ الاسكندرية

(1) Chugg, *Alexandre le Grand*, p. 105

(2) Cartledge, *Ancient Greece*, p. 154; Chugg, *Alexandre le Grand*, p. 231

زار، بدوره، قبر الإسكندر الكبير[1]. بات وضع هيرودس حرجاً جراء معركة أكتيوم، غير أن هيرودس فاز برضى أوكتافيان لما وعده بأن يكون وفياً له. أعاد هيرودس بناء الهيكل وجمّله ليرضي اليهود. وورث أوكتافيان بصفته إمبراطوراً [p.35] وقائداً أعلى لقب قيصر عن يوليوس قيصر، وأطلق عليه مجلس الشيوخ اسم أغسطس. أعلن عن قرن من الازدهار والوفرة. تم تحويل روما لتصبح بهية كأقدم مدينة إغريقية شرقية: الإسكندرية[2]. ولد يسوع في عهد الإمبراطور أغسطس وهيرودس الكبير (إنجيل لوقا ٢ : ١، ٦).

إنياذة فرجيل: طروادة وروما

كان فرجيل (٧٠-١٩ق.م.) من أعظم الشعراء الرومان. ويقال إن أغسطس قيصر قد عهد إلى فرجيل بكتابة القصيدة الملحمية الموسومة «بقصة إنياس» التي قصد منها إجلال السلام وسيطرة روما على العالم. وقد قصد منها أيضاً إضفاء الشرعية على النضال العنيف الذي كان ضرورياً لتحقيق سلام كهذا.

هرب إنياس البطل الطروادي من فظائع الحرب بعد تدمير طرواده فواجهته معركة جديدة: الحرب الطويلة التي كان عليه أن يخوضها في إيطاليا كي يتمكن أخيراً من إنجاز تكليفه السماوي، أي إرساء أسس المدينة التي تحولت إلى إمبراطورية روما القوية.

(1) Chugg, *Alexandre le Grand*, pp. 111-13

(2) Martin Goodman, *Rome & Jerusalem: The Clash of Ancient Civilizations* (London: and New York: Penguin Books, 2008), pp.40-41: Cf. J. C. Stobart, *The Grandeur that was Rome*, reprint (London: Sidgwick & Jackson, 1980), pp. 109-10

وتُستهل الإنياذة بما يلي:

هذه قصة أسلحة وقصة رجل قيّض له أن يكون منفياً. كان أول من أبحر من أرض طرواده ووصل إلى إيطاليا، وأبرّ على شاطئ لافينيا[1]. *ابتُلي بمحن كثيرة في طريقه بالبر والمحيط؛ تلك كانت مشيئة السماوات العلى، ذلك لأن جونو*[2] *كانت بلا رحمة ولم تكد تنسى غضبها. وقد قيّض له أن يعاني شدائد كبرى في الحرب. ولكنه تمكن في النهاية من تأسيس مدينته، وإحلال آلهة قومه في الأرض اللاتينية: وذلك كان أصل الأمة اللاتينية، سادة ألبا*[3]، *وشرفات روما المفرّجة العزيزة*[4].

يروي فرجيل كيف أوجب الآلهة على إنياس الطروادي أن يؤسس «طرواده جديدة» في الغرب. وهكذا وصِلت طرواده بروما. [p.36] وهو يوصف على امتداد الملحمة بأنه إنياس «التقي»، الملتمس السلام لشعبه. كان القصد من الإنياذه أن تكون نظيرة للأوديسة والإلياذة؛ وقد لبّت حاجة قومية. وهكذا أعطى فرجيل الرومان إلياذتهم وأوديستهم.

القسم الأول من الإنياذه، ترحال إنياس، هو نظير الأوديسه التي تصور عودة أوديسيوس إلى موطنه، والقسم الثاني هو نظير الإلياذه، قصة أخيل البطل الذي يقاتل حتى يقتل خصمه العظيم. والإنياذه تعالج موضوع الهيمنة على إيطاليا.

بطل القصة هو الأمير الطروادي إنياس الذي أرسى سفينته، وفقاً

---

(١) مدينة في لاتيوم سمّاها إنياس على اسم زوجته.

(٢) سيدة السماوات وزوجة جوبيتر، كبير الآلهة.

(٣) مدينة ألبا لونغا هي أم مدينة روما، كانت تقوم على التلال الألبانية جنوبي شرق روما الحالية؛ أسسها ابن إنيوس. رومولوس وريموس يتحدران من ملوك ألبا.

(4) Virgil, *The Aeneid*, translated by F. Jackson Knight (Harmondsworth: Penguin Books, 1956), p.27

لقدره، في إيطاليا، وأسس إمبراطورية بعد قدر كبير من الجهد والنضال الخطر، إمبراطورية روما.

والإنياذه هي رواية ترحال وصراع. وهي مؤثرة جداً لما تزخر به من تعابير الدفء الإنساني، ومن فهم مرهف وحزين في كثير من الأحيان للقدر الإنساني، والمنظور الكوني. وهي لذلك تشمخ عالياً فوق أدب عصرها. أراد فرجيل أن يبين كيف أن إنشاء إمبراطورية إنياس وبسط السيادة على العالم هما أمران أرادتهما الآلهة. ويصل القارئ إلى الغاية والذروة في سياسة أغسطس قيصر «الإلهي»، الذي كانت إمبراطوريته العالمية إمبراطورية السلام أيضاً[١].

فرجيل و«قصة مدينتين»

غادر إنياس، ابن فينوس وأنتشايز، طرواده بعد أن سقطت وفرّ حاملاً والده على ظهره. وإذ ترك طرواده إلى غير رجعة، غرق أسطوله ورسا على بر قرطاجه حيث التقى للمرة الأولى بأمه فينوس. شاهد قرطاجه وملكتها ديدو. وقد رتّب مركوري، رسول جوبيتر، أمر استقبالها للطرواديين في قرطاجه، ثم عرّفها إنياس بنفسه. تحدرت ديدو في الأصل من فينيقيا التي فرت منها بعد أن قتل أخوها زوجَها. وعدت ديدو الطرواديين بالمساعدة وأخبرها إنياس عن سقوط طرواده وما وقع له من مغامرات بعد ذلك. ثم خرجا للصيد معاً ثم تزوجا رمزياً خلال عاصفة رعدية دبرتها الإلهة جونو. ساعد إنياس ديدو على إنشاء «قريتها الحديثة»، قرطاجة! ولكن الإله مركوري إذ رأى ذلك ذهب إلى إنياس

(1) J. Wytzes, *De Vergilius, De Dichter van het Imperium*, (Kampen: J. H. Kok, 1951); *Christelijke Encyclopedie*, edited by F. W. Grosheide and G. P. van Itterzon, 2nd edition (Kampen: J. H. Kok, 1956) s. v. Vergilius

فوراً وقال: «ماذا، هل ترسي الأسس لقرطاجة المتعالية وتبني [p.37] هنا مدينة نبيلة؟ زوج مثالي! يا للعار نسيت قدرك وتلك المملكة التي ستكون مملكتك. وذكره مركوري بما هو مكلف به من تأسيس طروادة جديدة في إيطاليا. فلما أجاب إنياس بأنه سوف ينفذ المهمة المكلف بها، واجهته ديدو معترضة، فدافع إنياس قائلاً إن عليه تقديم المهمة التي كلفته بها الآلهة على حبه. تصفه ديدو بالخائن: «هل اعتقدت فعلاً أن بوسعك أن تخفي فعلة شنعاء كهذه وأن تغادر بلادي من دون أية كلمة؟ ألا يردّك شيء، لا حبّنا، ولا أيدينا المتعاهدة، ولا حتى الموت القاسي الذي ينتظر ديدو لا محالة؟» فيجيبها إنياس: «إذا كنت أنت الفينيقية مخلصة لقلعتك القرطاجية هنا، ولا تنظرين بعين الرضا إلى أية مدينة أخرى غير هذه في أفريقيا القصية، فما اعتراضك على أن يستوطن الطرواديون في إيطاليا؟ لا جُناح علينا إذا ما سعينا، أسوة بك، إلى إنشاء مملكة في بلاد أجنبية». تحاول شقيقة ديدو الوساطة فتطالب إنياس بتأخير رحيله قليلاً. تطلب منها ديدو أن تبلغه كلماتها: «أنا لا أرجوه الآن أن يعيد زواجنا المشرّف مثلما كان قبل أن يخونه، ولا أطلب منه أن يتخلّى عن اللاتيوم الرائع حيث يأمل أن يسود. أنا لا أطلب إلا وقت التبطل، وقتاً لمنح مزاجي المجنون مجالاً للتنفس والراحة، إلى أن يعلّمني قدري الطاعة وفن الحزن. هذا هو آخر طلب استرحام أتقدم به». تأمر ديدو بإعداد محرقة جنائزية للقضاء على كل ذكرى لإنياس. وإذ حثته الآلهة على الإسراع، يبحر إنياس مبتعداً عن قرطاجة. ترى ديدو مراكب إنياس تبحر في البعيد صباحاً، فلا تؤخر قرارها بالموت أكثر من ذلك.

«هذا رجائي وآخر صرخة لي، وهي تخرج مني مع تدفق دمي الحي. من تلك اللحظة فصاعداً سوف تعذِّبون، يا أهلي الفينيقيين، بعذابات

الحقد المتواصل كل نسل إنياس، وكل فرد من ذريته. وتكون هذه العبادة قربانكم لطيفي. لن يكون بين أمتينا تحابّ ولا تعاهد. وعسى أن ينهض من عظامي البالية منتقم ليضطهد بالنار والسيف أولئك المستوطنين القادمين من طرواده، قريباً أو في وقت لاحق عندما تُعطى القوة! لتعادي سواحلُكم سواحلَهم، وأمواجُكم أمواجَهم، وأسلحتُكم أسلحتَهم. هذه هي اللعنة التي نطقت بها. ليكن عليهم القتال، هم وأولاد أولادهم إلى الأبد!».

وقد تحوّلت هذه اللعنات إلى واقع خلال الحروب البونية التي وقعت بين روما وقرطاجة في القرنين الثالث والثانيق.م. [p.38] وهنيبعل هو المنتقم القرطاجي المشار إليه هنا (The Aeneid, IV, 11, 250-441, 606-37)[1].

الغطرسة والانتقام

إن ما يلفت عند تصفّح قصص المدينتين السابق ذكرها هو أنها، من حيث المبدأ، ليست مصاغة وفق ثنائية الأبيض والأسود. من المؤكد أنها تتعلق بالقسمة المستمرة بين الشرق والغرب. لا شك في أن الإغريق يرون أنفسهم مناوئين للفرس، وكأن المسألة هنا هي مسألة إغريق في وجه البرابرة، الحرية والديمقراطية في وجه «الاستبداد الشرقي» (كارل أوغست فيتفوغل Karl August Wittvogel). تختلط الحقيقة بالوهم في ما يتعلق بالصراعات بين المدينتين. ربما كانت النظرة الغالبة في صفوف المؤرخين *الغربيين* هيأن الحروب الإغريقية الفارسية كانت حرباً ملحمية بين *الديمقراطية* ممثلة ببلاد الإغريق، *والطغيان* الفارسي. هذا التفسير،

(1) Virgil, *Aeneid*, pp. 105-10, 116

الذي يُظهر الإغريق وكأنهم لا يفعلون شيئاً غير الدفاع عن حريتهم، مثال على فهم معيّن ونظرة معينة إلى ما جرى في الماضي. والواقع هو أن الصراع بين الفرس والإغريق كان أكثر تعلقاً بمطامح السيطرة على البحر. لو كان قيّض للفرس أن ينجحوا في كسر سيادة الإغريق على بحر إيجه، إذاً لما كان أمامهم منافس يكبح التوسّع الفارسي البحري، والسياسي، والعسكري في المتوسط. ولكن بحر إيجه كان المسرح الذي صيغ فيه ما سمي بأطروحة «الشرق في مواجهة الغرب»[1].

والأمر اللافت في هذه القصص هو أن منظور الأبيض والأسود لا يثبت في ما يبدو، وإن حاوله البعض. فاستبداد الأباطرة الرومان، على ما ذهب إليه إدوارد جيبون Edward Gibbon مؤلف **انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها** (*Decline and Fall of the Roman Empire*) كان من أهم أسباب انحطاط تلك الإمبراطورية.

«هيوبريس» hubris، أي فرط الاعتداد بالنفس والزهو يخترق هذه القصص كلها على الجانبين! فأبطال الإغريق كانوا مصابين بهاتين الخصلتين مثلما كان نظراؤهم الأمراء الفرس، من أمثال أحشويرش. ولم يكن ثمة افتقار إلى نقد الذات. فرط الاعتداد بالنفس، أو شدة الغرور، وهو مفهوم من مفاهيم علم الأخلاق الإغريقي، لعب دوراً هاماً في قصة هوميروس عن مدينتي إسبرطه وطروادة. هيوبريس تشير إلى اليقين الهائل، والشعور بموافقة [p.39] الأقداروالثقة المفرطة في قدرة المرء على الأشياء. إنها تجاوز للحدود المفروضة على البشرية، واحتقار للآلهة وتجديف عليها، تجديف يستثير سخطها وجزاءها، أي الانتقام. «نيميزيس» Nemesis إلاهة إغريقية، هي تشخيص للعدالة

(1) Farrokh, *Shadows in the Desert*, pp.69, 71

المنتقمة التي تؤدي لكل امرئ ما يستحق. وهي إنما تعاقب فرط الاعتداد بالنفس، ذلك التجاوز للحدود المفروضة على حال البشرية. ويقال إن نيميسس هي والدة هيلانة [زوجة مينيلاوس التي اختطفها باريس الطروادي] وسبب كل الشقاء الذي انجرّ عن اختطاف هيلانة![1].

وسوف نرى في الفصول اللاحقة كيف يتقارن هذا على نحو أخص في روايات الكتاب المقدس والقرآن. [p.40]

(1) Konrat Ziegler and Walter Sontheimer, eds., *Der Kleine Pauly: Lexikon der Antike infünf Bänden* (Münich: Deutscher Taschenbuch Verlag, 1979), *s. v.* "hybris", "nemesis"; Eric M. Moormann and Wilfried Uitterhoeve, *Van Alexandros tot Zenobia: Thema uit de klassieke geschiedenis in literature, muziek, beeldende kunst en theater*, reprint (Nijmegen: SUN, 1992), s.v. "Nemesis"

الفصل الثاني

في نبوة محمد

أحبّ توراتكم

وهي دائماً في خاطري

كلمتك مصباح لقدمي

ونور على دربي

أقسمت وأنا عند قَسَمي،

بأن أتبع كلمتك التي ترشدني

أنحني وأجثو لك، أيها الإله الحي،

إجعلني أعيش عبر قوة كلمتك.

شفتاي تتمتم لك: أريد... أودّ...

علمني بِرَّك. أنت - نعم. سأتعلّم.

نفسي ترتاح في يديّ، تافهة.
لكنّي لن أنسى توراتك.
حرّاس سود ومعتدون ينصبون الأفخاخ
- ولكن أغرب بعيداً عنك؟ أنا؟ لا ليس أنا.
ما دبّرت لي هو ميراثي إلى الأبد، وهو فرح قلبي.
سأحني قلبي لكلماتك
وأحفظها إلى النهاية.

Huub Oosterhuis, Psalm 119: 105-12[1] *مزمور هوب، اوسترهاوس*

لا أعرف من - أو ماذا - طرح السؤال، لا أعرف متى طرح. ولا أذكر حتى أنني أجبت. ولكن في لحظة ما أجبت بنعم على شخص - أو شيء - ومنذ تلك الساعة بتّ متيقناً من أن للوجود معنى وأن لحياتي في تسليم الذات غاية.

Dag Hammarskjöld, *Markings*, 169 داغ همرشولد

مدخل

النبي ليس شخصاً يتنبأ بالمستقبل، ليس شخصاً يرجم بالغيب. بل النبي راء، شخص يشير إلى معنى الحوادث، ويمنحنا استبصاراً في ما هو جار روحياً وسياسياً. النبي «محرّض»، شخص [p.41] يطوف بالهيكل والبلاط ويبدي انتقاده، ويثور ضد المظالم التي يرتكبها القادة

---

(١) هذه ترجمة الكاتب.

السياسيون. النبي الحقيقي لا يعتمد كلام مجتمعه الرتيب العديم اللون، ولا يلهجبكلام الدبلوماسيين المنمق، ولا كلام اللاهوتيين، أو طائفة الكهنوت، أو كلام رجال الأعمال المتحجر. فهو يلتزم بكلام القصص الحافلة بالعبر، ويظل وفياً له. وهو لا يتنبأ بالتاريخ بل يدرسه ويحلله، ويكشف خفاياه وينزع أقنعته (NaastepadTom).

للإجابة عن السؤال «هل محمد من الأنبياء؟»، علينا أولاً أن نوضح ما يفهم من كلمة نبي في الكتاب المقدس والقرآن. ولذلك فسوف ننظر أولاً إلى عدد من الأشخاص الذين وصفوا بالأنبياء قبل محمد. من هو «الله» الذي يبعثهم وباسم من يتكلمون وماذا يريد الله منهم أن يفعلوا؟ سأبدأ ببعثة موسى النبي الأكثر ذكراً في القرآن، ثم ننظر إلى النبي إيليا، إلياس أو ياسين. ثم أختم بمناقشة لتجارب بعثة أنبياء التوراة بعامة وبِعثة محمد بخاصة.

من هو النبي؟

«صوت قائل نادِ. فقال بماذا أنادي؟» (إشعياء ٤٠ : ٦). النبي (في العبرية والعربية) المخبر عن الله(*) وهو مفسر لكلمة الله. الله يجعل كلامه في فم النبي، وعلى النبي أن يجاهر به (تثنية ١٨ : ١٨). فالنبي هو من يدعوه/يبعثه الله لأن «يدعو» أو «يعلن»: النبي إذاً، هو «مدعو وداعية» في الوقت نفسه. *إقرأ* هي الكلمة الأولى التي يسمعها محمد (سورة العلق: ١). عليه أن يقرأ (ومنها استمِد اسم القرآن)، ما يتوجب عليه أن يخبره باسم الله. سلطة الكلمة التي ينطق بها النبي لا تستند إلا إلى دعوته. والأنبياء لا يتكلمون باسم سلطتهم الخاصة (سورة

(*) [والنبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقع وشأن عظيم - المترجم]

النجم: ٣). والذين يتكلمون باسم سلطتهم أنبياء كذبة يعلنون ما فكّروا به هم أنفسهم واصطنعوه. الله يسأل: ما الذي يملك هؤلاء الأنبياء، الذين يعلنون ما اصطنعوه؟ إنه يعارض الأنبياء الذين يضللون الناس بما يزعمون من أحلام، وأباطيل، وفيض كلام. «أنا لم أرسلهم ولا أمرتهم» (إرميا ٢٣ : ٢٥، ٣٢): من المؤكد في هذه الحالة أن الله لم يتكلم إلى نبي كهذا. والانبياء «الحقيقيون» كثيراً ما يواجهون بأنبياء «كذبة». وتلك كانت الحالة التي وجد النبي إرميا نفسه فيها يوم واجه النبي الكاذب حننيا وقال له: «إسمع يا حننيا! إن الرب لم يرسلك» (إرميا ٢٨ : ١٥).

الأنبياء الكذبة يعلنون ما يعملون من أجل ما يقولون هم، أي لتحقيق رغبات إنسانية. إنهم يحلمون ويتكلمون على أحلامهم، أو ربما تكلموا على خداع قلوبهم (إرميا ٢٣ : ٢٥-٢٧). فهم ينسجون من الرغبات والدوافع التي يشاركون فيها الناس أوهاماً مخدّرة تنسيهم اسم الله. إنهم يقولون ما يريد الناس أن يسمعوا، أي ما يريدون أن يسمعوا هم من أفواهم. فهم يتكلمون لا ليرضوا الآخرين فحسب بل أيضاً لأجل أحلامهم وأوهامهم؛ وهم لا يخدعون الناس عمداً بل هم عالقون في خدعة [p.42] عالم رغباتهم[١]. وكان على محمد أن يتعامل مع نبي كذّاب، هو مسيلمة ابن حبيب باليمن[٢].

النبي الحقيقي يتكلم باسم الله، ولذلك من المهم تمييز النبي الحقيقي. النبي الحقيقي يمكن أن يعرف من إخلاصه وعندما يتحقق ما يتنبأ به (تثنية ١٣ : ١-٥؛ حزقيال ٣٣ : ٣٣). كثيراً ما يكون الغرض من

---

(١) Martin Buber, *Werke*, vol. II: *Schriften zur Bibel* (Munich and Heidelberg: Kösel-Verlag, 1964), p.425 (الأعمال الكاملة: كتابات عن الكتاب المقدس)

(2) *E.I. s. v.* Musaylima

نبوءات الكوارث حمل الناس على التوبة عبر الإشارة إلى العواقب الوخيمة لإتيان الشر (إرميا ١٨ : ٧-٨؛ يونان). النبي الكاذب لا يبعثه الله (إرميا ٢٣ : ٣٢)؛ يتصوّر أنه قد رأى شيئاً، ويزعم أنه يتكلم باسم الله لكنه لا يتكلم باسمه حقاً وكلماته لا تثبت؛ (حزقيال ١٣ : ١-٨)فهو يتبع نفسه، ولا يقف من أجل الناس ويطمس حاجاتهم الحقيقية. النبي الحقيقي جساس لصوت الله ويرفع صوته الناقد باسمه: من ذلك التهديد والتحذير من الإحساس الكاذب بالراحة، العزاء في وجه القنوط[1]. عندما يظهر الأنبياء الكذبة (رؤيا يوحنا ١٦ : ١٣؛ ١٩ : ٢٠؛ ٢٠ : ١٠) ويقومون بآيات ومعجزات، فهم إنما يفعلون ذلك ليخدعوا - إن أمكنهم ذلك-المختارين أنفسهم (مرقص ١٣ : ٢٢).

موسى، في الوادي المقدس

وصل موسى الذي كان يرعى غنم حميه يثرون، شعيب، كاهن مدين إلى «جبل الله» حوريب، في شبه جزيرة سيناء. فنظر وإذا علّيقة تتوقد والعليقة لا تحترق بالنار. رأى موسى منظراً عظيماً (الخروج ٣ : ١-٣؛ سورة القصص: ٢٩؛ سورة طه: ١٠). ظنّ موسى أولاً أنه موقد قد يصطلي به أو يأتي منه بقبس لرحلته. «قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلّكم تصطلون» (سورة النمل: ٧). هل الأمر على هذه البساطة أم أن ثمة شيئاً فائقاً للطبيعة فيه؟

تذكر هذه القصة بالنبي إشعيا الذي سخر من حماقة التعبّد لأصنام

---

(١) De Bijbel uit de grondtekst vertaald. Willibrordvertaling, completely revised edition 19955, 2nd ed. ('s-Hertogenbosch: Katholieke Bijbelstichting, 1996), on Deut. 18: 21-22. وسوف يشار إليه في ما يلي بالأحرف KBS

مصنوعة من *الخشب*. ففي هذه القصة يدور الكلام على أناس يصنعون أصناماً ليست شيئاً ولا يمكن أن يتوقع من صنعها شيء. يسخر إشعيا من عبادة الأصنام كما يلي: يأتي رجل ويقطع بضع أرزات، ويختار أرزة أو سنديانة، أو بلّوطة ويربّيها بماء المطر مع غيرها من الأشجار. وتزوده هذه الأشجار بالحطب كي يصطلي أو يخبز خبزه. أو هو يصطنع صنماً من الخشب ويخرّ له ساجداً. يحرق نصف الحطب في النار يشوي به اللحم ويشبع منه. يتدفأ فيقول «بخ! قد تدفأت، رأيت ناراً». ويصنع مما تبقى صنماً يسجد له ويصلّي ويقول: «نجّني لأنك أنت إلهي!» لا يتوقف الوثني. ولا يتعقل، وهو يفتقر إلى المعرفة والبصيرة فلا يقول: «نصفه أحرقت بالنار، وخبزت أيضاً على جمره خبزاً، شويت لحماً وأكلت. أفأصنع بقيّته رجساً ولساق شجرة أخرّ؟ يرعى رماداً! قلب مخدوع قد أضله، .فلا ينجّي نفسه ولا يقول أليس كذب في يميني؟» (إشعيا ٤٤: ٩-٢٠). [p.43]

وهكذا، فإن السؤال الحقيقي أمام موسى هو: هل هي مجرد شجرة تشتعل، أم هل هي معجزة؟ لكنه لم يتيقن إلا عندما بدأت العليقة *تخاطبه*، وأدرك فجأة أن الله قد ظهر له على هذه الهيئة. فغطّى موسى وجهه (سفر الخروج ٣: ٦)، مثلما فعل محمد لاحقاً بعد تجربة مماثلة (سورة المزّمل: ١؛ سورة المدّثر: ١) ثم يجعل الله موسى يقترب نجيّاً (سورة مريم: ٥٢). نودي موسى «من جانب الطور الأيمن» (سورة مريم: ٥٢) إلى «الوادي المقدس طوى» (سورة طه: ١٢؛ سورة النازعات: ١٦). وهو ينادى من وسط العليقة الملتهبة (سفر الخروج ٣: ٢): «يا موسى، إني أنا الله رب العالمين» (سورة القصص: ٣٠). ثم سُمع صوت من وسط العلّيقة: «موسى، موسى، لا تقترب إلى ههنا. إخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض

مقدسة» (سفر الخروج ٣: ٤، ٥). «إنك في الوادي المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى: إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني» (سورة طه: ١٢-١٤؛ سورة النازعات: ١٦؛ سفر التثنية ٦: ٤). قد رأى الله شقاء شعبه وسمع أنينهم من مسخّريهم ومدبريهم: «إني قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم. إني علمت أوجاعهم» (سفر الخروج: ٣: ٧). لاحظ الله صراخ الاستغاثة من الناس المظلومين في بيت العبودية بمصر. ثم يدعو الله موسى ويرسله إلى فرعون مصر لينجي شعبه (راجع سورة الصافّات: ١١٤-٢٢).

اسم الله

ما إن يسمع موسى ما يطلب منه الله أن يفعل، حتى يرتعب ويسأل عما ينبغي عليه أن يجيب الناس إنسألوه عمّن بعثه. ما أسم من أرسلك؟ الجواب هو أن عليه أن يقول إن الذي أرسلني هو «سأكون هناك». «سأكون هناك» هو الاسم المكتوب بأربعة أحرف بالعبرية، يهوه، والمسمّى أيضاً تتراغراماتون، اسم الله الذي لا ينطق به اليهود أبداً ويكنون عنه بعبارة «الإسم» إشارة إلى الله. والأحرف الأربعة مستمدة من الكلمة العبرية التي تفيد فعل «الكينونة». اسم الله ليس مقولة فلسفية حول الكينونة. هل يزودنا بمفهوم فلسفي مجرد عن الله - «شيء - ما»؟ «الشيء - ما»، في ما يزعم، «معتقد» واسع الانتشار في هولندا وسواها في الوقت الحاضر. «هناك شيء ما»، «يجب أن يكون هناك شيء ما» ألا يجب ذلك؟ غير أن الأحرف الأربعة (ي هـ و هـ) لا تدل على أي شيء كهذا. فما معناها إذا؟ الاسم الرباعي الأحرف هذا لا يدل على «كائن» مجرّد: إنه فعل ومعناه «سأكون هناك»، أي سأكون معكم، سأكون معكم-عمانوئيل، «الله معنا».

ولكن ماذا يعني هذا على وجه الدقة؟ كانت عبارة «God met ons» (الله معنا) الهولندية تطبع على حاشية الغيلدر(وحدة العملة الهولندية) تماما مثلما هي تطبع على اليورو الهولندي. كما كانت عبارة «Gottmituns» (الله معنا) الألمانية محفورة على أحزمة الجنود الألمان في الحرب العالمية الثانية. هل هذه هي القضية؟ هل هذا هو معنى الاسم؟ ولئن كان علينا أن نقدس الاسم على هذا النحو، كما هو في الصلاة الربانية المسيحية («ليتقدّس اسمك») فمن شأن هذا أن يكون ماسأللله أو دعوة واستعمالاً كفرياً للاسم، بافتراض إمكانية حضور الله الذي يمكن التلاعب به: «الله، هولندا، وآل أورانج؟» أو «ليبارك الله أمريكا» كنوع من الصلاة البديهية، وكأنه من الممكن أن يستعمل الله لخدمة مصالح المرء وغاياته المادية، الاقتصادية، السياسية، أو القومية الخاصة. [p.44]

الجواب الذي ينبغيعلى موسى أن يجيب به على الذي يسأله عمن يكون الله الذي أرسله ليخلص الشعب من العبودية في مصر، هو «*سأكون هناك*» أرسلني، وهذا الجواب ينطوي على «كائن» محدد، حضور إلهي محرّر (سفر الخروج ٣: ١٣، ١٤). لِمَ يفعل الله ذلك؟ الله، «*سأكون هناك*»، لا يستطيع أن يشاهد الناس يهددون بالعدم، وأن يُحرموا من الوجود، كما في مصر، في أعين سادتهم الظَلَمة، وأن لا يسمح لهم بالوجود في الحرية والعدالة، وأن لا يكون لهم مكان في المجتمع. الله، «*سأكون هناك*»، يسمع صرخات الاحتجاج من الناس المتأوهين من عبوديتهم في قرى الفقر بإمبراطورية الفرعون. هو يسمع صرخاتهم. ولأنه لا يستطيع تحمل سماع ذلك أو فإنه يتصرف، ويصدر حكمه لينصف المظلوم. ثم ينزل ليحررهم. ويستعمل التنزيل في القرآن

للدلالة على نزول الوحي الإلهي لإنصاف المقهورين. إنه يذهب معهم إلى أرض الحرية وممارسة العدالة.

فالإسم لا يصف كائناً مجرداً، منفصلاً عن الواقع الملموس للوجود البشري، «شيءما» غير معني. الله، «*سأكون هناك*»، يسمع الدم البريء المسفوك من هابيل شقيق قابيل/ قايين يصرخ من الأرض (سفر التكوين ٤ : ١٠) إلى السماء، ولا يجيب كما فعل الرئيس الفرنسي، ديغول، مرة ساخراً «الدم يجف بسرعة». الله «سأكون هناك» يسمع صراخ ضحايا العنف بقطع النظر عن خلفيتهم. الله «سأكون هناك» يرى ذلك، ويعرف ذلك، وينزل، لأن نيته هي التحرير والإنقاذ. الله «سأكون هناك» يظل حاضراً، وهو حاضر بنشاط، وهو ناشط. لذلك، لا يتعلق الأمر «بوجود» الله على حساب الآخرين، بل بكونه موجوداً *من أجل* الآخرين، ليخلق مجالاً لهم، وليوضح أنه يجوز لهم، ويحق لهم أن يكونوا كبشر. «سأكون هناك» هو الاسم الذي تدور حوله صلاة يسوع/ عيسى المعروفة بالصلاة الربانية (إنجيل متى ٦ : ٩-١٣؛ لوقا ١١ : ٢-٤) والتي علّمها يسوع/ عيسى لحوارييه على ما يصفهم به القرآن (سورة آل عمران : ٥٢؛ سورة الصف : ١٤). الالتماس الأول في الصلاة الربانية هو «ليتقدّس اسمك». يجب أن يتقدس الاسم، وأن يذكر (سفر الخروج ٣ : ١٥)، ويُهاب (سفر التثنية ٢٨ : ٥٨)، ويُعترف به (سفر الملوك الأول ٨ : ٣٣)، ويُحَب (سفر المزامير ٥ : ١١)، ويُعَلّى (سفر المزامير ٣٤ : ٣)، ويُترنّم به (سفر المزامير ٦٦ : ٢)، ويُطلب (سفر المزامير ٨٣ : ١٦)، ويُسَبَّح (سفر المزامير ٢٢ : ٣)، ويُمَجَّد (إنجيل يوحنا ١٢ : ٢٨)، ويُعرف (إنجيل يوحنا ١٧ : ٢٦). «ليتقدس اسمك»، الابتهالالأول ليس نذراً ينذره المرء بتقديس اسم الله، ولا هو أمنية: «أود أن يتقدس اسمك». إنه التماس حقيقي موجه إلى الله ولا تتوقع

تلبيته إلا منه. فاسم الله يتقدس عندما يقيم ملكوته وتتم مشيئته على الأرض مثلما يطلب في الابتهالاتالثلاثة الأولى من الصلاة الربانية. وهذه الثلاثة متصلة بعضها ببعض.

كثيراً ما تقارن الصلاة الربانية من حيث وظيفتها بمعنى سورة الفاتحة بالنسبة إلى المسلمين (سورة الفاتحة: ٢-٧). تدعو هذه الالتماسات أولاً إلى فعل الله في هذا العالم المهدَّد لتجسيد اسمه. وفي الوقت نفسه يصبح الكائن البشري نفسه منخرطاً كلياً، مثلما هو مقصود من الصلاة. أتباع الأنبياء هم أنصارهم. ولا يمكن لهذه الصلاة أن تنفك عن أية تضمينات أخلاقية بالنسبة إلى كل الذين يُعَلِّمون أداءها. فعندما يصلي الناس، يصبحون منخرطين؛ وهم يظهرون حقيقة حضور ملكوت الله، وعدله، ومحبته. والإنسان يدعو الله باسمه لأن له اسماً فيه أيضاً: فالفرد بالنسبة إلى الله [p.45] شخص مخصوص وخاص. وتقديس اسم الله يتمثل في إطاعة مشيئته، المعبّر عنها في الوصايا العشر (سفر الخروج ٢٠: ١-١٧؛ راجع سورة المؤمنون: ١-١١؛ سورة المعارج: ٢٢-٣٥)، المختصرة في: «تحب الربَّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، وتحب قريبك كنفسك» (سفر اللاويين: ١٩: ١٨؛ إنجيل متى ٥: ٤٣؛ ٢٢: ٣٩؛ رسالة إلى أهل رومية ١٣: ٩؛ رسالة إلى أهل غلاطية ٥: ١٤؛ رسالة يعقوب ٢: ٨).

يوم نطق موسى بهذه الكلمات على جبل حوريب، يوم عاد موسى ولكن مع شعب إسرائيل الذي تحرر من العبودية بمصر، أجاب الحاضرون معه على الجبل: «كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له». ينبغي الانتباه إلى ترتيب الكلمات اللافت لا بل المدهش: للفعل أولوية على السمع! أي أن الذين يفعلون ما تكلم به الرب هم الذين سمعوه حقاً! لذلك، فالمسألة هنا ليست في الاعتقاد بقدر ما هي في العمل.

وقد سئل أحد الحاخامات يوماً لِمَ بات الإيمان بالله على هذا القدر من الصعوبة بعد أن كان، في ما يبدو، أسهل في الماضي. أجاب: «هذا لأنه لم يعد أحد يريد أن ينحني بالقدر نفسه في الصلاة». «سأكون هناك» فعل ويفعل ذلك. فهو ينحني ويتنازل ليكون مع الفقراء والمظلومين. والسؤال الذي يطرحه الأنبياء دائماً هو: هل نفعل ذلك أيضاً؟

دعوة النبي إيليا

بعد أن أتى القرآن على ذكر موسى وأخيه هارون، ينتقل مباشرة إلى بعثة النبي إيليا، إلياس، أو إل ياسين (سورة الصافات: ١٢٣-٣٢؛ راجع سورة الأنعام: ٨٦؛ سورة ص: ٤٨). إيليا الذي يعني اسمه «إيل، أي الرب، ي هـ و هـ هو إلهي» نبي من أعظم أنبياء التناخ، أي العهد القديم من الكتاب المقدس. يوصف إيليا بأنه متحمس متعصب، وليّ/ قديس شعبي، وليّ يعلم الآخرين أسرار الناموس، والتوراة، وتتوقع عودته في آخر الزمان. لقد بعث ليدعو أبناء إسرائيل إلى عبادة إله موسى. ويجمع القرآن إلياس مع زكريا وابنه يحيى، يوحنا المعمدان، ويسوع/ عيسى مع الصالحين (سورة الأنعام: ٨٥). وهو من المرسلين الذين يرسلهم الله كي يكفّ شعبه عن عبادة صنم البعل الذي يعتبر نظيراً لإله بلاد الرافدين بعل وبناته الثلاث اللات والعزّى ومناة[١] اللواتي كانت عبادتهن لا تزال قائمة بمكة حتى أيام محمد.

أي نوع من الآلهة كان إذاً هذا «البعل» الذي يجابهه إيليا بهذا القدر من العنفوان؟ في بلاد كنعان كان البعل إله الطقس والخصب. وكلمة

---

(١) Anton Wessels, *Islam in Stories* (Leuven, Paris and Dudley, MD: Peeters, 2002), pp.40-41 [الإسلام في قصص]

بعل نفسها تعني «الرب» ويمكن أن تترجم بما يعني «الريّس». والبعل يدل على الحيازة، كأن يملك زوجة، منزلاً أو بهيمة. وقد أصبحت الكلمة اسم إله، وهي تدل على إله مسوَّد يحركه شغف بالجبروت لا كابح له. وهو يمثل شهوة السلطة والحيازة التي تمنح شرعية إلهية للطبقة المالكة الحاكمة. كانت «لعبادة» البعل إذاً تداعيات سياسية. فماذا تستتبع هذه العبادة في نهاية المطاف؟ إنها تعني العودة إلى العبودية كتلك التي كانت في ظل فرعون مصر، سياسة تتناقض تماماً مع جوهر التوراة التي أعطاها الله لموسى. فالبعل يمثل إله بلاط لا يطيق الله الذي يحرر الناس من العبودية. وقد قاد عدد من ملوك إسرائيل إلى العبودية عبر عبادتهم للبعل. [p.46] وينبغي أن نلحظ هنا أن عبادة البعل هذه كانت قد بدأت في إسرائيل مع الملك سليمان، وأنها كانت تقوم بدور هام في عهد الملك عُمري (٨٧٦-٨٦٩ق.م.) والد الملك أخاب. ربما كان الملك عُمري، من الناحية الدنيوية، واحداً من أنجح ملوك إسرائيل. وقد استمر ابنه في سياسة أبيه وملك من سنة ٨٧٣ إلى ٨٥١ق.م.. وكانت إيزابل زوجة أخاب بنت ملك صيدون (سفر الملوك الأول ١٦ : ٣١) وهي مدينة مشهورة بتعاليها ولذلك أدينت. وقد قيّض لإيزابل أن تصبح رمزاً للمرأة التي تغري الناس بعبادة الأوثان (رؤيا يوحنا ٢ : ٢٠). كان عهد الملك أخاب فترة ازدهار عظيم في نظر النخبة في المملكة، لأن أخاب كان يستطيع امتلاك قصر من العاج في السامرة، عاصمة إسرائيل (سفر الملوك الأول ٢٢ : ٣٩).

وإذا ما نظرنا إلى الأمر من حيث سلوك أخاب، بدا فعلاً أن عبادة البعل كانت مسألة حياة أو موت. زاد آخاب أملاكهولم يتردد في قتل الناس ليتمكن من ذلك. وهنا يتبادر إلى الذهن مثال كرم نابوت الذي استولى عليه أخاب فوق جثة نابوت القتيل (سفر الملوك الأول ٢١ : ١-

١٩). فقد اتهم الأخير باطلاً بالتجديف على الله والملك فرُجم حتى الموت (سفر الملوك الأول ٢١:٨-١٦) فنزل أخاب إلى كرم نابوت وورثه. وقد كان من شأن إيزابل، عدوة إيليا أن هددته بالموت (سفر الملوك الأول ١٩:١-٢).

ظل إيليا ناشطاً كنبي مدة عشرين سنة بين ٨٧٠ و٨٥٠ق.م.. وقد قاوم هو والأنبياء الذين عقبوه الأنبياء «الكذبة» في السامرة عاصمة إسرائيل وفي القدس، عاصمة اليهودية، أولئك الأنبياء الذين أضلّوا الشعب وأصبحوا في الواقع أنبياء للبعل (سفر إرميا: ٢٣:١٣، ١٤). وقد أنبأ إيليا أخاب أن الله سوف يعاقب إسرائيل بجفاف يدوم عدة سنوات (سفر الملوك الأول ١٧:١؛ يعقوب ٥:١٧). ثم لما أمره الله زار إيليا الملك في السنة الثالثة من الجفاف، زيارة تحولت إلى مواجهة حاسمة بين إيليا وأنبياء البعل على جبل الكرمل، الواقع على الأراضي الحدودية بين إسرائيل وفينيقيا أي لبنان الحالي. طلب إيليا من الشعب أن يختار بين البعل الفينيقي وبين الله. كان الخلاف في هذه المجابهة بين إيليا وكهنة البعل على جبل الكرمل يدور حول شأنين أحدهما ديني والآخر اجتماعي-سياسي. كان الشق الثاني يتعلق بكون عامة الشعب كالأرامل، والأيتام، والمساكين، يُظلمون ظلماً بالغاً. وكانت مسألة العيش وفقاً لإيليا بالنسبة إلى إسرائيل هي: هل يتعبدون للبعل أم لله؟

وكانت المواجهة بين وجهتي النظر مذهلة. فقد اقترح إيليا أن يقوم هو وكهنة البعل الأربع مئة والخمسين بتقديم الأضاحي على جبل الكرمل كل على حدة. وكان على كهنة البعل أن يدعو باسم إلههم وأن يدعو إيليا باسم إلهه. فبدأ كهنة البعل بالدعاء من الصباح حتى الظهر: «يا بعل أجبنا! فلم يكن صوت ولا مجيب. وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عمل. وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال أدعوا بصوت عال

لإنه إله. لعلّه مستغرق أو في خلوة أو في سفر. أو لعله نائم فيتنبه[١]. فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم. واستمروا في ذلك حتى جاء وقت إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ». حانت الفرصة كي يبين إيليا ما يستطيع فعله. «تقدم إيليا وقال أيها الرب، إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل، ليعلم اليوم أنك أنت الله في إسرائيل وإني أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور. استجبني يارب، استجبني ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله وأنك أنت حوّلت قلوبهم رجوعاً. فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب. فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوهم وقالوا الرب هو الله، الرب هو الله!» (سفر الملوك الأول الإصحاح الثامن عشر؛ راجع سورة آل عمران: ١٨٣)[٢].

أراد إيليا أن يدفع الشعب على الاختيار بين عبادة الإله الذي لا يسمع، ولا يصغي، أو عبادة الله الذي يسمع ويفعل شيئاً، ينجّي ويحرر. فهذا البعل ليس إلها غير مجيب على الكرمل فحسب، بل هو إله غير سميع.

غير أن مآل الصدام بين إيليا وكهنة البعل يصدمنا: «قال لهم إيليا أمسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل، فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك». (سفر الملوك الأول ١٨ : ٤٠) قتّل أنبياء البعل بعد المواجهة بتحريض من إيليا.

---

(١) وفي القرآن يسخر إبراهيم أيضاً من عبدة الأصنام (سورة الأنبياء: ٥١-٧٠).

(٢) Rudi Paret, *Der Koran Kommentar und Konkordanz* (Stuttgart, etc: W. Kohlhammer, 1971), on Q 3: 183 [تفسير القرآن المفهرس]

هل كان هذا هو القصد؟ أي أن يذبح عبدة الآلهة الأخرى؟ هل الله إله صواعق؟ هل كان هذا المتحمّس المتصلب للإيمان بالله يفهم فهماً مناسباً من هو الله الحقيقي إذا رأى أن يذبح كهنة البعل بعد «فعله»؟ هل يمكن للقصة التي تعقبها مباشرة أن تقدم جواباً ضمنياً عن هذه الأسئلة؟

بعدما جرى على جبل الكرمل كان على إيليا نفسه أن يهرب. لِمَ ومِمَّ؟ يعود أحد الأسباب المؤكدة إلى أن أخاب وإيزابل كانا يريدان أن يجعلاه يدفع الثمن. ولكن أليس من الممكن أن تكون أفعاله نفسها هي التي حملته على الفرار؟ ألم يكن خوفه هو الذي حمله على ذلك؟ على أي أساس ادعى لنفسه حق قتل كهنة البعل؟ هل كان يجب محاربة عدم الإيمان بلا هوادة ولا مساومة كما في هذه القصة؟ هل كان سلوك إيليا مسوّغاً؟ هل هذا ما كان يجب فعله؟ هل كان ذلك قصد الله، قصد «المعركة من أجل الله» على قول كارين آرمسترونغ Karen Armstrong؟ أولم يتصرف إيليا هنا بنفس القدر من العنف الذي تصرفت به إيزابل حيال كهنة الله (سفر الملوك الأول ١٨ : ١٣)؟ هل يسوغ فعل إيزابل فعل إيليا أو يعذره؟

فعل إيليا ما فعله في أقصى شمال إسرائيل، على جبل الكرمل، ثم فرّ إلى أقصى الجنوب، لا بل إلى ما هو أبعد، إلى جبل حوريب في شبه جزيرة سيناء. بعد رحلة طويلة مريرة لمدة أربعين نهاراً وأربعين ليلة، بلغ الجبل الذي تسلم عليه موسى الوحي من الله. لجأ إيليا إلى مغارة سمع فيها صوتاً يقول له «أخرج وقف على الجبل أمام الرب» لأن الرب سوف يمر من هنا، «وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقّت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف فلما سمع إيليا [p.48]

لفّ وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة» (سفر الملوك الأول ١٩ : ١١-١٣).

ريح عظيمة، زلزلة، نار. في وسع المرء أن يقول إن الله كشف عن ذاته سابقاً على جبل الكرمل في مواجهة كهنة البعل، أي في النار التي نزلت من السماء. ألم تكن تلك استجابة لصلاة إيليا أن النار انقضت على الأضحية (سفر الملوك الأول ١٨ : ٣٨)؟ ولئن كان الله عندما ظهر على جبل حوريب لم يكشف عن نفسه عبر الريح العظيمة، ولا الزلزلة، ولا النار، فإن للمرء أن يتساءل إن لم تكن عبارة «بعد النار صوت منخفض خفيف» في هذه القصة لا تستعمل لتصحيح ما سبق ان افترضه إيليا على الجبل الآخر، جبل الكرمل. هل يكشف الله عن ذاته في صوت منخفض خافت، أم في صوت السكون اللطيف؟ من يتكلم هنا؟ ماذا يقول هذا الصوت المنخفض الخافت؟ كيف نفهمه. ربما استطاعت كلمات ت. إس. إليوت الغامضة أن تساعدنا في فهم هذا «السر» : «الصمت المسموع. الكلمة غير المنطوقة». هل ثمة تفسير أفضل لهذه المفارقة؟

تجارب دعوات أخرى

ويمكننا أن نشير هنا إلى تجارب دعوات أنبياء آخرين: فالنبي إشعيا يرى الله يظهر في الهيكل جالساً على عرش عال ومرتفع يملأ الهيكل كله، ويعتبر إشعيا نفسه هالكاً (سفر إشعياء ٦ : ١-٥). وحزقيال دعي في رؤية ظهر له الله فيها (سفر حزقيال ١-٣) خرّ على وجهه (سفر حزقيال ١ : ٢٨). أما دانيال فإن رؤى رأسه أفزعته فاضطرب ولم تبق فيه قوة وخرّ على الأرض أيضاً (سفر دانيال ٧ : ١٥؛ ١٠ : ٩). أما في حالة يسوع الفريدة، أي التجلّي على جبل تابور (إنجيل لوقا ٩ : ٢٨-٣٦)، فإن بطرس ويوحنا ويعقوب استولت عليهم الرهبة وسقطوا على

وجوههم خوفاً (إنجيل متى ١٧ : ٦) وثقل عليهم النوم (إنجيل لوقا ٩ : ٣٢). وقد تراءت لبولس رؤيا لدعوته في الطريق إلى دمشقسقط من جرائها على الأرض ثم قام مفتوح العينين لا يبصر شيئاً مدة ثلاثة أيام (سفر أعمال الرسل ٩ : ٤، ٩) أما يوحنا صاحب الرؤيا فقد رأى ابن الإنسان وسقط على الأرض كالميت (سفر الرؤيا ١ : ١٧). في هذه التجارب الموصوفة على أنحاء مختلفة في روايات الدعوة/ البعثة هذه، يواجه الكائن البشري بحدوده. والتجربة هي تجربة موت أيضاً. وهذا هو سبب عبارة «الإنسان لا يراني ويعيش» (سفر التكوين ٣٢ : ٣١؛ سفر الخروج ٣٣ : ٢٠؛ ١٩ : ٢١؛ سفر اللاويين ١٦ : ٢؛ سفر العدد ٤ : ٢٠؛ راجع سفر التثنية ٥ : ٢٤؛ سفر القضاة ٢٢ : ٢٣؛ سفر إشعياء ٦ : ٥). ومن هذا الموت يقام الإنسان ويوقف على قدميه بفعل روح الله نفسه (سفر حزقيال ٢ : ٢).

وهذا ما يتم التعبير عنه تعبيراً جيداً في صلاة المسلم. تبدأ هذه الصلاة بالوقوف للصلاة، ثم بالركوع فالسجود والاستسلام كلياً لله قبل النهوض ثانية. ويمكّن الإنسان الذي أسلم وجهه لله في ثقة كلية من النهوض على رجليه ثانية وأن يكون خليفة لله على الأرض.

تشير المشاهد المذكورة أعلاه على نحو مثالي إلى ما يحدث لكل من يسمع كلمة الله. «فالإنسان يسمع الله إذ يختطفه الروح خارج نفسه؛ وهو يسمع ويفهم الله في الله ومن خلال الله. والذي يرى الله، في هذه الأمثلة المثالية، يختطف عبر رؤيته [p.49] وتستحوذ عليه الطاعة فيصبح أداة للكلمة وفعل الله»[١].

---

(١) Hans Urs von Balthasar, *Herrlichkeit: Eine Theologische Aesthetik. Band III/2 Theologie, Teil I, Alter Bund*, 2nd ed. (Einsiedeln: Johannes Verlag, 1989), pp.14-15 [الربوبية: إسطاطيقا لاهوتية]

بعثة النبي محمد

دعي محمد أيضاً ليكون نبياً. وتنطوي دعوته على تجارب سمعية وبصرية: ما يسمعه (سورة العلق) وما يراه في هذه المناسبة (سورة النجم: ١-١٨). تشبه تجارب محمد شبهاً لافتاً تجارب الأنبياء الأسبقين، كإشعيا الذي سمع صوتاً يقول «نادِ!» فيسأل إشعيا «بماذا أنادي؟» (سفر إشعيا ٤٠: ٦). تستعمل الكلمات ذاتها لرواية ما حدث لمحمد. كان محمد يعتكف كل سنة في غار بجبل حراء القريب من مكة، مسقط رأسه، وهو جبل شبيه من حيث المشهد بجبل سيناء حيث تلقى موسى وإيليا الوحي من الله. لما قارب الأربعين من عمره (حوالي سنة ٦١٠)، سمع فجأة صوتاً في ذلك الغار، «جبل النور»، يقول: «إقرأ» ومثلما فعل النبي إشعيا، سأل محمد: «ماذا أقرأ؟» فيقول ملاك الله: «إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» (سورة العلق: ١-٥). وعندما قيل له أن يقوم وينذر الآخرين، تدثّر كالنبي إيليا عندما سمع صوت الله «المنخفض الخافت». كذلك غطى محمد وجهه بدثاره.

فوجئ محمد بأن «الله» *يخاطبه*. فلا عجب من أن تدهشه هذه التجربة الأولى كثيراً، حتى إنه فكر بوضع حد لحياته، خوفاً من أن يكون به مس أو أن يكون مسكوناً بجان. ولم يقم أحد أقل من زوجته خديجة بتشجيعه وتثبيت دعوته. وقد نصحته باستشارة ابن عمها ورقة بن نوفل الذي يُظن أنه كان مسيحياً. أكّد دعوة محمد وقال إن الشيء الذي قد أوحي إليه: «الناموس هو ما أوحي به لموسى. إذا كنت يا خديجة، صادقة في ما تخبرين، فإن الناموس الأعظم الذي جاء موسى قد جاء

محمداً وإن محمداً لنبي هذه *الأمة*»[1]. ولما كان القرآن لا يذكر أي نبي آخر قدر ما يذكر موسى (١٢٠ مرة) فإن ردة فعل ورقة ابن نوفل ابن عم زوج محمد ليس مفاجئاً! فموسى هو صورة سبقية لمحمد الذي خصّ بمقابلة الله أيضاً، ورأى الله حسب أحد التفاسير مستوياً على عرشه (سورة النجم: ٦، ٧؛ راجع سفر العدد ١٢: ٦-٨).

وبعد فترة دامت حوالي ستة أشهر عقبت شيئاً من الوحي ظهر جبرائيل لمحمد ثانية. رأى محمد في الأفق المبين الله أو عبد الله جبرائيل الذي اقترب حتى بات قاب قوسين أو أدنى (سورة النجم: ١-١٨). اقتنع محمد الآن بأنه غير مسكون بالجان (سورة التكوير: ٢٢، ٢٣؛ سورة الأعراف: ١٨٤). رأى فؤاد النبي هذا الكائن شديد القوى عند سدرة المنتهى، وهي تجربة تحدث في [p.50] الأفق الأعلى قرب جنّة المأوى (سورة النجم: ١٥؛ راجع سورة الأعراف: ١٩-٢١)[2].

يقال إن محمداً قد عرف التجربة التي مرّ بها النبي إرميا (سفر إرميا ٢٠: ٧)، أن الله قد غلبه فكان عليه أن يتكلم: «[محمد] علّمه شديد القوى» (سورة النجم: ٥). وكما في حال إرميا، إن ما كان على محمد أن يعلنه كان عكس أفكاره الإنسانية، ورغائبه وتفضيلاته الخاصة. وفي صريح النص أن الوحي الذي أوحي إلى محمد لم يأت من فؤاده ولا من صنعه. ونحن نسمع الشيء نفسه عن موسى، أن ذلك لم يكن من فكره، ولا هو تكلم من قبل سلطته (سفر العدد ١٦: ٢٨)، كما أن

---

(١) Alfred Guillaume, *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's Sirat RasulAllah*, reprint (Lahore, Karachi, and Dacca: Oxford University Press, 1967), p. 107 [ترجمة سيرة رسول الله]

(2) *E. Q. s.v.* "Moses"

حزقيال يتكلم بقوة ضد الذين يتنبأون من تلقاء ذواتهم (سفر حزقيال ١٣ : ٢). يغلب على محمد شعور غامر بالامتنان. والامتنان هو عكس النكران، كما أن الإيمان هو عكس الكفر. والمعنى الأصلي للكفر هو أن الكافر يكفر بالنعمة وينكرها. ومحمد يملأه الامتنان لأن الله يهتم به، ويرأف به ولم ينسه: «ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى؟» وهنا يؤمر محمد بحضّ قومه: «فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدّث». (سورة الضحى: ٦-١١). ومن تلك اللحظة تصبح حياة محمد وسلوكه خاضعة لما كلفه الله به.

محمد وإبراهيم

ذُكرأيضاً إن محمداً التقى إبراهيم يوم قام بالمعراج والتقى بأنبياء أقدم عهداً. وذكرإنه قال يومها إنه لا يشبه أحداً قدر ما يشبه إبراهيم. وقد أرشد محمد بخاصة أن يتبع ديانة إبراهيم الذي يعتبر ممثلاً لأنقى صور عبادة الله ويوضع نقيضاً لعبدة الأوثان (سورة آل عمران: ٩٥؛ سورة الأنعام: ٧٩، ١٦١؛ سورة يونس: ١٠٥؛ سورة النحل: ١٢٠، ١٢٣؛ راجع سورة الحج ٣١). يريد اليهود والمسيحيون أن يكون محمد يهودياً أو مسيحياً، ولا يقبلون بما يقول إلا عندما يكون كذلك (سورة البقرة: ١٣٥). وهنا ينشأ السؤال الخطابي: هل يظنون أن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وأبناء إسرائيل كانوا يهوداً أو مسيحيين (سورة البقرة: ١٤٠)؟ والواقع أن مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس (حوالي ٢٦٠ - حوالي ٣٤٠م) قال فعلاً إن إبراهيم يمكن أن يعتبر مسيحياً «بالفعل إن لم يمكن ذلك بالإسم»[1]. ولكن القرآن يجيب «يا أهل

(1) *E. Q. s.v.* Christians and Christianity

الكتاب لِمَ تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده؟» (سورة آل عمران: ٦٥). ثم يتابع «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً (سورة آل عمران: ٦٧؛ راجع سورة الأنعام: ٧٩). ولفظ حنيف من الألفاظ التي ربما كانت مستعارة من السريانية أو الآرامية. وهو في المصطلح المسيحي لفظ قدحي يعني «وثني». وقد تسامى القرآن بهذا اللفظ: فمن إبراهيم «الوثني» ولد إبراهيم الحنيف المسلم الوجه لله: المؤمن الحقيقي [p.51] تطور من كلمة حنفا (راجع رسالة بولس إلى أهل رومية ٤: ١٠-١٢)[١]. إن مزيج الحنيف والمسلم يوضح أن معنى كلمة «مسلم» هنا لا تحيل إلى العضو في الأمة الإسلامية بالمعنى السوسيولوجي للكلمة، مثلاً، بل هو يحيل إلى إسلام الوجه للدين القويم، الحنيف، إسلام الوجه لله. هذا هو دين الفطرة، الذي فطر الله عليه الإنسان. وهذا هو الدين «القيّم» (سورة الروم: ٣٠). «دين الفطرة» يعني الدين الأصلي أو عبادة الله الفطرية خلافاً للأديان التي نشأت لاحقاً: كتعدد الآلهة من جهة وأديان أهل الكتاب من جهة ثانية[٢].

يسوع يكمّل التوراة

يبيّن تاريخ الكنيسة مدى خطورة الفصل بين العهد الجديد والعهد القديم. وقد برزت فكرة، ما يزال لها أنصار، مفادها أنه مع مجيء

---

(١) Martin Bauschke, *Der Spiegel des Propheten: Abraham im Koran und im Islam* (Frankfurt am Main: Lembeck, 2008), pp.47, 48; cf. Arthur Jeffery, *The Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Baroda Oriental Institute, 1938), p.115 [مرآة الأنبياء: إبراهيم في القرآن وفي الإسلام]؛ [الألفاظ الدخيلة في القرآن]

(2) *SEI, s.v. hanif*

المسيح فإن أمته، أي كنيسته، قد حلّت محل الشعب اليهودي. وبهذا يمكن النظر إلى العهد القديم باعتباره عديم الأهمية أو الدلالة بالنسبة إلى الكنيسة: وتأخذ عبارة «القديم» معنى «الذي عفا عليه الزمن»، أو «اللاغي». إن هذا الإلغاء للعهد القديم قد أضحى يقيناً من الأسباب التي تفسر اللاسامية (العداء لليهود) المستند إلى المسيحية: فإذا لم تكن ثمة حاجة إلى اليهود دينياً ولا كانت ثمة حاجة لوجودهم، فلا يبقى إلا خطوة صغيرة لتهديد بقائهم المادي.

ولكن هذا الموقف من «الكتاب المقدس اليهودي»، إنما هو سوء تفسير لحياة يسوع وأعماله. فقد عاش يسوع، على الضد من ذلك، لتكملته (متى ٥ : ١٧). ويصرح القرآن أيضاً بأن يسوع/ عيسى جاء «مصدّقاً» للتوراة (سورة آل عمران: ٥٠، سورة المائدة: ٤٦، سورة الصف: ٦). إن صورة القربةالجلدية المعدة لنقل الماء، كتلك التي ما تزال تستعمل في الشرق الأوسط، يمكن أن تفيد في هذا المجال. فإذا ما تذكرنا منظر قربةالماء الفارغة، فمن الجائز أن يتساءل الإنسان عما يمكن أن ينفع هذا الشيء المقزز أصلاً. ولكن متى امتلأت القربة ماء يرى المرء فوراً حاجته إليه! يسوع يكمل التوراة، ويجسدها، وهو التوراة نفسها وقد صارت جسداً (راجع إنجيل يوحنا ١ : ١٤). وهو يبيّن في حياته وأعماله كيف ينبغي أن تفهم التوراة، وبخاصة كيف ينبغي أن يعمل بها، قبل كل شيء.

هذا هو مدار النقاش المذكور في قصص الإنجيل بين يسوع/ عيسى والفريسيين وأرباب الناموس. فهو ليس نزاعاً بين يهودي ومسيحي، لأن يسوع كان يهودياً. والخلاف هو في جوهره نقاش يهودي داخلي حول تفسير التوراة وفهمها. فعندما سأل أحد علماء الناموس يسوع: ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ سأله يسوع: ما هو مكتوب في الناموس؟

أجاب الرجل: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك. فقال له بالصواب أجبت. إفعل هذا فتحيا. ولكن الرجل مضى في النقاش إلى أبعد من ذلك، فسأل: ومن هو قريبي؟ فأجاب يسوع/عيسى بمثل، هو مثل السامري الصالح (لم يكن اليهود والسامريون على علاقات طيبة) قال: إنسان كان نازلاً من أورشليم/القدس إلى أريحا فوقع بين لصوص فعرّوه وجرّحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت. فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاويّ (شخص أدنى مرتبة من الكاهن) إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنّن. فتقدم وضمد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته وأتى به إلى نزل واعتنى به. [p.52] فلما فرغ يسوع من رواية المثل، عاد إلى السؤال الذي طرحه عالم الناموس(من هو قريبي؟) وقلَبَه وسأل: «أي هؤلاء الثلاثة صار قريباً للجريح؟» فما كان من الناموسي الذي ما كان يقدر على التلفظ باسم السامري الكريه إلا أن كنّى عنه قائلاً: «الذي صنع معه الرحمة». فقال له يسوع/عيسى: «إذهب أنت أيضاً واصنع هكذا» (إنجيل لوقا ١٠ :٢٥-٣٧). الناموسي الذي يجادل يسوع/عيسى يعرف تماماً ما تقوله التوراة. ولا اختلاف في الرأي بين المسيح وبينه في هذا الموضوع. ولكن الخلاف يدور حول القيام بما يجب. والمحك الحقيقي ليس استقامة المذهب بل استقامة العمل. فالمسيح يطلب أن يمارس في الواقع ما أعطاه هو من جواب.

محمد وأسرة الأنبياء

لئن كان من الممكن الافتراض بأنه لا بد للصلة بين العهد القديم والعهد الجديد من أن تظل قائمة بالنسبة إلى من يريد أن يظل مقيماً في

التقاليد المسيحية واتّباع المسيح، فهل يصح هذا أيضاً بالنسبة لليهود والمسيحيين في ما يخص القرآن؟ للإجابة عن هذا السؤال من المهم جداً أن نفهم أن الأمر في حالة محمد يتعلق بالتوراة نفسها وبالالتزام بها. فالوحي الجديد الذي جاء به محمد مصدّق للتوراة (سورة آل عمران: ٣؛ سورة البقرة: ٨٩، ٩٧، ١٠١؛ سورة النساء: ٤٧). كان موسى «رسولاً نبيّاً» (سورة مريم: ٥١). محمد هو النبي الأمي، بمعنى أنهم لم يتلقوا أي كتاب منزل. ومحمد يلهمهم أن يعملوا المعروف ويأمروا به ويجتنبوا المنكر وينهوا عنه ويحلُّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبيث (سورة الأعراف: ١٥٧).

منذ الجريمة الأولى، يوم قتل قابيل/قايين أخاه هابيل (سفر التكوين ٤: ١-١٦؛ سورة المائدة: ٢٧-٣١) وانقسام البشرية وبداية نهج التدمير، أرسل الله الأنبياء. كان الناس في البداية أمة واحدة، ولكن يوم وقع فيهم الانقسام أنزل الله «الكتاب» و«الحكمة» ليحكم بينهم. والمعنى الأصلي للفعل الذي اشتقت منه الحكمة يفيد الحكم والتقرير. وينبغي للحكمة أن تفهم باعتبارها حكمة عملية أولاً[١]. أرسل الرسل الواحد تلو الآخر (سورة البقرة: ٨٧؛ سورة المؤمنون: ٤٤). الأنبياء كلهم يتحدرون من ذرية آدم ومن ذرية إبراهيم (سورة مريم: ٥٨؛ راجع سورة الأنعام: ٨٤)؛ وهم يشكلون أسرة من الأنبياء المتصلين بالنسب (سورة آل عمران: ٣٣، ٣٤). ويختص بعض الأنبياء بسمات خاصة. فإبراهيم يوصف بخليل الله[٢] (سورة النساء: ١٢٥). أباح الله لموسى أن يقترب منه ليناجيه (سورة مريم: ٥٢)، وكلّمه تكليماً (سورة النساء: ١٦٤؛ سفر

(1) *E.Q. s.v.* "Wisdom", "Book"

(٢) حبرون بالعبرية.

العدد ١٢: ٨). وفي وقت لاحق منح محمد في التقاليد الإسلامية لقبه الخاص: حبيب الله. وقد فضّل الله بعض الرسل على بعض: من ذلك أن الله قد أيّد عيسى/ يسوع بروح القدس (سورة البقرة: ٨٧، ٢٥٣).

أمة واحدة

يمكن أن تشير كلمة أمة في القرآن إلى الأمم الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والمسلمة. والأمم الثلاث [p.53] هم أهل كتاب: التوراة الموحى إلى موسى، والإنجيل الموحى إلى عيسى/ يسوع، والقرآن الموحى إلى محمد. وقد علّم الله عيسى/ يسوع «الكتاب، والحكمة، والتوراة والإنجيل» (سورة آل عمران: ٤٨؛ راجع سورة المائدة: ١١٠؛ سورة الحديد: ٢٧)[1] أنزل على محمد قرآناً عربياً مصدقاً للذي بين يديه، لينذر *أم القرى*، مكة ومن حولها (سورة الشورى: ٧؛ سورة الأنعام: ٩٢). إبراهيم وإسماعيل اللذان رفعا قواعد البيت بمكة صلّيا معاً «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (سورة البقرة: ١٢٧-١٢٨). وينبغي لهذه الأمة ألا تفهم بالمعنى الضيق كأمة مسلمة حصرية بل كأمة يمكن أن تنتمي إليها الأمم الثلاث-اليهودية، والمسيحية، والمسلمة-أمة تضم الأمم الثلاث والناس كلهم في النهاية. وادعاء الانتساب الحصري إلى إبراهيم مرفوض (سورة آل عمران: ٦٧). ولكل أمة رسول بعث إليها (سورة يونس: ٤٧) يبشرهم بالبشرى الطيبة وينذرهم. وقد جعل الله لكل أمة منسكاً يلتزمون به (سورة الحج: ٦٧، ٣٤)، كما جعل لها شرعة ومنهاجاً (سورة

---

(1) *E.Q. s.v.* Gospel

المائدة: ٤٨)، أي «طريقة عيش»[١] وقد كانت حركة يسوع/ عيسى عرّفت في أوائلها بأنها «الطريق» وكان المسيحيون يدعون «أصحاب الطريق» (سفر أعمال الرسل ٩: ٢؛ ١٩: ٩؛ ٢٢: ٤؛ ٢٤: ١٤، ٢٢). كذلك سُمِّيت ديانة محمد «شريعة» (سورة المائدة: ٤٨) (طريقاً)، بمعنى أن الله وضع محمداً على الطريق الواضح، البين، الصحيح[٢].

الإنجيل مصدِّق للتوراة كما أن القرآن يصدِّق التوراة والإنجيل

يشدّد القرآن تكراراً على أن محمداً مصدّق لما أنزل من قبله. لقد نزّل الله عليه الكتاب، القرآن، بالحق، مصدقاً لما بين يديه مما أوحي من قبل لهداية الناس (سورة آل عمران: ٣-٤). كل الكتب متصلة بعضها ببعض بسلسلة الوحي نفسها. وهكذا صدّق يسوع/ عيسى التوراة (سورة المائدة: ٤٦). ونظراً لأن القرآن يصدّق كلا التوراة والإنجيل يطلب من أهل الكتاب، من مسيحيين ويهود، أن يفعلوا الشيء نفسه حيال القرآن (سورة النساء: ٤٧؛ راجع سورة البقرة: ٤١). وكما صرّح بولس الرسول بقوة أنه يؤمن بكل ما يتفق مع الناموس (التوراة) وما جاء في الأنبياء (أعمال الرسل ٢٤: ١٤)، يقرأ المرء في القرآن: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون» (سورة المائدة: ١٣٦) وفي يوم الحساب، يحاسب الناس وفقاً لإيمانهم في الرسل الذين أرسلوا إليهم

(1) Jeffery, *The Foreign Vocabulary*, p. 273. *E.Q. s.v.* Community and Society
(2) *E.Q. s.v.* Religious Pluralism

(سورة الزمر: ٧١؛ سورة الملك: ٨؛ سورة غافر: ٥٠؛ سورة الأنعام: ١٣٠). ما أنزل من الكتب السابقة يظل قائماً بالنسبة إلى المسلمين. والديانة التي أنزلت على من سبق من الأنبياء لم تزل هي نفسها التي أنزلت على محمد: «شرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً وما أوحى به إلى محمد، وما [p.54] وصى به إبراهيم، وموسى، وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» (سورة الشورى: ١٣). وتحيل الجملة الأخيرة إلى الاختلافات بين اليهود والمسيحيين وإلى تلك القائمة بين المسيحيين أنفسهم (سورة آل عمران: ١٠٥؛ سورة مريم: ٣٧)[1].

يعتبر محمد نبياً تتجاوز رسالته حدود شعب واحد. فقد بعث رسولاً إلى الناس (سورة النساء: ٧٩) وهو قد أرسل «رحمة للعالمين» (سورة الأنبياء: ١٠٧).

إن الصلة التي يراها محمد بين القصص القرآنية عن الأنبياء وقصصهم في التوراة هي السبب في دعوته اليهود والمسيحيين إلى تصديق صحة التلميحات والإحالات القرآنية إلى الأنبياء الأقدمين. وينصح للمسلمين، بدورهم، إن لم يفهموا أو يعرفوا شيئاً أن يسألوا «أهل الذكر» ليستوضحوا منهم. وتشير عبارة «أهل الذكر» إلى الذين يمتلكون معرفة واسعة في التوراة والإنجيل، ويعرفونه أفضل من الجميع، ولهم اطلاع عميق على تاريخ الإنبياء عبر معرفتهم بكتبهم. والذِكر هو أيضاً الاسم المستعمل للقصص القرآنية التي كان يتلوها محمد لقومه كقصة ذي القرنين (سورة الكهف: ٨٣) أي الاسكندر الكبير[2]. غير أن عبارة الذِكر

(1) Paret, *Der Koran*, on 19: 17

(٢) راجع الفصل التاسع.

تستعمل أيضاً للدلالة على التنزيل كله (سورة النحل: ٤٤). ويمكن أن تسمع توصية محمد لقومه بأن يحفظوا قصص الأنبياء الأقدمين، وأن يذكروا قصة مريم (سورة مريم: ١٦) وإبراهيم (سورة مريم: ٤١). والغرض من مختلف الدعوات لذِكر الله، هو تذكر الله الخالق والحافظ للبشرية والخليقة بأسرها. ويمكن أن يشار لذلك إلى حوادث من الماضي باعتبارها أمثلة متعددة على رحمة الله وألطافه. ويكرر القرآن تذكير البشر بأنهم ينسون الله باستمرار. وهذا ما يتسم به الإنسان المطبوع على النسيان: ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (سورة الرعد: ٢٨)[1].

ويطلق القرآن لفظ النبأ والأنباء على قصص الأنبياء التي يطلب من محمد أن يتلوها. وهذا ما تسمى به قصة قابيل/ قايين وهابيل ابني آدم (سورة المائدة: ٢٧؛ سفر التكوين ٤: ١-٦)، ونبأ نوح (سورة يونس: ٧١؛ سفر التكوين ٥-٩)، ونبأ إبراهيم (سورة الشعراء: ٦٩؛ سفر التكوين ١٢ وما يليه). أنباء ما قد سبق تقصّ على هذا النحو (سورة طه: ٩٩). وتوصف بعض القصص بأنها من «أنباء الغيب»، لأن حوادثها جرت منذ زمن بعيد ولم يكن النبي حاضراً ليشهدها. من هذه الأنباء نبأ مريم: إن الله اصطفى مريم وطهرها واصطفاها على نساء العالمين (سورة آل عمران: ٤٢؛ راجع إنجيل لوقا ١: ٢٦-٣٨، ٤٢؛ راجع سورة يوسف: ١٠٢). علاوة على هذه القصة، ينطبق هذا اللفظ أيضاً على قصة نوح (سورة هود: ٤٩؛ سفر التكوين ٦-٩)، ويوسف (سورة يوسف: ١٠٢؛ سفر التكوين ٣٧-٤٧)، وموسى (سورة

(١) *E.Q. s.v.* Remembrance. عن عواقب ذلك أنظر سورة المائدة: ١٢-١٤

القصص: ٣؛ سفر الخروج، وسفر التثنية) وداود (سورة ص: ٢١؛ سفر صموئيل الأول ١٦-٢)، وفتية أفسس السبعة (أهل الكهف) (سورة الكهف: ٩-١١). والنبأ الأخير إحالة إلى قصة مسيحية عن سبعة فتية نجوا من اضطهاد المسيحيين أيام الإمبراطور الروماني ديسيوس (٢٤٩-٢٥١م). فقد اختبأ سبعة شبان في كهف قرب أفسس وناموا فيه مدة ٣٠٩ سنين! وقد اكتشف أمرهم بعد أن أفاقوا لأنهم [p.55] حاولوا شراء بعض الزاد، في ما يبدو، بعملة قديمة باطلة[١]. وهذه القصص والأنباء كلها إنما تقصّ على محمد لتثبيت فؤاده (سورة هود: ١٢٠) وإلقاء الموعظة والتذكير بعاقبة المعصية وما تستجره من خراب على مدن كسدوم وعموره (سورة الأعراف: ١٠١؛ سورة التوبة: ٧٠). ولكن جمهور المكيين غير المؤمنين ما كانوا يسمعون وكانوا يعتبرون هذه القصص من أساطير الأولين (سورة الأنفال: ٣١؛ سورة الأنعام: ٢٥؛ سورة المؤمنون: ٨٣؛ سورة النمل: ٦٨؛ سورة الأحقاف: ١٧؛ سورة النحل: ٢٤؛ سورة الفرقان: ٥؛ سورة القلم: ١٥؛ سورة المطففين: ١٣)[٢]. قصص العقوبات التي أنزلت بالشعوب والمدن هي في الوقت نفسه انعكاس لوضع محمد نفسه في مكة قبل الانتقال منها إلى المدينة سنة ٦٢٢، يوم عانى هو نفسه من الاضطهاد والنبذ. وقد أنزلت على محمد قصص نبذ الأنبياء السابقين خلال فترة تعرضه للنبذ كي يتشجع ويتقوّى[٣].

كلّف موسى وهارون بأن يبشّرا المؤمنين (سورة يونس: ٨٧). وجاء

(1) *E.Q. s.v.* "Ashab al Kahf"

(2) Jeffery, *The Foreign Vocabulary*, pp. 56-57. Paret, *Der Koran*, pp. 137-38

(3) *E.Q. s.v.* Prophets and Prophethood; News

يسوع/عيسى مصدقاً للتوراة التي سبقته وبشّر «برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» (سورة الصف: ٦)، وهو ما يعتبر بشارة بمجيء محمّد[١].

وهكذا يأتي الأنبياء برسالة مزدوجة (سورة البقرة: ٢١٣؛ سورة النساء: ١٦٥؛ سورة الأنعام: ٤٨؛ سورة الكهف ٥٦): ولذلك كان محمد بشيراً ونذيراً، بشيراً لمن عمل الصالحات ونذيراً لمن كفر (سورة البقرة: ١١٩؛ سورة النساء: ١٩؛ سورة الأعراف: ١٨٨؛ سورة يونس: ٢؛ سورة هود: ٢؛ سورة الإسراء١٠٥؛ سورة مريم: ٩٧؛ سورة الفرقان: ٥٦؛ سورة الأحزاب: ٤٥؛ سورة سبأ: ٢٨؛ سورة فاطر: ٢٤؛ سورة الفتح: ٨). أما وجه الإنذار فيتناول إطلاع الناس على المخاطر الرهيبة التي تنتظرهم إن لم ينصلحوا، إذ يجب أن يكونوا على بيّنة. وتنطوي رسالة محمد على إنذار كذلك الذي جاء به من خلا من الرسل من قبله (سورة النجم: ٥٦). وللقرآن الوظيفة المزدوجة نفسها، فهو بشير ونذير (سورة فصلت: ١-٤)[٢].

ينبغي للبشر أن يكتفوا بدرس الكتاب وتفسيره أو تدريسه لسواهم من البشر إذ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن كونوا ربّانيين» (سورة آل عمران: ٧٩)[٣]. وهكذا ينبغي للناس ألا يعتبروا النبي ربّاً لهم من دون الله. ذلك أن البشر، وبخاصة «رجال الله» قد اكتسبوا على مر التاريخ القدرة على الحكم والفهم للفصل في النزاعات المتعلقة بشؤون العقيدة

(١) راجع إنجيل يوحنا ١٤: ٢٦. وتعتبر هذه إشارة إلى محمد الذي يعني اسمه أنه «ممدوح».
(2) *E.Q. s.v.* Good News, Warner
(٣) Jeffery, The Foreign Vocabulary, pp. 137-38. ولعل كلمة ربانيين تتحدر من أصل سرياني.

ونصرة الحق على الباطل. ولذلك أنزل الكتاب إلى محمد بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله (سورة النساء: ١٠٥). ويؤمر محمد بأن يحكم في مسائل الخلاف مع أهل الكتاب، وبخاصة اليهود في المدينة (سورة المائدة: ٤٨)؛ غير أن الحكم النهائي يرجع إلى الله في أي خلاف (سورة النمل: ٧٦، ٧٨؛ راجع سورة المائدة: ٤٨-٤٩)[١]. [p.56]

الله وحده هو الحكيم، يمتلك الحكمة ويؤتي الحكمة من يشاء (سورة البقرة: ٢٦٩): إبراهيم وآله (سورة النساء: ٥٤)، وداود (سورة البقرة: ٢٥١؛ سورة ص: ٢٠)، وعيسى/يسوع (سورة المائدة: ١١٠؛ سورة الزخرف: ٦٣)، ومحمد (سورة النساء: ١١٣). والحكمة وحي يوحى أيضاً (سورة الإسراء: ٣٩). والقرآن نفسه يوصف بأنه حكيم (سورة يس: ٢)، لأن الحكمة مضارعة للكتاب. ويصح الأمر نفسه بالنسبة إلى التوراة والإنجيل (سورة آل عمران: ٤٨؛ سورة المائدة: ١١٠). والله يعلّم الكتاب (سورة آل عمران: ٤٨) والحكمة (سورة البقرة: ٢٣١). وعلى الرسول أو النبي أن يعلّم الناس الكتاب والحكمة (سورة البقرة: ١٥١؛ سورة الزخرف: ٦٣) أو أن يتلو الكتاب والحكمة على الناس (سورة الأحزاب: ٣٤؛ سورة الجمعة: ٢)[٢].

موقف اليهود والمسيحيين من مسألة نبوة محمد

محمد حلقة في سلسلة الأنبياء الذين أرسلوا إلى الأمم السالفة، سلسلة تضم نوح، وإبراهيم، ويسوع/عيسى (سورة الأحزاب: ٧)،

---

(١) حول الآية ٧٩ من سورة آل عمران راجع .Paret, Der Koran, pp. 73-74
(2) *E.Q. s.v.* Wisdom, Book

ومحمد هو خاتم النبيين (سورة الأحزاب: ٤٠) ومصدق الأنبياء السالفين[1].

وما هو إلا «رسول قد خلت من قبله الرسل» (سورة آل عمران: ١٤٤). وهو من هذه الناحية مساو لبعض الرسل السابقين في السلسلة، كالمسيح، الذي يقال إنه كان رسولاً «قد خلت من قبله الرسل». وقد بعث الله أنبياء آخرين «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. والغاية من التنزيل وبعثة الأنبياء هي هي بالنسبة للجميع: «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين» (سورة الأنعام:٤٨). وبذلك يستمر نموذج الأنبياء السالفين في بعثة محمد.

وقد أوصي الأنبياء كلهم بإقامة الدين واجتناب التفرق فيه فرقاً مختلفة (سورة الشورى: ١٣). ولهذا السبب يشدد القرآن على أن يؤمن الناس بكل ما أنزل إلى الأنبياء وألا يفرّقوا بين أحد منهم. (سورة البقرة: ١٣٦، ٢٨٥؛ سورة آل عمران: ٨٤). والرسالة التي أنزلت إلى النبي محمد هي في جوهرها نفس الرسالة الموجودة في الكتب المنزلة إلى من خلا من الأنبياء. والكتاب الذي أوحي إلى محمد مصدّق لما بين يديه (سورة فاطر: ٣١؛ راجع سورة آل عمران: ٣؛ سورة المائدة: ٤٨؛ سورة الأنعام: ٩٢). وقد أوحي من قبله كتاب موسى، التوراة، إماماً ودليلاً على رحمة الله «لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين» (سورة الأحقاف: ١٢؛ راجع سورة الأحقاف: ٣٠). وعلى النحو نفسه جاء يسوع/عيسى مصدّقاً للتوراة التي أنزلت من قبله (سورة

---

(١) Horowitz cited by Heinrich Speyer, *Die Biblischen Erzählungen im Qoran* (القصص التوراتية في القرآن) (Darmstadt; Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1962), pp.422-23

آل عمران: ٥٠؛ سورة المائدة: ٤٦؛ سورة الصف: ٦؛ وانظر إنجيل متى ٥: ١٧). وعلى النحو نفسه جاء محمد مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

وعلى خلاف ذلك، فإن اليهود والمسيحيين الذين كان على محمد أن يتعامل معهم مباشرة قد طلبوا منه أن يتبع ملّتهم، ولم يرضوا عنه طالما لم يفعل ذلك (سورة البقرة: ١٢٠). وقد كان عدم إيمان اليهود أو أهل الكتاب ببعثة محمد النبوية موضع إدانة قوية لأن القرآن جاء مصدّقاً صراحة للكتب السابقة عليه. فلِمَ لم يفعل اليهود والمسيحيون الشيء نفسه بالنسبة إلى القرآن؟ وقد لُعن اليهود والمسيحيون لأنهم ينكرون عن قصد المهمات التي نصت عليها كتبهم، أي الإيمان بنبوة محمد (سورة البقرة: ٨٩، ٩١، ١٠١؛ سورة النساء: ٤٧). ويلام اليهود لأنهم قتلوا [p.57] أنبياءهم ونكلوا بهم (سورة آل عمران؛ سورة البقرة: ٦١، ٨٧، ٩١؛ سورة النساء: ١٥٥؛ سورة المائدة: ٧٠)، ويلام المسيحيون على رفضهم الأنبياء الذين بعثوا إلى اليهود (راجع سورة البقرة: ١١٣). يجب الاعتراف بكل الأنبياء الذين أرسلهم الله لأن نبوتهم تظل قائمة. وفضلاً عن قتل أنبياءهم والتنكيل بهم يلام اليهود أيضاً على عدم اتباع توراتهم (راجع سورة الجمعة: ٥)، التي «فيها هدى ونور يحكم بها النبيون» (سورة المائدة: ٤٤). ويلام المسيحيون لأسباب مماثلة: فأهل الكتاب لا يتبعون التوراة والإنجيل (سورة المائدة: ٦٨) بل نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم (سورة البقرة: ١٠١؛ سورة آل عمران: ١٨٧). ولكن لأهل الكتاب فرصة للفوز بالمغفرة إن هم أقاموا التوراة والإنجيل. «ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا» لكفّر الله عنهم سيئاتهم (سورة المائدة: ٦٥-٦٦)[1].

(1) *E.Q. s.v.* Jews and Judaism

هل محمد من الأنبياء؟

يعترف القرآن بأن التوراة والإنجيل وحي من الله ولذلك يسمي اليهود والمسيحيين «أهل الكتاب». ويرى محمد أنه ينتمي إلى سلسلة الأنبياء نفسها. ومن اليهود من يفرح بما أنزل إلى محمد «ومن الأحزاب من ينكر بعضه» (سورة الرعد: ٣٦). ومن اليهود والمسيحيين من يؤمنون برسالة محمد (سورة القصص: ٥٢، ٥٣؛ سورة البقرة: ١٢١؛ سورة العنكبوت: ٤٧؛ سورة آل عمران: ١٩٩؛ سورة الأنعام: ١١٤). ومن أهل الكتاب، من بين يهود ومسيحيين، «أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسرعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (سورة آل عمران: ١١٣-١١٤). وهم يعرفون الكتاب (سورة الرعد: ٤٣)ويجب لذلك أن يعدّوا إخوة في الإيمان (سورة العنكبوت: ٤٦). والقرآن يصدّق التوراة والإنجيل (سورة آل عمران: ٣-٤). يدعى أهل الكتاب إلى الإيمان بالقرآن (سورة النساء: ٤٧؛ سورة البقرة: ٤١). ونظراً لكون أهل الكتاب قد تلقوا التنزيل الإلهي من قبل، فإنه يفترض فيهم أن يجدوا في محمد رسولاً حقيقياً من رسل الله والاقرار بأنه يأتي بالكتاب نفسه، وإن اختلف النص، والرسالة نفسها من الله، والهداية نفسها للبشر[(١)].

غير أن موقف اليهود والمسيحيين من القرآن مختلف عن هذا عادة. يقول القرآن إن أهل الكتاب يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق (سورة آل عمران: ٧١). وقد اتخذ هؤلاء الدين الجديد هزءاً ولعباً أيام محمد

---

(1) *E.Q. s.v.* Book

(سورة المائدة: ٥٧). كما أنكر معظم اليهود والمسيحيين وما زالوا ينكرون أن القرآن هو كلمة الله.

ومن الصحيح اليوم أيضاً أن اليهود والمسيحيين إجمالاً لا يعترفون بدور محمد كنبي. تلك كانت الحال أيام محمد، مع بعض الاستثناءات، ولم يتغير في ذلك الموقف كبير شيء. وفي بيان *Nostra Aetate* الصادر عن المجمع الفاتيكاني الثاني عن علاقة الكنيسة بغير المسيحيين، الذي أعلنه قداسة البابا بولس السادس في ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٥، أضيفت، بعد الإشارة إلى إيمان المسلمين بالله [p.58] الواحد الخالق، عبارة «الذي كلم البشر». أما التعديل القائل «كلّم البشر عبر الأنبياء» (*homines per prophetas allocutum*) فلم يقبل[١].

إذا ما اعترف يهودي أو مسيحي بمحمد نبياً مصدقاً للتوراة والإنجيل، فإن المسلمين يفهمون هذا الأمر باعتباره اعتناق هذا الفرد للإسلام أو أن عليه أن يعتنق الإسلام. وفي رأيي أن ثمة طريقاً ثالثاً يعترف بمحمد نبياً من دون أن يستلزم ذلك اعتناق الإسلام بالمعنى السوسيولوجي، والانضمام إلى الأمة الإسلامية بالمعنى الحقيقي للكلمة. من ذلك أن اعترافي بأن يسوع كان مصدقاً للتوراة لا يعني أن أصبح يهودياً، كما أن اعتراف رجل يهودي بالتزام يسوع بالناموس لا يستتبع وجوب تحوله إلى المسيحية بالمعنى الضيق للكلمة. إن نص القرآن على أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً بل كان حنيفاً مسلماً (سورة آل عمران) قد سمع أحياناً أو فهم وكأنه يعني أن إبراهيم لا

---

(١) Bradford E. Hinze and Irfan A. Omar, eds. *Heirs of Abraham: The Future of Muslim, Jewish, and Christian Relations* (Maryknoll: Orbis Books, 2005) p.68 (أبناء إبراهيم: مستقبل العلاقات الإسلامية، اليهودية، والمسيحية).

يمكن أن يطالب به اليهود أو المسيحيون، بل المسلمون حصراً. ولكن ليس هذا ما يقوله النص. بل إن ما يعنيه هو أن إبراهيم هو النموذج الأكمل للمؤمن الحقيقي والمثال الذي يجب أن يحتذي به أتباع الديانات الثلاث. فهذا النص يطرح على أتباع الديانات الثلاث اليهودية، والمسيحية والإسلامية السؤال الحاسم: هل أنت حقاً مسلم بالمعنى الحقيقي لكلمة «مسلم»، أي هل أسلمت وجهك كلياً لله؟

ثمة المزيد من الأسباب اليوم وأكثر من أي وقت مضى لضم هذا الفرع الثالث من أصل إبراهيم، الذي تعتبره الديانات الثلاث «أباً للمؤمنين كافة» إلى النقاش. فالمسلمون يرون أنفسهم - تماماً كاليهود والمسيحيين - من ذرية إبراهيم، إما جسدياً وإما روحياً، (أو الإثنين معاً)، لأن اسماعيل بِكر إبراهيم يعتبر أباً أعلى للشعوب العربية والإسلامية تالياً، وإسحق أباً لليهود. ويعتبر النبي محمد نفسه من ذرية إسماعيل.

ولباب قصة الكتب الثلاثة المتعلقة بمثال إبراهيم الأعلى هو أنه ينصب على إيمان إبراهيم. إيمان إبراهيم قد عبّرت عنه *أعماله* وكمّلته هذه الأعمال (رسالة يعقوب ٢ : ٢٢). وهو بهذا مثال أعلى لكافة المؤمنين. «التحدر من صلب إبراهيم، مهما كان معنى هذا، ليس غير كاف فحسب، بل هو خارج الموضوع. فالإيمان بالله بعامة، والنبوة بعامة، ليس مسألة آلية، ولا يتوارثها الخالف عن السالف آلياً»[1].

يقول القرآن: «إن أولى الناس بإبراهيم*الذين اتبعوه*، وهذا النبي، والذين آمنوا» (سورة آل عمران: ٦٨). إنهم الذين «يسلكون في خطوات

---

(١) Bauschke, *Der Spiegel des Propheten*, p.123 (مرآة الأنبياء)

إيمان أبينا إبراهيم» على قول القديس بولس (رسالة إلى أهل رومية ٤ : ١٢). ليس المتحدرون من نسل إبراهيم هم المؤمنون الحقيقيون، بل كما قال الشاعر واللاهوتي الهولندي،وليام بارنارد، «وحدهم المؤمنون هم من نسل إبراهيم»[١].

(1) Hymn 3, *Liedboek der kerken*. Wessels, *Islam in Stories*, p. 180

الفصل الثالث

الخيارات أمام الإنسان: خليفة أم ملك؟

إذا ما وضعنا العدالة جانباً، ماذا يبقى من الممالك غيركونها سرقات كبرى؟ إذ ما هي عصابات اللصوصية إن لم تكن مجرد ممالك صغرى؟ العصابة نفسها مكونة من رجال؛ وهي تخضع لسلطة أمير، ويربط بعضها ببعض عهد المؤامرة؛ تقسم الغنيمة وفقاً للقانون المتفق عليه. ولئن تزايد هذا الشر، جراء انضمام الرجال المنبوذين، وكبر إلى حد اتخاذ مكانة، والاستقرار في مقرات، والاستيلاء على مدن، وإخضاع الناس، فهو يتخذ بصورة أجلى اسم مملكة، لأن صفة الواقع تطلق بوضوح عليه لا جراء انعدام الطمع بل جراء الإفلات من العقاب. والحقيقة أن الجواب الذي أجاب به الإسكندر ذلك القرصان الذي ألقي القبض عليه، كان جواباً بارعاً وصحيحاً. إذ لما سأل ذلك الملكُ الرجلَ ما معنى استيلائه العدواني على البحر، أجابه باعتزاز جريء: «ما تعنيه أنت باستيلائك على الأرض كلها؛ ولكن لما كنت أنا أفعل ذلك بمركب حقير فإني أسمّى لصّاً، بينما أنت الذي تفعل الشيء نفسه بأسطول كبير تسمّى إمبراطوراً»

(القديس أغسطين، مدينة الله)[1]

(١) Augustine, *The City of God*, Translated by Marcus Dods. The Nicene and

مكرهة الملوك فعل الشر

لأن الكرسي يثبّت بالبِرّ.

(*سفر الأمثال* ١٦ : ١٢)

مقدمة

في ١٣ نيسان ١٩٧٥، اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية. وقد كتب كتاب مسهب عن هذه الحرب التي كثيراً ما وصفت بأنها لم تكن أكثر من حرب بين المسلمين والمسيحيين - بقلم صحفي بريطاني هو روبرت فيسك، تحت عنوان Pity the Nation: Lebanon at War (ويل لأمة : لبنان في الحرب). والعنوان مأخوذ من شعر للشاعر اللبناني الشهير جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١): «ويل لأمة تكثر فيها الطوائف وتخلو من الدين». كانت أسرتنا في لبنان يوم اندلعت الحرب وظلت هناك مدة السنوات القلائل الأولى منها. وقد أصيبت شقتنا في بيروت عصر يوم أحد بصاروخ، ومن محاسن الصدف أننا لم نكن في المنزل. وبالرغم من أن في الأمر شيئاً من الاستهتار الساخر فهو صحيح : كان صاروخاً يهودياً (إسرائيلياً) أطلقه [p.60] المسيحيون الموارنة على المنطقة الإسلامية في بيروت الغربية حيث كنا نقيم. في تلك الأيام، كان الناس يتعرّضون للمضايقات العشوائيةعلى الحواجز والتي تقيمها مختلف الطوائف لمجرد هويتهم المسيحية أو الإسلامية. فقد كان من الممكن أن يخطف المسيحيون على حاجز مسلم، لأنهم مسيحيون فقط، ويعذبون

Post-Nicene Fathers, first series, vol. II, ed. Philip Schaff, reprint (Grand Rapids: Eerdmans, 1983), Book IV, Ch. 4, p. 66.. وقد استعار أوغسطين هذا من شيشرون، Cicero, *De Republica*

٤

أو يقتلون، كما كان من الممكن أن يعامل المسلمون على النحو نفسه وللسبب نفسه على حاجز مسيحي. وقد فقدنا أصدقاء ومعارف من الجانبين خلال الحرب بهذه الطريقة[1]. وما زلت أذكر تلك الراهبة، المعروفة من زي رهبنتها، التي أوقفت على حاجز مسلم وسئلت: «مع أي حزب أنت؟» فكان جوابها التلقائي: «حزب الله». فسمح لها بالمرور. لِمَ نجّيت؟ ألأن عناصر الحاجز اعتقدوا أنها من أتباع حزب الله؟ أم لأنهم فهموا أنها من حزب الله حقاً؟

ترى ما كانت غاية الله من خلق البشر؟ هل هي جعل البشر «خلائف» في الأرض؟ خلافاً لذلك، يريد الشيطان أن يجعل البشر «ملوكاً» يسفكون الدماء ويعيشون في الأرض فساداً. كيف يتوالى «الخلائف» و«الملوك» في التاريخ؟ ما هي مكانة الأنبياء إبراهيم، وموسى، ويسوع، ومحمد في وجه «الملوك» الظَلَمَة وما الخيارات التي نتخذها نحن «البشر»؟

خلق البشر

تبدأ قصة خلق البشر في القرآن، على غرار سفر أيوب في التوراة، «بتمهيد في الجنة». ذات يوم جاء الملائكة، سكان الجنة، ومن جملتهم الشيطان أيضاً، ليمثلوا أمام الله. وعمل الشيطان عمل المدّعي العام في المحكمة السماوية (سفر أيوب ١:٦؛ ٢:١). وفي زمن لاحق، استعمل شاعر القرن السابع عشر الهولندي يوست فان دن فوندل Joost van den

(١) يذهب خاطري إلى ماري روز بولس، والشيخ صبحي الصالح، واليسوعين نيكولاس كلوترز وميشال الأرد. وقد أهديت كتابي *Tweewatermeloen in één hand* (Amstelveen: Luyten, 1986) (بطيختان في يد واحدة) إلى الأخيرين.

Vondel هذه الثيمة في مسرحيته «لوسيفر» *Lucifer* (١٦٥٤). لوسيفر، المتجبر وأعظم الملائكة قاطبة، حسود. فمن فرط شغفه بنفسه، ورغبته الجامحة برتبة أعلى، يحسد عظمة الله اللامتناهية كما يحسد الإنسان الذي خلق على صورة الله وسُوِّد على الأرض في جنة غنّاء. يحاول هذا الملاك المتكبر الحسود [p.61] أن يجعل نفسه نداً لله وأن يطرد الإنسان من الجنان. وهذه أيضاً هي ثيمة من ثيمات الفردوس المفقود (١٦٧٧) للشاعر جون ملتون (١٦٠٨-١٦٧٤)، قصة عصيان يقوده الشيطان في الفردوس وانتقام الشيطان والملائكة العصاة من البشر الحديثي الخلق في الجنة.

نقرأ في التوراة: «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (سفر التكوين ١ : ٢٦). ويروي القرآن كيف كشف الله في اجتماعه مع الملائكة خطته القاضية بخلق البشر (سورة البقرة: ٣٠؛ راجع سورة ص: ٦٩؛ سورة الصافات: ٨؛ سورة الحِجر: ٢٨؛ سورة ص: ٧١)[1]. يعارض الملائكة بشدة هذه الخطة، ويجدون أنها فكرة غير سديدة، إذ يقولون: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» (سورة البقرة: ٣٠). لقد استشعروا ما سوف يحدث: إن «المشروع الإنساني» سيؤدي إلى سفك الدماء على الأرض. سفك الدماء والإفساد في الأرض مترابطان ترابطاً وثيقاً. مثلما يتبين سريعاً بعد ولادة أوائل البشر، فقابيل قتل أخاه هابيل وسفك دمه. دم هابيل استصرخ الله من الأرض (سفر التكوين ٤ : ١٠). ومع ذلك يصر الله على موقفه ولا يسمح للملائكة بأن

(١) Heinrich Speyer, *Die Biblischen Erzählungen im Qoran* (Darmstadt: WissenschaftlicheBuchgesellschaft, 1962), pp.52-53. *E.Q.* *s.v.* Adam and Eve (القصص التوراتية في القرآن)

يزحزحوه عن حكمته، فيقول لهم «إني أعلم ما لا تعلمون». وفي وسع المرء أن يتساءل ما الذي يعرفه الله ولا يعرفه الملائكة. فمن الصعب أن نتخيل أن الله لم يعلم أن البشر سوف يفسدون في الأرض. لا جواب مباشر عما لم يكن الملائكة يعرفونه. ومهما يكن من الأمر، فإن الله واثق، في ما يبدو، من خطته الخاصة في خلق البشر، بالرغم من معرفته بمخاطرها، فهو يمضي في مشروعه.

ولكن ما الذي يخطط له الله؟ يصرّح عن هذا بمنتهى الوضوح: يريد أن يجعل البشر، ذكوراً وإناثاً، خلائفه في الأرض. وثمة في القرآن كلمة أخرى، فضلاً عن كلمة خليفة، وهي الإمام. واللفظ يدل على النموذج، المثال الأعلى، المثال، أو المرشد. ويستعمل اللفظ لاحقاً، في التراث الشيعي بخاصة، بديلاً عن لقب الخليفة للدلالة على خلفاء محمد.

يحقق الله نيته ويخلق البشر (سورة الرحمن: ٣؛ سفر التكوين ١: ٢٦-٢٧) الرجل والمرأة (سورة الحجرات: ١٣) اللذان يعيشان في جنة عدن (سورة البقرة: ٣٥؛ سفر التكوين ٢: ١٥-١٧). أما قصة خلق [p.62] المرأة من ضلع آدم (سفر التكوين ٢: ٢١-٢٢) فلا تظهر في القرآن ولذلك فإن القصة التي أدت إلى تفسير غير مؤات للنساء ودورهن معدومة هنا أيضاً.

البشر والأرض

خلق الإنسان «من صلصال من حمأ مسنون» (سورة الحجر: ٢٦؛ سورة الإسراء: ٦١). وقد تمتع البشريان الأولان بالعيش في جنة الفردوس ولم يشعرا بالجوع، والعري، والعطش، والألم الناشئ عن حر الشمس (سورة طه: ١١٨-١١٩). خلق الإنسان من الأرض وإليها يعود ثم يخرج تارة أخرى، يوم البعث والنشور (سورة طه: ٥٥؛ راجع

سورة نوح: ١٨). وقد جعل الله الأرض مكاناً يجتمع فيه الناس أحياء وأمواتاً.

يمنح الإنسان في قصة الخلق مكانة رفيعة للغاية. فهو على أية حال أكمل مخلوقات الله، يحيا بنفس الله ويعكس صفات الله كالمرآة. وفي الحديث أن الله خلق آدم على صورته. وآدم هو مثال الإنسان الكامل. وقد أنعم عليه الله بالمعرفة وعلّمه الأسماء كلها (سورة البقرة: ٣١). ومعرفة أسم الشيء يعني القدرة على التحكم به، واستعماله. ونظراً لمعرفته بالأسماء أصبح آدم سيد المخلوقات. وجعل الله البشر خلائف له في الأرض، وأمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم (سورة البقرة: ٣٤؛ سورة طه: ١١٦؛ سورة طه: ٦٥؛ سورة الكهف: ٥٠؛ سورة ص: ٧١-٧٣)، ولما كان الإنسان أرفع مرتبة من الملائكة فإن سر الأسماء لم يعطَ لهم. فالملائكة لا يعملون شيئاً إلا عبادة الله في طاعة كاملة، أما الإنسان فيتمتع بالاختيار - أو يعاني من الاختيار بين الطاعة والعصيان.

وبعد أن أكمل الله عمل الخليقة، عرض «الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» ويضيف القرآن عن الانسان بجلال: «إنه كان ظلوماً جهولاً» (سورة الأحزاب: ٧٢).

دور إبليس [p.63]

ما إن خلق الإنسان واستقر في الجنة حتى ظهر الشيطان على المسرح. إنه أول وأبرز «فاتن» للإنسان، وهو الذي وسوس للإنسان أن يأكل من شجرة الخُلد (سورة طه: ١٢٠). وهو في هذا الدور يسمى الشيطان (سورة البقرة: ٣٦). وللشيطان القدرة على أن يخوّف أولياءه (سورة آل عمران: ١٧٥)، وأن يستزل الإنسان (سورة البقرة: ٣٦؛ سورة

آل عمران: ١٥٥)، وأن يضلّه ضلالاً بعيداً (سورة النساء: ٦٠)، وأن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء (سورة المائدة: ٩١) ويفتنهم ويسوّل لهم (سورة الأعراف: ٢٧؛ سورة محمد: ٢٥)، وينزعبينهم (سورة الإسراء: ٥٣). وهو يكمن للإنسان ليضلّه (سورة الأعراف: ١٦؛ راجع سفر التكوين ٤: ٧). والشيطان غَرور للإنسان (سورة لقمان: ٣٣؛ سورة فاطر: ٥) وهو الخنّاس (سورة الناس: ٤)[1]. وهو في القرآن يظهر، أولاً في أوائل تاريخ العالم (سورة البقرة: ٣٤؛ سورة الأعراف: ١١؛ سورة الحِجر: ٣١ وما يليها؛ سورة الإسراء: ٦٢؛ سورة الكهف: ٥٠؛ سورة طه: ١١٦؛ سورة ص: ٧٣ وما يليها). عند خلق آدم، بمظهر الفاتن في الفردوس. يحَذِّر البشر من الشيطان باعتباره عدوهم (سورة طه: ١١٧) أو باعتباره عدواً مبيناً (سورة الأعراف: ٢٢). وقد أبى الشيطان أن يسجد لآدم (سورة البقرة: ٣٤؛ سورة الأعراف: ١١؛ سورة الحجر: ٣١؛ سورة الإسراء: ٦١؛ سورة الكهف: ٥٠؛ سورة طه: ١١٦؛ سورة ص: ٧٤) وأخرِج من الجنة (سورة الأعراف: ١٣؛ سورة ص: ٧٧؛ سورة الحجر: ٣٤). فأقسم حنقاً وحسداً ليُضِلن آدم وزوجه وذريته عن الصراط المستقيم (سورة الأعراف: ١٦، ١٧). وصورة الحيد عن الصراط المستقيم مستعارة من صور الصحراء. وعلى الضد من ذلك فإن الله يريد أن يسير الناس على الصراط المستقيم، ولهذا يطلب في فاتحة القرآن أن «أهدنا الصراط المستقيم» (سورة الفاتحة: ٦؛ راجع المزامير ١: ٦). ومكانة هذه الصلاة عند المسلمين تضارع مكانة الصلاة الربانية عن المسيحيين.

ونظراً لأن آدم وحوّاء أكلا من الشجرة المنهي عنها بتحريض من

(1) E. Q. s.v. Devil

الشيطان فقد طردا من الفردوس (سورة طه: ١٢٢-١٢٣)، مثلما طرد الشيطان من الجنة. ومن تلك اللحظة فصاعداً باتت الأرض مقاماً للبشر. فيها يعيشون ويموتون ثم منها يُنشَرون ويُحشَرون. ولكن ثمة عزاء لهم، فعندما يبعث الله من يهديهم فمن اتّبع الهدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (سورة البقرة: ٣٨؛ سورة طه: ١٢٣)[1].

ومن أسماء الشيطان الأخرى إبليس، وهو اسم يُعتقَد أنه من ديابولوس أي ذاك الذي يريد أن يعيث فساداً في كل شيء وأن ينجّس كل شيء[2] «زارع الفتن» الذي أطلق عصياناً [p.64] على الله (سورة الأعراف: ١٢-١٩؛ ٣١-٣٣؛ سورة الإسراء: ٦١-٦٥؛ سورة ص: ٧١-٨٥). ويمكن أن يوصف إبليس بأنه متكبر وعاص.

الشيطان والإغراء

لئن كان الله يريد أن يجعل البشر خلائف له في الأرض، فإن الشيطان يود أن يجرّب شيئاً آخر. والطريقة التي يريد أن يجرّب فيها البشر تبدو مماثلة لإحدى تجارب يسوع/عيسى الذي كثيراً ما ينظر إليه باعتباره آدم الثاني. بعد إقامة المسيح في البرية وصيامه أربعين يوماً بلياليها، يجوع كثيراً. فيجرّبه إبليس أولاً بتحويل الحجارة إلى خبز، ثم يغريه بالقفز من أعلى موقع في الهيكل والطلب من الله أن يلتقطه حرفياً، *وثالثة* هذه التجارب هي أن يعبد الشيطان ويفوز بالسيادة على

(1)* *E. Q. s.v.* Fall of Man

(٢) [قلت: وفي محيط المحي طأن اللفظ عند المعجميين العرب مشتق من بَلَسَ أي تحيّر ويئس، ويذهب صاحب محيط المحيط، المعلم بطرس البستاني، إلى أن اللفظ معرّب ذيافوليس، باليونانية، ومعناه المُجَرِّب - المترجم]

ممالك الأرض كلها: «ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي» (إنجيل متى ٤ :٨-٩). وتدور هذه التجارب حول فهم التوراة *والسلوك بمقتضى أحكامها*، أي بمقتضى الكتاب الذي يدل فيه الله الناس على طريقة العيش. والتجارب الثلاث تتعلق «بالخبز» أي بالسلطة الاقتصادية وكيف تمارس السلطة «المقدسة» أو *الدينية*، وثالثتها «الممالك» أي الهيمنة *السياسية*. ولكن يسوع يقاوم هذه التجارب الواحدة تلو الأخرى. فهو يريد أن يعبد الله وحده ويمجّده، وهو يرتكز إلى التوراة هنا إذ يقول: «إذهب يا شيطان. لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد». (إنجيل متى ٤ :٨-١١، ٢٩؟ إنجيل لوقا ٤ :٦؛ راجع سفر التثنية ٦ :١٣)[١] وفي القرآن أن الله لا الشيطان أرى إبراهيمَ ملكوت السماوات والأرض. وخلافاً لأبيه كان إبراهيم من الموقنين (سورة الأنعام: ٧٥): «فسبحان الله الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» (سورة يس: ٨٣). والتجربة ألتي يغرّ بها الشيطان آدم في الرواية القرآنية إنما هي التجربة الثالثة التي جرّب بها الشيطان المسيح. فهو يوسوس لآدم أفكاراً مغرية قائلاً: «يا آدم هل أدلّك على شجرة الخُلد وملك لا يبلى؟» (سورة طه: ١٢٠). [p.65]

الله الملِك

ولا بد لاكتناه ما ينبغي للمرء أن يفهم من هذا الإغراء بأن يكون المرء ملكاً من أن نعرف أن *المُلك* في لغة الكتاب المقدس والقرآن لا

(١) Huub Oosterhuis and Alex van Heusden, *Het Evangelie van Lukas* (Vught: Skandalon, 2007), p.100 (إنجيل لوقا)

يدل على مفهوم محايد أو بريء. ففي الكتاب المقدس والقرآن الله وحده هو الملِك الحقيقي: «الرب ملِك إلى الدهر والأبد» (سفر المزامير ١٠: ١٦) «وملِك الدهور الذي لا يفنى ولا يُرى، الإله الحكيم وحده له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور» (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ١: ١٧). «لمن المُلك اليوم؟ لله الواحد القهّار» (سورة غافر: ١٦). «تبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير» (سورة الملك: ١). «الله الملِك الحق» (سورة طه: ١١٤) «الملِك القدوس» (سورة الحشر: ٢٣). «الله له مُلك السموات والأرض» (سورة المائدة: ٤٠)، «ولم يكن له شريك في المُلك» (سورة الإسراء: ١١١). «المُلك يومئذ لله» (سورة الحج: ٥٦)، الرحمن (سورة الفرقان: ٢٦)، وهو من أهم أسماء الله التي كانت تستعمل في جنوب الجزيرة العربية عند المسيحيين واليهود قبل ظهور محمد.

الملوك الأرضيون

ولكن ما أمر أولئك الذين يسمون «ملوكاً» على الأرض؟ في رأي الكتاب المقدس والقرآن نادراً ما يكون «الملوك» أمثلة على صانعي العدل. بل هم أولئك الذين حذَّر الملائكة الله من أنهم يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض. والأمثلة على نظائر هؤلاء الملوك الأشرار، الظَلَمَة، المستكبرين الذين يتعالون ويفسدون في الأرض: نمرود ملك آشور وبابل (سورة البقرة: ٢٥٨)، فرعون مصر، أجاج ملك العماليق، أو جالوت الذي كان من الفلسطينيين القدماء وكان يسمى أيضاً ملك الكنعانيين أو العماليق[1]. وهكذا أصبح غوليات/ جالوت اسماً عاماً

(1) E.I. s.v. Tâlût

لظَلَمَة شعب إسرائيل[1]. ولكن معظم حكام مملكتي يهوذا وإسرائيل يقعون في فئةالملوك الظَلَمَة أيضاً: «عمل الشر في عيني الرب» لازمة تتكرر كثيراً في سفر الملوك الأول (سفر الملوك الأول ١١ : ٦ ومواضع متفرقة).

لئن كان الشيطان يوجه البشر نحو شجرة المُلك الخالدة، فهو يوسوس لهم أن يتولوا سلطة تختص بالله وحده. وهكذا يلمح الشيطان إلى أن الإنسان يمكن أن يصبح نداً لله. هذا المُلك الذي يمتلك الشيطان [p.66] أفقه يقع على النقيض التام لموقع الخلافة الذي أراده الله للإنسان، أي أن يكون خليفة الله في الأرض، وفي هذا ما فيه من إقامة العدل، واتباع طريق التوراة، والالتزام بها وبالشريعة.

خلائف بعد الطوفان

لقد أظهر مسار التاريخ البشري بطريقة صادمة جداً صحة ما ذهب إليه الملائكة. فقد أفسد البشر كثيراً في الأرض وسفكوا الكثير من الدماء. وكان ذلك بدأ مع أوائل أبناء البشر قابيل/ قايين وهابيل، إذ قتل قابيل آخاه (سفر التكوين ٤). وكان قايين أول من شيد «قرية». فمنذ البداية إذاً وصمت «القرية» بوصمة. ولفظ القرية/ المدينة بصيغة المفرد يشير في القرآن إلى مدينة هامة: مكة (سورة الفتح: ٢٤)، المدينة (سورة التوبة: ١٠١) سدوم (سورة الأنبياء: ٧٤؛ سورة الفرقان: ٤٠)، ونينوى (سورة يونس: ٩٨). وتوصف مكة بأنها «أم القرى». ومعظم الإشارات إلى المدن/ القرى بصيغة الجمع في القرآن سلبية: قرى يهلكها الله لأن أهلها أو رؤساءها رفضوا ما جاءهم به نبيهم من رسالة. فهم ينغمسون

(1) E.I. s.v. Djalût

في الإسراف والخراب، ويهجرون واجباتهم الدينية، ويضطهدون أنبياء الله[1].

وعندما رأى الله الظلميعظم على الأرض، قرر أن يستأصل البشر من على سطحها بواسطة طوفان كبير (سفر التكوين ٦ : ٥-٧). وحده نوح وأسرته وممثلون عن عالم الحيوان نجوا. أراد الله أن يبدأ بداية جديدة مع نوح. وبعد أن أنقذ الله نوحاً ومن معه في الفُلك جعلهم خلائف في الأرض (سورة يونس: ٧٣). ولكن سرعان ما تبين أن التاريخ تكرر. وقد عقبت قصة نوح قصص مشابهة عن المسمين أنبياء العرب الذين أرسلوا إلى قومهم. «قال الملأ الذين استكبروا من [ثمود] للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربّه». فأدينوا وعوقبوا بالرجفة التي أخذتهم (سورة الأعراف: ٧٣-٧٩). وقد أرسل هود النبي إلى قوم عاد، وهم قوم عاشوا بُعَيد نوح وزادهم الله في الخلق بسطة وقوة في مملكة عظيمة. وذكّرهم هود [p.67] كيف جعلهم الله خلفاء من بعد قوم نوح. فاستكبروا في الأرض وقالوا «من أشد منّا قوة؟» (سورة فصلت: ١٥؛ راجع سورة الأعراف: ٦٩؛ سفر التكوين ٦ : ٤). ولكن إذا ما تولّوا وابتعدوا عن الله فإن الله يستخلف قوماً غيرهم (سورة هود: ٥٧).

ثم قال موسى لقومه، بني إسرائيل، «عسى ربكم أن يهلك عدوكم»، فرعون مصر وقومه، «ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون» (سورة الأعراف: ١٢٩). وهنا ينشأ السؤال الخطابي: أليس الله هو من يستخلف الخلائف في الأرض (سورة النمل: ٦٢)؟ وهكذا فإن الفكرة تتكرر مراراً بأن الخلائف إن لم يسلكوا كخلائف حقيقيين بل كملوك

(1) *E.I. s. v. Katya; E.Q. s.v. City*

ظلاّم، فسوف يعاقبون ويستبدل بهم قوم يسلكون سبيل العدل، ويتصرفون تصرف الخلائف في الأرض.

يبشر محمد بأن الله قد اختار أهل مكة، بعدما أهلك القرون من قبلهم وجعلهم خلائف في الأرض من بعدهم (سورة يونس: ١٤). «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.... ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (سورة النور: ٥٥)[١].

هكذا نجد أن النمط الثابت هو: كل البشر والأقوام مدعوون لأن يستنبتوا الأرض ويحافظوا عليها (سفر التكوين ٢: ١٥) ويكونوا خلائف فيها. أما إذا أفسدوا فيها بالرغم من ذلك، فيستبدل بهم قوم غيرهم، وإن كان ثمة دائماً فقرة مفادها أن القوم المستعاض بهم سوف يراقبون أيضاً ليعرف إن كانوا يتصرفون تصرف الخلائف الحقيقيين.

الملوك وعبادة مولوخ

منذ القرن العاشرق.م. أيام كان الملوك يحكمون في إسرائيل، كان ثمة فعلاً ملوك اعتبروا صالحين كالملك داود (سفر صموئيل الأول ١٦؛ سفر صموئيل الثاني ٢٣)، حزقيا (إشعياء ٣٦-٣٩)، يوشيّا (سفر الملوك الثاني ٢٢). ولكن معظمهم كانوا طالحين، مثلما سوف نتوسع في شرحه أدناه[٢]. فالملِك والمُلك ظالمان بصورة شبه دائمة. ولفظ مَلَخ بالعبرية ومَلِك بالعربية يتصلان بكلمة «مولوخ»[٣] (مولوخ) وهي [p.68]

(1) *E.Q. s.v.* Punishment Stories, Generations

(٢) راجع الفصل الرابع.

(٣) في العبرية: ملاخ = ملاك العربية. الكاف العربي يقابله حرف خاء في العبرية.

اسم إله كانت تقدم إليه الأضاحي من الأطفال (سفر اللاويين ١٨ : ٢١). ولم تكن هذه الأضاحي البشرية تقدم في طقوس غير يهودية فحسب(حزقيال ٢٣ : ٣٧ ومايليها؛ سفر المزامير ١٠٦ : ٣٧ وما يليها) بل وفي إسرائيل أيضاً. ذلك أن يفتاح، أحد «القضاة» أيام لم يكن ثمة ملوك في إسرائيل ضحّى بابنته جراء نذر نذره متهوراً(سفر القضاة ١١ : ٣٠ وما يليها)[1]. ولكن تغيراً خطيراً حدث منذ أن اعتمدت الملكية في إسرائيل. من ذلك أن الملك الثالث، أي سليمان، ابتنى مذابح للأضاحي المقدمة للإله مولوخ على الجبل شرقي القدس (سفر الملوك الأول ١١ : ٧)! وقد كان الناس من قبل أقاموا موقعاً مقدساً في وادي بن هنّوم بالقرب من القدس، مذبحاً لتقديم الأضاحي من أولادهم للإله مولوخ (سفر إرميا ٧ : ٣١-٣٤؛ ١٩ : ٦؛ ٣٢ : ٣٥). وقد بنيت صروح عالية للإله بعل في ذلك الوادي نفسه. كان الناس يضحون بأبنائهم وبناتهم هناك للإله بعل (سفر إرميا ١٩ : ٥) أو ليهوه (سفر إرميا ٧ : ٣١) بينما لم يوصهم الله بهذا الرجس (سفر إرميا ٣٢ : ٣٥؛ راجع سفر التثنية ١٢ : ٣١؛ ١٨ : ١٠). حتى إن آحاز، ملك اليهودية، «عبّر ابنه في النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل(سفر الملوك الثاني ١٦ : ٣؛ وراجع ما فعله الملك منسى في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٣ : ٦). وقد أدان النبي حزقيال المنتمي إلى النخبة المكونة من عشرة آلاف نسمة التي نفيت إلى بابل وعملت فيها (سفر حزقيال ٣ : ١٥)، هذه الفظائع. ثم إن الملك يوشيا وضع حداً لهذه الطقوس، ونجّس محرقة مولِك «لكي لا يعبّر أحد ابنه أو ابنته في النار لمولِك»

(١) من الجائز أنها لم تقتل في النهاية، ولكن هل هذا هو المعنى المقصود من أنها ظلّت عذراء؟

(سفر الملوك الثاني ٢٣: ١٠). ومع ذلك فقد استؤنفت طقوس التضحية بالأولاد بعد وفاته(سفر إرميا ٧: ٣١-٣٢؛ ١٩: ٥-١٥). وبسبب الفظائع التي كانت ترتكب في تلك البقعة وبسبب اللعنة التي كالها النبي إرميا على وادي الجريمة هذا (سفر إرميا ٧: ٣٢) اكتسب اسم وادي هنوم في الديانة اليهودية معنى الموضع الذي سيقوم فيه يوم الحساب: جهينّون، أو جهنّا كما أن لفظ جهنم، في العربية، الذي كثيراً ما يرد في القرآن كمرادف للنار مستمد من هذا (سورة البقرة: ٢٠٦)[1]. وبالمناسبة، ففي الترجمة اليونانية لسفر النبي عاموس من الترجمة السبعينية، ينظر إلى عبادة مولوخ باعتبارها أمراً حدث خلال تيه بني إسرائيل في الصحراء!
[p.69]

الملك البشري

أن يكون الله وحده ملكاً، بحسب التوراة والقرآن، لا يعني، وهذا بيّن، أن الله لا يقدر ولا يمنح المُلك لبني البشر، وفي جملة ذلك تعيينهم. فهو مالك المُلك يؤتي المُلك من يشاء وينزع المُلك ممن يشاء (سورة آل عمران: ٢٦). من الممكن إذا أن يكون المرء ملكاً - ولكن يجب أن يكون كذلك «بنعمة الله». فالله يستطيع أن ينعم بالمُلك على أوليائه كيوسف، وداود، وسليمان. ولكن من اللافت أن أيّاً من هؤلاء الثلاثة لا يوصف بالملك في القرآن. فيوسف يتطلع إلى الله بامتنان على ما آتاه ربه من مُلك، ويصلّي: «ربِّ قد آتيتني من المُلك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين» (سورة يوسف: ١٠١). هنا تستعمل

(1) *E.I.* s.v. Djahannam

كلمة «مسلم» لا بالمعنى المعاصر بل بالمعنى الحقيقي للشخص الذي أسلم وجهه لله بإيمان كلي. ويصلّي سليمان قائلاً: «ربِّ اغفر لي وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي» (سورة ص: ٣٥؛ راجع سفر الملوك الأول ٣: ٥ وما يليها؛ ١١: ١١-١٣)[١].

ومع ذلك، يتضح أكثر فأكثر من قصص التوراة والقرآن أن ثمة توتراً بين المُلك المختص بالله وحده، من ناحية، والذين يرغبون فيه، أو يُظنّ أنهم يتولّونه أو يمارسونه من ناحية ثانية. فالقرآن يتحدث كالتوراة عن «الملوك» من البشر. ولكنه من الخطر، ويظل من الخطر، أن يكون المرء ملكاً. ولفظ الملِك متى لم يستعمل لوصف الله بل لوصف زيد أو عمرو من بني البشر، يكتسب رنّة سلبية. «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» (سورة النمل: ٣٤). ولكن المسألة الحقيقية في كل هذه الحالات إنما هي ماهية المُلك أو ما يجب أن يكون عليه الملِك. ويمكن التمثيل على ذلك من مثال الملك داود. فبعد أن غلب داود جُليات/ جالوت (سفر صموئيل الأول الإصحاح ١٧)، آتاه الله المُلك والحكمة وعلّمه الله ما يجب أن يعمل (سورة البقرة: ٢٥١؛ راجع سورة ص: ٢٠). ولكن داود جاء بتعيين من الله كخليفة له على الأرض. وهو في القرآن الوحيد، بعد آدم، [p.70] والملِك الوحيد، الذي يوصف بذلك (سورة ص: ٦)! وعندها يوضح القرآن ما يستلزمه كون المرء ملِكاً: عليه أن يحكم بين الناس بالحق ولا يتّبع الهوى فيضلّ عن سبيل الله (سورة ص: ٢٦)[٢]. وهكذا يكون داود ملِكاً صالحاً ما دام يمارس المُلك كخليفة!

(١) Speyer, BiblischenErzälungen, pp. 383-84 (قصص التوراة).

(2) *E.I. s.v.* Dâwûd, *E. Q. s.v.* David

إبراهيم، موسى، يسوع/عيسى، محمد «والملوك»

نناقش الآن القصص الهامة عن الأنبياء الذين واجهوا على نحو مثالي ملوكاً ذوي مزاعم إلهية؛ إبراهيم ونمرود في آشور وبابل، موسى وفرعون في مصر، يسوع/عيسى والهيروديون وبيلاطس، ممثل الإمبراطور الروماني، وزعماء مكة.

إبراهيم ونمرود

يعتبر نمرود أول جبّار وطاغية على الأرض (سفر التكوين ١٠ :٨؛ سفر أخبار الأيام الأول ١ :١٠)وهو يدعى ابن كوش في «جدول أنساب الأمم» (سفر التكوين ١٠ :٨). كان كوش أكبر أولاد حام بن نوح، والاسم مرجع معتاد في الحبشة. نمرود هو حاكم بابل الشهير، مؤسس نينوى (سفر التكوين ١٠ : ١٠-١٢) وهما مدينتان عظيمتان. وكانت آشور تدعى أرض نمرود (سفر ميخا ٥ :٦). ويوصف نمرود بأنه ملك بابل وآشور في الزمن الأول. كانت هاتان المدينتان مركزين إمبراطوريين، موضعين يسودهما الظلم والقهر. وكان ملك نمرود يشتمل على الحرب والإرهاب؛ وقد ارتبط اسمه بإله الحرب والصيد (سفر التكوين ١٠ :٩)، غير أنه لا يتصيد الحيوانات فحسب. ونمرود هو المثال التوراتي الأول على ملك يطلب المُلك لنفسه من الله. وهو يعتدي على الناس ويدعي أن الله جعله ملكاً. نمرود الشرير يقف نقيضاً لإبراهيم الصالح.

كان إبراهيم يعيش ويعمل في الأرض التي كان نمرود ملكاً عليها. تأتي التوراة على ذكر نمرود ولكنها لا تتحدث عن لقاء بينه وبين إبراهيم مثلما تفعل الروايات اليهودية والإسلامية. ويروي المؤرخ اليهودي

فلافيوس يوسفس Flavius Josephus (حوالي ٣٧ - ١٠٠) أن نمرود عارض بإرادته إرادة الله وكان معبوداً عند رعاياه.

وينشب جدال بينه وبين إبراهيم حول من آتاه المُلك. فعندما قال إبراهيم «ربي الذي يحيي ويميت [p.71] قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر» (سورة البقرة: ٢٥٨).

نمرود في التراث

نمرود، في التراث اليهودي والمسيحي نموذج للشخص الشرير، والمثال الأقدم للملك الوثني المتجبر. وهو في التراث الأدبي الربّيني يسمى «الشرير». وهو في الرواية الإسلامية يوصف بالطاغية الظالم و«الجبار العنيد» (سورة هود: ٥٩). واسم نمرود بالعربية مشتق من فعل يعني التمرد، أي على الله. وهناك من ذهب إلى أن الاسم يدل على أنثى الفهد، وهذا يعني أن نمرود قد رضع من أنثى هذا الحيوان، وفي هذا ما يذكر بقصة لاحقة هي قصة ريموس وريمولوس اللذين رضعا من ذئبة. وفي رواية أخرى أن نمرود رباه رجل غير معروف، فلما شبّ قتله ثم تزوّج من أمه وفي هذا ما يذكر بقصة أوديب Oedipus[١].

عندما طرح نمرود إبراهيم في النار تدخل ملاك لتبريد النار. هنا يقصد القرآن أن يقول: «إن من يتقد قلبه بحب الله لا يبالي بنار البشر»[٢] يدهش نمرود جراء ذلك، مثلما دهش نبوخذ نصر الملك

---

(1) *E.I. s.v.* Namrûd

(2) Martin Bauschke, *Der Spiegel des Propheten: Abraham im Koran und im Islam* (Frankfurt am Main: Lembeck, 2008), p. 42

اللاحق للإمبراطورية البابلية الحديثة الذي فتح القدس (٥٨٧ق.م.) ونفى بعض أهلها إلى بابل. أمر هذا الملك بصنع تمثال من ذهب لذاته وطلب من الجميع أن يخرّوا ساجدين أمامه. ولكن لما رفض شدرخ وميشخ وعبدنغو أصحاب النبي دانيال أن يسجدوا ألقوا في أتون النار المتقدة. فتحيّر نبوخذنصر لما رآهم يتمشون في وسط النار يمجدون الله وما بهم ضرر (سفر دانيال ٣:١-٢٤). وهكذا أضفيت على نمرود سمات ملكين قاسيين ظالمين: نبوخذ نصر وفرعون.

أما موت نمرود جراء تسلل بعوضة إلى أنفه ثم إلى دماغه فقصة تستند إلى رواية يهودية. كان موته موجعاً كموت الإمبراطور طيطس (٣٩-٨١) الذي لاقى حتفه على نحو مماثل. شن طيطس الحرب على اليهودية وفتح القدس وخرّبها سنة ٧٠م..وقد ظلّت البعوضة تعذّب نمرود مدة ٤٠٠ سنة قبل أن [p.72] يموت. وقد تسرّبت قصة نمرود إلى أسطورة إبراهيم اليهودية المتأخرة! لا جدال في أن القصص اليهودية، أي الهاجّادا، والأساطير الإسلامية قد تأثرت كل منهما بالأخرى. إذ بات نمرود يُعدّ مشيِّد برج بابل لأنه أراد أن يشاهد إله إبراهيم. وهذه قصة موازية لقصة فرعون الذي أمر ببناء قصر شاهق للغرض نفسه، كي يتمكن من النظر إلى الله (سورة القصص: ٣٨). أما برج نمرود فقد أتت عليه عاصفة عاتية فقوضت قواعده. وهكذا بات اسما نمرود وفرعون يُتبادلان. وقيل إن نمرود حاول أن يقتل إله إبراهيم، فصعد إلى السماء بعربة تجرها النسور، ولما ارتدت إليه السهام التي رماها ملطخة بالدم، ظن أنه قتل الله[1].

كان على إبراهيم أن ينأى بنفسه عن ظلم مُلك كهذا وأن يغادر.

---

(1) *E.I. s.v.* Namrud; *E.Q. s.v.* Nimrod

وخلافاً لذاك المَلِك يسمّى إبراهيم إماماً للناس، وهي صفة بديلة عن صفة الخليفة (سورة البقرة: ١٢٤). وعلى إثره عيّن إسحاق ويعقوب إمامين، يهدون بأمر ربهم (سورة الأنبياء: ٧٢، ٧٣؛ راجع سورة السجدة: ٣٤). وقد آتى الله آل إبراهيم مُلكاً عظيماً (سورة النساء: ٥٤) بمعنى يختلف اختلافاً بيّناً عما كان يعنيه الشيطان. إنه المُلك بمعنى الخلافة والإمامة وهو يستتبع إقامة العدل وعمل البرّ.

موسى وفرعون

يظهر موسى في منطقة ثانية، أي بمصر. مصر هي مملكة فرعون (سورة الزخرف: ٥١)، وهي البلد الذي صار فيه يوسف عزيزاً (سورة يوسف: ٧٨، ٨٨) وهو لقب يعني رجل مصر القوي، ويدل في ما يبدو على منصب الوزير الأول في ظل فرعون[1]. مصر هي الساحة التي ناضل فيها موسى وهارون دفاعاً عن أبناء إسرائيل (سورة يونس: ٧٥؛ سورة المؤمنون: ٤٥ وما يليها). وإليها لجأ يسوع/ عيسى وأمه في ما بعد (إنجيل متى: ٢؛ سورة المؤمنون: ٥٠). ومصر وإن لم تذكر إلا خمس مرات فحسب في القرآن، فهي المدينة أو البلد الأكثر تردداً مثلما هي الحال في التوراة[2].

فرعون يحكم مصر وهو مثال صارخ على الحاكم الظالم. وهو نموذج الحاكم المستكبر الذي يزعم، بافتخار، ملك مصر (سورة الزخرف: ٥١). يصور فرعون [p.73] بصورة الحاكم الطاغية (سورة النازعات: ١٧؛ راجع سورة طه: ٢٤، ٣٤). ومن المؤشرات على كونه

(1) *E.I. s.v.* Aziz Misr
(2) *E.I. s.v.* Egypt

حاكماً متكبراً بلا حياء، أن اسمه أفضى في العربية إلى تكوّن فعل «تفرعَنَ» الذي يدل على التصرف تصرف الطغاة القساة»[1].

كان فرعون يسرف في العسف في الأرض (سورة يونس: ٨٣). يعيث في الأرض فساداً (سورة القصص: ٤) ويضِلُّ قومه (سورة طه: ٧٩). وهو ادعى الألوهية لنفسه على غرار الملك نمرود (سورة الشعراء: ٢٩؛ سورة القصص: ٣٨) قائلاً لقومه «أنا ربكم الأعلى» (سورة النازعات: ٢٤). ويخاطب سامعه قائلاً: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين (سورة الشعراء: ٢٩) ويخاطب الملأ في إمبراطوريته قائلاً إنه لا يعترف بأي إله آخر غير نفسه. وليس من الصعب أن نرى هنا كيف أن الحاكم يدعو الناس إلى موقف مناقض تماماً لما سوف يضمَّن في الشهادتين. فبينما يقول المسلم في الشهادة «لا إله إلا الله»، يقول الحاكم المتكبر «يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري». (سورة القصص: ٣٨). وهو يطلب لذلك منقومهالعبودية التامة والطاعة العمياء. وقد أرسل موسى إلى فرعون لينقذ قومه (سورة الصافات: ١١٤-١٢٢) ويتولى قيادة بني إسرائيل (سورة يونس: ٨٣-٨٧؛ سورة الشعراء: ٥٢).

يسوع الطفل وهيرودس الكبير

عاش المسيح ونشط في زمن خضوع فلسطين للإمبراطورية الرومانية. وحوالي زمن ولادته كانت فلسطين تحت حكم الملك هيرودس (٣٧-٤ق.م.) الذي يسميه المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسفس «الكبير» لأنه كان «البكر». ويسمى أحد الأناجيل، وهو إنجيل متى، «إنجيل

---

(1) *Tafar'ana, E.I. s.v.* Fir'awn

المملكة». ففي هذا الإنجيل يقف ملكان متعارضين: هيرودس، ملِك اليهود، ويسوع/عيسى المسمى أيضاً «ملِك اليهود» (إنجيل متى ٢:٢؛ ١١:٢٧، ٢٩، ٣٧؛ راجع إنجيل مرقص ١٥:٢؛ إنجيل لوقا ٢٣:٣؛ إنجيل يوحنا ١٨:٣٣). ويدور هذا الإنجيل حول السؤال: من هو ملِك اليهود الحقيقي وما طبيعة المُلك الحقيقي؟

بُعَيد ولادة يسوع/عيسى جاء المجوس من الشرق إلى الملِك هيرودس في القدس ليسألوه أين ولد ملِك اليهود لأنهم رأوا نجمه. يستدعي هيرودس كبار الكهنة وخبراء الناموس فيخبرونه أن المتوقع أن يولد الملك المسيح في بيت لحم. فينقل هيرودس الخبر سرّاً إلى [p.74] المجوس ويطلب منهم صراحة أن يخبروه بموضع الطفل ببيت لحم (لا بالقدس) إذا ما وجدوه، وذلك بغية أن يؤدي المسيح الطاعة لهذا الملِك أيضاً (إنجيل متى ٢:١-٨). ولكن لما وجدوا الصبي وسجدوا له، أبلِغوا في المنام بألاّ يعودوا إلى الملك هيرودس. وما أن لاحظ الأخير أن المجوس سخروا منه أمر بقتل كل الصبيان البالغين سنتين وأصغر ببيت لحم.

وهكذا يبدأ الإنجيل بإخبارنا كيف أن حياة الصبي يسوع/عيسى كانت عرضة للتهديد من قبل الملك هيرودس الذي أراد قتله. فما كاد يولد، وهو بعد طفل «بريء»، حتى بدأ هيرودس بالقتل: قتل الأطفال ببيت لحم (إنجيل متى ٢:١٦-١٨).

يسوع وبيلاطس وهيرودس أنتيباس

في بداية خدمة يسوع/عيسى العلانية، وحوالي بلوغه الثلاثين من العمر، ذهب إلى البرّية مدة أربعين يوماً (إنجيل لوقا ٤:٢). وهذه الأيام الأربعون توازي، على نحو ما، تلك التي قضاها بنو إسرائيل تائهين في

الصحراء قبل أن يجتازوا نهر الأردن ليستولوا على الأرض. ولما مثل يسوع لاحقاً أمام بيلاطس الوالي الروماني وممثل الإمبراطور، سئل: «أنت ملِك اليهود؟» (إنجيل يوحنا ١٨ :٣٣). أجاب يسوع/عيسى أن مملكته ليست من هذا العالم. (إنجيل يوحنا ١٨ :٣٦). وعندما قال له بيلاطس «أفأنت إذاً ملِك؟ أجاب يسوع أنت تقول إني ملِك». أي أن هذه هي كلمات الوالي (إنجيل يوحنا ١٨ :٣٧). «فحينئذ أخذ بيلاطس يسوع وجلده، وضفر العسكر إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وألبسوه ثوب أرجوان» كملك مزيف، وراحوا يلطمونه. عندئذ خرج بيلاطس وقال «هوذا الإنسان» (إنجيل يوحنا ١٩ :٥). فلما رآه رؤساء الكهنة والخدّام صرخوا قائلين «إصلبه، إصلبه» (إنجيل يوحنا ١٩ :١٥). وبعد أن جلس بيلاطس على كرسي الولاية خاطب رؤساء الكهنة قائلاً «هوذا ملِككم» فصرخوا جميعاً «خذه، خذه إصلبه» فلما أجابهم بيلاطس أأصلب ملِككم، أجاب رؤساء الكهنة «ليس لنا ملِك إلا قيصر» (إنجيل يوحنا ١٩ :١٣-١٥). ولذلك، فإنهم حين قالوا ليس لنا ملِك إلا قيصر» ينكرون بكلامهم ما تقوله التوراة: الله وحده الملِك. والإمبراطور الروماني حاكم ظالم بقدر ما كان نمرود وفرعون ظالمين.

وقبل إصدار حكمه يبعث بيلاطس بيسوع/عيسى إلى الملِك هيرودس لأنه من الجليل، أي من المنطقة الواقعة تحت ولاية هيرودس [p.75] القانونية. وهيرودس هذا هو هيرودس أنتيباس (٤ق.م-٦٠م)، حاكم الجليل وعبر الأردن، أي رئيس ربع الولاية، الذي أنشأ مدينة طبريا، التي أسماها على اسم الإمبراطور الروماني طيبريوس (تولى الإمبراطورية من سنة ١٣ إلى ٣٧) على بحر الجليل. وكان هيرودس متزوجاً من الملكة هيروديا، التي كانت زوجة أخيه، وحفيدة هيرودس الكبير. كانت شديدة الولع بالسلطة وقد أقنعت أخي زوجها بتطليق امرأته

والتزوج منها. وقد كان يوحنا المعمدان، أي يحيى، أدان هذا الزواج، فقطع هيرودس رأسه بتحريض من هيروديا (إنجيل متى ١٤:٣-١٢). «احتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً» كأنما لملِك. ولكن لما لم يجب بشيء على هيرودس ردّه إلى بيلاطس(إنجيل لوقا ٢٣:٦-١١).

وعندما صلب يسوع وضع الجنود الرومان عنواناً على الصليب فوق رأسه مع التهمة التي حكم بها «هذا يسوع ملِك اليهود» (إنجيل متى ٢٧:٣٧) بثلاث لغات بالعبرية، واللاتينية، واليونانية (إنجيل يوحنا ١٩:١٩). وبينما كان يسوع معلّقاً بين لصّين آخرين مصلوبين سخر منه رؤساء الكهنة وعلماء الناموس والشيوخ قائلين: «خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلّصها. إن كان هو ملِك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به. قد اتكل على الله، فلينقذه الآن إن أراده» (إنجيل متى ٢٧:٤٢-٤٣؛ راجع سفر المزامير ٢٢:٩). بيلاطس سخر من يسوع بتتويجه بإكليل من الشوك، وهيرودس سخر منه بإلباسه رداء أنيقاً. وعندما صلب سخر منه رؤساء الكهنة وعلماء الناموس قائلين: «خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلّصها. هل هو ملِك إسرائيل؟»

السؤال في روايات الإنجيل هو: من هو الملِك الحقيقي هيرودس أم يسوع؟ هيرودس لا يسمح بأن يسخر منه ويصبح قاتل أطفال. وملِك اليهود الآخر يسمح بأن يسخر منه. وهو لا ينقذ أو يحرر نفسه، بل الآخرين: إنه خليفة، ملِك مسيحاني مثلما أراد الله.

محمد ورؤساء مكة الظَلَمَة

لم يترتب على محمد، في أيامه، أن يتعامل مع «ملوك» في مكة. ولكن *الملأ* قادة المدينة الأرستقراطيين القابضين على السلطة كلها كانوا

بمثابة الملوك. في الفترة الممتدة من العام ٦١٠ والعام ٦٢٢ كان على النبي محمد أن يتعامل مع زعماء مكة الظَلَمَة هؤلاء الذين قاوموا رسالته. وعلينا، إذا ما رُمنا فهم ماهية موقعهم، أن نلتفت إلى ما كان يسمّى خصوم الأنبياء الآخرين [p.76] الذين كان محمد يرى أن قصصهم تعكس وضعه هو. في قصص الرسل الغابرين يمثل *الملأ*، أي الأعيان والوجوه، الصورة المنمّطة للزعماء غير المؤمنين كالذين كان على محمد التعامل معهم في مكة. وهكذا يرى محمد مجابهته الخاصة مع ملأ مكة في مجابهة نوح مع ملأ قومه، ومواجهة النبي العربي هود مع ملأ قوم عاد، وصالح مع ملأ قوم ثمود، وشعيب، يثرون، مع ملأ أهل مدين (سورة الأعراف: ٩٠). وكان على موسى أيضاً أن يواجه أمثال هؤلاء في صفوف قوم فرعون (سورة الأعراف: ١٠٩، ١٢٧).

إن أمثال هؤلاء الزعماء، «الملوك»، سادة المدينة أو القبيلة هم الذين يشكلون العقبة الكبرى في وجه نجاح المهمة النبوية[1]. فهؤلاء الزعماء وأمثالهم يسخرون من محمد، ويتوعدونه، ويريدون قتله. والملأ يمثلون، مراراً وتكراراً، جماعة الكافرين، الظَلَمَة، ناكري المعروف الذين يفسدون في الأرض، يسفكون الدماء، ويدوسون على الجثث. وقد كان على النبي محمد أن يواجه هذا النوع من الظلم الذي يقدم عليه هذا الملأ.

الخلفاء الراشدون

بعد وفاة محمد، لم يوصف خلفاؤه الأولون بالملوك بل بالخلفاء. إنهم يوصفون بالخلفاء الراشدين، وهم، أبو بكر الصدّيق (٦٣٢-

(1) *E.Q. s.v.* Chastisment and Punishment

٦٣٤م)، وعمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م)، وعثمان بن عفّان (٦٤٤-٦٥٦م)، وعلي بن أبي طالب (٦٥٦-٦٦١م). ولكن التوترات بين الخليفة والملِك يمكن أن تشاهد في هؤلاء أيضاً. من ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب سأل سلمان الفارسي الذي كان صحابياً مقرباً جداً من محمد حتى كان يعتبر بمنزلة فرد من أسرته، «هل أنا ملِك أم خليفة؟» فأجاب سلمان: «إذا فرضت الخراج على أراضي المؤمنين نقداً، قلَ أو كثر، وأنفقت المال في ما لا تبيحه الشريعة، فأنت إذاً ملِك لا خليفة لرسول الله» فقال عمر: لا والله، لا أعرف إن كنت خليفة أم ملكاً، فإن كنت ملكاً فهذا أمر مخيف»[١].

بعد العام ٦٦١ انتقل مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق. كان معاوية، من أبناء أبي سفيان الذي قاد [p.77] المعارضة ضد محمد، والياً على الشام في خلافة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان. وبعد وفاة رابع الراشدين علي، أصبح معاوية أول الخلفاء الأمويين. لا بل إن الأمويين اعتقدوا أن لهم نسباً في ذرية أنبياء التوراة[٢]. وقد نقل الحسن بن علي (٦٢٥-٦٧٠م)، أكبر أحفاد محمد كل السلطات إلى معاوية من دون قتال. ومن أقوال معاوية «لا أضع سيفي حيث يكفيني السوط، ولا سوطي حيث يكفيني اللسان: ولو كان بيني وبين الناس شعرة لما تركتها تنقطع قط؛ فإذا أرخوها شددت، وإذا ما شدّوا أرخيت». ومن أقواله «ما هو محمود اليوم كان مذموماً من قبل، وما هو ملعون اليوم قد ينقلب محموداً». «لم يطلب أبو بكر الدنيا ولم تطلبه، وقد سعت الدنيا إلى

(1) Cyril Glassé, *The Concise Encyclopaedia of Islam*, revised edition (London: Stacey International, 2001*)* *s.v.* Umar; cf. Salman the Persian

(2) *E.Q. s.v.* Prophets and Prophethood

عمر مع إعراضه عنها. أما نحن فغارقون فيها حتى أوساطنا». و«أنا أول الملوك (في الإسلام)»[(١)].

وقد كان انتصار العباسيين على الأمويين محل ترحيب باعتباره استرداداً للنظرة الحقيقية للخلافة، لفكرة الدولة الثيوقراطية بدلاً من الدولة الدنيوية البحت، أي المُلك عند الأمويين. فسرعان ما تبيّن أن خليفة بغداد كان دنيوياً بقدر ما كان خليفة دمشق[(٢)].

وهكذا، ظل بقية الحكام يسمون أنفسهم خلفاء حتى من بعد ذهاب الخلفاء الراشدين. وقد بدأ البعض منهم، ببغداد، ينظرون إلى أنفسهم كخلفاء لله، «ظل الله على الأرض». ثم إن الناس سرعان ما تعلّموا التمييز الحاد بين الخلفاء الراشدين والملوك الدنيويين، مهتدين بالنقد القرآني النبوي، سواء أكانوا يتكلمون على خليفة أو على ملِك. فقد بدأت تبرز في الخلافة كافة علائم الظلم والقهر الفرعونيين. وما إن ظهرت خلافة جديدة في دمشق (الأمويين ٦٦١-٧٥٠م) حتى صار تقاة المسلمين يصفون الخلفاء بأنهم «ملوك» ظَلَمَة.

الملوك والاستكبار (التكبر والتجبر)

المراد الفعلي من القصة الوحيدة التي نجدها في الكتب الثلاثة هي توضيح الفكرة القائلة إن الحكّام الظَلَمَة الذين حكموا آشور، وبابل، ومصر مترابطون أيديولوجياً ويتسمون جميعاً بالاستكبار، والتيه، والغرور، والتفكير بأنهم آلهة. وتتكرر هذه الثيمة مراراً وتكراراً في

(1) Glassé, *Concise Encyclopaedia of Islam, s.v.* Mu'âwiya
(2) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (New York: Macmillan & Co. 1964), pp. 288-89

القصص التي تروي كيف أصبح الملوك متعالين، ومستكبرين، وهذا ما تعبّر عنه الترجمة اليونانية السبعونية للتوراة بكلمة هيوبريس hubris (التيه). فالبشر ميالون إلى تعدّي الحدود التي وضعها الله. وكثيراً مايعتبر الاستكبار من الخطايا لأنه يجعل الإنسان يتعاظم ليشبه الله في عظمته. وتتوالى التحذيرات للكهنة والملوك من الانجرار إلى الغطرسة والاستكبار: لنمرود، وفرعون، ونبوخذ نصر، وهيرودس من ناداهمإلى مساواة أنفسهم بالله، أو ليكون الواحد منهم ابناً لله، كالإسكندر الكبير الذي ظن أنه من تجليات الذات الإلهية، وكما فعل أنطيوخس أبيفانس مرة. وقد استمر ذلك حتى أيام محمد حين كان مخاصموه يستكبرون في أنفسهم ويعتون عتوّاً كبيراً (سورة الفرقان: ٢١). إن أمثال هؤلاء الحكام يحاولون باستمرار أن يتكبّروا بينما الله وحده أكبر (سورة الحشر: ٢٣) وهو العليّ الكبير (سورة الحج: ٦٢)[١].

الاستكبار هو الخطيئة البارزة عند كل الذين يرفضون الخضوع لله. وهي خطيئة الذين لم يستمعوا لرسالة الأنبياء والرسل على مرّ التاريخ. وكثيراً ما يشار إلى جماعات، وأقوام، وأفراد رفضوا كلمة الله بغطرسة واستكبار. إنهم المستكبرون، الأعيان الأرستقراطيون في كافة أنواع المراتب والممتلئون غطرسة وتيهاً (سورة الأعراف: ٧٥؛ سورة سبأ: ٣١-٣٣). تلك كانت الحال أيام نوح: استكبر معاصروه وأصروا

(١) كان نبوخذ نصر نموذجاً لنيرون، وكاليغولا، وصولاً إلى الملك الإنكليزي هنري الثامن والقيصر الروسي إيفان الرهيب. والمعنى السلبي لبرج بابل ككاتدرائية للشرير، ممهورة بأوهام العظمة والغرور التي روادت بانيه الأسطوري الملك نمرود ما يزال حياً في الثقافة الشعبية. راجع Moritz Wullen and Gunther Schauerte (eds), *Babylon Mythos* (Berlin/Hirmer: Staatliche Museen, 2008), p.45 (أسطورة بابل)

على استكبارهم (سورة نوح: ٧)؛ وكذلك استكبر قوم عاد الذين أرسل إليهم النبي العربي هود واختالوا في الأرض وجحدوا (سورة فصّلت: ١٥)، واستكبر أكابر قوم ثمود على ما دعاهم إليه صالح وقالوا: «إنا بالذي آمنتم به كافرون» (سورة الأعراف: ٧٥-٧٦)؛ وكذلك فعل أهل مدين، قوم شعيب، يثرون، حمو موسى إذ استكبروا وقالوا: «لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا» (سورة الأعراف: ٨٨). [p.79]

والاستكبار هو أيضاً أبرز خطايا فرعون مصر؛ ويعتبر هامان وقارون وزراء في خدمة فرعون وهم يستكبرون في الأرض (سورة العنكبوت: ٣٩). استكبر فرعون ومَلَؤه (سورة يونس: ٧٥؛ راجع سورة المؤمنون: ٤٦) وإن كان فرعون قد اتهم موسى وهارون نفسيهما بأنهما جاءا لتكون لهما «الكبرياء في الأرض» (سورة يونس: ٧٨)! وخلافاً لذلك نجد أن موسى يعوذ بربه «من كل متكبر» (سورة غافر: ٢٧). وعلى الرغم من النوائب التي حلّت بمصر من طوفان، وجراد، وضفادع، ودم، ظلّ فرعون وقومه يستكبرون (سورة الأعراف: ١٣٣). إنه صورة منعكسة للشيطان حين يرفض ما أتاه به موسى (سورة القصص: ٣٩) ويضل قومه بسلوكه المستكبر (سورة الأعراف: ١٣٣؛ سورة القصص: ٣٨؛ سورة يونس: ٧٥؛ سورة المؤمنون: ٤٦؛ سورة العنكبوت: ٣٩). الشيطان، ألد أعداء الإنسان، رفض أن يسجد لآدم عندما أمره الله بذلك. لذلك كان عليه أن يهبط من الفردوس إلى الأرض ولم يعد في وسعه أن يتكبّر في الفردوس، بل بات من الصاغرين (سورة الأعراف: ١٠-١٣؛ سورة ص: ٧٤-٧٥). وهكذا يوصف الشيطان وفرعون بأنهما رمز لما يجره التعالي والاستكبار من عواقب وخيمة.

فالاستكبار يعمي أبصار الناس ويجعلهم عاجزين عن معرفة «آيات» الله. إن البشر مدعوون لمشاهدة آيات الله في الطبيعة، والتاريخ، والتجربة الشخصية. وآيات الله التي يمكن أن ترى في العالم يمكن أن تؤدي إلى الإيمان (راجع سورة المجادلة: ٢٢؛ سورة الأنعام: ١٠٣). العمى هو الكناية عن الكفر المقصود وهو كثيراً ما يرتبط بالصمم (سورة الأعراف: ١٧٩؛ سورة هود: ٢٠؛ سورة محمد: ٢٣). «الإبصار إيمان». والإبصار المادي كناية عن الإيمان: الإبصار بالقلب (سورة الأعراف: ١٧٩؛ سورة هود: ٢٠؛ سورة محمد: ٢٣). السمع هو إطاعة أوامر الله: «سمعنا وأطعنا» (سورة البقرة: ٢٨٥؛ سورة النساء: ٤٦؛ سورة المائدة: ٧؛ سورة النور: ٥١؛ راجع سورة النور: ٤٧). ومن الجائز أن تكون للناس «آذان لا يسمعون بها» (سورة الأعراف: ١٧٩)، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون للمرء أذنان من دون أن يتقبل ما يسمع: «سمعنا وعصينا» (سورة البقرة: ٩٣). يُحضُّ المؤمنون على ألاّ يكونوا «كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (سورة الأنفال: ٢١). الصمم يعني أن أوامر الله يمكن أن ترفض. «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» (سورة الأنفال: ٢٢). وكما أن البصر والسمع يترافقان معاً، ويتماشيان مع الفهم والرضا، كذلك يترافق الصمم والعمى (سورة المائدة: ٧١؛ سورة هود: ٢٤؛ سورة الفرقان: ٧٣؛ سورة الزخرف: ٤٠؛ سورة محمد: ٢٣). والذين يعملون السيئات هم عميان [p.80] البصيرة حقاً لا عميان البصر. إنهم يكذبون بآيات الله ويستكبرون عنها (سورة الأعراف: ٣٦؛ راجع سورة الأنعام: ٩٣؛ سورة الأعراف: ٤٠؛ سورة غافر: ٦٠)[1].

---

(1) *E.Q. s.v.* Pride, Vision and Blindness, Hearing and Deafness

الثروة والاستكبار

كثيراً ما يعرض التعالي والقوم المتعالون المستكبرون بالترابط مع الثروة والأثرياء. فتكديس الأموال والطمع يترافقان. «والله لا يحب كل مختال فخور» (سورة الحديد: ٢٣-٢٤). والخطأ الأساسي في الطمع هو الاستغناء والغرور (سورة الليل: ٨). إن ثمن الجشع هو الذات نفسها: فالمرء إنما يطمع تجاه نفسه. والطمع مضر بالذات. (سورة محمد: ٣٨) وعلى الضد من ذلك، فإن إنفاق الخير مفيد للذات. «ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون» (سورة التغابن: ١٦) يقول المسيح: «ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله. مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (إنجيل مرقس ١٠ : ٢٥؛ إنجيل متى ١٩ : ٢٤؛ لوقا ١٨ : ٢٥). والصورة نفسها تستعمل في القرآن، ولكن الكلام ليس على رجل يريد الحياة الأبدية، أي الحياة الحقيقية، بل على الذين كذّبوا بآيات الله (سورة الأعراف: ٤٠؛ إنجيل متى ١٩ : ٢٤؛ إنجيل مرقس ١٠ : ٢٥).

بالرغم من المخاطر العديدة التي تستجرها الثروة على الناس، فإن في وسع الإنسان أن يتزكّى بإنفاقها من دون أن يرتجي جزاء «إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» (سورة الليل: ١٨-١٩). ينبغي للمرء ألا يبطل صدقاته «بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس» (سورة البقرة: ٢٦٤؛ راجع إنجيل متى: ٦ : ٥). ولا يمكن لثروة الإنسان أن تشبه هبة الله الأصلية للبشر، تلك الهبة التي منحت من دون توقع رجوعها إلى واهبها، إلا إذا تصرف الإنسان من دون ذلك التوقع. فالتقوى هي إيتاء المرء ماله، «على حبه، ذوي القربى واليتامى، والمساكين، وابن السبيل والسائلين، وفي الرقاب» (سورة البقرة: ١٧٧) وإطعام «الطعام على حبّه، مسكيناً

ويتيماً وأسيراً» (سورة الإنسان: ٨؛ راجع إنجيل متى ٢٥: ٣١- ٤٦). إذا آمن البشر واتقوا ربّهم يؤتِهم الله أجورهم ولا يسألهم أموالهم. والناس مدعوون لينفقوا «في سبيل الله» فإن تولّوا ولم يستمعوا لهذه الرسالة يستبدل الله قوماً غيرهم، قوماً يطيعون الدعوة إلى النجاة (سورة محمد: ٣٦-٣٨)[1]. [p.81]

أمثال عن الثروة والكبرياء

«وقال [ليسوع] واحد من الجمع: يا معلّم قُل لأخي يقاسمني الميراث. فقال له: يا إنسان من أقامني عليكما قاضياً أو مقسّماً. وقال لهم: أنظروا وتحفظّوا من الطمع. فإنه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله. وضرب لهم مثلاً قائلاً: إنسان غني أخصبت كورته. ففكر في نفسه قائلاً ماذا أعمل لأن ليس لي موضع أجمع فيه أثماري. وقال أعمل هذا. أهدم مخازني وأبني أعظم، وأجمع هناك جميع غلاّتي وخيراتي. وأقول لنفسي يا نفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريحي وكلي واشربي وافرحي. فقال له الله: يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التي أعددتها لمن تكون. هكذا الذي يكنز لنفسه وليس هو غنياً لله» (لوقا ١٢: ١٣-٢١).

«واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجّرنا خلالهما نهراً. وكان له ثمر فقال لصاحبه، وهو يحاوره، أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً. ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه،

---

(1) E.Q. s.v. Wealth. Cf. also Poverty, Water, Blessing, Avarice, Gift, Path or Way, Astray, Arrogance, Virtue

قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظنّ الساعة قائمة... قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً، لكنّ هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً. ولولا إذ دخلت جنّتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقل منك مالاً وولداً، فعسى ربّي أن يؤتينِ خيراً من جنّتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا... وأحيط بثمره فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً... المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً» (سورة الكهف: ٣٢-٤٦)[1].

الخيار أمام الجميع: خليفة أم ملك؟

البشر كلهم مهيأون من قبل الله لأن يكونوا خلائفه في الأرض. لذلك فهو لا يعني آدم وحواء فحسب، فما يقال عنهما في قصة الخلق ينطبق على الجميع من رجل وامرأة. فالله يريد أن يجعل من كل شخص خليفة له على الأرض (سورة الأنعام: ١٦٥؛ سورة فاطر: ٣٩).

خصيم الله وعدو البشر، الشيطان، أراد منذ البداية أن يغوي البشر ليكونوا ملوكاً. وهكذا يواجه الإنسان بالخيار: ماذا يريد أن يكون - خليفة أم ملكاً؟ هل يريد أن يكون ما أراد الله للبشر أن يكونوا أم يريد أن يكون ملكاً ظالماً يفسد في الأرض ويسفك الدماء، مثلما تنبأ الملائكة ونوّه خصيم الله، مع ما يستتبعه ذلك من استغلال، وقهر، وظلم؟ ماذا يختار الكائن البشري؟ هل هو مؤمن شكور، أم كافر عقوق؟ هل يتبع الصراط المستقيم أم دروب الضلالة؟ هل يكون إماماً

(1) *E.Q. s.v.* Parable

للهدى والعدل أو إماماً للظلم؟ إماماً للإيمان أو إماماً فاسداً للإلحاد؟ إماماً للعدل يهدي بأمر الله (سورة الأنبياء: ٧٣؛سورة السجدة: ٢٤) أم إماماً من أئمة الكفر والظلم (سورة التوبة: ١٢)؟[1] هل سيكون من حزب الله أم من حزب الشيطان؟ فالذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان (سورة المجادلة: ١٩؛ راجع سورة النساء: ١١٩؛ سورة الأنفال: ٤٨). رضي الله عن أولئك الذين كتب في قلوبهم الإيمان، هؤلاء هم حزب الله، وهم المفلحون (سورة المجادلة: ٢٢). ومن يتولَّى الله ورسوله والذين آمنوا فقد أحسن الاختيار، وهو من حزب الله وإن حزب الله هم الغالبون (سورة المائدة: ٥٦).

النبي إرميا وقصة الخليفة والملك

الشاعر اللبناني المعروف جبران خليل جبران الذي استشهدت بكلامه في مستهل هذا الفصل والذي وضع كتاب «النبي» الجميل، كتب هذه الكلمات: «ويل لأمة تكثر فيها الطوائف وتخلو من الدين». ما هي الديانة الحقيقية التي يُدعى إليها البشر؟ كيف يمكن أن يثبت هذا وما هي معايير إثباته؟ الإجابة عن هذا السؤال جاء بها الأنبياء الذين ينطقون بلسان الله، [p.83] ويخاطبون الزعماء الروحيين («الهيكل») والسياسيين («الملوك») خطاباً نقدياً. والنبي إرميا تصرف بصورة مخصوصة جداً في هذا الموضوع يوم خاطب الملك يهوياقيم وقابل سلوكه بسلوك والده الملك يوشيا.

---

(1) *E.Q. s.v.* Imam

الملك يوشيا، الأب

ملّك يوشيا على اليهودية من سنة ٦٣٩ إلى سنة ٦٠٩، وكان ابن ثمان سنين حين ملّك وملك إحدى وثلاثين سنة. وفي السنة الثامنة عشرة من مُلكه اكتُشف كتاب الشريعة، أي كتاب العهد (سفر الملوك الثاني ٢٢:٨). ومن الجائز أن يكون كتاب الشريعة هذا هو كتاب التثنية الذي نعرفه اليوم، «الشريعة الثانية» بصورة أو بأخرى، وكان المحفز للإصلاح في الأرض (سفر الملوك الثاني ٢٣:١-٢٤) وقد قام يوشيا بدور الملك التقي. ويتم تذكره في الأناشيد (سفر الأخبار الثاني ٣٥:٢٥)، وربما كان آخر ملوك اليهودية الذين يعتد بهم (سفر الملوك الأول ١٢:٢؛ سفر الملوك الثاني ٢١:٢٤-٢٣:٣٠) ولم يبزّه في الشهرة والامتداح إلا داود. قبل يوشيا لم يملك أي ملِك التفت إلى الله حسب الشريعة من كل قلبه، وكل روحه، وكل قوته، كما لم يأت بعده أي ملك يضارعه في تقواه (سفر الملوك الثاني ٢٣:٢٥). وقد قام يوشيا بإصلاحات دينية وسياسية هامة. أما جد يوشيا، الملك منسّى، فقد عمل الشر في عيني الرب (سفر الملوك الثاني ٢١:٢) إذ أعاد عبادة الأصنام، وأقام مذابح للبعل ونصب صوراً للإلهة عشتورت (عشتار)، «وعبّر ابنه في النار» على أحد المذابح العديدة التي أمر ببنائها (سفر الأخبار الثاني ٣٣:٦) مع أن أباه الملك حزقيا كان ملكاً تقياً. وكان يوشيا لما بلغ السادسة عشرة من عمره قد بدأ يتقرّب من الله، إله أبيه الأكبر داود (سفر الأخبار الثاني ٣٤:٣). وبعد أربع سنوات أصدر يوشيا أمراً بحظر عبادة الأصنام وأمر بهدم كل ما أقيم لها من مذابح في المرتفعات. وكان قد بلغ السادسة والعشرين من عمره لما قرر ترميم هيكل القدس المتهدم

والمهمل منذ زمن بعيد، وبدأ يستوفي رسماً مالياً عند مدخله لهذه الغاية. وفي أثناء عملية الترميم، وجد الكاهن الأعظم كتاب الشريعة من الأزمنة القديمة. وقد تركت قراءة هذا الكتاب من الأثر في نفس يوشيا ما جعله يشق ثيابه يأساً عندما علم أن عموم أهل اليهودية سوف يهلكون عقاباً على خطيتهم. وقد أكدت خلدة النبية التي استشارها يوشيا فوراً أن ذلك سوف يحدث حقاً ولكنه سوف يموت قبل أن ترى عيناه ذلك الشر الذي سيحل بهم لأنه [p.84] تواضع أمام الرب وشريعته (سفر الملوك الثاني ٢٢ : ٣-٣٠). «وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم والكهنة وكل الشعب من الصغير إلى الكبير» في بيت الرب حيث قرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة. ثم وقف يوشيا على المنبر وقطع عهداً أمام الرب لحفظ وصاياه وأتباعها (سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٢-٣). وأمر بتدمير كافة مذابح الأضاحي خارج الهيكل، ومنها المذبح الذي شيده الملك يربعام سنة ٩٢٢ق.م. في بيت إيل بعد إقامة مملكة إسرائيل الشمالية. وكان أمر الملك بالاحتفال بالفصح بعد إزالة تلك الشوائب رمزاً لعبادة يهوذا لله : «لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيام القضاة الذين حكموا على إسرائيل ولا في كل أيام ملوك إسرائيل ويهوذا(سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٢) أي طيلة ٤٠٠ سنة!

الملك يهوياقيم ابن يوشيا

كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك في العام ٦٠٩ق.م. وملك إحدى عشرة سنة حتى العام ٥٩٨ق.م.. وعمل الشر في عيني الرب مثلما فعل أسلافه (سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٢٧) فارتكب القتل، والزنا بالمحارم، والاغتصاب، والسرقة وسخر من التوراة.

رسالة إرميا: خليفة أم ملك؟

كانت تعاليم إرميا في القدس موجّهة إلى هذا الملك الأخير وإن لم يؤت على ذكر اسمه صراحة. يقارنه إرميا بأبيه وهكذا تبرز صورة واضحة وحادة لما يكون عليه ملك حقيقي أو خليفة (بلغة القرآن) وما يكون عليه ملك سيء. ويخاطب النبي إرميا الملك يهوياقيم على النحو التالي، من دون تسميته:

ويل لمن يبني بيته بغير عدل، وعلاليه بغير حق

سفر إرميا ٢٢ : ١٣

من أبرز ما لاحظته خلال الحرب بلبنان في السبعينات التوازي اللافت الذي بدا لي بين الحال الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية يومها وبين أيام النبي إرميا. عندما قرأت هذه الفقرة ببيروت الحرب الأهلية يومها، كانت ردة فعلي الأولى: ما [p.85] أليق هذا الكلام بما يحدث الآن في لبنان! «*ويل لمن يبني بيته بغير عدل، وعلاليه بغير حق*». لئن كان ثمة شيء يلفت نظر الناظر في بيروت فهو المنازل الجميلة، والمناطق السكنية الفاخرة التي شيدت على مقربة من الفقر المدقع. كانت أكواخ المخيمات الفلسطينية وبيوت اللبنانيين المفقرين تُرى من سطوح المباني الفخمة الفاحشة الثمن. «ويل للذي يستخدم صاحبه مجاناً ولا يعطيه أجرته» (سفر إرميا ٢٢ : ١٣). في ذلك الوقت كان ثمة ما يقارب الثلاثمئة ألف عامل سوري يشتغلون في لبنان بأجور متدنية لأنهم كانوا أجانب أو كانوا يقيمون بصورة غير شرعية في البلد، وكانوا ربما يعملون بأجر أدنى. «لأن عينيك وقلبك ليست إلا على خطفك وعلى الدم الزكي لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما» (سفر إرميا ٢٢ : ١٧). لم يكن المرء يحتاج إلى أكثر من الجهر بقراءة

هذه الكلمات، مثلما فعلت مرة هناك، من دون أي تعليق آخر، وكان الجميع يفهمون ما كان مدار الأمر. ولم يكن ما بدا من انطباق هذه الكلمات على الوضع في لبنان هو ما صدمني إلى هذا الحد، بل كون لبنان يذكر في موضع لاحق من هذا النص. إذ عندما يشاهد المرء التدمير المستشري، والمباني والمنازل التي تحرق وتفجّر، دوراً فدوراً، وكيف يقتل الناس، فإن كلمات النبي إرميا تأتي كصدمة: إصعدي على لبنان وأصرخي...لأنه قد سُحقَ كل محبيكِ. تكلّمت إليك في راحتك، قلتِ لا أسمع!» (سفر إرميا ٢٢: ٢٠-٢١).

غير أن المسألة ليست مسألة تطبيق أسماء من ذلك الزمن على أحوال اليوم بمعنى إبداء رأي صريح للبنان. فالغاية من كلمات النبي ليست النظر إليها باعتبارها قابلة للتطبيق تماماً على الآخر، على جارنا، أو على الجانب الآخر من العالم. بل الغاية منها التطبيق على الذات وعلى أوضاعها. ويجب فهم مراد النبي، وفي هذه الحالة النبي إرميا. فوجود منطقة يهوذا الصغيرة مهدد؛ خرابها وشيك، لوقوعها بين القوى العظمى في ذلك الزمن. فالملك يهوياقيم قد أصبح ملكاً بتعيين من فرعون مصر. وهو ابن يوشيا الذي تمت الإصلاحات في عهده (سفر إرميا ٢٢: ١٥). أبوه سلك طرق الخير أمام الرب، على ما نقرأ، والآن يقارن إرميا ما بين الأب والابن. نوعان من المُلك يقابلان أمامنا، وطريقتان في الحكم. على الرغم من الفقر الذي كانت تعاني منه القدس [p.86]، كان يهوياقيم ابن يوشيا يعيش عيشة مترفة. وهو كحاكم شرقي حقيقي مستبد، يُكرِه الفلاحين العاملين في خدمته على العمل من دون أن يدفع لهم أجورهم. أمر بزخرفة قصره وتركيب مستحدثات عصره. وهو يعتقد أن القصر ليس كبيراً كبراً كافياً فيأمر بهدم بعض الجدران وبناء العلالي الفسيحة، وتركيب نوافذ خاصة من خشب الأرز مسخراً الناس في صنعها. لا

يزوّق إرميا كلامه بل يقول بوضوح ما يحدث هنا: إنه سوء استعمال للسلطة وظلم. ويتجشم الملك هذا العناء لا من أجل إسكان الناس بل لإرضاء ذاته الخاصة. لا - وفي هذه الحال كان والد يهوياقيم ملكاً أفضل، ملكاً من نوع آخر كلّياً. فالعدل والاستقامة اللذان يدوسهما الابن تحت قدميه كانا خبزاً يومياً لوالده يوشيا. فبقدر ما كان يأكل ويشرب كل يوم كان يتّبع متطلبات العدل والاستقامة. لا شك في أنه كان يستمتع بأطايب الحياة. وليس هذا هو الغرض هنا - أن يمنع هذا. فخطأ الابن يتمثل في أن إقامة العدل والسلوك المستقيم لم يكونا خبزه اليومي. كان حكم يوشيا يستهدف تحقيق العدل للمستضعفين وقد بيّن في هذا الشأن أنه كان يطلب وجه الله ومرضاته. وهذا هو جوهر الملك الصالح وما يريد أن يقوله النبي حقاً. «قضى قضاء الفقير والمسكين حينئذ كان خير. أليس هذا معرفتي؟ يقول الرب» (سفر إرميا ٢٢:١٦). هذه هي معرفة الله حق معرفته؛ هذا هو الدين الحقيقي الذي يقصده الشاعر جبران خليل جبران. معرفة الله الحقة، عدل الله الحق هو السلوك بالعدل مع البشر. ذلك هو الفرق العميق بين طريقتي الحكم والمُلك. يهوياقيم يتعسف في الحكم لتسمن جيوبه، ولا يتردد في الدوس على الجثث، مثلما فعل الملك آخاب في زمنه، ليستولي على أرض الغير، أي أرض نابوت (سفر الملوك الثاني ٩:٢٦).

إذا سأل المرء ماذا ترى يقول الأنبياء اليوم، فمن الواضح أن ثمة طريقتين متقابلتين للحكم وممارسة السيادة. ومن الجائز أن أسماء هؤلاء الملوك لم تعد تعني الكثير لنا. وإرميا نفسه لا يذكرهما بالاسم. ولكن المسألة ما زالت قائمة إلى اليوم. ما يجب أن تكون عليه أجور «العمال»، أضعف أفراد المجتمع، إذا ما أتيح لهم العمل أصلاً؟ ولا يسميهم إرميا عمالاً بل يسميهم أصحاباً: ويل للذي يستخدم [أصحابه]

مجاناً ولا [يعطيهم] أجرتهم» (سفر إرميا ٢٢ : ١٣). والصاحب هو [p.87] الذات. والظاهر أن هذا ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين العامل ورب العمل حسب النبي.

والمسألة هنا، في المجتمع وفي الحياة الشخصية، هي فهم ما تعنيه «الديانة»، وما معنى معرفة الله، في نهاية المطاف. يقول بولس «إذاً لا تملكنَّ الخطيّة في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته، ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل قدّموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بِر لله» (رسالة بولس إلى أهل رومية ٦ : ١٢-١٣). وهو معنيّ، مثل إرميا، بأمرين «خدمة الشهوات» أو «معرفة الله وخدمته». كثيراً ما يلهث الناس وراء إشباعرغبات أجسادهم وشهواتها. وهذا لا يعني إدانة التمتع بالأكل والشرب بما هما كذلك. ولكن يبدو أن السؤال الذي يجب على كل واحد أن يسأله هو: «من يشبع رغبات الجسد على حساب من؟» الناس لا يسألون عادة إلا «ماذا نأكل، ماذا نشرب، ماذا نلبس، كيف يمكننا أن نستمتع بالحياة، نبني المنازل، كيف يمكننا التأكد من عدم التعرض للعوز؟ كيف يمكننا أن نشعر بالأمان؟» ولكن هذا ليس كل ما يجب على المرء أن يفعله.

لا قِبَل لأحدٍ أن يعيش بأمان وحده. فالأمان لا ينقسم: فأمان المرء من أمان غيره. لكن النبي والرسول يسألان ما معنى معرفة الله حقاً وخدمته: تقديم المرء جسده أداة للبِر بحيث يتعلم أن يسأل: ماذا سيأكل الآخرون؟ ماذا سيشربون؟ كيف سيجدون منازل؟ كيف يمكن إقامة العدل للآخرين؟ كيف يمكن أن يشعر الآخرون بالأمان؟

هذا هو السؤال الموجّه لقادتنا. هذا هو السؤال الموجّه إلى أنفسنا: هل نكون خلفاء أم ملوكاً؟

الفصل الرابع

الخروج من بابل إلى القدس، الهجرة من مكة إلى المدينة

الخروج

عندما منع فرعون الناس من الذهاب، شطرت عصا مياه البحر، وتوقف التيار.

بلغوا الضفة دون أن تبتل أقدامهم، بلغوا قصب البحر الأحمر. هكذا حدث الخروج.

في وقت متأخر.كل ليلة أرى في ما يرى النائم

المياه منتصبة ومنقلبة إلى الوراء.

نمشي منذهلين يداً بيد.

وفي الأعالي فوق الشريط الذي نمشي عليه، في الأعالي فوق حائط الماء وحائط الماء،

ثمة شريط من الضجيج وخفقان أجنحة الطيور.

طيور مهاجرة، تحلّق فوق رؤوسنا في طريقها إلى أرض الميعاد.

إيدا غيرهارت

لا تنقطع الدعوة إلى الهجرة حتى تشرق الشمس من مغربها(*).

حديث شريف

مقدمة

ماذا يفهم الناس من لفظة «خروج» و«هجرة»؟ قصة التحرر من مصر بقيادة موسى تُسقَط على الماضي، على نوح، ويوسف، وإبراهيم، كما تُسقَط على المستقبل، على يسوع/عيسى، ومحمد. سوف نمعن النظر في «الهجرات» الفردية التي قام بها إبراهيم، وموسى، وعيسى/يسوع، ومحمد.

أخيراً سوف نتساءل لِمَ لا يستطيع اليهود، والمسيحيون، والمسلمون أن يتذكروا الهجرة/الخروج، التحرر معاً؟

الخروج: الهجرة

يشير لفظ الخروج أصلاً إلى هجرة بني إسرائيل من مصر، من بيت العبودية [p.89] والقهر، بقيادة موسى. يستهل التمهيد لـ«الكلمات العشر» المشار إليها عادة بالوصايا العشر التي أنزلها الله إلى بني إسرائيل على جبل سيناء بما يلي: «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية» (سفر الخروج ٢٠: ٢). تسلم بنو إسرائيل التوراة في الصحراء (سفر الخروج: ٣٢: ١٥-١٦؛ سورة الأعراف: ١٤٥-١٥٤). لقد ترجمت كلمة توراة إلى اليونانية بكلمة نوموس التي تعني القانون،

(*) النص الدقيق، الحديث النبوي الشريف هو الآتي: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

والتي كثيراً ما تكون لها تداعيات الصفة القانونية لا بل والشرعانية. وقد تعرضت كلمة شريعة لمصير مماثل، إذ باتت تدل على الشرع الإسلامي بينما معناها الأصلي هو «الطريق إلى النبع»، أي نبع الماء الضروري لبقاء الإنسان وهو يعبر البادية. لكن كلمة توراة تدل أيضاً على المَعلَم، أو الصوّة الدالين على الطريق، إنها الطريق المبيّنة للبشر. ثمة عشر معالم تعمل عمل زاد المسافر، المن المحيي، والكافي لكل يوم بحيث لا يعاني أحد من الحاجة. وقد أنعم الله على بني إسرائيل بهذا «الخبز السماوي» في طريقهم عبر البادية (سفر الخروج ١٦ : ١٣-٣٦). والتوراة بكلمة هي «الإنصاف ومحبة القريب». الإنصاف وإبداء الود هما الخبز اليومي. التوارة تعلم الناس أن يتشاطروا كل شيء. ومن أكثر شهادات التوراة ثورية تلك التي تقول إن الله سوف يقيل الشعب من العبء الذي ألقته مصر على كواهله ويحرره ويخلصه من حال العبودية (سفر الخروج ٦ : ٦). الله قادر ومستعد لأن يتدخل ضد كافة الظروف والقوى الظالمة والمستلبة التي تقف في طريق عيش الناس السوي. يستعمل العهد القديم، التاناخ، أفعالاً مختلفة للدلالة على الهجرة، والله يكون فيها دائماً في موقع الفاعل: أخرَجَ من، حرّرَ، ونجّى. كان الأمر يتعلق في الدرجة الأولى بإخراجهم من مصر بالمعنى الجغرافي (سفر الخروج ١٣ : ٣؛ ١٢ : ٤١؛ ١٤ : ٨؛ سفر التثنية ١٦ : ٣، ٦) وتحريرهم من سلطة الفرعون الظالمة(سفر الخروج ٣ : ٨؛ راجع ٥ : ٢٣؛ ٦ : ٦؛ ١٨ : ٩)، وبمعنى إنقاذهم جسدياً من الخطر، «كشعلة منتشلة من الحريق» (سفر عاموس ٤ : ١١؛ KJV). هكذا حرر الله بني إسرائيل من خطر العبودية لمصر. وتستعمل كلمة يخلّص مع ما يتداعى معها من تضامن عائلي، كما يكون الأمر عندما يعسِر امرؤ ما جراء شدة تنزل به فيضطر إلى بيع أرضه، ولكنه يخلّص من هذا الوضع. الله يسهر على

خير العائلة (سفر اللاويين ٢٥: ٢٥-٢٨). وقد تستعمل مرادفات أخرى مثل: أنقذ، استرد، وانتشل. فأفعال الله الخلاصية القوية [p.90] تضع حداً لحال الخوف، والمعاناة، واليأس وتخلق إمكانية لعيش عيشة مختلفة. إنه فعل قاتل فيه الله القوى التي تهدد هناءة عيش الناس. ويحدث هذا الخلاص بشكل ملموس جداً في التاريخ الحقيقي وهو أمر لم يكن بنو إسرائيل قادرين على تحقيقه بأنفسهم (سفر الخروج ١٤: ٣٠؛ راجع سفر المزامير ١٠٦: ٨؛ سفر الخروج ١٤: ١٣؛ ١٥: ٢). الاسترداد عملية اقتصادية يُفتك بموجبها امرؤ من العبودية (سفر الخروج ١٣: ١٥؛ راجع سفر التثنية ٧: ٨؛ ١٥: ١٥؛ ٢٤: ١٨؛ سفر المزامير ٧٨: ٤٢).

عندما يرى الله بؤس شعبه، ويسمع صراخهم ويعرف مدى معاناتهم، ينزل لينتشلهم من أرض الظلم (سفر الخروج ٣: ٨، ١٧). إن كون هؤلاء القوم قد صعدوا من العبودية إلى الحرية، من أرض الظلم، مصر، إلى أرض الميعاد يجعل هذه الكلمة توحي بأكثر من ما يوحي به اللفظ الجغرافي. فإصعاد بني إسرائيل من بيت العبودية يرفعهم إلى ظروف أفضل. وبالمعنى المتعدي أيضاً يمكن أن يكون ذلك خلاصاً شخصياً: أن يُنتشل المرء، ويرفع من الأعماق: «أنت الذي أريتنا ضيقات كثيرة ورديئة تعود فتحيينا ومن أعماق الأرض تعود فتصعدنا» (سفر المزامير ٧١: ٢٠)[1].

(١) Walter Brueggemann, *Theology of the Old Testament: Testimony, Dispute, Advocacy* (Minneapolis: Fortress Press, 1997), pp. 173-76 (لاهوت العهد القديم: الشهادة، المنازعة، المناصرة)

إعادة سرد قصة الخروج

تروى خبرات ما يجري في أزمنة أخرى، وأمكنة أخرى، وظروف أخرى في الكتاب المقدس وتعاد روايتها عبر عدسة ذكرى هذا الرحيل الخاص، وهذا التحرير، وهذا الخلاص من عبودية مصر. والله يفعل ما تعبّر عنه هذه الأفعال لا في البداية فحسب، بل على امتداد التاريخ. على هذا النحو يتصرف قبل الخروج من مصر وبعده، ويستمر على ذلك في المستقبل - هذه هي الرسالة الدائمة! ويوصف خلاص قوم موسى أيضاً على ضوء إعادة لقصة طوفان نوح. فبعد الطوفان ذهب نوح إلى اليابسة؛ واستقر هو وأهله في أرض مقفرة (سورة الأعراف: ٥٩-٦٤؛ سورة يونس: ٧٣؛ سورة هود: ٣٦-٤٨؛ سورة الأنبياء: ٧٦-٧٧؛ سورة المؤمنون: ٢٧-٢٩؛ سورة الشعراء: ١١٩؛ سورة العنكبوت: ١٥؛ سورة القمر: ١٣). وهو يذكر في جملة الأنبياء الذين أخذ منهم الله ميثاقاً كإبراهيم، وموسى، وعيسى/يسوع (سورة الأحزاب: ٧). وقد اتهم بالكذب (سورة الحج: ٤٢) ونجا في الفلك (سورة الأعراف: ٦٤). وقبل أن يرسو [p.91] يطلب من ربه أن ينزله «مُنزلاً مباركاً»، كبني إسرائيل الذين سكنوا الأرض بعد موت فرعون (سورة الإسراء: ١٠٤؛ راجع سورة إبراهيم ١٤: ١٤).

ويبدو رحيل إبراهيم من مدينة أور الكلدانيين كاستباق للخروج اللاحقمن مصر(سفر التكوين ١٢: ١؛ ١٥: ٧). فالله يقود إبراهيم من أور، من أرض الكلدانيين أو البابليين كي يمنحه أرض الميعاد ملكاً (سفر التكوين ١٧: ٨؛ راجع سفر نحميا ٩: ٧) ويذهب إبراهيم طائعاً إلى الموضع المحدد له ولذريته. غادر من دون أن يعرف إلى أين هو ذاهب (الرسالة إلى العبرانيين ١١: ٨).

عندما دخل بنو إسرائيل أرض الميعاد بعد عبور نهر الأردن، فإن هذا الحدث يحدث على نحو مشابه لعبور البحر الأحمر بعد مغادرة مصر (سفر يشوع ٤ :٢٢، ٢٣؛ راجع سفر التثنية ١٤ :٢٩). والأزمة التي يجد هؤلاء أنفسهم متورطين فيها مع الفلسطينيين ينظر إليها من منظور «الخروج» من مصر (سفر صموئيل ٤-٧ :١): الفلسطينيون يصلون للنجاة من قوة ذلك الإله الذي أنزل الضربات بالمصريين (سفر صموئيل الأول ٤ :٧،٨). ومثلما اضطر الفرعون إلى تخلية بني إسرائيل في النهاية وهُزِمَ آلهة المصريين (سفر صموئيل الأول ٦ :٦؛ راجع سفر الخروج ١٢ :١٢)، كذلك هزمت آلهة الفلسطينيين القدماء. وبعد سقوط القدس سنة ٥٨٧ق.م. في يد نبوخذ نصر وزمن السبي ببابل الذي وجد بنو إسرائيل أنفسهم فيه، استطاع هذا الإله نفسه أن يخلصهم من هيمنة بابل (تثنية-إشعياء).

من المهم أن نستوعب أن ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر لم يكن، على ما بيّن النبي عاموس، لم تكن أمراً يعني بني إسرائيل وحدهم فحسب! ذلك أن عاموس، وهو نبي من تكوا في منطقة يهوذا، كان يربي الدواجن الصغيرة، والمواشي، ويزرع الجمّيز، قد دعي حوالي سنة ٧٦٩ق.م. إلى ترك مواشيه فوراً والاستجابة لدعوة النبوة. وكان عليه أن يعظ الناس ضد انتهاك العدل المستشري في إسرائيل، وحياة المدن الباذخة، والأضاحي الكثيرة التي كانت تذبح لغير الله. فقد كان الملك يربعام قد حوّل مقاماً قريباً من بيتيل إلى مقام «وطني» لمملكة إسرائيل الشمالية، مؤسساً شعائره الخاصة على مذابح المرتفعات والكهنة المختارين من عوام الناس. وكانت لتلك الشعائر جاذبيتها لأنها كانت تشتمل على شعائر العجل الشرقي (رمز الخصوبة)

(سفر الملوك الأول ١٢ : ٢٩-٣٢). وقد اعتبرت هذه الشعائر بمثابة «خطيئة يربعام»[١]. [p.92]

ينشب صدام بين عاموس والكاهن الأكبر الذي يشي به إلى الملك، ويتوجب عليه الفرار جراء ذلك. يدين عاموس موقف الذين يفاخرون بكونهم مختاري الله، ويشدد على أن ثمة شعوباً أخرى عانت الخروج، ومنها أعداء لبني إسرائيل مثل: الكوشيين، والقدماء، والآراميين. كان ناهور شقيق إبراهيم جد مجموعة من الآراميين. كان الآراميون، أيام البطاركة، يعيشون في أماكن عدة منها حرّان، موطن إبراهيم الثاني. وكانت بعض الممالك الصغرى تعسر حياة بني إسرائيل وتحارب شاول، وداود وسليمان. ينكر عاموس أن تكون حركة «الخروج» التحريرية أمراً ينطبق حصرياً على إسرائيل! ويعبر النبي عن ملامة تأنيبية عندما تسيء إسرائيل استعمال هذا الاختيار خدمة لدعاوة خصوصية ضيقة. فقد منح الله «خروجاً» آخر لشعوب أخرى، حتى تلك الأكثر معاداة لإسرائيل. «ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل؟ يقول الرب»[٢]. «ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير؟» (سفر عاموس ٩ : ٧). فالرب الذي أصعد إسرائيل من مصر يقوم بأفعال تحريرية مشابهة في أمكنة أخرى. الله ذاته خلق خروج الفلسطينيين والأراميين، أعداء إسرائيل الألداء! إن الله يتميز بمساعدة الناس كل الناس على النجاة والهجرة والخروج والخلاص،

(1) KBS on 1Kgs. 12: 28-29; Exod. 32: 5

(٢) *Bijbels HistorischWoordenboek*, ed. By Bo Reicke and Leonard Rost, Volumes I-VI (Utrecht and Antwerp: Het Spectrum, 1969) *s.v.* Kush. وسوف يشار إلى هذا الكتاب في ما يلي بـ *B.W.*. ويضيف KBS حول سفر عاموس ٩ : ٧ ما يلي eenzwartebevolking [قوم سود].

وكل ما تفيده الأفعال المذكورة آنفاً، وهو يقوم بذلك في أماكن عديدة إن لم يكن في كل مكان. عندما يجد الناس أو الأفراد أنهم متورطون في حال المظلومية واليأس، يتدخل الله في تحريرهم من هذه الأوضاع![1] ويقول القرآن أيضاً إن «الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء» (سورة الحديد: ٢٩)[2].

سأنظر الآن بصورة أخص وأوسع في قصص خروج إبراهيم، وموسى، ويسوع/عيسى، وهجرة محمد.

خروج إبراهيم من الأرض، من مدينة نمرود [p.93]

قصص إبراهيم تحدث، حسب القرآن، في ثلاثة مواضع. الموضع الأول، في بلاد الرافدين/ما بين النهرين، دجلة والفرات، مسقط رأس إبراهيم. والثاني، في سالم، بجوار القدس، والثالث هو مكة. فقد جاء إبراهيم من مدينة أور، التي كانت في ذلك الوقت مدينة ذات حجم غير صغير وحضارة متطورة جداً. وبصفته شيخاً بدوياً وراعياً، يملك قطعاناً من الغنم والماعز، كان على إبراهيم أن يأتي إلى المدينة ليبيع منتجاته، ويشتري البضائع التي يحتاج إليها. ويقال إن إبراهيم وأباه تارح/آزر في القرآن، وهو شكل آخر من اسم إليعازر، أحد أبرز خدام إبراهيم (سورة الأنعام: ٧٤؛ راجع سفر التكوين ١٥: ٢-٣)، كان يعبد آلهة أخرى أيام كانا يعيشان في «عبر النهر»/ بلاد الرافدين (سفر يشوع ٢٤: ٢). وكان سين، القمر البدر، أهم الآلهة في أور[3].

(1) Brueggemann, "Theology of the Old Testament", pp. 178-79

(2) *E.Q. s.v.* Jews and Judaism

(3) *B.E. s.v.* Ur

أما الطريق الذي سار فيه إبراهيم وأهل بيته في هجرته من أور، فتذكر فيه عدة محطات إلى الأرض التي أراه إياها الله: حرّان، مصر، ومكة!

ومن اللافت أن المفكر اليهودي مارتن بوبر قد استعمل لفظ *الهجرة* في الكلام على خروج إبراهيم من بلاد الرافدين إذ كتب: «إن هجرة إبراهيم كلها حدث "ديني"»(١). وهو يشير في هذا السياق إلى أن مدينتي أور وحرّان كلتيهما كانتا مراكز للعبادة السورية-البابلية للقمر الإله. واسم مدينة حرّان التي توفي فيها تارح/آزر تعني «الطريق» و«القافلة» وهي لذلك الموضع الذي كانت تلتقي فيه القوافل وتنطلق منه. وكان القمر إله حرّان يدعى بعل حرّان، الذي يمكن أن يفهم بأنه «سيد الطريق»، أو «سيد التقاطع». وهو في أحد الأناشيد يدعى «فاتح الطريق». إنه المرشد أو الدليل، وهو حرفياً منير طريق القوافل المسرية ليلاً عبر السهوب اتقاء لحر الشمس؛ وهو إله بدو بلاد الرافدين. أما في منطقة النيل فيبدو أن إله الشمس آمون كان إله الطريق وكان يمنح ممثليه صورته، «آمون الطريق» كسفير سماوي. أما في منطقة الفرات فكان القمر الإله(٢).

يقال إن إبراهيم غادر أور مصطحباً أباه، وزوجته ساره، وابن أخيه لوطاً (سفر التكوين ١٢ : ١). وذهبوا معاً إلى [p.94] بلاد كنعان، وتوقفوا في حرّان التي كانت تقع على مفترق طرق القوافل من نينوى إلى شمال غرب بلاد الرافدين على الضفة الشرقية للفرات، إلى آسيا

---

(١) Martin Buber, *Het geloof der profeten* (Utrecht: Servire, 1972), pp. 39, 42; Martin Buber, *Werke*, Vol, II: *Schriften zur Bibel* (Munich/Heidelberg: Kösel-Verlag, 1964), pp.271-74 (كتابات عن الكتاب المقدس)

(2) Buber, *Geloof*, p. 207; Buber, *Schriften zur Bibel*, p.425

الصغرى، وسوريا، ومصر. واستقروا في حران (سفر التكوين ١١ : ٣١)، ولم يسر إبراهيم إلى بلاد كنعان إلا بعد وفاة والده (أعمال الرسل ٧ : ٢، ٤).

والسبب في مغادرته بلده الأصلي المسمى أيضاً أرض نمرود بالإضافة إلى بابل في الرواية الإسلامية، هو أن إبراهيم واجه أباه وقومه بما يعتقدونه من عبادة الأصنام. فقد أدرك إبراهيم بالفطرة، ومنذ أن كان في شبابه أنه لا يمكن للأصنام ولا للشمس والقمر أن تتصف بالألوهية. «فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحبّ الآفلين». وهو يرى أن الشيء نفسه ينطبق على شروق الشمس وغروبها، فهي وإن كانت أكبر فإنها تغرب (سورة الأنعام: ٧٤-٨٣؛ راجع سفر التكوين ١٥ : ٥) وسأل إبراهيم أباه آزر «أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين» (سورة الأنعام: ٧٤؛ سورة الأنبياء: ٥١ وما يليها)، وقال له كيف يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر (سورة مريم: ٤٢). ثم حطّم إبراهيم أصنام أبيه وقومه وجعلها جذاذاً (سورة الأنبياء: ٥٧، ٥٨؛ سورة الصافات: ٩٣). وعلى الرغم من عداوة أبيه له (سورة مريم: ٤٦)، فإن إبراهيم استغفر الله لأبيه عن عبادة الأصنام (سورة التوبة: ١١٤؛ سورة إبراهيم: ٤١؛ سورة مريم: ٤٧؛ سورة الشعراء: ٤٧؛ سورة الممتحنة: ٤). (وقد أراد محمد أن يفعل الشيء نفسه لأسلافه المشركين عبدة الأصنام).

وقد دعي إبراهيم أيضاً إلى الانفصال عن الملك الظالم نمرود، حاكم آشور وبابل، والمغادرة. فإبراهيم يتبرّأ من قومه ومما يعبدون (سورة الممتحنة: ٤)؛ ويغادر بلده وقومه ليتمكن من عبادة الله الواحد وليمارس ديانته كما يجب أن تمارس. وتذكر هجرته أو تفترض مسبقاً في القرآن (راجع سورة مريم: ٤٨، ٤٩). وهكذا ينقذ الله إبراهيم ولوطاً

أيضاً في الأرض التي باركها، أي «فلسطين» (سورة الأنبياء: ٧١؛ راجع سورة العنكبوت: ٢٦ وسورة الصافات: ٩٩؛ سفر التكوين ١٢ : ١). ثم يرحل إبراهيم إلى مصر حيث يواجه طاغية ظالماً آخر، هو الملك أو فرعون. وكان عليه أن يطلب من امرأته أن تدعي كونها أخته خوفاً على سلامته. وعندما أخذ الفرعون ساره إلى قصره أصيب بضربات. فأمر بعدها إبراهيم بمغادرة مصر مع زوجته وكل ما كان له وأوصى رجالاً له بتشييعه (سفر التكوين ١٢ : ١٠-٢٠؛ ٢٠ : ١-١٨)[1]. [p.95]

وفي القرآن أن إبراهيم أكمل هجرته ببناء الكعبة (سورة البقرة: ١٢٥، ١٢٧؛ سورة آل عمران: ٩٧؛ سورة الحج: ٢٦)، وهي النتيجة والغاية النهائية لحياته الحافلة بالتجارب[2]. تذكر مكّة باعتبارها «أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين (سورة آل عمران: ٩٦). ويقول أحد المزامير: «طوبى لأناس عزّهم بك. طرق بيتك في قلوبهم. عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً» (سفر المزامير ٨٤ : ٥-٦). وتترجم عبارة «وادي البكاء» بعبارة «الوادي القاحل» أو «وادي بكا» ويربط بينه وبين بكّة، أي مكة. ومكة هي الموضع المرتبط بدموع هاجر أم إسماعيل[3].

هجرة موسى من أرض فرعون

تكلّم يوسف ابن يعقوب المفضل عند أبيه عن الرحيل، هجرة بني إسرائيل، في أواخر حياته وأمرهم بأن يحملوا عظامه معهم عندما يهاجرون (رسالة إلى العبرانيين ١١ : ٢٢).

---

(1) *E.Q. s.v.* Abraham

(2) *E.Q. s.v.* Kings and Rulers

(٣) راجع سورة الإسراء: ١٠٩ «يخرّون للأذقان يبكون» متى تليت عليهم آيات القرآن، «إذ تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكيّاً». (سورة مريم: ٥٨).

في موسى الذي كان قد طرح في نهر النيل وليداً وأنقذ بصورة عجائبية (سورة طه: ٣٧-٣٩) مُنح بنو إسرائيل محررهم المستقبلي (سفر الخروج ٢: ١-١٠). فقد ألقي في تابوت فانقذته وربّته بنت فرعون أو امرأته (سورة الشعراء: ١٨؛ سورة القصص: ٧-١٣). قامت آسيا وهو الاسم الذي سميت به امرأة فرعون لاحقاً بالدور نفسه الذي قامت به بنت الفرعون في الرواية التوراتية[1]. وهي في التقاليد الإسلامية امرأة فاضلة تقية، استعمل الله أفعالها ليحقق ما يريده لموسى. وهي تقنع فرعون، أبيها أو زوجها، بألا يقتل الصبي «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» (سورة القصص: ٩). كانت صديقة لموسى بينما كان يكبر وكانت تنكر أفعال زوجها المنكرة. ويرى العديد من المفسرين أنها كانت شهيدة. وقد جعلتها مقاومتها لظلم فرعون مثالاً للمؤمنين، وهو شرف تتقاسمه مع مريم أم عيسى المسيح (سورة التحريم: ١١، ١٢). وهي تعتبر بعد مريم، وخديجة أم المؤمنين وزوجة محمد وابنتهما فاطمة رابع امرأة فاضلة كاملة[2]. ولأن موسى [p.96] كبر ودافع عن قومه المظلومين وقتل رجلاً (سورة طه: ٤٠؛ سورة الشعراء: ١٤، ١٩، ٢٠؛ سورة القصص: ١٤-٢١، ٣٣؛ سفر الخروج ٢: ١١-١٥)، واضطر للفرار إلى مدين (سورة القصص: ٢٢-٢٦) حيث أمره الله بإنقاذ قومه (سورة الشعراء: ١٧؛ سورة الأعراف: ١٠٥؛ سورة طه: ٤٧). أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه (سورة هود: ٩٦) لينقذ قومه (سورة الصافات: ١١٥). ثم أرسله مؤيداً بالآيات ليخرج قومه «من الظلمات إلى النور» (سورة إبراهيم: ٥).

(1) E.I. s.v. Asiya
(2) Oliver Leaman, (ed.) The Qur'an: an Encyclopedia (London/New York: Routledge, 2006), s.v. Asiyya

ويعود موسى مع زوجته وأبنائه إلى مصر ويصبح حقاً منقذ قومه (سفر الخروج ٢:١١-٤:٣١). فرفض فرعون وملأه آيات الله (سورة الأعراف:١٠٣). فرعون هو واحد من المفسدين في الأرض (سورة القصص:٤؛ راجع سورة يونس:٨٣؛ سورة الدخان:٣١؛ سورة المؤمنون:٤٥، ٤٦). ولما لم تسفر جولة المفاوضات الأولى مع فرعون (سفر الخروج ٥:١-٦:١) عن أية نتيجة إيجابية، لأن فرعون لا يستطيع إطلاق سراحهم، يقع عدد من الكوارث أو اللعنات (سفر الخروج ٧:٨-١٠:٢٩؛ سورة الأعراف:١٢٧-١٣٥). في القرآن يطلق على هذه اللعنات اسم الآيات: بعث الله موسى مع هارون إلى فرعون الشديد العداوة لهم، وأيده بالوحي والآيات (سورة الأعراف:١٠٣؛ راجع سورة طه:٤٣؛ سورة يونس:٧٥؛ سورة هود:٩٦-٩٧؛ سورة المؤمنون:٤٥؛ سورة القصص:٣٢؛ سورة العنكبوت:٣٩؛ سورة الزخرف:٤٦). والغاية من الآيات هنا ليست القصاص بقدر ما هي الشهادة على قدرة الله وحضوره، وهما الأمران اللذان يرفض فرعون الإقرار بهما[1].

أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون وبأن يقولا له: «إنا رسول ربّ العالمين.... أرسل معنا بني إسرائيل». (سورة الشعراء:١٧). يجب على موسى وقومه أن ينقطعوا عن فرعون ويغادروا مثلما كان على إبراهيم أن ينقطع عن نمرود في بلاد الرافدين (سورة الأعراف:١٠٥، سورة الأعراف:١٣٤؛ سورة طه:٤٧؛ سورة الشعراء:١٧؛ راجع سفر الخروج ١، ٤).

(1) E.Q. s.v. Plagues

ليلة الهجرة/السُرَى

ثم تصل أخيراً ليلة الهجرة والخروج، الفصح (سفر الخروج ١١ :١-١٣ :١٦). أوحى الله إلى موسى أن «أسرِ بعبادي» من مصر (سورة طه: ٧٧؛ سورة الشعراء: ٥٢؛ سورة الدخان: ٢٣؛ سفر الخروج ١٤-١٥). يؤمر موسى بأن يضربَ «لهم طريقاً في البحر يبساً» فيخرجون عبر البحر بمعجزة (سفر الخروج ١٣ :١٧-١٥ :٢١؛ سورة طه: ٧٧؛ سورة الشعراء: ٥٢؛ سورة الدخان: ٢٣، ٢٤)، من دون أن يخاف من فرعون دركاً أو يخشى (سورة طه: ٧٧؛ سورة الشعراء: ٥٢؛ سورة الدخان: ٢٣). وأن يحدث هذا الخروج ليلاً فأمر يذكرنا بقصة لوط الذي [p.97] أُمر أيضاً بمغادرة سدوم *ليلاً* (سورة هود: ٨١). ويؤمر موسى بأن يضربَ البحر الذي ينفلق ليجتاز بنو إسرائيل. ولكن عندما أشرقت الشمس، تبعهم فرعون بجنوده (سورة الشعراء: ٦٠). غرق آل فرعون الذي أضل قومه (سورة طه: ٧٧-٧٩) وهلكوا بذنوبهم (سورة الأنفال: ٥٤؛ سورة الشعراء ٦٦؛ سفر الخروج ١٥) في الطوفان (سفر الخروج ١٤ :٢٨) لأنهم كذّبوا بآيات الله (سورة الأعراف: ١٣٦-٣٧؛ راجع سورة الأنفال: ٥٤؛ سورة يونس ٩٠؛ سورة الإسراء: ١٠٣؛ سورة طه: ٧٨؛ سورة القصص: ٤٠؛ سورة الزخرف: ٥٥؛ سورة الدخان: ٢٤؛ سورة الذاريات: ٤٠). أنجا الله بني إسرائيل من عدوهم فرعون (سورة الأعراف: ١٤١؛ سورة طه: ٨٠) من العذاب المهين (سورة الدخان: ٣٠) وأنقذ موسى وقومه (سورة البقرة: ٥٠؛ الأعراف: ١٣٨؛ سورة الشعراء: ٦٥). فالله هو الذي حرّر موسى وهارون وقومهما (سورة الصافات: ١١٥).

هجرة يسوع/عيسى من مصر

يحتوي العهد الجديد على «لغة الهجرة» نفسها[1]. أوحي إلى يوسف ومريم بأن يهربا بالصبي يسوع إلى مصر لتنجيته من القتل على يد الملك هيرودس الأكبر، كي لا يذبح الصبي مثل صبية بيت لحم الآخرين. وقد مكث يسوع في مصر حتى وفاة هيرودس. وبعد اللجوء إلى مصر أخرج يسوع من مصر لتتم كلمات النبي. بنبي أخرج الله بني إسرائيل من مصر (موسى)؛ ثم وبنبي (هوشع) حَفِظهم (سفر هوشع ١٢ : ١٣). وقد خبر النبي هوشع (٧٥٠-٧٢٢ق.م.) ازدهار المملكة وانحطاطها، وإن لم يشهد سقوط عاصمتها السامرة سنة ٧٢٢ق.م.. وقد اعتبر أن كلمات نبوة هوشع قد تمت في خروج يسوع/عيسى: «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني». (سفر هوشع ١١ : ١؛ إنجيل متى ٢ : ١٥). وهكذا رئيت تقاليد الهجرة القديمة تتحق في يسوع. الخلاص يكمن في الخروج الجديد، في العهد الجديد، في داود الجديد![2] الأنبياء يشهدون لله الذي يظل وفياً لذاته ويمضي في قيادة جماعته، قاحال، إكليسيا، أمة: «وأنا الرب إلهك من أرض» (سفر هوشع ١٣ : ٤؛ سفر عاموس ٣ : ١).

هجرة يسوع/عيسى من القدس [p.98]

يروي لنا الكتاب المقدس كيف أن يسوع صعد مرة على جبل مع أقرب تلامذته. وقد اعتبر أن اسم هذا الجبل العالي المنفرد في سهل

(1) Bruggemann, *Theology of the Old Testament*, p.179

(٢) Kurt Frör, Biblische Hermeneutik (Munich: Kaiser Verlag, 1961), pp. 214-15 (تفسير التوراة)

يزرعيل (إنجيل متى ١٧ : ١) منذ أيام أوريجانس (١٨٥-٢٥٤م)، وهو من كبار اللاهوتيين الشرقيين، هو جبل تابور. وبينما كان يسوع يصلّي «صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضّاً لامعاً. وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد» (إنجيل لوقا ٩ :٢٨-٣١). موسى هو النبي الذي قاد قومه في التحرر من العبودية، وسمح له قبيل وفاته برؤية أرض الميعاد ولكنه منع صراحة من الدخول مع قومه إليها! لم يتح له أن يختبر شخصياً إتمام الهجرة من مصر (سفر التثنية ٣٤ : ١-٥). وعندما كان النبي إيليا، بدوره، يتحدث في نهاية حياته مع خَلَفه إليشع، ظهرت مركبة من نار تجرها خيول من نار وحملت إيليا إلى السماء (سفر الملوك الثاني ٢ : ١١).

هناك، على جبل «التجلّي»، والتحوّل ذاك، تكلّم كل من موسى وإيليا عن نهاية حياة المسيح: رحيله، مغادرته، أو كما هو مكتوب حرفياً باليونانية خروجه الذي كان عتيداً أن يكمّله في أورشليم/ القدس (لوقا ٩ : ٣٠، ٣١). كان على المسيح أن يهجر القدس لأن هذه المدينة قد أصبحت مدينة للظلم! فاقتراب الملكوت مرتبط مباشرة بصعود المسيح إلى القدس وكذلك بالحكم *السياسي* الذي سيصدره على الذين يتولون السلطة وباتوا متحالفين مع الرومان. وبصورة عملية جداً، كان على المسيح أن ينقطع عن ظلم الزعماء السياسيين والروحيين في مدينة القدس وأن يحقق التحرر لقومه. ويحقق المسيح هذا الخروج/ هذه الهجرة من خلال عدم إنقاذ نفسه بل الآخرين ومنحهم الخلاص والتحرر. إن ما يميّز تراث الهجرة/ الخروج يظهر في أفعال المسيح في التضامن مع المكفوفين، والعرج، والصم، والموتى، والفقراء (إنجيل لوقا ٧ :١٨-٢٣). وما معجزاته إلا أداء لهذا الخروج، تجليات لقوة الله

ومحبته. فاسم يسوع يعكس قدرته على إنقاذ البشر من قوة التدمير، لأن اسمه يعني: «الله يخلّص أو يحرر». إن قصة حياة المسيح وأعماله شفافة عندما تقارن بقصة هجرة بني إسرائيل والتحرر من العبودية والقهر في مصر. فالخيانة الغادرة، والآلام، [p.99] التي عاناها في بيت عبودية روما وصلت إلى نهايتها القصوى عندما تمت التضحية به خارج أسوار القدس (إنجيل لوقا ٩: ٣١)[١].

«وحين تمّت الأيام لارتفاعه ثبّت وجهه لينطلق إلى أورشليم/ القدس» (إنجيل لوقا ٩: ٥١) إن ارتفاع يسوع أو رفعه يعني في الوقت نفسه موته وصعوده. إن لفظي «هجرة» و «ارتفاع» يكمل أحدهما الآخر. وكما أن النبي حزقيال جعل وجهه نحو القدس ليدين ويلعن المقادس ويتنبأ على أرض إسرائيل (سفر حزقيال ٢١: ٧)، كذلك يذهب المسيح إلى القدس ليلقي حكماً سياسياً على حكام المدينة، وعلى الهيكل المقدس، والشعب.

ويضرب المسيح أمثلة على ما ينتظرهم إذا ما قرروا أن يتبعوه في هجرته (لوقا ٩: ٥٧-٦٢): «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه. وإذ سأله آخر أن يأذن له بأن يمضي ويدفن أباه، قال له: «دع الموتى يدفنون موتاهم». ولما طرح إيليا رداءه على أليشع استأذنه الأخير بأن يذهب ويقبل أباه وأمه مودعاً فقال له إيليا: إذهب راجعاً. إذ يبدو أن العجلة مطلوبة. اقتربت الساعة. وينبغي لمن وضع يده على المحراث ألا ينظر إلى الوراء (سفر الملوك

(١) HuubOosterhuis, and Alex van Heusden, *Het Evangelie van Lukas* (Vught: Skandalon, 2007), pp. 138, 102; Brueggemann, *Theology of the Old Testament*, p. 179. *B.W. s.v.* wonder (إنجيل لوقا)

الأول ١٩ : ١٩-٢١)؛ إنجيل لوقا ٩ : ٦٠)[1]. المسيح يسير على خطى موسى وسواه من الأنبياء ويعتبر أنه يلتحق بأولئك الأنبياء الذي قتلوا بسبب رسالتهم.

محمد والهجرة من مكة

في مكة تعرّض محمد، الذي كان يرى نفسه منتمياً إلى تراث الأنبياء السابقين، تعرض للظلم، والتكذيب، والاستهزاء (سورة التوبة: ٦٥؛ سورة الفرقان: ٤١؛ سورة يس: ٣٠؛ سورة الصافات: ١٢) وعدم التصديق لأنه مجرد بشر (سورة الإسراء: ٩٤؛ سورة الأنبياء: ٣؛ سورة المدّثر: ٢٥)، والتهديد، والاضطهاد. كانت الهجمات تحاك ضده لإبقائه في السجن، لطرده من المدينة، أو لقتله (سورة الأنفال: ٣٠)[2]. يذكّر محمد في خطبه مستمعيه كيف كان العديد من المدن أشد قوة من مكة التي أخرجته فأهلكها الله ولم يكن لها من ناصر (سورة محمد: ١٣)[3]. وقد كان على من غبر من الأنبياء قبل محمد أن ينقطعوا عن الظلم الذي كان سائداً في مدنهم. من ذلك أن إبراهيم كان عليه أن يقاطع الملك نمرود ومدينته [p.100]، ومثله لوط ابن أخي إبراهيم الذي انقطع عن مدينتي سدوم وعموره (سورة الأنبياء: ٧٤؛ سورة الشعراء: ١٧٠؛ سورة النمل: ٥٧؛ سورة العنكبوت: ٣٣؛ سورة الصافات: ١٣٤؛ سورة الذاريات: ٣٥؛ سورة القمر: ٣٤). كان على لوط أن يهرب، وأن يصبح مهاجراً وأن ينتقل إلى مكان آخر (سورة العنكبوت: ٢٦؛ راجع سفر التكوين ١٣ : ٨ وما يليها).

---

(1) Oosterhuis and van Heusden, *Lukas*, p.104

(2) *E.Q. s.v.* Emigration

(3) E.Q. s.v. Salvation

الذين يريدون أن يتبعوا الأنبياء والعمل على غرارهم يهانون ويظلمون ويتوقع منهم أن يغادروا أيضاً، أن يهاجروا من البلد الذي يُضطهدون فيه. والقدرة على القيام بذلك وعدم المغادرة يعرضهم للخطر. قال أتباع محمد من المكيين «إن نتبع الهدى معك نتخطّف من أرضنا» (سورة القصص: ٥٧؛ سورة الأنفال: ٢٦؛ سورة العنكبوت: ٦٧). دعا محمد أول الأمر إلى الصبر على ما يقول أهل مكة وأيضاً إلى القيام بهجرة داخلية هناك، بحيث نأى بجانبه عن كل ظلم يقع هناك، فهجرهم هجراً جميلاً (سورة المزّمل: ١٠). ثم إن هذه الهجرة الداخلية تنتهي إلى منفى أرضي مادي (سورة التوبة: ٤٠، ٤١)[١]. والهجرة التي على محمد أن يقوم بها هي من مكة إلى المدينة. هذا ما تدل عليه كلمة هجرة وهي تصبح مثالاً لهجر المؤمنين حكامهم الكافرين الظَلَمَة[٢].

وكما أن في المزامير صلاة تقول «الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر» (سفر المزامير ١٢١ :٨) كذلك يدعونا القرآن إلى الصلاة طالبين من الله أن يدخلنا مُدخَل صدق ويخرجنا مُخرَج صدق (سورة الإسراء: ٨٠). والمُخرَج يتعلق بمغادرة مدينة مكة الكافرة عبر الهجرة سنة ٦٢٢. ويصلي الرجال والنساء والأطفال المستضعفون الباقون في المدينة: «ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً» (سورة النساء: ٧٥؛ راجع سورة الإسراء: ٨٠). والصلاة من أجل مُدخَل الصدق تتعلق بدخول المدينة[٣].

---

(1) *E.Q. s.v.* Geography

(2) *E.Q. s.v.* Ascension, Myths and Legends

(3) Cf. Rudi Paret, Der Koran: *Kommentar und Konkordanz* (Stuttgart etc: W. Kohlhammer, 1971), pp. 305-306

يتأثر مفهوم محمد الخاص لمهمته بهجرة سواه من الأنبياء ويلوّن تجربته الخاصة في الهجرة. تجارب الأنبياء الآخرين تشدد عزيمة محمد في وقت من القهر الاجتماعي والاقتصادي الناتج عن المقاطعة في مكة، تلك المقاطعة التي باتت لا تطاق بالنسبة إليه وإلى أتباعه. وقد كان ذلك صحيحاً في زمن الهجرة الأولى التي قام بها عدد من أتباعه إلى الحبشة. ففي العام ٦١٥ للميلاد، أي بعد خمس سنوات من بداية تنزيل القرآن، غادر عدد من أتباع محمد مكة إلى الحبشة المسيحية. توجهت مجموعات مختلفة [p.101] مع أسرهم أو من دونها. ويعتقد أن عدد الذين غادروا في أوقات مختلفة إلى الحبشة كان اثنان وثمانون شخصاً. وجاءت هجرتهم نتيجة لاضطهاد المشركين المكيين الذي ازداد عنفاً، ولأن محمداً بات يجد صعوبة متزايدة في حماية أتباعه. وقد نصحهم بأن يذهبوا إلى «بر الامان». حيث كان الحاكم المسيحي، النجاشي، شخصاً عادلاً يمنحهم ملاذاً آمناً. وقد استقبل إمبراطور الحبشة المهاجرين وأحسن ضيافتهم. وسألهم النجاشي عن ديانتهم الجديدة وعن فهمهم لعيسى بن مريم. فتلا عليه رئيسهم، جعفر، آيات من القرآن أنزلت قبيل مغادرتهم مكة تروي بشارة مريم بولادة يسوع/ عيسى (سورة مريم: ١٦-٢١). وإذ رضي النجاشي بهذا الجواب أذن لهم بالمكوث. تلك كانت «الهجرة» الأولى. وقد عاد هؤلاء المهاجرون إلى مكة قبل العام ٦٢٢، وكانت التجارب السابقة في الحبشة من دواعي الهجرة الثانية إلى المدينة[١].

---

(١) *E.Q. s.v.* Oppression, Emigration, Abyssinia; Alfred Guillaume, *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's Sirat RasulAllah*, reprint (Lahore, Karachi, and Dacca: Oxford University Press), p.358 (سيرة محمد: ترجمة سيرة رسول الله لابن إسحق)

الإسراء إلى القدس

في مكة زاد وضع محمد وأتباعه سوءاً بعد وفاة خديجة وعمه أبي طالب. كان الأخير شيخ عشيرة بني هاشم التي ينتمي إليها محمد. وقد حامى أبو طالب حتى وفاته عن الرسول في وجه عداوة قبيلته نفسها، أي بني قريش. وهو الذي كان كفل محمداً بعد وفاة جده الذي كفله بعد وفاة والدته. وقد ظل أبو طالب يدعمه دائماً وإن لم يدخل الإسلام. ولما توفي سنة ٦١٩ ألغى أبو لهب، رئيس بني هاشم وعدو محمد اللدود، الحماية الممنوحة للنبي ووضع حياة محمد في خطر. كما أنه حاول قتله. ومثلما اضطر لوط إلى هجر سدوم وعمورة ليلاً، وكان على موسى أن يغادر مصر *ليلاً*، اضطر محمد إلى مغادرة مكة إلى المدينة *ليلاً*. ولكن قبل ذلك، وفي العام ٦٢١، حدث إسراء محمد إلى القدس ومعراجه إلى السماء. ويمكن النظر إلى هذا الإسراء باعتباره هجرة صوفية سبقت تجربة الهجرة المادية [p.102] سنة ٦٢٢ إلى المدينة، على غرار لقاء يسوع بموسى وإيليا خلال التجلي على الجبل وكلامه معهما عن «هجرته» من القدس. وتعتبر هذه «الهجرة» نموذجاً للهجرة الروحية والمادية التي قام بها محمد وصحابته من المكيين من وضعهم المحلي في الظلم والشقاء في مكة، ورؤية «للأرض المقدسة» واستقبالاً لقبلة القدس في الصلاة (سورة الإسراء: ١)[1].

الهجرة إلى المدينة

إن هجرة محمد من مكة إلى المدينة يمكن أن تفهم على نحو مماثل لهجر إبراهيم ولوط لمدينتيهما، تماماً مثلما ينظر إلى هجرة هذين على

---

(1) E.Q. s.v. Moses; cf Chapter X

ضوء خروج بني إسرائيل من مصر. على محمد أن يقود قومه لهجر مدينة الظلم، مكة، وسياقات الوثنية والشرك والظلم المصاحب لهذه الممارسات، والمضي إلى المدينة حيث يمكن إقامة العدل.

واستناداً إلى أحد أبناء عمومة النبي، فإن محمداً وصل إلى المدينة في يوم الكفارة (يوم كيبّور) عند اليهود، وهو عيد سنوي يقع في اليوم العاشر من بداية السنة اليهودية الجديدة، ويوم صيام من شروق الشمس إلى غروبها، يوم كفارة لليهود (سفر اللاويين ١٦ : ٢٧-٣١؛ ٢٣ ٢٧-٣٠). وكانت تلك مناسبة كي يسأل محمد اليهود لمَ يصومون وعمَّ يكفّرون. وبناء على إجابتهم «بأننا نحتفل بذكرى تحررنا من مصر بقيادة موسى»، يقال إن محمداً أعلن يوم عاشورا بالعربية يوم صيام لأمته!

«نصوم لأن موسى وبني إسرائيل تحرروا من مصر في هذا اليوم بمعونة الله». يرى محمد نفسه حاملاً لميراث موسى! يمكن إقامة صلة بين الصوم وتلقي الوحي في شهر رمضان (سورة البقرة: ١٨٥)(١).

بدر والهجرة [p.103]

إن الإنقاذ، التحرير، والخلاص الذي يحدث في التاريخ من أيام إبراهيم إلى المسيح يتواصل بوضوح في فهم حياة محمد وأفعاله كنبي. إن معركة بدر ونجاة المسلمين العجائبية من عدو متفوق عليهم تروى على نحو يجعلها على صلة بتاريخ خروج بني إسرائيل (سورة الأنفال: ٥-١٨)(٢) وقعت معركة بدر في شهر رمضان سنة ٦٢٤، أي

(1) *E.Q. s.v.* Fasting; *E.I. s.v.* Ashura

(٢) Angelika Neuwirth, *Studie zur Komposition der Mekkanischen Suren,* (دراسة في بنية السور المكية) (Berlin: De Gruyter, 1981), p. 135

في السنة الثانية بعد الهجرة من مكة إلى المدينة - في الربيع! وكانت المعركة بعيد القطيعة بين محمد والقبائل اليهودية في المدينة، وتغيير قبلة الصلاة من القدس إلى مكة. في البداية كانت قبلة الصلاة إلى القدس مثلما يفعل اليهود عندما يصلّون وهم في أرض غريبة (سفر الملوك الأول ٨:٤٨؛ سفر دانيال ٦:١١). فقد تمكن فريق صغير من المسلمين، على قلة عددهم، من كسر أعداءهم المكيين الأكثر عدداً وأن يحققوا انتصاراً عظيماً. وقد تيقّن محمد وأصحابه من صحة قضيتهم جراء هذا النصر[١].

من الجانب المكي كان المقاتلون يأتمرون بأبي جهلوهو من ألد أعداء محمد. وكان تأثير أبي جهل يرتكز إلى نفوذه في مجال التجارة والمال. وهو الذي أطلق في مكة مقاطعة النبي وأصحابه، وهو الذي حاول قتله. وعليه تقع تبعة اضطهاد محمد وأصحابه. وأبو جهل هذا هو الذي قاد حوالي ألف رجل في هذه المعركة[٢].

ومن الممكن الآن رسم التوازي بين محمد وموسى من جهة وأبي جهل وفرعون من جهة ثانية (سورة طه:٧٩). وقد تدخل الله في الحالتين. في المواجهة مع فرعون وجيشه قال موسى باسم الله لقومه: «لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (سفر الخروج ١٤:١٣-١٤). وبالمثل، أرسل الله المطر يوم بدر [p.104] وهذا ما عسّر على المكيين الحركة، ومنح

---

(1) *E.Q. s.v.* Badr
(2) *E.I. s.v.* AbuDjahl

المقاتلين المسلمين مزيةعليهم (سورة الأنفال: ١١؛ راجع سورة آل عمران: ١٥٤)[١].

وقد عرف ما حدث في بدر «بيوم الفرقان» (سورة الأنفال: ٤١) وقد ترجمت هذه العبارة على عدة أنحاء بمعنى «المعيار»، و«الفرق»، و«التحرير»، و«الخلاص»[٢]. والفعل العربي فَرَقَ المشتقة منه يعني، الفصل، والقسمة، والتمييز[٣]. تسمية هذا الحدث بهذا الاسم تعني أن ههنا مفترقاً حقيقياً للطرق (سورة الأنفال: ٤١)، أي بين المؤمنين وغير المؤمنين، فرقاناً بين الخير والشر (سورة الأنفال: ٢٩). ويمكن أن يقال إن «ساعة الحقيقة» قد حانت؛ وبات الفرق بين الحق والباطل بادياً. بعد بدر اتضح المسلم الحقيقي، الذي أسلم وجهه لله ومن ليس مسلماً، من هو العدو ومن هو الصديق. كانت بدر منعطفاً أساسياً من عدة أوجه. بعد بدر بات الصوم في رمضان والجهاد في سبيل الله يكونان جزءاً لا يتجزأ من الممارسة الإسلامية. ولفظ الفرقان يستعمل بمعنى «التمييز» و«التحرير» مثل الفكرة المركزية في الفصح اليهودي. وجه التحرير هذا يظهر بجلاء في الكلمات: «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» (سورة الأنفال: ٢٩). على محمد أن يتذكر إذ كان في قلة مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس (سورة الأنفال: ٢٦. وكان في قلة بمكة فكثّرهم الله، «وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين» (سورة الأعراف: ٨٦). «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» (سورة آل عمران: ١٢٣)!

---

(1) *E.Q. s.v.* Hidden

(٢) راجع مقابلها الآرامي purkan بالمعنى نفسه.

(3) *E.Q. s.v.* Forgiveness

تنزيل القرآن والنصر ببدر في شهر رمضان

وقع النصر والتحرر بغزوة بدر، كتنزيل القرآن نفسه في شهر رمضان، الشهر التاسع من السنة القمرية الإسلامية. يبدأ التقويم الإسلامي في سنة ٦٢٢، سنة الهجرة. ولا يستعمل لفظ الفرقان دائماً إلا بالترابط مع تنزيل الوحي الإلهي على موسى وهارون (سورة البقرة: ٥٣؛ سورة الأنبياء: ٤٨) وعلى محمد (سورة البقرة: ١٨٥؛ سورة آل عمران: ٤). تسمّى إحدى السور المكّية سورة الفرقان: «تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون [p.105] للعالمين نذيراً» (سورة الفرقان: ١). ثمة ترابط بين «الكتاب» و«الفرقان» في حال موسى وهارون (سورة البقرة: ٥٣؛ سورة الأنبياء: ٤٨). ولما كان موسى في الوقت نفسه محرراً وشخصاً أنزل عليه الوحي، فثمة صلة واضحة بين «التحرير» و«الوحي». ونجد التشديد المزدوج نفسه في محمد، ولذلك فثمة ترابط وثيق بين موسى ومحمد من حيث كونهما محررين ومتلقيين للوحي الإلهي، التوراة والقرآن على التوالي. بالنسبة إلى محمد حدث التنزيل (سورة القدر) والتحرير في بدر خلال شهر رمضان. وتقع «بدر» بالنسبة إلى نبوة محمد بمنزلة الهجرة/ الخروج من مصر بالنسبة إلى نبوة موسى: قطيعة تامة عن الماضي، عن ظلم فرعون والظلم في مكة على التوالي. بات من الواضح من الآن فصاعدامن هو العدو. هجرة موسى مَعلَم على هذه النقطة في قصة موسى. ومصريو فرعون يمثلون ما يمثله مشركو مكة بالنسبة إلى محمد. والنصر في بدر يعني تحرر المسلمين والفرق بين المؤمنين والكافرين، والتأكد من الرضا والتثبيت الإلهيين.

الأنبياء والهجرة/الخروج

كبار الأنبياء منذ إبراهيم، من أمثال موسى وعيسى/ يسوع وصولاً إلى محمد، يؤمرون بمقاطعة الحكام الظَلَمة وظلم «مدنهم».

كان على إبراهيم أن يقاطع نمرود، حاكم إمبراطوريتي آشور وبابل في بلاد الرافدين ومغادرة أرضه.

كان على موسى أن يقف في وجه فرعون مصر وينقطع عن ظلمه ويخرج ببني إسرائيل.

كان على عيسى/يسوع أن يعارض زعماء القدس الروحيين والسياسيين، الذين صاروا ظَلَمَة وتحتم عليه الخروج من تلك المدينة.

كان على محمد أن يبشر ضد قادة مكة الأنانيين الأشرار وأن يغادر المدينة. والعبارة المستعملة في التوراة للدلالة على المقاطعة والانقطاع عن والمغادرة هي «الخروج»، أما في القرآن فهي «الهجرة».

وكان على إبراهيم، وموسى، وعيسى/ يسوع، ومحمد أن يذهبوا إلى الأرض التي يدلهم عليها الله، أرض الميعاد، مدينة الميعاد، القدس الجديدة [p.106] مدينة المستقبل، «المكان» مكوم(١) واسم القدس هو «المقام الكبير»، وهو يدل على تسمية تشريفية أطلقها اليهود الذين التجأوا إلى أمستردام على هذه المدينة التي سميت أيضاً «أورشليم الغرب». ومَكوم هو اسم القدس في العبرية.

---

(١) مَكوم [قلت: الأشبه أن ينتسب إلى جذرسامي قديم مشترك تحدّر منه نظيره العربي «مَقام» - المترجم]

هل يستطيع اليهود والمسيحيون أن يحتفلوا بحادثة الخروج معاً؟

زرت منذ عدد من السنين موقع الحفريات لدير رهبان بيزنطي في برية اليهودية بصحبة مجموعة من القساوسة الأنجليكان. وكان دليل الزيارة عالم آثار يهودي إسرائيلي مشرف على الحفرية. قادنا في جولة لافتة أرانا فيها وشرح لنا آثار الدير. وكان هذا الآثاري مطلعاً اطلاعا واسعاً على التراث المسيحي البيزنطي المتصل بخرائب هذا الدير القديم بفلسطين القرن السادس. وكان من بين المباني التي نبشت كنيسة صغيرة. وفي نهاية الزيارة اقترح القسوس الأنجليكان إقامة صلاة القربان المقدس: وهي إحياء لذكرى آخر عشاء من عيد الفصح تناوله المسيح مع تلاميذه (إنجيل متى ٢٦ : ٢٠-٢٩؛ إنجيل مرقس ١٤ : ١٧-٢٥؛ إنجيل لوقا ٢٢ : ١٤-٢٠) وهي شعيرة وجدت طريقها إلى ليتورجيات[١] الكنائس المسيحية في أنحاء العالم. وعيد الفصح مرتبط بذكرى والاحتفاء بذكرى تحرر بني إسرائيل من العبودية بمصر (سفر الخروج ١٢ : ١-٥١).

تأثر الآثاري اليهودي جداً بهذا الاقتراح في ذلك الوقت وذلك المكان، وخصوصاً لناحية كون هذه الصلاة تقام هنا للمرة الأولى منذ القرن السادس! وأمّ الصلاة أحد القسوس. ناولني القس القائم عن يميني الكأس قائلاً: «دم المسيح». أخذت الكأس وشربت، وكان علي أن أفكر لحظات في ما أقوله عندما أمرر الكأس إلى الشخص القائم عن

(١) ليتورجيا leitorgia هي كلمة يونانية الاصل، وكانت في البداية تعني العمل او الخدمة العامة التي يقوم بها شخص ما، ومعناها الكنسي طقوس العبادة، او الشعائر.

يساري، أي الآثاري اليهودي. وعندما مررت له الكأس قلت: «كأس صلاة الشكر» (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثس ١٠ :١٦)[١].

من حيث المبدأ، من النادر أو ربما كان من المستبعد جداً أن يبدي رجل يهودي ذلك القدر من الحيادية في المشاركة بشعائر تقام على النحو «المسيحي». ولكنني تساءلت لاحقاً ثم الآن، لِمَ لا يمكن لليهود [p.107] أن يشاركوا في شعيرة، في إحياء لذكرى تحررهم من نير العبودية بمصر، علما بأنه كان في البداية من شعائر اليهود؟ وهذا لا يستلزم تصريحاً أو تلميحاً أنه كان على المشارك اليهودي أن يصبح «مسيحياً» أكثر مما يجب على المشارك المسيحي أن يصبح يهودياً إذا فعل ذلك. والواقع أنني امتنعت عمداً عن استعمال عبارة «دم المسيح» التي استعملها الشخص القائم عن يميني. وما ذلك لأنني لم أكن راغباً في استعمالها، بل جراء إدراكي الحاد لمدى عظم ما شحنت به هذه العبارة عبر التاريخ، وبخاصة بالنسبة إلى اليهود، وحُمِّلت من أثقال لاهوتية وسوء فهم، كالفكرة القائلة إن الله يشترط الدم للمصالحة وأن هذا هو السبب الذي أوجب على المسيح أن يموت. وأنا شخصياً أعتقد أن في وسع المرء أن يستعمل هذه العبارة إذا كانت الكلمات التالية تسمع فيها: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (إنجيل يوحنا ١٥ :١٣). فالمسيح، في تلبيته لمطالب التوراة، هو المثال على الإنسان المستعد لأن يضحي بكل شيء، حتى دمه من أجل الآخر.

(١) راجع سفر المزامير ١١٦ :١٣

هل يستطيع المسلمون أن يحتفلوا بالخروج، بالجمعة العظيمة، والفصح مع المسيحيين؟

ولكن هل نستطيع أن نخطو خطوة أخرى قدماً؟ إذا كان من الممكن لليهود والمسيحيين أن يحتفلوا بالفصح معاً، فلِمَ لا يستطيع المسلمون أن يحتفلوا بالفصح، عيد الهجرة/الخروج مع اليهود والمسيحيين؟

طلب مني في العام ٢٠٠٩ أن ألقي محاضرة حول سبت النور من أسبوع الآلام لجمهور مسلم في معظمه في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا. قبلت الدعوة وناقشت في الدرجة الأولى المصاعب التي بدا أنها تعترض تصور خيار الاحتفال المشترك.

تذكرت ضرورة البدء من أن المسيحيين في أنحاء العالم كانوا قد أحيوا في اليوم السابق ذكرى صلب المسيح يوم الجمعة العظيمة، وأن الفصح سوف يحتفل به يوم مساء وليل يوم السبت من «أسبوع الآلام». ولكن ألا ينكر القرآن أن المسيح قد صلب؟ فنحن نقرأ فيه: «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم وما قتلوه وما صلبوه» (سورة النساء:١٥٧)؟ هل يستطيع المسلمون أن يتذكروا هذه الأيام وأن يحتفلوا بها مع المسيحيين؟ [p.108] هذا النص القرآني الذي سقناه للتو (سورة النساء: ١٥٧) يفسره المسلمون بصورة شبه دائمة باعتباره إنكاراً لواقعة صلب المسيح التاريخية. ولكن هل يجب أن يفهم القرآن على هذا النحو؟ ونحن لا نطرح هذا السؤال لأن هذه الفكرة تتناقض بهذا القدر من الوضوح مع ما هو مروي في العهد الجديد، بل ومن أجل فهم القرآن نفسه وتفسيره! هل الممكن أيضاً قراءة الكتب الثلاثة معاً في هذا المجال؟

من اللافت، بداية، إن الإنكار المفترض للصلب، «وما قتلوه وما

صلبوه» لا يرد في سياق نقاش مع المسيحيين بل مع مزاعم تقدم بها اليهود، فالضمير في «*قولهم*» عائد لليهود. هناك عدة أوجه لافتة هنا. وكما هي الحال دائماً في التفسير لا بد من فهم النص على ضوء السياق. ويقال عن اليهود في سياق هذا النص أنهم نقضوا ميثاقهم، وقتلوا الأنبياء بغير حق (راجع سفر الملوك الأول ١٩ : ١٠، ١٤؛ الرسالة إلى أهل رومية ١١ : ٣)، وقلوبهم غلف (راجع سفر اللاويين ٢٦ : ٤١؛ سفر إرميا ٩ : ٢٥؛ سورة النساء ١٥٥) «وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً» (سورة النساء ١٥٥-٥٦). وبعد هذا يرد النص عن نفي الصلب وإنكاره.

ولفهم الإنكار الظاهر (سورة النساء: ١٥٧) من المهم ألا نغفل عن مقدمة الآية: «وقولهم» أي اليهود[١]. ثمة في القرآن إحالات عديدة إلى ما يمكن أن ينتج عما يقوله البعض، فالمنافقون، مثلاً، «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» (سورة آل عمران: ١٦٧؛ راجع سورة الفتح: ١١). وثمة يهود ينافسون المسلمين في عدم الإيمان، وفي طليعتهم الذين يقولون بأفواههم أنهم يؤمنون ولكنهم لا يؤمنون بقلوبهم (سورة المائدة: ٤١؛ راجع سورة الحجرات: ١٤؛ سورة المائدة: ٦١؛ سورة البقرة: ٨-٩، ١٤؛ سورة آل عمران: ١١٩؛ سورة التوبة: ٨). ويتهم اليهود تكراراً بتحريف كلمات الله أو كلمات الكتاب، التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن (سورة البقرة: ٧٥-٧٩). وقد وجه اللوم إلى يهود المدينة على تحريف مضمون النص الأصلي خلال قراءة الكتاب فيلوون ألسنتهم بالكتاب ليحسب السامع أن ما قرأوه من الكتاب وما هو من

(١) يتهم اليهود بأشياء من هذا القبيل في النصوص السريانية. *E.Q. s.v.* Christians and Christianity

الكتاب (سورة آل عمران: ٧٨؛ سورة المائدة: ١٣، ٤١). وهم ربما تلاعبوا بالألفاظ فحرفوها عن مواضعها بحيث يقلب *المعنى* إلى ضده (سورة النساء: ٤٦؛ سورة المائدة: ١٣، ٤١). [p.109]

فالنص لا يصرح، مثلما يفترض في كثير من الأحيان، بأن يسوع/عيسى لم يقتل بسبب الاعتقاد بأن أنبياء الله لا يمكن أن يُقتلوا استناداً حسب فهمهم للقرآن. غير أن فكرة أن أنبياء الله يمكن أن يُقتلوا فكرة معترف بها جلياً في القرآن(٤ : ١٥٥). وقد توعّد المكيون محمداً بالقتل في مكة. وفي سياق هذا النص نفسه يتهم اليهود بأنهم قتلوا الأنبياء تحديداً اتساقاً مع ما يقال في التوراة (سورة النساء: ١٥٥؛ راجع سورة المائدة: ٦١؛ سورة آل عمران: ١١٢؛ سورة آل عمران: ٢١، ١٨١؛ سورة البقرة: ٩١؛ راجع إنجيل متى ٢٣ : ٣٧، إنجيل لوقا ١٣ : ٣٤).

ولكن ربما كان الأهم من هذا أن القرآن يتحدث صراحة عن موت يسوع/عيسى. يقول يسوع/عيسى: «والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا» (سورة مريم: ٣٣). وفي موضع آخر يقول الله ليسوع/عيسى: «يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي» (سورة آل عمران: ٥٥؛ راجع سورة المائدة: ١١٧). هذا يعني أن الله رفعه إليه من طريق «وفاته».

كيف يمكن النظر إلى هذا التباين الظاهري بين هذين النصين، اللذين يتحدثان صراحة عن وفاة المسيح، والنص الذي ينفي صلبهوقيامته؟ (الجملة مختلة في الأصل) هل قُتل المسيح وصلب أم لا وفقاً للقرآن؟ بمعزل عن وجود سبب للتساؤل عن إمكانية تفسير هذا النص على نحو مختلف استناداً إلى الشهادات الإجماعية في العهد الجديد، ثمة أيضاً سبب واضح للتفكير باحتمال وجود تفسير آخر غير التفسير المعتاد الذي يقدمه المسلمون، تفسير يستند إلى القرآن نفسه.

وسوف أحيل، لهذه الغاية، إلى فقرة هامة من القرآن تتعلق بمعركة بدر المشار إليها آنفاً، تلك المعركة التي تمكن فيها المسلمون من أن يهزموا قوة أكبر منهم بالرغم من قلة عددهم. نقرأ فيها: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» (سورة الأنفال: ١٧)[1]. ما من شك أبداً في أن أعداء محمد قد هزموا وقتلوا على أيدي المسلمين في هذه المعركة. ولكن ما ينكر هنا هو أن محمداً وأصحابه يستطيعون ادعاء النصر لأنفسهم. فالقرآن يقصد جلاء هذا الأمر: النصر لا ينسب إلى كفاءتهم بل إلى الله نفسه. فالله هو الذي أتى بالنصر ومنح المسلمين النصر في بدر (سورة آل عمران: ١٢٣). ولذا، فإن النص لا ينكر حدثاً تاريخياً فعلياً، بل إن ما ينكره هو كون النصر قد تحقق بقوتهم المحضة. بعبارة أخرى، إن النص المتعلق [p.110] بصلب المسيح المزعوم إنما يتعلق بما فعله البشر وما فعله الله نفسه. ولذلك، فلا مبالغة في الافتراض بأن الإنكار الظاهري للصلب لا يشير إلى الحدث نفسه بل القصد منه إنكار تحميل اليهود المسؤولية عن ذلك. «لم يفعلوا ذلك». ولكن من فعل ذلك إذاً؟ الجواب هو: الله فعل. الله أخذ المسيح إليه. الله «رفع» المسيح إليه (سورة النساء: ١٥٨).

ولكن قبل المضي قدماً في تفسير ما يعنيه القرآن بعبارة «رفعه إليه»، أود أن أحيل إلى العهد الجديد، الإنجيل.

وعظ بطرس، أحد أبرز تلاميذ المسيح، في أول عنصرة، بعد خمسين يوماً من الفصح. وروى كيف تآمرعدة أشخاص على التوالي ضد المسيح «فتى الله القدوس» في مدينة القدس: الملك هيرودس، والوالي الروماني بيلاطس البنطي، مع أمم وشعوب إسرائيل (أعمال

(١) راجع Paret, *Der Koran*, on this verse

الرسل ٤ :٢٧). من الجلي أن الجميع من دون استثناء يتحملون مسؤولية موت المسيح[١]. ويعقب بطرس على هذا الكلام مباشرة بالقول إنهم إنما فعلوا ذلك كي يحدث ما أراده الله وقررت مشورته أن يكون (أعمال الرسل ٤ :٢٨).

كان ثمة، إذا جاز التعبير، عدة ممثلين في دراما صلبالمسيح. لا إنكار لكون الناس وضعوا الخطط، وأن الناس الجامحين على القوانين كانت له يد في موت المسيح. وهؤلاء هم: هيرودس، بيلاطس، إسرائيل «رجال إسرائيل ورؤساء المجمع» أو السنحدرين والأمم. وفي الوقت نفسه يقال إن لله يداً في موت يسوع/عيسى من حيث أن ما حدث إنما حدث بقدرة الله[٢] ومشيئته وما عيّن الله مسبقاً أن يكون (أعمال الرسل ٤ :٢٨). وقد تمت مشورته. أما مسؤولية هذه الجريمة المتمثلة بإدانة وإعدام شخص بريء فيجب أن تلقى على الأشخاص المذكورين، ولكن مشورة الله ويده قد عيّنتا مجرى الحوادث.

ويبرز من قصص توراتية أخرى أنه من الممكن أن يكون للحدث نفسه وجهان. وهذا واضح جلي في قصة يوسف ابن يعقوب وإخوته. لما كان يوسف هو المحبب إلى أبيه، باعه إخوته ليكون عبداً [p.111] حسداً منهم، وآل أمر يوسف أن اشتراه رجل من مصر (سورة يوسف:٨-٢٢). ولكنه تمكّن من الارتقاء إلى منصب مشرف هناك. لا بل إنه ارتقى إلى منصب نائب الملك وحافظ لخزائن الأرض التي ملئت

---

(١) أوضح محمد كامل حسين في كتابه كيف أن الجميع خانوا ضمائرهم في ذلك اليوم. ***De stad des verderfs: Een vrijdag in Jeruzalem*** (Amsterdam: De Brug-Djambatan, 1991).

(٢) ويورد مرجع KJV كلمة «يد» هنا وهي الكناية المعروفة لأفعال قدرة الله.

خلال سنوات الخصب والوفرة لإعانة الناس خلال السنين السبع العجاف المقبلات (سفر التكوين ٤١؛ سورة يوسف: ٥٤-٥٧). ونظراً للمجاعة التي عمّت بلادهم جاء إخوة يوسف إلى مصر ليشتروا الطعام. وهناك التقى يوسف إخوته ثانية (سفر التكوين ٤٢؛ سورة يوسف: ٥٨-٦٢) ولما كان فرعون قد جعله على خزائن الطعام أعطى يوسف إخوته الطعام مرتين ليأخذوه معهم (سفر التكوين ٤٣). غير أنهم لم يعرفوه أول الأمر، ولكن لما جاؤوا ثانية ليشتروا الطعام كشف لهم يوسف عن نفسه. فخاف إخوته أن يقتص منهم على إجرامهم. ولكن يوسف قال لهم: «أنتم قصدتم لي شرّاً. أما الله فقصد بي خيراً لكي يفعل كما اليوم. ليحيي شعباً كثيراً» (سفر التكوين ٥٠ : ٢٠). هنا أيضاً لا نجد إنكاراً لتحمل الإخوة مسؤولية الجريمة التي ارتكبوها *بأيديهم*. ولكن هذه الجريمة استجرّت خيراً: فقد ارتقى يوسف وتبوّأ ذلك المنصب الرفيع في مصر! وبات في وسعه الآن أن يكون *منقذاً* لهم. قصد الله الفعل نفسه «للخير». قصة يوسف عبرة (سورة يوسف: ١١١). ويتخلل قصة يوسف في القرآن دعوات دائمة وحض للمؤمنين ليروا *يد الله* في الشؤون البشرية (سورة يوسف: ٦، ٧، ٥٦، ٥٧؛ سفر التكوين ٣٧-٥٠).

ارتفاع يسوع/عيسى

إذاً لم يقتل اليهود عيسى ولا صلبوه (سورة النساء: ١٥٧)، «لم يصلبك اليهود، [أيها السيد يسوع] » (ياكوبوس ريفيوس)؛ لكن الله توفّاه (سورة المائدة: ١١٧)؛ الله قتله (سورة المائدة: ١١٧). ما معنى هذا؟ للإجابة عن هذا السؤال حري بنا أن ننظر عن كثب إلى عبارة «رفعه»: «وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه» (سورة النساء: ١٥٧-١٥٨).

ولتفسير المقصود بعبارة «رفعه» علينا أن ننظر إلى قصة يوسف ثانية. فصورة «الرفع» مستمدة من تلك القصة. عندما باع إخوة يوسف أخاهم ووصل الأخير إلى مصر، آل به الأمر إلى السجن جراء تهمة الزنا بزوجة سيده فوتيفار العزيز (سورة يوسف: ٢٥). وفي السجن توجب على يوسف أن يفسّرأحلام سجناء آخرين رئيس سقاة الفرعون [p.112] وخبّازه. فقد اشتبه بأنهما أرادا قتل الفرعون فسجنا. ورأى كل منهما مناماً وطلب مَن يوسف رفيقهما في السجن تفسيره. رأى كبير الخدم كرمة عليها ثلاثة قضبان، وكانت كأس فرعون في يده فأخذ العنب وعصره في الكأس وأعطى الكأس لفرعون. أما الخبّاز فقد رأى ثلاثة سلال مملؤة خبزاً أبيض، وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون والطيور تأكل من السل (سفر التكوين ٤٠ :٦-١٧).

فسر يوسف حلم رئيس السقاة كما يلي: «في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك» (سفر التكوين ٤٠ :١٩). تعبير الحلمين يبدو متماثلاً ولكنه يعني العكس تماماً: لرئيس السقاة يعني أن فرعون سوف يرده إلى مقامه، بينما بالنسبة للخباز فهو يعين أنه سوف يعلّق على خشبة في ثلاثة أيام.

هكذا يتبين أن عبارة «رفع» ملتبسة. فقد تعني الترفيع والإعدام: الإعلاء، والتمجيد أو التدمير.

من اللافت أن إنجيل يوحنا يتكلم على الصلب باعتباره رفعاً: «وكما رفع موسى الحيّة في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان» (إنجيل يوحنا ٣ :١٤). وهو يشير هنا إلى ما حدث خلال تيه بني إسرائيل في البرية يوم عيل صبرهم وسألوا لِمَ أخرجوا من مصر. بعبارة أخرى شككوا بمشروع الهجرة/ الخروج كله. فأطلقت الأفاعي المحرقة بينهم

ومات قوم كثيرون من لدغاتها. وما أن اعترفوا بخطيئتهم وطلبوا من موسى أن يرفع عنهم الحيّات فصنع موسى حيّة من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنساناً ونظر حية النحاس يحيا (سفر العدد ٢١ : ٤-٩). هكذا يقول يوحنا إن ابن الإنسان، يسوع/عيسى، يرفع على عمود بين السماء والأرض، ولكن الرفع رفع من نوع آخر: ارتفاعه إلى الآب الذي يعني خلاص البشر(إنجيل يوحنا ٣ : ١٤، ١٥). الموت والرفع ينتمي أحدهما إلى الآخر. لا أحد غير الله يقود الحوادث: «أهْيَهِ الذي أهْيَهِ» (سفرالخروج ٣ : ١٤؛ راجع إشعيا ٤٣ : ١٠). إن معنى شخص المسيح واضح من تمجده، من كونه قد رفع على الصليب: محبة الله للعالم [p.113] وإخلاص يسوع/عيسى لرسالته ووفاء الله لرسوله الذي بعثه (إنجيل يوحنا ٨ : ٢٤، ٢٩). النظر إلى الصليب قد يأتي بالخلاص: «سينظرون إلى الذي طعنوه» (إنجيل يوحنا ١٩ : ٣٧)[١]. والإشارة الأخيرة هي إلى ما يقوله النبي زكريا عن الملك المسيح، ممثل الله الذي لا يقبله شعبه (سفر زكريا ١٢ : ١٠، ٨)[٢]. «الجمعة العظيمة»، و«يوم الصلب»، و«الارتفاع»، و«ارتفاع يسوع/ عيسى إلى الله» تقع في اليوم نفسه. صلب المسيح، «الجمعة العظيمة» هو «ارتفاعه». فالارتفاع يفسر الصلب، ويصرح بمعناه. وكلمات القرآن «الله قتله» و«الله رفعه إليه» (سورة النساء ١٥٧)، تدور حول الحدث الواحد نفسه منظوراً إليه من جوانب مختلفة.

(1) KBS on John 8: 24
(2) KBS on Zech. 12: 8, 10

أليس اليهود، والمسيحيون، والمسلمون كلهم مهاجرين؟

لنسأل السؤال مرة ثانية: «لم لا يكون في وسع المسلمين أن يحتفلوا بعيد الفصح، الخروج/الهجرة مع اليهود والمسيحيين؟» أمر إبراهيم بأن يغادر أور، عاصمة الحضارة السومرية. وهو يوصف بأنه السلف الذي كان يعيش على الجانب الآخر من النهر من حيثما أخذه الله (سفر يشوع ٢٤: ٢-٣). ويعتقد أن «النهر» هو الفرات. والصفة التي وصف بها إبراهيم أي (ها عبري) بالعبرية (سفر التكوين ١٤: ١٣) قد فسرت باعتبارها إحالة إلى شخص تقع جذوره عبر النهر، من الجانب الآخر من النهر. والعبري باللغة العبرية هو الشخص الذي يعبر إلى الجانب الآخر. واستناداً إلى الهاغّادا تقرأ هذه الفقرة من سفر يشوع خلال الاحتفال بوجبة الفصح اليهودي. في براغر هاغّادا Prager Haggāda[١] التي ترقى إلى سنة ١٥٢٦ يستطيع المرء أن يشاهد رسماً لإبراهيم يعبر نهر الفرات في زورق بمجذاف. وفي رسم لاحق يتخذ العبور شكلاً أكثر تطوراً مع زورق على شكل الغوندولا المستعملة في البندقية. وفي الرسم الأخير نرى إبراهيم مع أسرته كلها بينما تأكل النيران على الشاطئ الأصنام التي يعبدها الناس[٢].

بعد ترحاله لمدة طويلة في أنحاء آسيا الصغرى، على ما نجد في سفر أعمال الرسل، وصل بولس إلى ترواس، [p.114] المعروفة قديماً بطروادة! كانت غايته الأصلية طبعاً إفسس، عاصمة ولاية آسيا

(١) كتاب عبري قديم يروي قصة خروج اليهود من مصر، معتمداً على سفر الخروج في العهد القديم.

(2) Moritz Wullen and Gunther Schauerte (eds.), *Babylon Mythos* (Berlin/Hirmer: Staatliche Museen, 2008), pp. 191-92.

الرومانية، القسم الغربي من آسيا الصغرى. والطريق التي سلكها ذهبت في اتجاه الشمال أولاً، ثم انعطفت غرباً نحو ترواس[1]. ولما لم يعلم أين عليه أن يذهب بعد ذلك، جاءته رؤيا رجل مكدوني ينادي «أعبر إلى مكدونية وأعِنّا». فقرر بناء على تلك الرؤيا أن يخرج من آسيا إلى أوروبا. ويصف بولس نفسه بأنه عبراني (الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ١١ : ٢٢). العبرانيون مهاجرون، هم بدو الله، حجاج، حجاج إلى الضفة الأخرى. تلك الرؤيا ساقت بولس إلى فهم غايته، ودعوته الداخلية. اسم هاجر أم إسمعيل يعني مهاجر. ويمكن أن يكون الاسم مستمدا أو متصلاً بالأصل العربي الذي يفيد الهجرة. وهكذا فإن هاجر هي المهاجرة بالدرجة الأولى. هاجر هي التي طردت وهددها مرتين الموت عطشاً في الصحراء. ولكنها نجت بواسطة البئر التي أراها إياها الله (سفر التكوين ١٦ : ١٣) وقد أنقذها الله ثانية مع ابنها إسمعيل (سفر التكوين ٢١ : ١٩). نظر الله إليها مثلما نظر إلى اتضاع أمته مريم (إنجيل لوقا ١ : ٤٨). ويمكن النظر إلى هاجر باعتبارها سابقة لتلك المرأة التي هربت إلى البرّية في السفر الأخير من الكتاب المقدس: «والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معدّ من الله» (رؤيا يوحنا ١٢ : ٦)[٢]. لم تزل البرية منذ القدم ملاذاً للهاربين: موسى الهارب من مصر إلى مديان (سفر الخروج ٢ : ١٥)، وإليها الهارب من إسرائيل إلى جبل حوريب في شبه جزيرة سيناء (سفر الملوك الأول ١٩ : ١-٨). في الرواية التوراتية نجد أن هاجر وإسمعيل هما أول من «هاجر بالدموع»

(1) KBS on Acts 16: 6-8

(٢) Michel Hayek, *Les Arabes sous le baptême des larmes* (Paris: Gallimard, 1972), p.232 (العرب تحت معمودية الدموع)

منذ خروج حواء من الفردوس. «وهذه الدموع مقدسة وخلاصية»[1].
وفي الأخبار الإسلامية أن هاجر وإسمعيل مكثا في مكة ودفنا في قبر واحد، حِجر إسماعيل[2]، على مقربة من الكعبة التي كان إبراهيم بناها مع ابنه إسماعيل (سورة البقرة: ١٢٧). حتى من قبل هجرة بني إسرائيل من مصر، كان إسماعيل أول صوت يصرخ في البرية «أعدّوا طريق الرب» (سفر إشعيا ٤٠: ٣). وهذا ما سوف ينطبق لاحقاً على يوحنا المعمدان (إنجيل متى ٣: ٣) يحيى (سورة الأنعام: ٨٥). وهكذا، فثمة أصلاً [p.115] صلة بصوت الخوف هذا الذي ينذر بيوم الهجرة/ الخروج[3].

تدرس بيترا سيبشتين Petra Sijpesteijn، وهي باحثة تعمل في جامعة لايدن، مخطوطات عربية على ورق البردي من صدر الإسلام بمصر. ومن اللافت أنها اكتشفت أن لا ذكر للمسلمين في تلك المخطوطات. بل يشار إليهم بعبارة المؤمنين، والمهاجرين. والعبارتان مأخوذتانمن القرآن، طبعاً. أما الكتاب المسيحيون السريان فكانوا يستعملون كلمة *مهجّرايه* «مهاجرون» للتمييز بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين[4]. استعمل الكتاب غير المسلمين لفظ *مهجّرايه* بالسريانية و *أغارينوي*، و*مغاريتاي* باليونانية في ذلك الوقت للإشارة إلى أبناء

(1) Hayek, Les Arabes, p. 220

(٢) E.I. s.v. al-Hidjr. R. F. Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madinah & Meccah*, Vol. II (New York: Dover Publications, 1964), pp. 305-06 (رواية شخصية للحج إلى المدينة ومكة)

(3) Hayek, Les Arabes, p.19

(4) Robert G. Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw it: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish, and Zoroastrian Writings on Early Islam* (Princeton: The Darwin Press Inc. 2007), p.148

إسماعيل ابن هاجر. ومن الجلي أنهم كانوا يشيرون إلى أنفسهم على هذا النحو في ذلك الزمن(١). وكانت أوائل المدن الإسلامية تسمى دور الهجرة. الموقف الأساسي، والصفة الجوهرية للمسلم هي أنه مهاجر.

إبراهيم هو إمام الهجرة/ الخروج من بلاد الرافدين، وموسى الهجرة من مصر، والمسيح من أورشليم/ القدس، ومحمد من مكة. نجد في كل الحالات أسلافاً للمهاجرين من الظلم على الطريق إلى أرض جديدة، مدينة جديدة، يحظى فيها المستضعفون بالعدل. والدعوة إلى الهجرة، ما جاء في حديث عن النبي محمد، لا تنتهي قبل أن تشرق الشمس من حيثما تغرب. والحالات السابقة الذكر كلها تدور حول «التحرر». لِمَ لا يمكن لليهود، والمسيحيين والمسلمين أن يحتفلوا بالهجرة معاً وأن يهاجروا معاً نحو عالم يسوده العدل والسلام، ويتوفر فيه الخبز للجميع؟ أليسوا جميعاً مهاجرين؟

(١) Hoyland, op.cit., pp. 547-48, Fred M. Donner, Muhammad and the Believers: At the Origins of Islam (Cambridge MA/London: The Bellknap Press of Harvard University Press, 2010), p.86 (محمد والمؤمنون: في أوائل الإسلام)

الفصل الخامس

المثل العليا وواقع المدينة الموعودة، البلد والأرض

قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح. وماذا يطلب منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك.

(سفر ميخا ٦: ٨)

مقدمة

بعد أن بدأت الهجرة، ماذا يحدث على الطريق أو بعد أنيصل الناس إلى «أرض الميعاد»؟ ماذا يحدث للمثل العليا بعد التحرر من الظلم؟ هل يحصل الذين تحرروا من الظلم على العدالة أخيراً؟ هل يصبح المستضعفون «أئمة» (سورة القصص: ٥)؟

ماذا يحدث عندما يصل إبراهيم ولوط إلى الأرض التي أراهم الله إياها؟ ما هي علاقة إبراهيم بمدينة شاليم «أورشليم»، ولوط بمدينتي سدوم وعموره؟ كيف عمل يوسف وكيلاً على خزائن مصر؟ ماذا حدث خلال التيه في البرية يوم تحدّى قورح/ قارون زعامة موسى؟ كيف تصرّف أوائل الحكام، القضاة من أمثال جدعون، في الأرض الجديدة بعدما دخلوا إليها؟ وماذا يمكننا أن نقول عن الملوك من أمثال شاول/

طالوت، صموئيل، داوود، وسليمان بينما يبشر الأنبياء باسم الله ضد مفهوم الملك نفسه؟ أخيراً، لمن تكون الأرض الموعودة؟

قصة مدينتين: سدوم وشاليم

مرّ إبراهيم بكل أنواع المدن يوم دخل بلاد كنعان. ومنها سدوم وعمورة، ولكن شاليم التي أضحت لاحقاً أورشليم هي واحدة من تلك المدن أيضاً! «كانت في شاليم مظلة [ألله] ومسكنه في صهيون» (سفر المزامير ٧٦ : ٢) شاليم هي مقر ملكيصادق، الكاهن الملك (سفر التكوين ١٤ : ١٨). واختار لوط ابن أخي إبراهيم الإقامة في سدوم.

وعندما اندلعت حرب بين مختلف المدن اضطر ملكا سدوم وعمورة إلى الفرار. فاستولى خصومهم على كافة ممتلكاتهم، ومن جملة ذلك خزائن أزوادهم، كما قبضوا على لوط [p.117] وعلى ممتلكاته كلها أيضاً. وما إن سمع إبراهيم بالنبأ[1]، حتى حمل سلاحه وذهب بحثاً عنه بصحبة ٣١٨ رجلاً[2]. فهزم الملوك واستنقذ «أخاه» لوطاً (سفر التكوين ١٤ : ٨-١٦).

في طريق عودته يلتقي إبراهيم بملك شاليم، ملكيصادق، الذي يقدم لإبراهيم ورجاله الخبز والخمر. وقد فسر اسمه باعتباره يعني «ملك البِر والسلام» (رسالة إلى العبرانيين ٧ : ٢). البِر/ العدل والسلام يتعانقان فيه (سفر المزامير ٨٥ : ١). يبدي ملكيصادق الضيافة الشرقية لإبراهيم،

---

(١) وتذهب الروايات إلى أن لاجئاً اسمه أوغ أو أج، هو الذي نقل نبأ القبض على لوط إلى إبراهيم. وقد كوفئ بطول العمر. E.I. s.v. Udj

(٢) القيمة العددية لاسم خادم إبراهيم الوفي إليعازر الدمشقي (سفر التكوين ١٤ : ٨-١٦)

فيرتبط إبراهيم بعلاقة سلم معه. والواقع أن ملكيصادق لم يفعل شيئاً خاصاً لأنه كان من المعتاد تزويد العساكر المجتازة بالطعام (راجع سفر صموئيل الأول ٢٥: ١٨؛ سفر صموئيل الثاني ١٦: ١؛ سفر القضاة ٨: ٤-٥). ولكن يحدث أكثر من ذلك هنا. فملكيصادق ليس ملكاً فحسب بل هو كاهن أيضاً: فهو يدعى كاهن إيل عليون، «الإله الأعلى»، وهذا أيضاً اسم لسورة من سور القرآن (سورة الأعلى: ١). ويظهر اسم إيل كاسم لله في عدد من الأسماء المركبة من مثل إسرائيل «الذي يصارع الله» وبيت إيل «بيت الله» (سفر التكوين ٢٨). يبارك ملكيصادق إبراهيم قائلاً: «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك. فأعطاه [إبراهيم] عُشراً من كل شيء» كنوع من «الضريبة» (سفر التكوين ١٤: ٢٠). صيغة المباركة هذه جوهرية لأنها قد صيغت على شبه الصيغة التي يمجّد بها الرب الإله (ي ه و ه): «مبارك الرب الذي أنقذكم من أيدي المصريين» (سفر الخروج ١٨: ١٠). لا يمانع إبراهيم بأن يباركه ملكيصادق، بالرغم من أنه تلقى بركة الرب (ي ه و ه) (سفر التكوين ١٢: ٢). ومن الجلي أن إبراهيم قد أقر بإله ملكيصادق، «إيل» إلها له أيضاً. ومن الواضح أن يعتبر إيل الإله الأعلى وملكيصادق كاهنه، الإله نفسه الذي أخرجه من أور الكلدانيين وباركه (سفر التكوين ١٢: ١-٢).

في المناقشات التي دارت بين محمد بعد هجرته من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢ مع اليهود، يردّ محمد بأن الله [p.118] آتى «آل إبراهيم الكتاب والحكمة و [...] ملكاً عظيماً» (سورة النساء: ٥٤)، مثلما آتى الملك طالوت/ شاول (سورة البقرة: ٢٤٧-٢٤٨)، ثم داود (سورة البقرة: ٢٥١؛ سورة ص: ٢٠)، وسليمان (سورة ص: ٣٥). وقد سمي

إبراهيم ولوط أئمة ونجّيا للأرض التي *بارك الله فيها للعالمين* (سورة الأنبياء: ٧١). وجعلهما الله أئمة يهدون بأمره (سورة الأنبياء: ٧٣).

يوسف ملكاً

التوتر الذي يشعر به يوسف حيال منصب الملك يبدو واضحاً في قصة يوسف. فقد حلم يوسف منذ صباه بأنه سيحكم، وأخبر إخوته بما حلم به: «ها نحن حازمون حزماً في الحقل. وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي. فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً. وازدادوا أيضاً بغضاً له». ثم «حلم أيضاً حلماً آخر فقال إني قد حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. وقصّه على أبيه وعلى إخوته. فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته». (سفر التكوين ٣٧: ٥-١١؛ سورة يوسف: ٤-٥).

عندما آل الأمر بيوسف أن وجد نفسه في مصر بعدما باعه إخوته، توصل إلى بلوغ منصب صاحب خزائن فرعون. ويبدو أن فرعون قد أحسن الظن به جراء تأويل حلمه عن البقر السبع السمان والبقر السبع العجاف بأن مصر ستشهد سبع سنين من الوفرة وسبع من القحط والقلة، وأنه يجب تخزين الأزواد خلال سنوات الوفرة التي تأتي أولاً لتستعمل خلال سنوات القلّة. فعين يوسف قيّماً على خزائن الحنطة. هكذا، وفي مصر، من دون البلاد كلها، في مصر المعروفة بظلمها، منح يوسف الملك! يوسف يحكم البلد (سفر التكوين ٤٢: ٦). أنعم عليه فرعون بالسلطة والمكانة وبات يوسف لدى فرعون مكيناً أميناً (سورة يوسف ٥٤-٥٧؛ راجع سورة يوسف: ٢١). يبدو أن يوسف قد

تعلّم من حياته، لذلك فعندما منح سلطة سياسية فعلية نظر إلى طبيعة الملك على نحو مختلف. لم يعد الأمر يتعلق بحلم صبي بل بالسلطة الممنوحة من الله. لذلك شكر يوسف ربه على هذا الملك ولم يشكر فرعون (سورة يوسف: ١٠١). ففي مقدور الله أن يمنّ بالملك على شخص آخر أو أن ينزع الملك منه كما يشاء (سورة آل عمران: ٢٦). وقد عبر يوسف عن شكره بعد أن أجلس أبويه، يعقوب وراحيل (التي ماتت في الرواية التوراتية [سفر التكوين ٣٥: ١٩])، على *العرش*. وهذا على النقيض التام من حلمه الذي يسجد له فيه أبواه، والذي انتهره أبوه لأجله. إن وضع يوسف أبويه على العرش مثال على اهتمامه بالنقد الذي وجهه إليه أبوه يوم كان صغيراً. ويتضح من هذا أن يوسف قد أدرك الجانب الملتبس من الملك، وامتلاك السلطة، وما تسببه من إغراء بسوء استعمالها، وهذا ما يعبر عنه الأنبياء كثيراً.

وقد استلهم محمد لاحقاً مثال يوسف يوم أصبح هو نفسه زعيماً. فقد اتهمه أبناء عشيرته بالسعي إلى التعالي على الآخرين لأسباب شخصية مثلما اتهم يوسفَ إخوتُه. وكما أن يوسف حصل على مكانته لينقذ قومه، كذلك رأى محمد أن هذا ينطبق عليه أيضاً. فقد أوتي منصب الزعامة لينجي قومه. وقد احتذى مثال يوسف في صفحه عن إخوته لاحقاً في مصر. وعندما كشف يوسف عن نفسه لإخوته بمنصب نائب الملك بمصر، وخاف إخوته من أن يطلب الانتقام منهم على ما ارتكبوه من شر يوم باعوه بيع العبيد، قال: «والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا. لأنه *لاستبقاء حياة* أرسلني الله قدامكم» (سفر التكوين ٤٥: ٤-٥). ويظهر محمد موقفاً صفوحاً مماثلاً عندما يعود إلى مسقط رأسه مكة، بعد فتحها سنة ٦٣٠. وبالرغم من أن المكيين كانوا قد تآمروا عليه قبل هجرته إلى المدينة، وكالوا له الشتائم،

وعاقبوا أسرته وأصدقائه إلى حد طردهم، تمكن محمد من تحية المكيين بالصفح يوم فتح مكة. فحمد الله وعظّمه وقال: «أكلمكم اليوم مثلما فعل أخي يوسف، عليه السلام. لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» (سورة يوسف: ٩٢). وهذا يذكرنا بيوسف وكيف استقبل إخوته وتصالح مع من كانوا إخوة خائنين[١]. والفكرة من وراء هذه القصة هي أنه إذا كان محمد نفسه قد اقتدى بمثال يوسف هنا، فما أولى زعماءنا «السياسيين» العاديين بأن يفعلوا الشيء نفسه!

يوسف في مرآة الأمراء

من المفيد أن نشير في هذا السياق إلى النوع الأدبي المسمى «مرآة الأمراء» في الآداب الأوروبية. فمرآة الأمراء هو كتاب توضع فيه مرآة أمام الأمير أو الملك لتريه كيف ينبغي للأمير أو الملك أن يتصرف. ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما سمي في التوراة «بقانون الملك» (سفر التثنية ١٧: ١٤-٢٠). وقد وضع أبو منصور الثعالبي (٩٦١-١٠٣٨م) من علماء المسلمين البارزين، كتاباً هو «آداب الملوك» يندرج تحت هذا الباب[٢] يروي فيه حديثاً عن الرسول يبين كيف أن النبي يوسف يوم فارق هذه الدنيا حمل إلى مثوى إبراهيم ليدفن قرب آبائه[٣]. وقد ظهر الملاك جبريل، في هذه القصة، وقال: قفوا حيث أنتم. هذا ليس مكانه، لأن

---

(١) John Renard, Seven Doors to Islam: Spirituality and the Religious Life of Muslims (Berkeley and Los Angeles and London: University of California Press, 1996), p.263 (سبعة أبواب إلى الإسلام: حياة المسلمين الروحية والدينية)

(2) E.I. s. v. Al-Tha'alibi

(٣) وهذا يذكرنا بخبر «الرجل الغني والعازر». بعد وفاته، حملت الملائكة العازر إلى أحضان إبراهيم (إنجيل لوقا ١٦: ٢٢)

عليه عند القيامة أن يحاسب على ما أوتي من ملك». سيتوقف يوسف على أبواب الفردوس خمس مئة سنة ولن يسمح له بالدخول حتى تنحل عنه لوثة المُلك الأرضي كلياً. والظاهر أن الدور الذي قام به يوسف كحاكم موقت قد جعله مشبوهاً بالنسبة إلى بعض الأتقياء ولذلك كان عليه أن يتطهر قبل دخوله الفردوس. والعبرة هي: إذا كانت هذه حال يوسف فما بالك بما يكون من حال سواه؟[1].

مرآة الأمراء للإمبراطور تشارلز الخامس بقلم إيرازموس Erasmus

بتكليف من مستشار بلاد برابنت والمستشار السامي لبرغنديا، كتب إراسموس مرآة الأمراء للأمير الذي كان مزمعاً أن يصبح الإمبراطور تشارلز الخامس (١٥٠٠-١٥٥٨). وقد رسم في هذا الكتاب ملامح تربية الأمير المسيحي المثالي، وذلك كي يجعل تشارلز الخامس يدرك عظم مكانته، ويشير إلى *واجباته* تجاه رعاياه لا إلى حقوقه عليهم. ومن هذا المنظور يقع هذا العمل على النقيض التام من كتاب الأمير لنيقولا ميكيافيلي الذي كتب سنة ١٥١٣. ففي نظر إراسموس كان التدريب المثالي للأمير المسيحي Princes Christianus، والعروة الوثقى التي لا تنفصم بين الأمير ورعاياه هو الأمر المركزي. واللازمة السياسية في كتاب إراسموس هي: ينبغي لسلطة الأمير أن ترتكز إلى [p.121] إجماع رعاياه، وأن تلتزم بالقوانين، وألا تستعمل إلا لترقية الخير العام. وقد أسس عداوته العميقة لاستعمال العنف كأداة سياسية على المذهب الرواقي الأصلي: إذا كان الناس كلهم إخوة فإن الحرب تصبح تذابحاً بين

(1) Renard, *Seven Doors to Islam*, p.263

الإخوة. وتصدر نزعة إراسموس إلى السلم عن معارضته لنظرية الحرب العادلة (bellum justum)، والنفاق المسيحي عن «الحرب المقدسة»، التي لا تشن جرّاء الضرورة بل جراء الخوف، والطموح، والحماقة. وفي النهاية تضيع الإنسانية في كل حرب: «من يعلن المسيح يعلن السلم».

De Institutio principis Christini (1516); cf Erasmus, Erasmus: EEn portret in Brieven, Translated and edited by Jan Papy, Marc van der Poel, and Dirk Sacré Amesterdam;

موسى وقورح/قارون

خرج بنو إسرائيل من مصر بقيادة موسى، وفي أثناء رحلتهم في البرية كانوا يسكنون في الأكواخ أو الخيم (سُكّوت). هكذا يعيش الناس المسافرون أو الرحّل. والاسم العبري لأحد أسفار الكتاب المقدس، سفر العدد، يترجم بعبارة «في الصحراء» وهو مكرّس كلياً لتلك الرحلة.

والقوم الذين تحرروا من العبودية لا يدخلون فوراً أرضاً «تفيض لبناً وعسلاً» (سفر الخروج ٣:٨؛ سفر التثنية ٣١:٢٠؛ سفر يشوع ٥:٦؛ سفر إرميا ١١:٥، ٣٢:٢٢؛ سفر حزقيال ٢٠:٦، ١٥). وقد أصبحت هذه العبارة ميسماً. فاللبن عند البدو ذو أهمية حيوية. كان اللبن والعسل سلعتان نفيستان (سفر التكوين ٤٩:١٢؛ سفر القضاة ٥:٢٥؛ سفر إشعياء ٥٥:١؛ نشيد الأنشاد ٤:١١، ٥:١، ١٢). وقد وصفت «أرض الميعاد» بأنها أرض تفيض لبناً وعسلاً (سفر الخروج ٣:٨؛ سفر التثنية ٣١:٢٠؛ سفر يشوع ٥:٦؛ سفر إرميا ١١:٥، ٣٢:٢٢؛ سفر حزقيال ٢٠:٦). وتلبي هاتان السلعتان الحاجات الأساسية. وثمة ما يكفي منها لتلبية حاجات كل أحد لا لتلبية طمعه على ما قال المهاتما غاندي لاحقاً. غير أن قيادة موسى قد تعرضت للتحدي خلال الترحال في

الصحراء. قام قورح/ قارون وداثان، وأبيرام مع ٢٥٠ من شيوخ الجماعة (سفر العدد ١٦ : ١-١٧ : ١٥) يثيرون المعارضة الدينية والسياسية ضد زعامة موسى وأخيه هارون وسلطتهما. قالوا إن موسى لم يقدهم إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً وأنه لم يعطهم نصيباً من الحقول والكروم. [p.122]

من هو قورح أو قارون (سورة القصص: ٧٦-٨٤)؟ قورح/ قارون رجل من بني إسرائيل، ولكنه رجل يشتهي السلطة على شعبه. وهو يعرض لنا على صورة قائد تشبه أفعاله أفعال فرعون. وهو يوصف أيضاً بأنه كان صاحب خزانة فرعون، يقهر الناس ويعاملهم بالظلم. منح الله قورح/ قارون ثروة طائلة، وهو أشبه بكروزيوس ملك ليديا (٥٦١-٥٤٢ق.م.)، الذي اشتهر بثروته الأسطورية أيضاً. كانت كنوز قورح/ قارون من الكثرة «ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة!» وقال لقورح/ قارون قومُه ألا يتيه بثروته وباستعراضها مثلما كان يفعل، في الظاهر، وبألا يبغي الفساد في الأرض. وإذ حثّه قومه أن «ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة» أجاب بأن السبب الوحيد لكونه ثرياً هو أنه إنما أوتيه على علم عنده. ولما «خرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم» ولكن الذين أوتوا *العلم* الحقيقي المختلف عما يدعو إليه قورح/ قارون قالوا: «ويلكم، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً» (سورة القصص: ٧٦-٨٠)[١]. وعندما هدد الله بأن يفني الشعب بلحظة بسبب تمرد قورح/

---

(١) Heinrich Speyer, *Die Biblischen Erzählungen im Qoran* (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1962, pp. 342-44 (القصص التوراتية في القرآن)

قارون وأتباعه، خرّ موسى وهارون على وجهيهما وقالا أللهم إله أرواح جميع البشر هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة؟» وتمكن موسى وهارون من خلال وساطتهما من أن يحولا دون إفناء جماعة بني إسرائيل كلها، ولكن الأرض فتحت فاها وابتلعت قورح/ قارون، وداثان، وأبيرام فنزلوا وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية فبادوا من بين الجماعة (سفر العدد ١٦ : ٣١-٣٣، ٢٦ : ٩، ١٠؛ سورة القصص : ٨١-٨٢؛ راجع سورة العنكبوت : ٤٠)[1].

صورة قورح/ قارون هي في الدرجة الأولى رمز لسلطة المال التي تنزل الفساد في الأرض. إن ثيمة العنجهية والاستكبار التي تصاحب تلك الثروة تبرز في قصص فرعون وقورح/ قارون وتفسر لِمَ كان هامان يذكر في جملة المستكبرين إلى جانب فرعون وقارون. [p.123] في التوراة هامان هو خادم الملك الفارسي أحشويرش الذي تزوج من أستير. وقد أفلحت أستير في إحباط خطة هامان لإبادة اليهود، وهو أمر حدث بعد قرون وفي موضع آخر، أي فارس لا مصر (أستير). ويرتبط اسم هامان بفرعون في القرآن (سورة العنكبوت : ٣٩). وهو في القرآن أحد وزراء فرعون، ويطلب منه الأخير أن يوقد له النار لشيّ الآجر (راجع سفر الخروج ١ : ١٤)، ليتخذ صرحاً شامخاً، في إشارة لا شك فيها إلى برج بابل (سفر التكوين ١١)، لعلّه يطلع إلى إله موسى (سورة القصص : ٣٨؛ سورة غافر : ٣٦)[2].

ويبعث موسى مؤيداً بآيات الله وسلطته إلى الثلاثة فرعون، وهامان، وقارون ولكنهم يصفونه بالسحّار والكذاب.

---

(1) E.Q. s.v. Korah
(2) E.I. s.v. Fir'awn; Kisra; Amâlik

وترد سلسلة من الشخصيات المذنبة بذنب الاستكبار (سورة آل عمران: ٤٦؛ سورة يونس: ٧٥) منها فرعون، وقورح/ قارون، وهامان. وقد استكبر الملأ من أقوام مختلفة وعتوا عن أمر ربهم (سورة الأعراف: ٧٥-٩٢). أصل استكبار قارون/ قورح هو ثروته (سورة القصص: ٧٦-٨٢؛ وأصل استكبار هامان مشاريع البناء الطموحة، بناء صرح شامخ أو برج بابل (سورة القصص: ٣٨، ٣٩؛ سورة غافر: ٣٦-٣٧)[1]. في القرآن ترتبط مسألة الاستكبار ومساواة فرعون لنفسه بالله بقصة ذلك الملك الآخر، أحشويرش، بفارس مع زوجته أستير ووزيره. ومن الجلي أن القرآن لا يقوم بربط تاريخي، مثلما نجد في كثير من الأحيان، بل بربط «روحي»، أو «أيديولوجي» أو من حيث الموضوع في هذه الحالة بين مختلف أصناف الأقوام المعادية لشعب الله، بين نفس نوع البشر الذين يفسدون في الأرض، بين فرعون، وهامان، وبناء برج بابل حيث المسألة هي أيضاً مسألة محاولة مستكبرة للحلول محل الله. وهذا شيء دائم التكرار في التاريخ: حكام يطلبون السلطة والمجد اللذين لا يتفرّد بهما إلا الله وحده.

الجواسيس/النقباء الذين أرسلوا إلى كنعان

عشية الدخول إلى الأرض المقدسة قال موسى لقومه «يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين. يا قومي أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم» (سورة المائدة: ٢٠-٢١). و«الارتداد [p.125] على الأدبار إشارة إلى تصرفات فرعون وقارون/ قورح، تصرفات

(1) E.Q. s.v. Authority

التعسف باستعمال السلطة والثروة. ولما بلغوا الأرض المقدسة أرسل الله بعض النقباء لاستطلاع الأرض. وفي هذا إشارة إلى «الاثني عشر نقيباً»، نقيب عن كل من أسباط بني إسرائيل الإثني عشر (سورة المائدة: ١٢؛ سفر العدد ١٣ : ٢). ولكن بعد أن استطلع النقباء/ الجواسيس الأرض المقدسة، قالوا لن ندخلها (سورة المائدة: ٢١-٢٦). وعندما أمرهم موسى بأن يدخلوا الأرض رفضوا لأنهم فهموا من النقباء أن فيها قوماً جبارين يخاف بأسهم من بني عناق، وأن لا قِبَل لبني إسرائيل بأنْ يهاجموهم. فكان بنو إسرائيل كالجراد في أعين أنفسهم وكالجراد في أعين أولئك القوم (سفر العدد ١٣: ٢٨، ٣١، ٣٣). واضح أنهم كانوا يفكرون في دخول الأرض بالقوة والعنف.

ولكن كانت لاثنين من الجواسيس، يشوع وكالب، نظرة مختلفة كلياً إلى الحال في تلك الأرض لذلك طلبا من بني إسرائيل ألاّ يخافوا وأن يدخلوها. فقد وصفاها بأنها أرض «جيدة جداً جداً» وأنها تفيض لبناً وعسلاً وتشبع حاجات الشعب الأساسية. «إن سُرَّ بنا الرب يُدخلنا هذه الأرض. إنما لا تتمردوا على الربّ ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا. قد زال عنهم ظلّهم والرب معنا. لا تخافوهم» (سفر العدد ١٤ : ٧-٩).

في الرواية القرآنية لدخول الأرض المقدسة (سورة المائدة: ٢١) يعطي الرجلان التقيّان تعليمات أكثر تحديداً: «أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون» (سورة المائدة: ٢٣؛ راجع سورة المائدة: ٥٨؛ سورة الأعراف: ١٦١)[1] والأرض هنا أقرب إلى أن تكون أرض

(1) Speyer, Biblischen Erzählungen, pp. 337-38; Rudi Paret, Der Koran: Kommentar un Konkordanz (Stuttgart etc.: W. Kohlhammer, 1971), p. 19

مدينة(!) مسوّرة. ولكن بني إسرائيل يرفضون مع ذلك دخول الباب. فعوقبوا بحرمانهم من دخولها أربعين سنة «يتيهونَ في الأرض» ويموتون فيها أيضاً (سفر العدد ١٤: ٣٣؛ سورة المائدة: ٢١-٢٦؛ سورة المائدة: ٢٠-٢٦؛ راجع سفر العدد ٣٢: ١٣).

لم يسمح لموسى بدخول الأرض

من اللافت أن موسى نفسه قد منع من دخول الأرض! والسبب في ذلك هو ما يلي. ففي أحد الأيام راح قومه يتذمرون من موسى وهارون على إخراجهم من مصر إلى البرّية حيث لا تين، ولا كرمة، ولا رمان، ولا حتى ماء للشرب. ثم طلب الله من موسى أن يجمع الشعب وأن يأمر الصخر على مرأى من الجميع بإخراج الماء. لا يعرف موقع حدوث ذلك ولكن الموضع سمي مريبا (شجار). ذلك أن موسى ضرب الصخرة بعصاه مرتين بدلاً من أن يكلمها. فانبثق الماء من الصخرة غير أن الله سخط على موسى لأنه لم ينصع لأوامره بحذافيرها. ثم قال لموسى إنه نظراً لأنه وأخاه هارون لم يثقا به ولم يبديا له الاحترام أمام بني إسرائيل ولم يعظماه حقّ تعظيمه، فإنه لن يسمح لموسى بأن يقود قومه إلى داخل الأرض المقدسة (سفر العدد ٢٠: ١٢).

ولما مضى جيل بني إسرائيل الذي رفض دخول أرض كنعان ووصل الجيل التالي إلى الأرض المقدسة، كان على موسى أن يطلع على جبل نبو المواجه لأريحا وأن ينظر من هناك ليرى تلك الأرض (سفر التثنية ٣٢: ٤٦-٥٢؛ ٣٤: ١). ثم وافته المنية على ذلك الجبل والتحق بآبائه (سفر التثنية ٣٢: ٤٨-٤٩، ٥٢؛ ٣٤: ١-٤)، ودفنه الرب، ولا يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم (سفر التثنية ٣٤: ٦). ودخل بنو إسرائيل الأرض بقيادة يشوع الذي خلف موسى.

إسرائيل والقضاة

في الفترة الأولى من إقامة بني إسرائيل في أرض كنعان، كان القضاة يتولون قيادة القوم، وكانوا على نحو ما أسلافاً للملوك القادمين. ومن هؤلاء القضاة جدعون(سفر القضاة ٦-٨) الذي قاد شعبه في الحرب على المديانيين، وهم تحالف قبلي بدوي من «بدو الجمال». والمشهور عن بدو الجمال أنهم أشد عدوانية من بدو الحمير[1]. في البداية كانت ثمة علاقات طيبة بين المديانيين وبني إسرائيل - من ذلك أن موسى فرّ إلى مديان وتزوج امرأة مديانية. وكانت صفورة، امرأته، من بنات يثرون/ شعيب (سفر الخروج ٢ : ٢١؛ ١٨ : ١) كاهن مديان (سورة الأعراف: ٨٥-٩٣). وقد سجل جدعون انتصاراً كبيراً على المديانيين ولكنالأولى أن ينسب انتصاره [p.126] إلى الله على الحقيقة (سفر القضاة ٧ : ١-٨ : ٣). ويوم اقترح بنو إسرائيل على جدعون أن يحكمهم قائلين: «تسلّط علينا أنت وابنك وابن ابنك لأنك قد خلّصتنا من يد مديان». قال لهم جدعون: لا أتسلط أنا عليكم ولا يتسلط ابني عليكم. الرب يتسلط عليكم» (سفر القضاة ٨ : ٢٢-٢٣). يساق هذا الجواب من ضمن روحية الأنبياء: فالله وحده ملك. وليس من قبيل الصدف أن تضمن هذه القصة في كتاب مقدس ينتمي إلى فئة «الأنبياء السابقين». فجدعون يرفض فعلاً لقب الملك، ولكنه يقبل السلطة التي يمتلكها الملك وقد خلفه أحد أبنائه بعد وفاته (سفر القضاة ٩ : ٢)، مما يشير إلى شيء كالسلالة الحاكمة. وهذا يستتبع حدوث شيء كالتلوث «بالمَلَكية».

---

(١) D.S. Attema, *Arabie en die Bijbel* (The Hague: Uitgverij van Keulen, 1961), p. 50 (الجزيرة العربية في التوراة)

المطالبة بملك

بعد فترة غير طويلة من أيام «القضاة» أعلن القوم صراحة عن رغبتهم بتمليك ملك عليهم كبقية الشعوب! وقد احتج النبي صموئيل، آخر القضاة، منذ البداية وبقوة على هذه الرغبة (سفر صموئيل الأول ٨ : ١-٦)[١]، مثلما فعل الكثير من الأنبياء اللاحقين من بعده: «هم أقاموا ملوكاً وليس مني، أقاموا رؤساء وأنا لم أعرف. صنعوا لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناماً لكي ينقرضوا» (هوشع ٨ : ٤). حذر صموئيل الشعب مما قد يعنيه اتخاذ ملك: فمن شأن الملك أن يأخذ أبناءهم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه، وفرسانه فيركضون أمام مراكبه، ويأخذ بناتهم عطّارات، وطبّاخات، وخبازات؛ ويأخذ عُشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان ويستعملهم لشغله. ويأخذ عُشر غنمكم. وإذا ما صرختم مستنجدين بالله على ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب (سورة الأنفال: ١١-١٨). امتلاك المركبات والخيل تعبير عن احتمال استعمال العنف المفرط (!)، وهو ما يرفضه الأنبياء مباشرة. ويتحدث القرآن عن رغبة الملأ من بني إسرائيل في أن يملك عليهم ملك، ويطالبون صموئيل بأن يبعث لهم ملكاً *يقاتلون في سبيل الله* (سورة البقرة: ٢٤٦)[٢]. [p.128] ويطلق القرآن على شاول اسم طالوت أي «الطويل». وقد اصطفاه الله عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم (سورة البقرة: ٢٤٧): من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب (سفر صموئيل الأول ٩ : ٢؛ ١٠ : ٢٣).

---

(1) *E.Q. s.v.* Samuël

(2) *E.Q. s.v.* Path, Fighting, War

ولكن طالوت/ شاول يتحدر من سبط بنيامين، أصغر أسباط إسرائيل. وهو نفسه يقول إنه من أصغر عشائر سبط بنيامين (سفر صموئيل الأول ٩: ٢١). ولكن سر اصطفائه يكمن تحديداً في هذا: أن الله كثيراً ما يصطفي الأصغر (راجع سفر ميخا ٥: ١)! ويوضح الله لصموئيل أنهم لم يرفضوه هو بل رفضوا الله. غير أنه لا بد للقوم من أن يكون لهم ملك، وهذا ما يحصلون عليه (سفر صموئيل الأول ٨: ٥-٢٢).

ولكن ما إن تلبّى رغبة الشعب في تنصيب ملك عليهم، حتى يرفضون الإقرار بسلطة شاول. فقد نظروا إلى اتضاع نسبه وأنكروا افتقاره إلى المال (سورة البقرة: ٢٤٧) ورفضوا الاعتراف به ملكاً لأنه فقير، يرعى الأتن، ويعمل في الدباغة أو نقل الماء. وهو يتحدر من سبط بنيامين الذي لم يكن منه نبي ولا ملك[1]. وقالوا مستهزئين: كيف يخلّصنا هذا؟ ولم يقدموا له أية هدية اعترافاً بكونه ملكاً. ولكن شاول/ طالوت تجاهل ذلك (سفر صموئيل الأول ١٠: ٢٧)[2].

التابوت مع التوراة هو الآية

ومع ذلك أوضح النبي صموئيل أن طالوت/ شاول هو الذي اصطفاه الله ملكاً عليهم (سورة البقرة: ٢٤٧). والدليل، الآية الدالة على سلطة شاول/ طالوت هو التابوت[3] الذي يمثل «السكينة»، حضور الله (سورة البقرة: ٢٤٨). ولكي نفهم المعنى من هذا حق فهمه حري بنا أن نذكر أن التابوت يسمى أيضاً «تابوت العهد»، وأن بني إسرائيل حملوه من جبل سيناء في رحلتهم عبر القفر. خلال النهار كان يعلو التابوت عمود

---

(1) *E.Q. s.v.* Kings and Rulers; Talût

(2) *E.Q. s.v.* Samuël

(3) *E.Q. s.v.* Faith, Belief

من السحاب وخلال الليل عمود من النار كان ينبئ الإسرائيليين متى يرحلون ومتى يحلّون. وعلى هذا النحو كان التابوت يرشد بني إسرائيل إلى الطريق التي يجب عليهم أن يسلكوها (سفر العدد ١٠ : ٣٣-٣٦). فإذا ارتفع عمود السحاب تبعه الشعب وإذا هبط نصبوا خيمهم. وكان حضور التابوت، وبخاصة خلال الحملات الحربية، يظهر على نحو استثنائي في أرض كنعان إبان الحرب بين إسرائيل [p.129] وأعدائهم الفلسطينيين (سفر صموئيل ٤ : ٣ وما يليها) الذين كانوا يقيمون في المدن الساحلية[١].

جعل الملك شاول/ طالوت المتحدر من جبعة كرسي ملكه فيها (سفر صموئيل الأول ١٠ : ٢٦؛ ١١ : ٤ وما يليها). ولما سار ناحاش ملك العمونيين على يابيش جلعاد وحاصرها، طلب أهل يابيش من ناحاش أن يقطع لهم عهداً فيستعبدوا له. فوافق ناحاش على شرط أن يقوّر كل عين يمنى لهم. فبعث شيوخ يابيش رسلاً إلى الملك شاول/ طالوت ليخلصهم (سفر صموئيل الأول ١١). فكسر شاول ناحاشَ في المعركة (سفر صموئيل الأول ١١ : ١-١٥) وأمر بحمل تابوت العهد إلى جبعة يوم ذهب لقتال الفلسطينيين (سفر صموئيل الأول ١٤ : ١٨).

ولما استولى الفلسطينيون على التابوت الذي حمله بنو إسرائيل معهم إلى المعركة، حملوا الغنيمة معهم إلى مدينة أشدود ووضعوا التابوت في هيكل إلههم داجون، وهو إله من آلهة الخصب (سفر القضاة ١٦ : ٢٣). ولكن تمثال داجون سقط على وجهه إلى الأرض أمام التابوت مرة تلو مرة ثم سقط فانقطع رأسه ويداه على العتبة. فلما رأى أهل أشدود ما جرى قالوا: «لا يمكث تابوت إله إسرائيل عندنا لأن يده

(1) *E.Q. s.v.* Shekhinah

قد قست علينا وعلى داجون إلهنا». ولما نقلوا التابوت إلى مدينة جت، وهي مدينة أخرى للفلسطينيين، ووقع فيها شيء مماثل، ثم نقلوه إلى عقرون قرر الفلسطينيون أن يعيدوا التابوت إلى بني إسرائيل (سفر صموئيل ٥:١-٧) ثم حملوا التابوت إلى بيت شمس، وهي مدينة متصلة بإسرائيل إلى أن نقل الملك داود التابوت إلى القدس (سفر صموئيل الثاني ٦). ومن ثم نقل إلى الهيكل الذي بناه الملك سليمان في «قدس الأقداس» بالقدس (سفر الملوك الأول ٨). حتى أيام ما كان التابوت موضوعاً في الهيكل، كان يذكر أن التابوت كان يسير أمام بني إسرائيل ثم يقف. وكان من الممكن مشاهدة السواري المستعملة لحمل التابوت في الصحراء (سفر الخروج ٢٥:١٣-١٥) في المكان الواقع أمام قدس الأقداس، والمسمى بالمكان المقدس لأن تلك السواري كانت طويلة جداً (سفر الملوك الأول ٨:٨). والأرجح أن التابوت قد حطّم أو أخذ إلى بابل سنة ٥٨٧ق.م. بعد تقويض الهيكل بأمر نبوخذنصر.

وكان التابوت يحتوي بصورة خاصة على لوحي الناموس (سفر التثنية ١٠:١-٥؛ قارن ٩:٩، ١١)، أو الناموس نفسه (سفر الخروج ٢٥:١٦، ٢١). والنقطة الهامة [p.130] هي أن «الكلمات العشر» التي تحتوي على إرشاد التوراة كانت مكنونة إذاً في التابوت! وكان يجب أن يبقى الناموس فيه شاهداً على هذا الشعب (سفر التثنية ٣١:٢٥-٢٦)! والبقية التي بقيت من آل موسى وهارون والتي يتكلم عليها القرآن إنما تفهم بالإحالة إلى التوراة (سورة البقرة:٢٤٨)[1].

(1) *E.Q.* s.v. Saul.

داود وجليات، جالوت

ينص القرآن على أن من أسباب مطالبة بني إسرائيل بأن يبعث لهم ملِك هو *القتال في سبيل الله* (سورة البقرة: ٢٤٦). فيسألهم نبيهم «هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا؟ قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا على أيدي قوم جالوت/ جليات أي الفلسطينيين؟»[1].

قبل أن يشتبك شاول مع جليات في المعركة، ابتليَ الإسرائيليون أولاً بنهر. وتتصل هذه القصة من حيث الموضوع بما هو مسرود في التوراة عن القاضي جدعون. فقد سمح لكل من كان خائفاً أو قلقاً أن يعود إلى منزله كي لا تتضعضع قلوب الآخرين بسبب موقفهم. كل من شرب من النهر لا ينتمي إلى القادرين على القتال، ويعود إلى منزله. ولكن الذين لا يغترفون أكثر من غرفة بأيديهم يستطيعون المسير مع جدعون (سورة البقرة: ٢٤٩؛ سفر القضاة ٧: ٥ وما يليها). وكان معنى ذلك أنه لم يبق إلا فئة قليلة. والسبب الأول لهذا الانتقاء هو أن الله لا يريد أن يكون الجيش كبيراً جداً بحيث يتم تناسي أن الله وحده هو الذي يأتي بالخلاص. وتقليص عدد العسكر إلى ثلاثمئة مقاتل فحسب (سفر القضاة ٧: ٢-٨) يبرز كون النصر لا يأتي إلا من عند الله: «إن الشعب الذي معك كثير عليّ لأدفع المديانيين بيدهم لئلا يفتخر عليّ إسرائيل قائلاً يدي خلّصتني» (سفر القضاة ٧: ٢). «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» (سورة البقرة: ٢٤٨-٢٤٩)؟ تلك هي قصة انتصار فئة جدعون القليلة التي أصبحت مضرباً للمثل (راجع سفر إشعيا ٩: ٣؛ ١٠: ٢٦؛ سفر المزامير ٨٣: ١٠).

---

(1) E.I. s.v. Djâlût

بعد أن عبر طالوت/ شاول النهر *بفئة قليلة*، خاف بنو إسرائيل من عظم قوة جليات/ جالوت الجبار، إذ كان من كبار أبطال الفلسطينيين. ولعله متحدر من جت ولعله من بني عناق، الطوال الرقاب. كان الجواسيس قد رأوا سكان الأرض واعتبروهم من بني عناق العمالقة. ولكن اثنين [p.131] من الجواسيس الإثني عشر، كانوا واثقين من أن في مقدور جيش صغير أن يغلب قوة متفوقة، مثلما تمكن داود الصغير من أن يهزم جليات/ جالوتالعملاق. انتصر جيش طالوت/ شاول، بالرغم من خوف بني إسرائيل: عندما قاتلوا تمكن داود، بعون الله، من قتل جالوت/ جليات (سورة البقرة: ٢٥١)[١].

وتقوم هذه الفكرة الأساسية بدور جوهري في الرواية القرآنية لقتال المسلمين في بدر في آذار ٦٢٤ م. فقد كان على عدد قليل من المقاتلين المسلمين بقيادة محمد أن يدافعوا عن أنفسهم ضد قوة كبيرة من خصومهم المكيين. وهكذا أصبحت قصة داود وجليات استباقاً للانتصار في بدر[٢].

«مركبات و خيل»، «فضة وذهب»

داود هو الذي تلقى كتاب الزبور المنزل، المزامير، (سورة الإسراء: ٥٥؛ سورة النساء: ١٦٣؛ راجع إنجيل مرقس ١٢: ٣٥-٣٧). بعد شاول/ طالوت، وبعده هو، آتى الله المُلك والحكمة لابنه سليمان (سورة البقرة: ٢٥١)؛ قارن سورة ص: ٢٠؛ سورة النمل: ١٥)[٣]. وُهِب سليمان ملكاً لا شبيه له (سورة ص: ٣٥). فهو الملك المحبب

(1) *E.I. s.v.* Tâlût

(2) *E.I. s.v.* Tâlût, Djâlût

(3) *E.Q. s.v.* David

عند الله والمعروف في بلاده وفي سائر البلاد كملك حكيم عادل. كان عهده الذي دام أربعين سنة فترة استقرار وازدهار، ووحدة القوم. ولكن حكمه كان، من ناحية ثانية، كارثياً لأنه كان ثقيل الوطأة على الناس. ويقال إن سليمان حدّث الجيش، ولتحقيق ذلك لم يتردد في المشاركة بسباق التسلح والمتاجرة بالسلاح. وإذا كان للأمم الأخرى «عربات وخيل» أي عربات تجرها الخيل فلِمَ لا يكون مثلها لإسرائيل؟ قبل أن تشكل إسرائيل نوعاً من دولة موحدة، لم تكن الخيول تستعمل في عهد داود. فقد عطّل داود الخيل التي غنمها في المعركة. أعطب عربات الفلسطينيين وعرقب خيل المركبات وأبقى منها مئة مركبة (سفر صموئيل الثاني ٨ : ٤). ولكن خلال عهد داود كانت «العربات والخيل» قد بدأت تشكّل جزءاً من الجيش الملكي. وكان أدونيا وأبشالوم ابنا داود يشتريانها (سفر الملوك الأول ١ : ٥؛ سفر صموئيل الثاني ١٥ : ١). ولكن سليمان هو الذي رأى المزية العسكرية لاقتناء العربات والخيل. فاعتمدها واقتنى منها الألوف بأثمان فلكية. وقد استوردها - طبعاً (!) - من مصر (سفر الملوك الأول ١٠ : ٢٨) - أي من المكان الذي حرر موسى قومه منه (!) وشيّد المدن من أجل [p.132] مركباته واسطبلاته (سفر الملوك الأول ٩ : ١٧-١٨). استحدث سلاح الخيالة واستعمل المركبات الحربية التي لم يكن يستعملها في المعركة، حتى ذلك التاريخ إلا الكنعانيون والفلسطينيون (سفر يشوع ١١ : ٤؛ ١٧ : ١٦؛ سفر القضاة ١ : ١٩، ٤ : ٣، ١٣؛ سفر صموئيل الأول ١٣ : ٥؛ سفر صموئيل الثاني ١ : ٦). ولما ساءت الأمور بصورة واضحة مع الملك الأول، شاول/ طالوت، انتزع الله الملك منه بيد صموئيل (سفر صموئيل الأول ١٥ : ٢٦). ثم راحت تسوء جدّياً مع سليمان: فقد عمل كل شيء حظره الله في التوراة بالنسبة إلى ناموس الملوك، «مرآة الملوك» التوراتية، التي وضعت أصلاً

إثر التفكير فيه وفي أعماله: لم يكن يسمح للملك بأن يقتني أعداداً كبيرة من الخيل لنفسه أو أن يجعل الناس يعودون إلى مصر لهذه الغاية. لم يكن يحق للملك أن يذهب في تلك الطريق، طريق العبودية التي أخرج منها الشعب لتوّه. ولا كان يحق للملك أن يتخذ عدة نساء لأن من شأن ذلك أن يميل قلبه عن الصواب، ولا أن يكنز مبالغ كبيرة من الفضة والذهب (سفر التثنية ١٧: ١٦-١٧؛ سفر الملوك الأول ١١: ١-١٣).

وقد صدر عن الأنبياء اللاحقين تحذيرات مماثلة. يقول إشعياء إن مركباتهم لا نهاية لها ويقول مُعاصره ميخا: «ويكون في ذلك اليوم، يقول الرب، أني أقطع خيلك من وسطك وأبيد مركباتك» (سفر ميخا ٥: ٩-١٠). المركبات والخيل تعني القوة للأمم ولكن إسرائيل قوية بالله ربها: «هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل. أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر» (سفر المزامير ٢٠: ٧).

ولكنتكديس «الفضة والذهب» الذي يقوم به سليمان (سفر الملوك الأول ١٠؛ سفر التثنية ١٧: ١٦-١٧) رمز للثروة كما أن المركبات والخيل رمزان للقوة. الذهب رمز الثروة (سفر أيوب ٣: ١٥؛ رسالة يعقوب ٢: ٢) ويمكن أن يرمز إلى كل ما هو دنيوي، وعابر (سفر الجامعة ١٢: ٦؛ أعمال الرسل ١٧: ٢٩؛ رسالة بطرس الأولى ١: ٧، ١٨؛ رسالة يعقوب ٥: ٣). أما الفضة التي يمكن أن تعني المال أيضاً فتقوم بدور هام كدليل على الثروة المكدسة (سفر الخروج ٢٢: ٧). وهي لا تستطيع أن تنقذ المرء يوم غضب الرب (سفر صفنيا ١: ١٨). والقرآن أيضاً يحذر من تكديس القناطير المقنطرة من الذهب والفضة (سورة آل عمران: ١٤) ويشير إلى مخاطر التدليس، والطمع والصد عن

سبيل الله الناشئة عن تكديس كنوز الذهب والفضة للاستعمال الشخصي (سورة التوبة: ٣٤؛ راجع سورة النساء: ١٦١)[١].

وعلى الضد من ذلك، لا يمكن للحكمة أن تبتاع بأية كمية من الذهب (سفر أيوب ٢٨: ١٥). «كلام الرب كلام نقي كفضة مصفاة في بوطة في الأرض ممحوصة (سفر المزامير ١٢: ٦) الحكمة، والفهم، والعلم ووعود الله خير من الفضة. «شريعة فمك خير لي من ألوف ذهب وفضة» (سفر المزامير ١١٩: ٧٢). خير للإنسان أن ينال الفهم من أن يكتسب الفضة وخير له أن يقتني الحكمة من أن يقتني الذهب (سفر الأمثال ٣: ١٤). «خذوا تأديبي لا الفضة. والمعرفة أكثر من الذهب المختار» (سفر الأمثال ٨: ١٠).

«يكون القدير تِبرك وفضة أتعاب لك» (سفر أيوب ٢٢: ٢٥). «لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة» (أعمال الرسل ١٧: ٢٩)[٢].

العبودية في الأرض الموعودة

تسوء أمور المملكة مع معظم الملوك في الأرض المقدسة، باستثناء قلة قليلة. فمن بين أسوأ الأشياء برزت العبودية ثانية في عهود أوائل ملوك إسرائيل! الخطوط الفاصلة بين عمل السخرة والعبودية هلامية. ففي ذاكرة بني إسرائيل كان التسخير الذي ألزموا به في بناء المدن بمصر فترة عبودية حقيقية (سفر الخروج ٢٠: ٢؛ سفر التثنية ٥: ٦). ولكن بعد الاستيلاء على الأرض، قام بنو إسرائيل بإرغام الكنعانيين على القيام بأعمال السخرة (سفر التكوين ٩: ٢٥؛ سفر يشوع ١٦: ١٠)، التي كثيراً

(1) *E.Q. s.v.* Gold
(2) *B.W. s.v.* zilverandgoud

ما اعتبرت مساوية للعبودية الكاملة. والظاهر أنهم سرعان ما نسوا أنهم كانوا عبيداً في مصر (سفر الخروج ٢٣ :٩)! تسخير الناس للعمل كان امتيازاً من امتيازات الملك. وكان النبي صموئيل قد حذر من ذلك فور مطالبة الشعب له بأن يجعل لهم ملكاً (سفر صموئيل الأول ٨). بدأ داود طلب العبيد عندما احتاج إلى بنائين لوزاراته وعظمة إداراته الحكومية. وقد سخّر داود وسليمان جماعات كبيرة من الناس للقيام بذلك العمل ولم يستثن منه قومه (سفر الملوك الأول ٥ :٢٧-٣٢). وقد عرف سليمان، تخصيصاً، بوضع سياسة تسخير قاسية: كان على العمال القادمين من الشمال أن يعملوا على بناء الهيكل، وكان ذلك مصدر مقاومة متنامية في صفوف الشعب.

وقد عُيّن رجل يدعى أدونيرام على التسخير في المملكة في عهدي داود وسليمان (سفر الملوك الأول ٤ :٦؛ ٥ :١٤) وظل في هذا المنصب المقيت في عهد رحبعام ابن سليمان وخليفته. وكان أول من رجم بالحجارة فور تسلم رحبعام السلطة بينما [p.133] نجا الملك بشق النفس (سفر الملوك الأول ١٢ :١٨). بعد بضعة قرون نظر بنو إسرائيل إلى سبي بابل باعتباره زمن عبودية أخرى لهم (إشعيا ٤٠ :٢)، كالذي عانوا منه في مصر.

ينبغي للاستنتاج أن يكون واضحاً. أدخلت سياسات سليمان تغيراً اجتماعياً أساسياً إلى «أرض الميعاد». فقد استنزف سكان الأرياف تماماً لتمويل الموازنة العسكرية. اختيار سليمان لأحدث التجهيزات العسكرية في زمنه حوّله إلى طاغية. «أمير السلام» الكبير قد تحوّل إلى فرعون![١]

(١) Bas Wielenga, *It's a Long Road to Freedom: Perspective of Biblical Theology*, reprint (Araṣaradi, Madurai: Tamilnadu Theological Seminary, 1988) Ch. IV (الطريق إلى الحرية طويل: نظرة إلى اللاهوت الكتابي).

لذلك انقسمت المملكة بعد وفاة سليمان إلى قسمين يهوذا وإسرائيل. ذلك أن أخيّا الشيلوني النبي عيّن يربعام ملكاً أيام كان سليمان لا يزال حياً. كان أخيّا يلبس رداء جديداً فمزّقه اثنتي عشرة قطعة وقال ليربعام: «خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط. ويكون له سبط واحد من أجل عبدي داود ومن أجل أورشليم المدينة التي اخترتها من كل أسباط إسرائيل». سبط واحد يكون منه بنيامين يبقى لخليفة سليمان (سفر الملوك الأول ١١: ٢٩-٤٠). وبعد تولي رحبعام ابن سليمان وخليفته المُلك نصحه الشيوخ بأن يخفف من النير الذي وضعه أبوه على الناس. فتجاهل رحبعام نصيحة الشيوخ وأصغى لمشورة الأحداث الذين نشأوا معه وقال للقوم: «خنصري أغلظ من متنَي أبي. والآن أبي حمّلكم نيراً ثقيلاً وأنا أزيد على نيركم. أبي أدّبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب» (سفر الملوك الأول ١٢: ١١-١٢). ولكن الناس رفضوا تحمل نير فرعون (سفر الملوك ١٢: ١٦)!

لمن المدينة، البلد، الأرض الموعودة؟

ما هي الرسالة من إبراهيم وصولاً إلى محمد في شأن المدينة الموعودة، البلد، الأرض؟ «للرب الأرض وملؤها» (سفر المزامير ٢٤: ١). «إن الأرض لله» (سورة الأعراف: ١٢٨؛ سورة المؤمنون: ٨٤). لقد بارك الله الأرض وقدّر فيها [p.134] أقوات البشر والحيوان (سورة فصلت: ١٠). «والأرض وضعها للأنام» ليعيشوا فيها ويزدهروا (سورة الرحمن: ١٠).

قطع الوعد بوراثة الأرض للآباء ونسلهم: وعد الله إبراهيم بأن يعطي أرض الكنعانيين لذريته (سفر التكوين ١٢: ٦-٧؛ راجع ٢٤: ٧).

«جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض، حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضاً يُعدّ» (سفر التكوين ١٣ : ١٥-١٦). كما وعد بها إسحق ابن إبراهيم (سفر التكوين ٢٦ : ٢-٣)، ووعد بها يعقوب ابن إسحق (سفر التكوين ٤٨ : ٤). ولما نودي موسى ثانية[1] تم تجديد الوعد لنسل الآباء: «وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب. وأعطيكم إياها ميراثاً. أنا الرب». (سفر الخروج ٦ : ٨). ويتحدث موسى عن هذا في صلاته: «إذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثِر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد» (سفر الخروج ٣٢ : ١٣).

لا مجال للطعن في كون إسمعيل من جملة نسل الآباء، وفي كون العرب من هذه الجملة تالياً. فقد صلّى إبراهيم لأن يعيش إسمعيل تحت بركة الله (سفر التكوين ١٧ : ١٨). واسمه يعني بصورة لافتة «الله يسمع». ويذكر إسمعيل مقترنًا باسم إبراهيم في القرآن بانتظام، وإذا ما أتي على ذكر إسحق ويعقوب فإن اسم إسمعيل يتقدمهما (سورة البقرة: ١٣٦ ؛ سورة آل عمران: ٨٤؛ سورة البقرة: ١٤٠ ؛ قارن سورة البقرة: ١٣٣)[2]. ويحمد إبراهيم الله الذي وهب له على الكبر إسمعيل وإسحق ويقول «إن ربي لسميع الدعاء» (سورة إبراهيم: ٣٩). ويشار إلى إسمعيل باعتباره شخصاً يفي بالوعود، ورسولاً ونبياً يأمر الناس بالصلاة

(١) راجع سفر الخروج 3 للمرة الأولى التي نودي فيها.

(٢) Rudi Paret, Der Koran: Kommentar und Konkordanz (Stuttgart etc: W. Kohlhammer, 1971), p. 29.. قارن سورة إبراهيم: ٣٩ حيث لا يؤتى على ذكر يعقوب.

والزكاة (سورة مريم: ٥٤، ٥٥؛ قارن سورة الأنعام: ٨٦؛ سورة ص: ٤٨؛ سورة الأنبياء: ٨٥). ويرى النبي محمد أنه من نسل إبراهيم عبر ابنه إسمعيل. [p.135]

أية أرض؟

أية أرض هي الموعودة؟ على موسى الذي حرر قومه من بيت العبودية والقهر أن يذهب إلى الأرض الموعودة حيث ينصف المستضعفون (سفر المزامير ١٤٦: ٧). إن اسم هذه الأرض وإن لم يؤت على ذكره، فإن الفكر يذهب أولاً إلى كنعان، «الأرض المقدسة»: يتحدث القرآن عن «مشرق الأرض ومغربها التي باركنا فيها» (سورة الأعراف: ١٣٧؛ قارن سورة الإسراء: ١؛ سورة الأنبياء: ٧١، ٨١؛ سورة سبأ: ١٨). والعبارة تذهب بالفكر إلى نصوص مثل: «وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوط عنه. إرفع عينيك وأنظر من الموضع الذي أنت فيه *شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً*. لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (سفر التكوين ١٣: ١٤-١٥). كما يمكن أن يفكر المرء بعبارة «من مشرق الشمس إلى مغربها اسم الرب مسبّح» (سفر المزامير ١١٣: ٣).

المستضعفون يصبحون أئمة

بعد أن غادر بنو إسرائيل مصر ذهبوا إلى الأرض التي أورثهم إياها الله (سورة الشعراء: ٥٩). فقد أراد الله أن يمنّ على الذين استضعفوا في الأرض وأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين (سورة القصص: ٥). وتشير عبارة «المستضعفين» أولاً وتخصيصاً إلى بني إسرائيل. «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشرق الأرض ومغربها التي باركنا فيها» (سورة

الأعراف: ١٣٧)[1] ولكن «المستضعفين» الذين يعتبر بنو إسرائيل حالة منهم يشملون كل **المستضعفين** اجتماعياً واقتصادياً. إن ما يقال عن بني إسرائيل لا ينطبق عليهم حصراً بل عليهم كجزء من **المستضعفين** مع اعتبار أن الجزء هنا يقوم مقام الكل. فهذا ينطبق في ما ينطبق على أدنى شرائح سكان مكة مثلاً (سورة النساء: ٧٥؛ سورة البقرة: ٢٨٢)[2]. إنها بشرى الخلاص والتحرر التي تعني كل المستضعفين: كل المستضعفين يرثون الأرض، البلد، والمدينة. والمستضعفون هم التبّع والخدم وأدنى درجات السلم الاجتماعي: الضعفاء، المساكين، الأطفال، والنساء (الطبري)[3]. [p.136]

شروط العيش في البلد، على الأرض

يكون البلد *بلداً جيّداً* إن لم تُنسَ فيه وصايا الله وتوراته. في نهاية التيه في القفر وبعد الوصول إلى أطراف البلد، يلقي موسى خطبة طويلة تتناول الدخول الوشيك إلى الأرض، كما تم تدوينها في سفر التثنية، آخر كتب موسى الخمسة، والمعتبرة نسخة من الناموس (سفر التثنية ١٧: ١٨). وقد جاء في صريح نص التوراة أن الله سوف يأتي بالشعب إلى أرض جيّدة، أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال. وعندما يعيشون فيها بالوفرة، ينبغي لهم أن يشكروا الله على الأرض الطيبة التي وهبها لهم. وعليهم أن يحرصوا على ألاّ ينسوا الله وألاّ يهملوا وصاياه، وأحكامه، وفرائضه التي أعطاهم إياها موسى *اليوم*. عليهم متى صار عندهم ما يكفي لطعامهم، ومنازل جيّدة ليسكنوا فيها،

(1) *E.Q. s.v.* Oppression
(2) Paret, *Der Koran,* p. 59 on Q 2: 282
(3) E.Q. s.v. Oppressed on Eart, Rebellion, Economics

ومتى تزايدت مقتنياتهم، ألاّ يستكبروا*وينسوا* الله. ذكر موسى إسرائيل من أين أتى: «الله أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. الذي سار بك في القفر العظيم المخوف». فإذا أثرى فليس بقوته وقدرة يديه فعل ويفعل. بل عليه أن يذكر أن الرب إلهه هو الذي جعله يثري لكي يفي بعهده الذي قطعه لآبائه، كما في هذا اليوم. فإن نسي بنو إسرائيل الرب إلههم وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها فإنهم يبيدون لا محالة. فإن ما حدث للشعوب التي أبادها الله من أمامهم سوف يحدث لهم إن لم يسمعوا كلام الرب إلههم. (سفر التثنية ٨: ٧-٢٠).

لا مسوّغ إذاً للاغترار بأهمية الذات أو بفكرة أنهم يستحقون ذلك، وأنه كان على الله أن يهب لهم الأرض لتصبح ملكاً لهم. لقد طرد الله تلك الأقوام من أمامهم لأنهم كانوا أشراراً ولأنه كان يريد أن يفي بالعهود التي قطعها لآبائهم (سفر التثنية ٩: ٤-٦). فإن لم يسلكوا بحسب ما طلب منهم فإن الأرض سوف تقذفهم (سفر اللاويين ١٨: ٢٥) مثلما قذفت الشعوب الأخرى من قبلهم(سفر اللاويين ١٨: ٢٨؛ قارن ٢٠: ٢٢).

ويؤكد القرآن هذا الخط الفكري. فالله ينظر إلى عمل الناس في الأرض. وعلى الذين حرروا من القهر أن يلتزموا بواجباتهم الروحية والاجتماعية (سورة الأنبياء: ٧٣). سينظر الله كيف يعملون (سورة الأعراف: ١٢٩). لقد أهلك الله القرون من قبل. وبعد ذلك جعل الله المكيين [p.137] والأمم الذين عاقبهم سابقاً على كفرهم، حكاماً أو خلائف لينظر كيف يعملون (سورة يونس: ١٣-١٤؛ قارن سورة الأنعام: ١٦٥).

حدود الأرض: الأبعاد والأعداد

ما هي أبعاد الأرض؟ هل لها حدود معينة؟ يشار إلى إسرائيل باعتبارها تمتد من دان في حدودها الشمالية إلى آخر حدودها الجنوبية في بئر السبع (سفر القضاة ٢٠:١؛ سفر صموئيل ٣:٢٠). وهذا يتطابق إلى حد ما مع حدود فلسطين المحتلة. لكن، ومن ناحية ثانية، تذكر حدود أخرى تتحدث عن إسرائيل ممتدة من النيل إلى الفرات، وبالتالي مع كامل العالم المعروف يومها تقريباً. «ثم غابت الشمس فصارت العتمة. وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع. في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (سفر التكوين ١٥:٨-٢١). وقد قيل لاحقاً عن الملك سليمان أنه ملك على كل الممالك بين الفرات وأرض الفلسطينيين وحدود مصر. حكم على كامل المنطقة الممتدة من غربي الفرات إلى غزة، على كل الممالك الواقعة غربي النهر (سفر الملوك ٥:١، ٤). والظاهر أن على المرء ألاّ يفهم أنها أرض ذات حدود جغرافية. وليس من قبيل الصدف أن كلمة إريتز العبرية وكلمة أرض العربية تشيران كلاهما إلى الأرض كلها! وينبغي ألاّ يفسّر سكوت القرآن عن ذكر أي اسم لأرض فلسطين باعتباره إنكاراً لكون الكلام يختص بهذه الأرض أساساً بل بكونه يتيح، من باب أوْلى، بروز فكرة أن الرسالة هنا تتعلق في النهاية بكل أرض، وبالأرض كلها.

ومن المناسب في هذا السياق أن نلحظ الإشارة إلى كثرة النسل وعدده، أي كعدد نجوم السماء ورمل البحر. وينبغي لعدد النجوم عادة أن يعتبر رمزاً للكثرة التي لا تحصى (سفر التكوين ١٥:٥؛ ٢٢:١٧؛ ٢٦:٤؛ سفر الخروج ٣٢:١٣؛ سفر التثنية ١:١٠). *والرمل* في وعد

الآباء رمز للدلالة على كمية لا يستهان بها (سفر التكوين ٢٢:١٧)، وكثرة الناس (سفر يشوع ١٤:٤)، وأيضاً على عدد الأعداء (رؤيا يوحنا ٢٠:٨)، والحَب (سفر التكوين ٤١:٤٩)، أو الأفكار الإلهية (سفر المزامير ١٣٩:١٨). أما أنه يتعلق في الوعد الذي [p.138] قطع لإبراهيم إلى عدد لا يحصى، فيشير إلى أنه يتعلق بالمسكونة كلها.

الأبرار يرثون الأرض

عندما يتكلم النبي إشعياء عن «أورشليم/القدس الجديدة» يقول: «شعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض» (سفر إشعياء ٦٠:٢١). «الأرض يرثها عبادي الصالحون» (سورة الأنبياء: ١٠٥؛ سورة الزمر: ٧٤). أما الذين يعملون السيئات، والأشرار، فسوف يبادون أو يقطعون، أما الذي يرتجي ربه فسوف يمتلك الأرض. *الأبرار* هم الذين سوف يرثون الأرض ويحق لهم أن يعيشوا فيها إلى الأبد. لذلك يستطيع الإنسان أن يضع رجاءه في الله ولذلك يُحث على التمسك *بالطريق الذي* عيّنه. «أما الودعاء فيرثون الأرض ويتلذذون في كثرة السلامة» (سفر المزامير ٣٧:٩، ١١، ٢٩، ٣٤). بهذه الآية من المزمور المنسوب إلى داود يستشهد المسيح في عظته على الجبل: طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض». ومن اللافت أن هذه الآية تحديداً تذكر في القرآن وتؤكّد: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (سورة الأنبياء: ١٠٥)

صلِّ واستعن بالله واصبر! «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين والعاقبة للمتقين» (سورة الأعراف: ١٢٨) ويقول هؤلاء بدورهم: «الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض!» (سورة الزمر: ٧٤)

لمن هي الأرض، من هم الذين وعدوا بها؟ إنها للذين يعملون البر في الأرض. «تتبارك فيك [إبراهيم] جميع قبائل الأرض» (سفر التكوين ١٢ : ٣) وكما تفعل التوراة يشدد القرآن بصورة لافتة على أن الله قد بارك الأرض «للعالمين» (سورة الأنبياء : ٧١؛ سفر التكوين ١٢ : ٣).
[p.139]

الفصل السادس

سليمان و بلقيس، ملكة سبأ، في القدس

كانت [لسليمان]، نهاية سيئة بعد بداياته الجيدة. ذلك لأن «الرخاء الذي يتآكل عقول الحكماء» أضرّ به أكثر مما أفادته الحكمة، المشهورة في عصره والتي ستظل كذلك... (القديس أوغسطين، مدينة الله)

Augustine, *The City of God*, Book XVII, ch. 20

مدخل

نناقش في هذا الفصل ملكاً، هو سليمان، وبلقيس، ملكة سبأ، ولقاء الإثنين في مدينة القدس. وتحظى مسألة التمييز بين كون المرء خليفة أو ملكاً، ممثلاً لله على الأرض أو «ملكاً» يفسد فيها، بمثال لافت في هذه القصة. وتدور القصة حول الخيار الهام الذي يواجهه كل إنسان، وبصورة أخص كل حاكم أو شخص ذي سلطة. والعناصر التي تتردد مراراً في هذه القصة هي: القوة، الثروة، والحكمة في علاقاتها المتبادلة. لأية واحدة منها يولي الملك، أو الملكة أو زوار سليمان الآخرون الأولوية؟

يبدأ هذا الفصل بمناقشة القصص المتعلقة بسليمان ثم بمملكة سبأ

وزيارة بلقيس ملكة سبأ للملك سليمان في القدس، والآخرين الذين جاؤوا القدس بسببه. لِمَ يأتون؟ ما الغاية من زيارتهم؟ هل يأتون بسبب قوة سليمان، أم ثروته أم حكمته؟

لقد عولجت قصة ملكة سبأ بإسهاب في الروايات العربية، والإثيوبية، والعبرية. ويصور الفن الفارسي مشهد الملكة واقفة في الماء مكشوفة الساقين أمام عرش سليمان. ويظهر المشهد نفسه في زجاج إحدى نوافذ كنغز كولدج في كمبردج. وقد صوِّرت الملكة في الفن الشعبي على أنحاء متنوعة جداً في الغرب منذ القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. والإثارة الجنسية المحيطة بها هي نتيجة طبيعية لميراثها الشرقي بالنسبة إلى الفنانين الغربيين. فقد صوّرها الرسام والمصمم البريطاني السير إدوارد جون بوينتر (١٨٣٦-١٩١٩) على نحو غير محتشم في لوحته المعروفة «بزيارة ملكة سبأ»، كما مثلت دور هذه الملكة الممثلة الإيطالية جينا لولوبريجيدا في أحد أفلام هوليوود. [p.140]

وللمرء أن يتساءل لِم لا يكون جانب الإثارة هذا قد لعب دوراً؟ إذ يقال في القصة إنها أهدت سليمان كمية كبيرة من الأطياب وأنه لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة (سفر الملوك الأول ١٠ : ١٠). ألا ينطوي هذا على تلميحات جنسية للقارئ الفطِن وذريعة للنظر إلى الملكة من هذه الزاوية؟ وثمة في الروايات المتعددة لهذا اللقاء إشارات إلى أن ما حدث بينها وبين سليمان يفوق بكثير مجرد تبادل الهدايا والحكمة. ويُعتقد أن العلاقة قد ذهبت إلى أبعد من ذلك. ويزعم الإثيوبيون أن ملوكهم قد تحدروا من العلاقة الحميمة بين سليمان وهذه الملكة. وتذهب الساغا الوطنية الإثيوبية إلى أن منليك الأول هو الذي أسس السلالة الملكية: ويُزعم أنه ولد من معاشرةسليمان لملكة سبأ.

وكان هايلا سيلاسي (١٨٩٢-١٩٧٥) آخر نجاشي أو إمبراطور من هذا البيت وحكم من عام ١٩٤١ إلى ١٩٧٤[1].

وتخبر الكِبرا ناغاست «مجد الملوك» التي تحتوي على قصة أصل هذه السلالة والتي يعتبرها المسيحيون الإثيوبيون موثوقة، كيف أن منليك قد واكب تابوت العهد أيضاً من القدس إلى إثيوبيا. وهي تحتوي على رواية عن انتقال الإثيوبيين من عبادة الشمس والقمر والنجوم إلى عبادة الله إله إسرائيل. وتنزل الكبرا ناغاست عند الإثيوبيين بمنزلة التوراة من العبرانيين والقرآن من المسلمين[2].

يعتقد أن الملك سليمان هو مؤلف سفر الجامعة (سفر الجامعة ١ : ١) وديواناً من أغاني الحب عنوانه نشيد الأنشاد (سفر الملوك الأول ٥ : ١٢). وقد أحب سليمان الكثيرات من النساء الأجنبيات وكان له حريم يضم ألف امرأة. (سفر الملوك الأول ١١ : ١-٨). ويوصف لنا سليمان كحبيب ملكي في نشيد الأنشاد (نشيد ١ : ٤؛ ٣ : ٧، ٩، ١١؛ ٨ : ١١)، ويقال إنه افتتن بجمال الملكة إلى حد أنه كتب سلسلة من القصائد المثيرة للشهوة عن جاذبيتها: «أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم» (نشيد ١ :٥). ويعتقد أن هذا الكلام يشير إلى ملكة سبأ، ومعنى ذلك أنها تتحدر من أصل عربي أو إفريقي. والاحتمالان جائزان نظراً للصلات القديمة العهد بين الحبشة والجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية. [p.141]

---

(1) *E.I. s.v.* Bilqis; J.B. Pritchard, (ed.) *Solomon and Sheba* (London: Phaidon, 1974), pp.104-14

(2) Edward Ullendorff, *Ethiopia and the Bible* (Oxford University Press, 1968), p. 75

الروايات عن سليمان

وهب الله لسليمان ملكاً لا ينبغي لأحد بعده (سورة ص: ٣٥)، وعلماً مثلما وهب لداود أبيه (سورة النمل: ١٥) وحكماً (سورة الأنبياء: ٧٩). وقد ورث سليمان داود (سورة النمل: ١٦) وفاق أباه في ما أجراه من عدل (سورة الأنبياء: ٧٨و ٧٩)، كما أنه امتاز بمواهب خاصة. فقد وهبه الله معرفة بواطن الأمور ومنطق الطير والحيوانات (سورة النمل: ١٦-١٩).

* فالله هو الحكيم وهو يؤتي الحكمة من يشاء، وبخاصة الأنبياء: إبراهيم وآله (سورة النساء: ٥٤)، وداود (سورة البقرة: ٢٥١؛ سورة ص: ٢٠)، وسليمان (سورة الأنبياء: ٧٩)، وعيسى/ يسوع (سورة المائدة: ١١٠؛ سورة الزخرف: ٦٣)، ومحمد (سورة النساء: ١١٣). وقد وهب الله الحكمة للقمان، وهو بطل أسطوري معمّر، عاش قبل الإسلام، ويقال إنه ابن عاد (سورة لقمان: ١٢)[1]. وفي القرآن يظهر أن لقمان كان من المؤمنين بإله واحد، وكان والداً حكيماً يعظ ابنه بالتقوى واجتناب الشرك بالله (سورة لقمان: ١٣؛ قارن سفر الأمثال ١: ٨). والحكمة وحي (سورة الإسراء: ٣٩) ويسمى القرآن بالقرآن الحكيم (سورة يس: ٢؛ قارن سفر الأمثال ٨-٩) والحكمة مساوية للكتاب، والتوراة والإنجيل (سورة آل عمران: ٤٨). والله هو الذي أنزل الكتاب والحكمة (سورة البقرة: ٢٣١)، ومهمة الرسول أو النبي هي أن يعلم الناس الكتاب والحكمة (سورة البقرة: ١٥١؛ سورة الزخرف: ٦٣) أو أن يقدمهما معاً إلى الناس (سورة الأحزاب: ٣٤؛ سورة الجمعة: ٢)[2].

---

(1) *E.I. s.v.* Lukman

(2) *E.Q. s.v.* Solomon, wisdom

* بلغت شهرة سليمان أقاصي الأرض. وقد اشتهر أكثر ما اشتهر بحكمته الفائقة. ذلك أن الله لما سأله في المنام ما يريد وعد بأن يلبي أمنياته كلها. فتمنى سليمان أن يكون له «قلب مميّز بصير» بحيث يستطيع أن يحكم الناس ويميز الحق من الباطل، وإلا فكيف يقيم العدل؟ ولأن سليمان لم يطلب طول العمر، أو الثروة، أو موت أعدائه، فقد وُهِب القدرة على الاستماع والحكمة التي لم يضاهيه فيها أي رجل من قبله أو من بعده. [p.142]

* ويقال إن سلطان سليمان قد امتد إلى كافة الممالك بين الفرات وأرض الفلسطينيين، وإلى حدود مصر. وكانت هذه المناطق كلها تحت سلطانه وتؤدي له الجزية طيلة حياته. فقد حكم على المنطقة الممتدة إلى الغرب من الفرات حتى غزه، وعاش في سلام مع كافة البلاد المحيطة به. وكان في وسع سكان اليهودية وإسرائيل من دان إلى بئر السبع أن يجلسوا بلا قلق، طيلة حياته، تحت كرماتهم وتيناتهم، وفي ذلك رمز فريد للسلم والازدهار (سفر ميخا ٤ : ٤). وقد وهبه الله حكمة عظيمة ومعرفة شاملة بالأشياء. وفاق كل شعوب الشرق وكل المصريين بحكمته. وكان الناس، ومن جملتهم مبعوثي الملوك الذين سمعوا بحكمته يتقاطرون من البلدان المحيطة للاستماع إلى حكمته (سفر الملوك الأول ٥ : ١، ٤، ٥، ٩-١٠، ١٤).

* ومن جملة القدرات العجيبة التي وهبت لسليمان (سورة النمل: ١٥): إجراء الريح بأمره (سورة الأنبياء: ٨١؛ سورة سبأ: ١٢؛ سورة ص: ٣٦) والقدرة على فهم لغة النمل (سورة النمل: ١٨-١٩؛ قارن سفر الأمثال ٦ : ٦)، فضلا عن لغة الطير (سورة الأنبياء: ٧٩؛ سورة النمل: ١٦، ١٩). وكانت هذه المعارف تسعفه في الأوضاع المتأزمة. ومن الأمثلة على ذلك القصة التالية: «حشر لسليمان جنوده من

الجن والإنس والطير... حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» (سورة النمل: ١٦-١٩).

* ويدعو القرآن الناس تكراراً إلى رؤية الآيات في الخليقة، وهو اللفظ نفسه المستعمل لآيات القرآن (سورة البقرة: ١٦٤؛ ومواضع متفرقة). وتذكر التوراة أيضاً أن «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه... ناموس الرب كامل يرد النفس...وصايا الرب مستقيمة تفرح القلب (سفر المزامير ١٩: ٢، ٨). كثيراً ما يقال إن جعل آيات الطبيعة أقل دلالة من الكتب المنزلة يقود إلى [p.143] تناقض. ويبدو هذا في المزمور ١٩، أو على الأقل في صيغة سنة ١٧٧٣ الهولندية المسجعة منه. نقرأ في الدوبيت الأول منه «السماوات العلى تنبئ بمجد الله وعظمته». وفي السطر الأول من البيت الرابع: «ولكن ناموس الله يسطع بنور أكمل ينير القلب». لا أثر لهذه «اللكن (*nochtans*)» في النص الأصلي، وهي بحق لا تظهر في صيغة سنة ١٩٧٣ المسجعة لهذا المزمور (بعد قرنين من الزمان). الله يتحدث، ويكشف عن نفسه، في الخليقة وفي التنزيل. وبهذا المعنى تكون الديانة «ديانة طبيعية» اي‌دين *الفطرة*.

* إن ما يلاحظ في الطبيعة سواء أفي عالم الحيوان أم في عالم النبات يعتبر عبرة وإرشاداً للناس. فالنمل، مثلاً، يعلمنا المثابرة: «إذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأمّل طرقها وكن حكيماً!» (سفرالأمثال ٦: ٦). والنمل يبيّن لنا كيف يبدو المجتمع المنظم. وهي ربما كانت من أصغر الحيوانات وكانت غير قوية، غير أنها فريدة في حكمتها (سفر الأمثال ٣٠: ٢٤-٢٥): «تأمّل طرقها وكن حكيماً! ليس لها قائد أو عريف أو

متسلط. وتعدّ في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها» (سفر الأمثال ٦: ٦-٨). هل كان سليمان يسترشد بالحكمة التي كان يستطيع تعلمها من الحيوان؟ على أية حال، لم يكن يصلّي من أجلها!

مملكة سبأ

سبأ بلاد وشعب في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية. وهي تقع في المنطقة المسماة «العربية السعيدة» *Arabia Felix*. ومن الجائز أن نفترض أنه كانت ثمة منطقة تجارية مزدهرة خلال الألف الأول قبل الميلاد. ويذكر العهد القديم في مواضع عديدة مملكة مشهورة بروحها التجارية (سفر المزامير ٧٢: ١٥؛ سفر إرميا ٦: ٢٠؛ سفر حزقيان ٢٧: ٢٣؛ سفر يوئيل ٤: ٨)(١). وقد سميت إحدى سور القرآن باسم «سبأ» (سورة سبأ: ١٥). والاسم يذكرنا بصور مدينة السبأيين ومدينتهم وثقافتهم. فقد كانوا كمعظم الشعوبالسامية الأخرى يعبدون القمر، والشمس، ونجمة الصباح. وبسبب خصائصه الفلكية، وأطواره، وبقعه، وخسوفاته، كان القمر يحتل مكانة هامة. كان الناس مقتنعين بأن القمر ذو أثر [p.144] في المولد، والحياة، والنمو، والوفاة. وكانت المراكز القديمة لهذه العبادة تقع في بابل، في أور وحرّان، وفي مأرب بجنوب الجزيرة العربية(٢).

---

(١) D.S. Attema, *Arabie en de Bijbel*, (The Hague: Uitgeverij van Keulen, 1961), pp. 41-43 (الجزيرة العربية في التوراة)

(٢) B.E. s.v. maan: Wendell Phillips, Opgravingen in het land van Qataban en Sjeba (Utrecht/Antwerpen: Het Spectrum, no. date), p. 141 الترجمة الهولندية لكتاب Qataban and Sheba: Exploring the Ancient Kingdoms on the Biblical Spice Routes of Arabia (New York: Harcourt, Brace, and Company, 1955). (استكشاف الممالك القديمة على طرق الأفاويه التوراتية).

كانت سبأ تسمى «البلدة الطيبة». ويروي القرآن كيف كانت لأهل تلك البلاد جنائن غنّاء طيبة الثمار. ولكن عندما أدار القوم ظهورهم لله، عاقبهم بانثلام السد وهذا ما جعل جنائنهم الرائعة تتحول إلى جنائن تؤتي ثماراً مرّة. أدى انهيار السد إلى فيضان. وفي التاريخ أن سد مأرب انهار سنة ٥٤٢م، وهو حادث شهير وقع قبل خمسة وعشرين عاماً من ولادة محمد (سورة سبأ: ١٥-١٧). وكان هذا السد الوسيلة المركزية للتحكم بكميات المياه التي تسيل من جبال اليمن. ومن ذلك الموقع كانت المياه توزع على مناطق تبعد أميالاً لتسقي الربوع الخضر. وقد كان لانهيار السد عواقب خطيرة على نظام الري باليمن. وتذكر النقوش الباقية من ذلك الزمن أعمال الترميم على السد. ولا يكاد يوجد في التاريخ ما قبل الإسلامي أي حادث آخر تناولته المخيلة بذلك القدر من التنميق أو تناقلته الأجيال بعدد مماثل من الروايات كانثلام سد مأرب[١].

كانت مأرب عاصمة منطقة سبأ، ومن أهم مراحل طريق القوافل التي كانت تصل المناطق المنتجة للطِيب. كان الطيب يأتي من جنوب الجزيرة العربية (سفر الملوك الأول ١٠ : ١٠؛ إنجيل متى ٢ : ١١؛ رؤيا يوحنا: ١٨ : ١٣). كانت أهم الطرق وأقدمها، طريق الطيب، تمتد من الساحل الجنوبي الشرقي إلى الشمال. وقد جعل الله بين سبأ والقدس «قرى ظاهرة» أو «أماكن للمبيت» ليقوم الناس بتجاراتهم بأمن وسلام (سورة سبأ: ١٨). وتلك هي طرق القوافل بين أرض سبأ وفلسطين وربما مكة أيضاً. وكانت ثروة سبأ ترتكز إلى التجارة.

---

(١) *E. I. s. v.* Ma'rib; Phillips, *Opgravingen*, pp. 138-39; W. Montgomery Watt, *Companion to the Qur'an: Based onthe Arberry Translation* (London: George Allen and Unwin, Ltd. 1967), pp. 196-97; Heinrich Speyer, *Die Biblschen Erzählungen im Quran* (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1962), pp. 392-93 (القصص التوراتية في القرآن)

ويمكن أن تحدد نهاية المملكة في شيء من اليقين سنة ٥٢٥. وكان آخر ملوكها قد اعتنقوا اليهودية، وحكم آخرهم ذو نواس من ٥١٧ إلى ٥٢٥، وتسمى بعد [p.145] تهوّده بيوسف. وهو معروف بالدرجة الأولى جراء اضطهاده المسيحيين سنة ٥٢٠ في مدينة نجران، من أهم مراكز المسيحية الشرقية، حيث قضى ٤٠٠ رجل وامرأة حرقاً. ومن المعروف أيضاً أن اليمن قد غزيت من الحبشة بأمر من إمبراطور القسطنطينية، وهذا ما أدى إلى إعادة المسيحية وآذن بفترة ذهبية لمدينة الشهداء العربية، التي ظلت مدينة مقدسة عن العرب مدة مئة سنة. وقد أضحت كعبة نجران مركزاً للحج. ويعتقد أن هذه المدينة تتصل أيضاً «بالقرى التي بارك الله فيها» (سورة سبأ: ١٨). وفي العام ٦٣٠ استقبل النبي محمد وفداً من مسيحيي هذه المدينة برئاسة أسقفهم في مسجد المدينة (سورة آل عمران: ٦١). وقد عقد أول صلح مع هذه المدينة[١].

بلقيس[٢]، ملكة سبا وسليمان

من هي ملكة سبأ، لا تسمى بأي اسم في التوراة والقرآن، ولكنها تسمى بَلقيس في الروايات المسيحية وبِلقيس في الروايات الإسلامية المتأخرة. أما تفسير الاسم بأنه يعني «الخليلة» فقد اعتبر غير مقبول[٣]

(١) أنظر ولكن *E.I. s.v.* DhûNûwâs; *E.Q. s.v.* Najrân, Religious Pluralism. Rudi Paret, Der Koran: *Kommentar und Kondoranz* (Stuttgart, etc: W. Kohlhammer, 1971), حول الآية الثامنة عشرة من سورة سبأ.

(٢) قارن Barbara FreyerStowasser, *Women in the Quran: Traditions and Interpretation* (New York/Oxford: Oxford University Press, 1994), pp62-66 (النساء في القرآن)

(3) Pritchard, *Solomon and Sheba*, pp. 99-139

ودالاً على الذين يفسرون النصوص أكثر مما يدل على الملكة. زائرة بلاط سليمان هذه جاءت من الحدود الجنوبية للعالم المعروف في تلك الأيام. وهذه الملكة البلا إسم قامت بزيارة دولة للملك الأسطوري سليمان في القدس. والأرجح أنها كانت هي نفسها مشهورة أيضاً. ويسميها المسيح باحترام «ملكة الجنوب» (إنجيل متى ١٢: ٤٢؛ إنجيل لوقا ١١: ٣١).

سافرت الملكة إلى الشمال في قافلة جمال. وما من شك في أن زيارتها لسليمان كانت ذات شأن تجاري كبير[١]. ومن الجائز أن يكون سعي سليمان إلى احتياز كل أنواع المنتجات عبر شحنات منتظمة على البحر الأحمر قد حرّك دواعي السبأيين الذين كانوا يريدون الاحتفاظ بسيطرتهم على تجارة هذه السلع، لمحاولة الاتصال به وترتيب علاقات تجارية طيبة معه (سفر الملوك الأول ٩: ٢٦-٢٨)[٢]. ويدل تبادل الهدايا على ذلك أيضاً [p.146]. ولكن ثمة تفسيراً أعمق لقصة الزيارة. فمواجهتها الجريئة مع الملك سليمان العظيم تفسر على أنحاء مختلفة بأقلام الكتاب اليهود والمسيحيين والمسلمين اللاحقين.

الزيارة الشهيرة التي قامت بها هذه الملكة الذكية والقوية تروى في القرآن على النحو التالي. وهي لا توصف بالملكة هنا بل «امرأة تملكهم» (سورة النمل ٢٣). كيف أوتيت امرأة ذلك القدر من القوة؟ لهذا راح الباحثون المحدثون يشددون مؤخراً على اختبار هذه الملكة «قواعد الجندر العريقة الاحترام»[٣].

---

(1) Phillips, *Opgravingen*, p. 75

(2) Attema, *Arabië en de Bijbel*, pp. 42-43

(٣) Jacob Lassner, Demonizing the Queen of Sheba (Chicago/London: University of Chicago Press, 1993), p. 1 (شيطنة ملكة سبأ). قارن E.I. s. v. Sulayman B. Dâwûd سورة الأنبياء: ٨٢؛ سورة ص: ٣٦

وفي «ترجوم شيني»[1] وهو ترجمة آرامية مبلورة لسفر إستير من أسفار العهد القديم، وسعت فيه المواد القديمة بمواد جديدة أبوكريفية رواية عن زيارة ملكة سبأ لسليمان تشبه الرواية القرآنية (سورة طه: ٢٠-٤٤). وتتحدث رواية سفر إستير عن جيش هائل من الحيوانات والطيور، والأرواح الشيطانية تحت إمرة سليمان. وتطرح عليه الملكة عدة أحاجي قبل التسليم عليه[2].

وإذ كان سليمان يتفقد الطير ذات يوم سأل «ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟» والهدهد المعتبر نجساً حسب الأعراف اليهودية (قارن سفر اللاويين ١١: ١٩) يتكاثر في كافة أنحاء فلسطين ويهاجر إلى البلاد الجنوبية في الخريف ويعرف من الريش الذي يعلو رأسه. «لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليتأتينّي بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله. وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل...الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم». (سورة النمل: ٢٠-٢٦).

معنى العرش [p.147]

العرش رمز لسلطة الملك، أو الملكة في هذه الحال. العرش رمز للسيادة الملكية ولكنه يشي أيضاً بأن امتلاك السلطة الملكية يمكن أن

(١) (ولعله: «الترجمة الثانية» - المترجم)، أبوكريفية (مشكوك في صحتها أو في صحة نسبتها - المترجم)

(2) Lassner, *Demonizing*, pp.14-17

يقع في علاقة توتر مع سلطة الله، وعرشه. وترد عبارة العرش خمساً وعشرين مرة في القرآن بالإشارة إلى الله رب العرش (سورة الإسراء: ٤٢؛ سورة الأنبياء: ٢٢؛ المؤمنون: ٨٦، ١١٦؛ سورة النمل: ٢٦؛ سورة الزخرف: ٨٢؛ سورة التكوير: ٢٠؛ سورة البروج: ١٥)؛ ورب العرش العظيم (سورة التوبة: ١٢٩). وبعد خلق العالم استوى الله على هذا العرش ليحكم العالم (سورة الأعراف: ٥٤؛ سورة يونس: ٣؛ سورة الرعد: ٢؛ سورة طه: ٥؛ سورة الفرقان: ٥٩؛ سورة السجدة: ٤؛ سورة الحديد: ٤). وكان عرش الله على الماء بعد الخلق (سورة هود: ٧). و«التابوت» الذي يرمز إلى حضور الله، يسمى عرش الله (سفر إرميا ٣: ١٦-١٧). وبعد أن شيّد سليمان الهيكل، وضع التابوت في قدس أقداس الهيكل، واتخذت مدينة القدس دور عرش الله. ولهذا السبب يكون اسم المدينة من ذلك اليوم «يهوه شَمَّهْ» (سفر حزقيال ٤٨: ٣٥). ويستعمل لفظ كرسي دلالة على العرش في القرآن مرتين، ويشير مرة إلى عرش سليمان ومرة إلى عرش الله: «وسع كرسيُّه السماوات والأرض» (سورة البقرة: ٢٥٥)[1].

يريد سليمان أن يستطلع الوقائع عن الملكة وقوتها التي يرمز إليها العرش. ولذلك يجيب سليمان الهدهد قائلاً: «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون». فامتثل الهدهد للأمر.

بعد استلامها رسالة سليمان استفتت الملكة الملأ في هذا الشأن. أخبرتهم أولاً أنها تسلمت رسالة من سليمان تبدأ بعبارة «باسم الله الرحمن الرحيم». وهكذا تفتتح، مع استثناء واحد، كافة سورة القرآن،

(1) E. Q. s.v. "Throne of God"

وقد أضحى من المألوف عند المسلمين أن تستهل الرسائل والكتب، أو أي مشروع آخر بهذه الكلمات. والرحمن اسم من أسماء الله كان معروفاً في المنطقة التي جاءت منها الملكة بشهادة النقوش التي وجدت هناك. ويسمى الله في النصوص السبأية الرحمانان رب السماء والأرض. ويبدأ نقش نقشه أبرهه نائب ملك الحبشة وملك [p.148] سبأ لاحقاً (حوالي ٥٢٥-٧٥م)، بعبارة باسم الرحمانان ومسيحه والروح القدس[1].

وقد جاء في رسالة سليمان «ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين» ويستعمل اللفظ هنا بمعناه الأصلي لا بالمعنى الذي اكتسبه لاحقاً. فأجابها مستشاروها: «نحن أولو قوّة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين» وتركوا لها أمر كيفية الإجابة على رسالة سليمان. والأمر هنا يتصل بثيمة العلاقة بين السلطة، والثروة، والحكمة وما يفكرون بالنسبة إلى هذه الثلاثة. ويبين جوابها وتعليقها على الرسالة ما يمكن أن يتوقع من الملوك. «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة». من الجائز أنها قالت ذلك لتختبر سليمان وبلاطه لترى ما يرجع به رسلها من عنده. ويتعلق الأخير بثيمة الثروة. وعندما رجع الرسول إلى سليمان قال الأخير: «أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم». ويبدو أن الملكة لم تكن تجانب الصواب في نظرتها السلبية إلى طبيعة الملوك المعتادة. فقد أجاب سليمان «إرجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون».

ثم قال سليمان لقادته: «يا أيها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟» هنا يسمع المرء بوضوح التوتر بين الملك الذي يعود

---

(١) St John Simpson, ed. *Queen of Sheba: Treasures from Ancient Yemen* (ملكة سبأ: كنوز اليمن القديم) (London: The British Museum Press, 2002, p.165.

لله والملوك الذين يقدر الله أن يؤتيهم الملك ويؤتيهم إياه فعلاً. ولكن السؤال الذي يبرز باستمرار هو: هل يلتزم الملوك بالتوراة، وبناموس الملوك تحديداً (سفر التثنية ١٧ : ١٤-٢٠) المرآة التي يضعها الله في وجه الملوك، بدءًا بسليمان؟ والقصة هنا عن حاكمين هما ملكة سبأ والملك سليمان. والسؤال الذي يطرحه سليمان «أيكم يأتيني بعرشها؟» (سورة النمل: ٣٨)، يتعلق بكيفية نظر كل منهما إلى طبيعة الملك. [p.149]

يتطوع عفريت من الجن بالإتيان بعرش الملكة ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بالسرعة الكافية. «وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» وكان كما قال. فلما رأى سليمان العرش «مستقراً عنده «قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر». والظاهر في موقف سليمان أن له علاقة باختبار لإيمانه. ولكن سليمان بات الآن يريد أن يرى الملكة، ويقول «نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو» (سورة النمل: ٤٢). معنى هذا أنها قد اكتسبت معرفة بطبيعة الملك الحقيقي قبل أن تصل إلى القدس. وكان ذلك ظاهراً من جوابها الأول على كتاب سليمان يوم رفضت بوضوح استعمال العنف الذي أشار عليها به مستشاروها، ذلك العنف المميز للملك (السيء!) (سورة النمل: ٣٣-٣٥).

ثم «قيل لها ادخلي الصرح فلما دخلته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها» ويبدو من هذه الحادثة أنها اعتبرت الظاهر واقعاً. وفهمت أنها أخطأت واستخلصت النتيجة المناسبة بالنسبة إلى إيمانها[١]. فلما قال لها

---

(١) Oliver Leaman, *Islamic Aesthetics: An Introduction* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2004), pp. 132-36. (مدخل إلى علم الجمال الإسلامي)

سليمان «إنه صرح ممرّد من قوارير، قالت ربّ إني ظلمت نفسي» لأنني لم أومن «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (سورة النمل: ٤٤). وبذلك فهي لم تستسلم لسليمان الذي ألمح سابقاً إلى قيامها بذلك، بل لله وهذا ما يعنيه الإسلام حقاً: السلام مع الله والبشر ومعَ سليمان! وما يصح عليها يصح أيضاً على سليمان! ومعنى هذا أن لا مكان لملك إن كان يعبد إلهاً آخر غير الله[1].

ماذا استنتجت من زيارتها لسليمان؟

تنقلت ملكة سبأ في المأدبة التي أقامها سليمان في القدس من مفاجأة إلى مفاجأة. لفتها الطعام الثمين، ووفرة المشروبات، والخدم [p.150] المرتدين الألبسة الحسنة. وكان ذلك بالنسبة إليها مشهداً يأخذ الألباب.

أرادت أن تختبر سليمان بالأحاجي أثناء زيارتها. طرحت عليه أسئلة مختلفة فكرت فيها، مستدرجة إياه إلى ضرب من التباري في الأحاجي. كانت الأحاجي جزءاً من ممارسة الحكمة وعرضها. فالأحجية شكل مخصوص من أشكال الحكمة التي يمكن اختبارها بأحاجي أخرى. والأحاجي أسئلة ملغزة تم التفكر فيها طويلاً، والأسئلة نفسها تشهد بدورها على الحكمة والخبرة في الحياة. يحجب المرء فيها كلياً ويوضح، في الوقت نفسه، مكنون قلبه (قارن سفر المزامير ٤٩: ٥). «فالأحجية إذاً مجرد لعبة لاكتشاف الحقيقة نفسها. فالأول يخفي أو يحجب والآخر يخرج الحقيقة من خفائها إلى الضوء»[2]. كلّمت الملكة

(1) Lassner, *Demonizing*, p.38

(٢) Gerhard von Rad, *Weisheit in Israel* (Neukirchen-Vluyn: NeukirchnerVerlag, 1985), p. 56 (الحكمة عند بني إسرائيل)

سليمان بكل ما كان في قلبها وعقلها. وعرف سليمان الأجوبة عن كافة أسئلتها؛ لم يكن أمر مخفياً لم يخبرها به. «فسّر لها كل كلماتها»، وأوضح لها معنى أسئلتها وقوة رغباتها، وغاية وجودها. «لم يبق شيء خفياً على الملك: بسط الوجود الإنساني كله بينهما» (سفر الملوك الأول ١٠: ١-١٣؛ سفر الأخبار الأول ٩: ١-١٢)[1]. أما كيف عاشت وقوّمت زيارتها للملك سليمان فيبرز من شكرها لله: «ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سُرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكاً لتجري حكماً وبرّاً (سفر الملوك الأول ١٠: ٩). هذا ما استخلصته من زيارة سليمان في القدس قبل عودتها إلى ديارها.

مملكة «الدابّة/ الوحش»

لم تكن ملكة سبأ الزائر الوحيد الذي قصد سليمان. فقد جاءه الناس من كل أقطار العالم ليستمعوا إلى الحكمة التي آتاه الله إياها. ولكن ما الذي تستتبعه هذه الحكمة فعلاً؟ لقد آتاه الله القوة والثروة فضلاً عن الحكمة لأنه طلب الحكمة ولم يطلبهما. ولكن لا نهاية لاقتناء سليمان [p.151] الثروات. والظاهر أنه ما كان يعرف أين يجب عليه أن يتوقف. وفي مقدور المرء أن يستشفّ في سليمان شيئاً من حب الظهور والتباهي بالثروة والمقتنيات: كان دخل سليمان السنوي ٦٦٦ طالن من الذهب، وهو عدد كبير ومشؤوم. فقد صار هذا العدد يسمّى لاحقاً عدد النبي الكذاب، «الوحش» الطالع من الأرض (سفر رؤيا يوحنا ١٣: ١١؛

(1) *B.E. s.v.* raadsels; T.J.M. Naastepad, *Salomo: Verklaring van een Bijbelgedeelte* (Kampen: J. H. Kok, 1975)

١٨)! و«الوحش» يمثل الظلم والشر. وهو يظهر في مختلف الأزمنة والأمكنة، والقرى والمدن. ويظهر «الوحش» الأصلي «الدابّة» في القرآن أيضاً: «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» (سورة النمل: ٨٢). خروج «الدابة» إشارة تؤذن بيوم الدين. واستعمال هذا العدد في تلك القصة يمكن أن يفسر بأنه إشارة إلى أن مملكة سليمان هي مملكة «الوحش»[١].

ولا يشتمل دخل ٦٦٦ طالن من الذهب سنوياً على ضريبة الدخل على التجار، والباعة، وكل ما كان ملوك الجزيرة العربية وولاة الأرض يؤدون. وكانت لسليمان مئتا درع كبيرة من الذهب المطروق. كما كانت له ٣٠٠ درع صغيرة أخرى. وهو بفعله ذلك قد سحب ذلك الذهب من السوق. بعبارة أخرى لم يفعل به أي شيء مفيد ما خلا استعراضها وتعليقها في الخزانة الملكية، في بيت «غابة لبنان». وقد اصطنع لنفسه عرشاً من العاج (قارن سفر الأخبار الثاني ٩: ١٧)، مغشى بالذهب الخالص، لم يصنع مثله في أية مملكة من قبل في استعراض تفاخري للقوة والثروة. وقد راح كل ذلك الذهب يسيطر على ملكه: فبات يشرب من كأس من ذهب لا من فضة، لأن الفضة لم تكن يومها تساوي الكثير مثلما لاحظ البعض بازدراء. كانت الفضة شائعة في القدس شيوع الحصى. كل ثلاث سنوات كانت تصل إلى المرفأ سفينة محملة بالذهب، والفضة، وأنياب الفيلة، والطواويس، والقردة. كان العالم كله يريد أن يزور سليمان وأن يستمع إلى الحكمة التي حباه الله بها. وكانوا

---

(١) Paret, *Der Koran*; Watt, *Companion to the Qur'an*; *E.I. s.v.* Dabba: David Cook, *Studies in Muslim Apocalyptic* (Princeton: The Darwin Press, Inc. 2002), pp. 120-22 (دراسات في الأخرويات الإسلامية)

كلهم يأتونه بالمزيد من الهدايا: من الفضيات والذهبيات، والألبسة، والأسلحة، والعطور، والجياد. واستمرت الحال على هذا المنوال سنة تلو سنة (سفر الملوك الأول ١٠: ١٤-٢٢، ٢٧).

سليمان والخيل [p.152]

أما الخيل فقد يظن المرء أن الأمر يتعلق بشيء بريء كتنظيم استعراض للزائرين. وينص القرآن على أن سليمان كان يمتلك آلاف الجياد التي استولى عليها في الحروب. لكن قوة الخيل لا ترضي الله ولا قوة الجنود. فالرب يُسر بالذين يعبدونه ويرتجون رحمته (سفر المزامير ١٤٧: ١٠، ١١). ولكن سليمان كان يملك ٤٠٠٠ مذود لمركبات خيله، و١٢٠٠٠ فرس (سفر الملوك الأول ٤: ٢٦. وقد اشترى المركبات واتخذ الخيّالة، بأربعة آلاف مركبة و١٢٠٠٠ فارس كان يجعلهم في مدن المركبات وبالقرب من قصره في القدس (سفر الملوك الأول ١٠: ٢٦)[١].

وفي وسع المرء أن يرى مدى خطورة وعدم براءة اقتناء الخيل والعناية بها من خلال القصة التالية. في إحدى العشيات استعرض سليمان «الصافنات الجياد» واستمر في تأملها. راح يمسح سوقها والأعناق واستغرق في ذلك إلى حد أنه نسي وقت صلاة الغروب وأهمل بذلك التفكير في الله. أحب جياده، ومتاع الدنيا، عن ذكر ربّه حتى توارت الشمس وراء حجاب الليل (سورة ص: ٣٢)[٢]. وهو كغيره

(١) كان لسليمان أربعة آلاف مذود خيل ومركبات واثنا عشر ألف فارس (سفر أخبار الأيام الثاني ٩: ٢٥)

(٢) وفقاً لترجمة Paret, *Der Koran*

من الناس محب جداً لخيرات الدنيا (سورة العاديات: ٨)؛ وهو يحب «المال حبّاً جمّاً». وعندما رأى ذلك «قال رب اغفر لي» (سورة ص: ٣٥) وكفر عن إهماله بأن ضحّى بكل خيله ما خلا مئة[١].

ومن الجائز في العقل أن يسمع المرء في النص القرآني صدى ما فعله ملك متأخر من ملوك إسرائيل، وهو يوشيا، الملك الذي وجد كتاب التوراة ثانية وأطاع كل كلمة من كتاب العهد، وقرأه على قومه كلهم (سفر الملوك الثاني ٢٢: ٨؛ ٢٣: ٢). ومن النتائج العديدة التي استخلصها الملك من ذلك أنه أباد الخيل التي أعطاها ملوك يهوذا للشمس وأحرق. مركبات إله الشمس بالنار. (سفر الملوك الثاني ٢٣: ١١). فالرب لا يُسَرّ بقوة الخيل ولا يرضى بساقي الرجل (سفر المزامير ١٤٧: ١٠). [p.153]

أما أنه كان يحظر على الملك أن يقتني الكثير من الخيل، فأمر منصوص عنه في قانون الملوك في التوراة: لا يسمح للملك بأن يشتري الكثير من الخيل لأن هذا كان يعتبر بمثابة العودة إلى مصر. استورد سليمان الكثير من الخيل من مصر وسواها من البلدان (سفر الأخبار الثاني ٩: ٢٨). وقد استورد تلك الأسلحة والمئات من نسائه من مصر، البلد الذي كان يمثل العبودية والظلم! وهكذا بدأ الملك سليمان يتصرف على غرار فرعون (سفر التثنية ١٧: ١٦)، تصرف حاكم يرتكب المظالم ويفسد في الأرض!

---

(١) Watt, *Companion to the Qur'an*, p. 208. والجياد العربية الموجودة اليوم تتحدر من هذه المئة التي استبقاها سليمان: (Brannon M. Wheeler, *Prophets in the Qur'an: An Introduction to the Quran and Muslim Exegesis* [London and New York: Continuum, 2002], p.272 (الأنبياء في القرآن: مدخل إلى القرآن والتفسير الإسلامي).

السلطة، الثروة، أم الحكمة؟

لِمَ يأتي كل هؤلاء الخلق، ما خلا ملكة سبأ، لزيارة سليمان؟ هل يأتي هؤلاء من أقطار الأرض ليتأملوا ثروته التي لا تضاهى؟ هل هذا ما ينشده الناس؟ هل يأتون بحثاً عن الحكمة؟ تدور هذه القصة حول طبيعة الملك، والحكمة، بالإضافة إلى الثروة والقوة، معنى الجلوس على عرش. بعد الكتاب الذي تسلمته ملكة سبأ من سليمان ومطالبته لها بالخضوع له، رفضت بقوة الأخذ بنصيحة «مستشاريها» بمحاربة سليمان. «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلّة» (سورة النمل: ٣٤). وهذا مختلف جداً عن الخضوع أو الإسلام لله! عندما أرسلت الملكة هدايا رفضها سليما لأن ما وهبه الله خير مما أرسلت (سورة النمل: ٣٦). والظاهر أن سليمان قد شعر بأن الهدايا أدنى من كرامته، ويبدو أن ردة فعل سليمان تشي بموقف متعال بالنسبة إلى الثروة والقوة، والنظر في المتابعة عندما هدد باستعمال العنف. واضح أن هذا ما كانت تتخوف منه ملكة سبأ لأن هذا ما يفعله الملوك عادة، إنهم يفسدون في الأرض. وعندما وصلت ملكة سبأ إلى القدس ورأت سليمان على عرشه بسلام وبر، ورأت أعماله الخيرة كملك عادل، مجدت الله على ذلك: «ليكن مباركاً الرب إلهك الذي سُرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكاً لتجري حكماً وبرّاً (سفر الملوك الأول ١٠: ٩). وهي بذلك اختارت أن تجلس على العرش لتمتلك القوة من أجل العدل والبر، أي للخلافة لا للملك! [p.154]

ولكن الزائرين الآخرين كانوا مهتمين بناحية من سليمان مختلفة اختلافاً تاماً. يستحيل سليمان حجراً مثل تمثال؛ يصبح كلاً واحداً مع

عرشه العديم الحياة. يصبح أشبه بأحد الآلهة، أو صنم، أو كتلة من الذهب. يمكن أن يفكر المرء هنا بصورة رأس نبوخذنصر التي كانت معمولة من الذهب أيضاً (سفر دانيال ٢ : ٣٢)! فقد أصبح الذهب إلهه الذي يمكن أن تطبق عليه الفقرة التالية من التوراة: «أصنامهم فضة وذهب عمل أيدي الناس. لها أفواه ولا تتكلم. لها أعين ولا تبصر. لها آذان ولا تسمع. لها مناخر ولا تشم» (سفر المزامير ١١٥ : ٤-٦). هل جاء الزوار الآخرون ليروا ملكاً استحال حجراً، ملكاً اتحد بعرشه؟ هل وجدوا ما كانوا يبحثون عنه، صنم يركعون أمامه؟

سليمان الذي بدأ بداية واعدة كملك، سقط! هذا السقوط يتمثل في اقتناء الخيل والمركبات، في الذهب والفضة، في عبادة القوة، وعرش العاج. وقصة زيارة ملكة سبأ لسليمان تتعلق بالبحث عن سليمان الذي جاءت من أجله. وهي تبارك الرب الذي جعله ملكاً ليجري على يديه عدلاً وبرّاً (سفر الملوك الأول ١٠ : ٩)!

وكثيراً ما يعتبر سليمان مؤلف سفر الجامعة، الذي يفتتح بهذه الكلمات: «باطل الأباطيل قال الجامعة، باطل الأباطيل الكل باطل (الجامعة ١ : ١). كان المعنى الأصلي لكلمة «هِبِل» (باطل) يدل على «هبّة نفَس، أو ريح» (قارن معنى اسم هابيل). كانت تدل على انعدام القيمة، وانعدام المنفعة، والبطلان[1]. أن يكون استعراض سليمان لجياده وتأملها قد ألهاه عن ذكر ربه عند الغروب (سورة ص: ٣١، ٣٢) أمر يستتبع إدراك أن الشمس تشرق وتغرب، وتسرع دائماً إلى الموضع الذي تشرق. منه وتبدأ دورتها (سفر الجامعة ١ : ٥). وسفر الجامعة يعرب عن شعور ملك تمتع بكل ما تتيحه الدنيا من متاع ولكنه وصل

(1) *KBS* on Eccl. 1: 2

إلى الإحساس بخوائها،[1] إحساس ربما خالج مرة سليمان الحقيقي التاريخي الموصوف في سفر الملوك، ولكنه لم يتوقف عنده. «وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (سورة الأنعام: ٣٢؛ قارن سورة العنكبوت: ٦٤؛ سورة محمد: ٣٦؛ سورة الأنعام: ٧٠)؟ [p.155]

مجيء الملك المسيحاني

قصة سليمان وملكة سبأ تحمل الإنسان إلى التفكر في الحاضر والمستقبل. سوف يعمل العدل والبر في العالم في يوم من الأيام. وقد كتبت هذه القصة للتشجيع أيضاً: لا بد من حدوث ذلك لأنهما وجدا مرة فعلاً على الأرض. ظهور ملكة سبأ هذا في القدس حدث فعلاً، وحضرت تلك الفكرة هناك «مرة ولبرهة من الزمن» في القدس مع الملك سليمان وملكة الجنوب، وحدث أيضاً مع ظهور يسوع/عيسى في القدس. قالت «ملكة الجنوب» إن ما سمعته في بلادها عن حكمة سليمان قد تأكد. الأسطورة المتعلقة بسليمان صحيحة، مثلما أن ما أجراه الله من أفعال بأيدي يسوع/عيسى صحيحة. يقول يسوع/عيسى: «ملكة التيمَن ستقوم في الدين مع هذا الجيل وتدينه، لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان؛ وهوذا أعظم من سليمان ههنا» (إنجيل لوقا ١١: ٣١؛ إنجيل متى ١٢: ٤٢).

ينبغي لكل الذين عندهم علم من الكتاب (سورة النمل: ٤٠) أي قراء موسى، والتوراة، ينبغي لليهود، والمسيحيين، والمسلمين، وينبغي

(1) Watt, *Companion to the Qur'an*, p. 208; Speyer, *Biblische Erzahlungen*, pp. 398-99

لكل أحد (!) أن يقتنعوا اليوم أيضاً بشهادة ملكة الجنوب. وسوف يحدث هذا لأنه سبق أن حدث مرة. ملكة الجنوب - هذه الملكة العربية - سوف تحاكم هذا الجيل وتدينه. فمن البيّن أنها قد فهمت ما نسبه المزمور إلى الملك المثالي سليمان:

ملوك شبا وسبأ يقدمون هدية

ويسجد له كل الملوك

كل الأمم تتعبد له

لأنه ينجّي الفقير المستغيث والمسكين إذ لا معين له

يشفق على المسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء من الظلم والخطف يفدي أنفسهم ويكرم دمهم في عينيه.

يعيش ويعطيه من ذهب شبا، ويصلي لأجله دائماً

اليوم كله يباركه

(المزمور ٧٢: ١٠-١٥) [p.157]

الفصل السابع

عنف في المدينة

تسمّى البطلة في رواية تشارلز ديكنز عن الثورة الفرنسية، قصة مدينتين، باسم غني بالإيحاءات، هو لوسي (نور). وجواباً عن السؤال لِمَ كانت الروايات السياسية تشتمل على بطلات، قيل أحياناً إن هذه الشخصيات ضرورية لا للحل بل للترويح: فحضورها يمكّن الروائي من أن يستعيض بسرد يتعلق بالبطلة التقليدية عن سرد العنف السياسي. الأيديولوجية المنزلية تصبح استراتيجية الاحتواء الأساسية التي يحاول من خلالها ديكنز أن يتدبر أخلاقياً وأن يرفض في نهاية المطاف قوى الثورة.

Peter Merchant (بيتر مرتشانت)[1]

مدخل

منطلقي في هذا الكتاب هو قراءة الكتب الثلاثة، التوراة، الإنجيل، والقرآن، كقصة واحدة: مخاصمة مدينة الظلم (آشور، بابل، وسدوم)

---

(١) Peter Merchant, "Introduction," in Charles Dickens, A Tale of Two Cities) (تشارلز ديكنز، قصة مدينتين). London: Wordsworth Classics, 1999), p. XIII. ويستشهد مرتشانت بعدد من المصادر.

ومغادرتها إلى مدينة العدل والسلام (القدس، المدينة). فما هي إذاً القصة الواحدة التي تعني العنف، العقاب، والحرب (الحرب المقدسة والجهاد)؟ بعد عرض السبب الفعلي لمناقشة هذا الموضوع، نلقي نظرة على قصة قايين/قابيل، وهابيل. من هو العدو وكيف يتعامل المرء أو كيف يجب أن يتعامل المرء مع أعداء من أمثال الشيطان، إبليس، (الثعبان، التنين) مع شقيقه(هابيل، عيسو، إدوم)، وعماليق، الجبابرة أو العناق، الفلسطينيين القدماء (جليات) الملك الظالم (نمرود، فرعون، أجاج، نبوخذنصر، يأجوج ومأجوج)؟ كيف تنظر هذه الكتب إلى الثأر والانتقام؟

الحرب المقدسة أو الجهاد؟

كثيراً ما يؤكد البعض أن أسباب الحروب التي تستعر اليوم يمكن أن ترد إلى الديانات: المسيحية ضد الإسلام، الإسلام ضد اليهودية والمسيحية. ولذلك يرى البعض أنه من الأفضل أن تحظر هذه الكتب المقدسة،إذطالما استعملت هذه الكتب لتسويغ العنف وشرعنته. وهذا ما حدث إبان الحرب الأهلية الأمريكية التي استمرت من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥ بين الولايات الشمالية، المسماة الإتحاد، من جهة [p.158] والولايات الجنوبية التي انفصلت، أي الكونفدرالية، من الجهة الثانية. وقدر عدد الإصابات بحوالي ٦١٨٠٠٠ إصابة.

في شتاء العام ١٨٦١ زارت الكاتبة الأمريكية جوليا واردهوف معسكراً لجيش الاتحاد خارج واشنطن وكتبت ما بات يعرف بنشيد معركة *الجمهورية*. وقد انطوى هذا النشيد على المصطلح التوراتي لجيلها. فقد رأت دينونة الله في المعارك الدائرة في الحرب الأهلية الأمريكية.

عيناي رأتا مجد مجيء الرب
يدوس الغلال التي كدست فيها عناقيد الغضب
ويطلق العنان لبريق سيفه السريع المرعب
حقيقته تسير قدماً
رأيت الرب في نيران حرس مئة معسكر
وقد شيّدوا له مذبحاً في ندى المساء
وأستطيع أن أقرأ حكمه البار في ضوء المصباح المتّقد
وها إن يومه يسير قدماً.
في جمال الزنابق ولد المسيح وراء البحار
بمجد في قلبه يسمو بك وبي:
وكما مات ليتقدس به الناس دعنا نموت كي نجعلهم أحراراً.
بينما يسير الله قدماً[1]

ينظر الغربيون إلى القرآن باعتباره يُشَرعِن العنف ضد الغرب. من ذلك، أنه في العام ٢٠٠٨، أنتج عضو البرلمان الهولندي غيرت ويلدرز فيلمًا عن الإسلام عنوانه «فتنة»، محاولاً أن يبيّن - في رأيه - العنف الكامن في هذه الديانة. ويعرض الفيلم الذي يدوم سبع عشرة دقيقة مقتطفات من سور قرآنية مصحوبة بكليبّات إعلامية وقصاصات صحفية

(١) Peter Partner, *God of Battles: Holy Wars of Christianity and Islam* (London: Harper Collins, 1997), p. XV (إله المعارك: الحروب المقدسة في المسيحية والإسلام)

تصف أو تصوّر العنف و/أو الكراهية اللذين يبديهما المسلمون. وهكذا يحاول ويلدرز أن يبرهن أن القرآن يحرك دواعي أتباعه كي يكرهوا كل من ينتهك التعاليم الإسلامية.

والواقع أن القرآن يستعمل اليوم من قبل المتطرفين المسلمين دفاعاً عن استخدام العنف. ومن الأمثلة على ذلك استعمال الآية القرآنية التالية المقتبسة أيضاً في فيلم فتنة: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم». (سورة الأنفال: ٦٠). والمقصود من «ترهبون» هو إرهاب العدو! واستناداً إلى نص كهذا، يعتبر الإرهاب أمراً محموداً وأمراً يستطيع الجهاديون أن يفتخروا به، ويرجعون إليه لإضفاء الشرعية على استعمالهم العنف. والجهاديون هم جماعات مسلمة فسرت الإسلام على نحو متطرف وأضافت ركنا سادساً، هو الجهاد، إلى أركان الإسلام الخمسة (الشهادتان، الصلاة، الزكاة، الصوم، والحج إلى مكة). والجهاد في رأيهم هو «الحرب المقدسة» الحقيقية - وهو رأي ينكره الإسلام الكلاسيكي. فالإرهاب يعتبر فرضاً دينياً ويكتسب الشرعية، مثلما تشرعَن التفجيرات الانتحارية مع إمساك القرآن باليمين.

هل يجوز لنا أن نقرأ ونستعمل الكتب الثلاثة على هذا النحو؟ هل تدعو هذه الكتب الثلاثة الناس إلى الانخراط في الحرب، في حروب الله، في حرب مقدسة؟ لم تنشأ الحروب، عبر التاريخ، حول القصص التوراتية والقرآنية فحسب، بل إن هذه القصص قد استعملت للدفاع عن نظرية الحرب العادلة، الحروب الصليبية، أو الجهاد[1]. هل تسوّغ

(1) Anton Houtepen, *Geloven in gerechtigheid: Bijdragen tot een oecumenische sociale ethiek* (Zoetermeer: Meinema, 2005), pp. 131 ff

الكتب المقدسة ذلك حقاً؟ يبدو أنها تفعل ذلك أحياناً. من ذلك أنه في زمن الحملات الصليبية لم يستشهد بأي نص من الكتاب المقدس في معرض الحث على شن هذه الحملات أكثر مما استشهد بالكلمات التي يستهل بها أحد المزامير» أللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك. نجّسوا هيكل قدسك» (سفر المزامير ٧٩ : ١). وقد فسّر هذا النص يومها بأنه يشير إلى المسلمين في فلسطين.

ترجم القوطي أولفيلاس Ulfilas (حوالي ٣١٠-٣٨٣م)، وهو أسقف ومبشر، الكتاب المقدس من النسخة اليونانية السبعينية إلى اللغة القوطية. وقد حفظت أقسام من هذه الترجمة في الكوديكس أرجنتيوس[١] في أوبسالا (بالسويد)، وهي أقدم وثيقة باقية بأية لغة من اللغات الجرمانية. وقد ترجم أولفيلاس كافة كتب التوراة باستثناء سفري الملوك الأول والثاني، لأنهما «لم يكونا أكثر من قصص حملات عسكرية ولأن القبائل القوطية كانت تعشق الحرب وكانت [p.160] إلى لجم أهوائها أحوج منها إلى الحث على شن الحروب»[٢].

ولكن الأسئلة الصعبة الموجهة إلى التقاليد الثلاثة عن الحرب والعنف لا يمكن أن تحل بحظر الكتب أو بنبذ بعض الفقرات منها.

---

(١) The Codex Argenteus, "Silver Book", is a 6th-century manuscript, originally containing bishop Ulfilas's 4th century translation of the Bible into the Gothic language. الكوديكوس هو: الكتاب الفضي، ويخوي ترجمة الاسقف اولفيلاس للكتاب المقدس الى اللغة الغوطية في القرن الرابع عشر وجرى اكتشاف اقسام من مخطوطة هذا الكتاب عام ١٩٧٠. والكتاب معروض في مكتبة كارولينا ردفيفا في اوبسالا في السويد.

(2) Philostorgius (368-ca. 439)

ليست هذه هي الطريقة. بل علينا أن نحاول الاستماع إلى الكتاب المقدس والقرآن باعتبارهما «قصة مدينتين».

أعداء الله والناس؟

العدو الأول الذي واجهته البشرية هو إبليس، أو الشيطان. وينظر إليه رمزياً على هيئة أفعى (سفر التكوين ٣: ١٤-١٥) هي التجسيد للمحنة الشريرة (سفر التكوين ٣: ١، ٤-٥؛ رسالة إلى أهل كورنثس ١١: ٣؛ قارن سورة لقمان: ٣٣؛ سورة فاطر: ٥؛ سورة الحديد: ١٤). وهو يسمى التنين أيضاً. وقد أنذر آدم وحواء وحذرا من العدو (سورة طه: ١١٧)، الذي يجب أن يتخذ (سورة فاطر: ٦) عدواً مبيناً (سورة يوسف: ٥؛ الإسراء: ٥٣؛ سورة يس: ٦٠؛ سورة الزخرف: ٦٢). وعلى الناس ألا يتّبعوا «خطوات الشيطان» (سورة النور: ٢١). وهو يريد أن يضِلّ الناس بعد أن لعنه الله (سورة النساء: ١١٨-١١٩).

قايين/قابيل: أول من شيد مدينة

أول ولد بشري ولد هو قابيل/قايين، وهو أيضاً أول أخ يقتل أخاه. قابيل وهابيل في التراث الإسلامي هما نموذجا الصالح والشرير[1]. ويقال إن قايين/قابيل هو أول من بنى مدينة (سفر التكوين ٤: ١٧). «مدينة الإنسان» متصلة بالعنف منذ البداية. مؤسس روما الأسطوري، رومولوس قتل شقيقه التوأم ريموس، واستطاع بذلك أن يطلق اسمه على مدينة روما. ويوم فتحت مدينة أريحا رمى يشوع، خليفة موسى، لعنة على من يحاول أن يعيد بناءها: «ببكره يؤسسها وبصغيره ينصب

(1) *E.Q. s.v.* "Adam and Eve"

أبوابها» (سفر يشوع ٦:٢٦). ويحدث هذا فعلاً لاحقاً (سفر الملوك الأول ١٦:٣٤؛ قارن سفر الملوك الثاني ٣:٢٧). وكان من المعتاد، في ما زعم، أن يفعل المرء شيئاً رهيباً كالتضحية بولده عند القيام بأمر جلل كبناء مدينة، أو معبد، أو منزل(١).

قابيل/قايين يقتل هابيل لأن قربان أحد الأخوين قبل ولم يتقبّل من الأخ الآخر (سورة المائدة: ٢٧-٣٢). وتذهب رواية يهودية [p.161] إلى أنه ما إن قتل قابيل أخاه هابيل، سُقط في يده ولم يعد يعرف ما يفعل. فجعل الله طيرين يظهران له، ويقتل أحدهما الآخر ويحفر في الأرض بمخالبه ويدفنه. والغراب الذي بحث في الأرض بيّن لقابيل كيف يواري سوءة أخيه (سورة المائدة ٣١)(٢) ومن الظاهر مباشرة في قصة أول ولدين بشريين كيف يفسد البشر في الأرض ويسفكون الدماء - وهو ما حذر الملائكة الله منه، حتى من قبل أن يخلق البشر (سورة البقرة: ٣٠).

يدعو الله قايين/قابيل لمحاسبته على فعلته: «ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض» (سفر التكوين: ١٠) الرب يسمع صوت القتيل. وقابيل/قايين لا يريد أن يكون حارساً لأخيه (سفر التكوين: ٩). وتذهب رواية تفسيرية إسلامية، إلى أن آدم ائتمن قابيل على أخيه، ولكن قابيل خلف وعده وقتل أخاه الذي ائتمنه آدم عليه (قارن سورة الأحزاب: ٧٢)(٣). ومع أن المرء ربما توقع أن يعاقب قايين/قابيل

---

(1) Josh. 6: 26, KBS

(٢) E.I. s.v. Hâbîl wa Kâbîl; Heinrich Speyer, *Die Biblischen Erzählungen im Quran* (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1962), p.86 (قصص توراتية في القرآن)

(٣) E.I. s.v. Hâbîl wa Kâbîl حيث يذكر

بالموت على جريمته، فإن الجريمة تعاقب بالقتل وإن كان قايين/ قابيل كان خائفاً من ذلك: «أكون تائهاً وهارباً في الأرض، فيكون كل من وجدني يقتلني» (سفر التكوين ٤ :١٣-١٤). ومن المؤثر أن الله لم يتخلَّ عنه، ولم يطّرحه. حتى قايين/ قابيل قاتل أخيه لم يُقتل انتقاماً! فقد جعل الله لقابيل الخائف من أن يُقتل انتقاماً علامة لكي لا يقتله كل من وجده (سفر التكوين ٤ : ١٥). أي نوع من العلامات هي؟ «علامة قايين» عبارة دخلت اللغة الهولندية وهي تعني أنها *تجعل كل من يراها يدرك مدى نذالة الشخص وخسّته*[١]. غير أن علامة قايين إنما هي علامة حماية لأن الله يحميه[٢]. فالله مع ذلك، يجعل الشمس تشرق على الصالح والشرير، ويجعل المطر يهطل على العادل والظالم (إنجيل متى ٥ : ٤٥)، مثلما نسمع المسيح يقول لاحقاً في الموعظة على الجبل.

بسبب قتل قابيل لهابيل أمر الله، كما جاء في القرآن إشارة إلى التوراة، بني إسرائيل - وهذا يتوافق مع التفسير اليهودي أيضاً[٣] - بأنه إذا ما قتل رجل [p.162] رجلاً لأي سبب غير الثأر لقتيل أو لمنع الفساد في الإرض، فهو كمن قتل الناس جميعاً. ولكن إذا أنقذ امرؤ حياة واحدة، فهو كمن أنقذ الناس جميعاً. «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا... أو ينفوا من الأرض... إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور

(1) Van Dale Nederlandse Woordenboek ('s Gravenhage: Martinus Nijhoff, 1961) s.v. "Kaï nstecken", "Men kan hem wel aanzien wat een schurk, wat een boosdoener hij is"

(٢) العلامة على جبهة البار تنجيه من الموت (سفر حزقيال ٩ :٤)؛ لا يدع الرب المُهلك يدخل بيوتكم ليضرب متى رأى الدم على العتبة والقائمتين

(٣) ومع المشناه، Sanhedrin, IV, 5. Cf. *E.I. s.v.* Hâbîl wa Kâbîl

رحيم» (سورة المائدة ٣٣-٣٤). والناس مدعوون إلى تقوى الله وطاعته وألا يطيعوا أمر المسرفين «الذين يفسدون في الأرض ولا يصلِحون» (سورة الشعراء: ١٥٠-٥٢).

إن ما قالته الملائكة لله يوم أعلن أنه سيخلق الإنسان يصبح اليوم تحذيراً للجميع، ألا وهو ألا يختاروا ما يضعه الشيطان أمام البشر: «يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السِلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أن الله عزيز حكيم» (سورة البقرة: ٢٠٨-٢٠٩؛ قارن: سورة النور: ٢١؛ سورة يوسف: ٥؛ سورة الإسراء: ٥٣؛ سورة فاطر: ٦؛ سورة يس: ٦٠؛ سورة الزخرف: ٦٢).

شقيق المرء كعدو

أول قصة لبني الإنسان، قابيل/قايين وهابيل، هي قصة قاتل لأخيه، وتبرز التوترات بين الإخوة ثانية في قصص أولاد الآباء الأول. لنبدأ بالتوتر بين يعقوب حفيد إبراهيم وأخيه الأكبر عيسو. يعقوب يمثل «ثقافة الرعيان» وعيسو «ثقافة الصيادين». الثاني «إنسان يعرف الصيد إنسان البرية» وكان إسحق يحب عيسو «لأن في فمه صيداً» ولكن امرأته رفقة أحبّت يعقوب أكثر (سفر التكوين ٢٥: ٢٧-٢٨).

وقد تصادم بنو يعقوب وبنو عيسو في فلسطين في المنطقة الممتدة إلى الشرق من نهر الأردن، ثم فاز الصيادون باستقلالهم عن الرعاة (سفر التكوين ٢٧: ٤٠). ويبدو أن الأدوميين الذين اعتبروا عيسو جداً لهم قد استقروا في بقاع عبر الأردن حوالي أواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح وقبل أن ينشئ داود مملكة غير وراثية. ومن الجائز أن ثمة صلة بين حياة البلاط التي تطورت في زمن مبكر، والحكمة الخاصة التي

نسبت إلى الأدوميين والتي اشتهروا بها (قارن سفر إرميا ٤٩ : ٧؛ سفر أيوب ٢ : ١١؛ ١٥ : ٨؛ قارن سفر عوبديا ٨). [p.163]

أدى نمو مملكة توسعية جداً في إسرائيل إلى الصراع مع الأدوميين الذين كانت مناجم نحاسهم وموقعهم الاستراتيجي يغريان بالغزو. وقد كسفت دولة إسرائيل في ظل الملك داود دولة أدوم الأقدم عهداً (سفر إرميا ٤٩ :٨-١٠؛ سفر ملاخيا ١ :٢-٥)وانحطت أدوم إلى منزلة ولاية يحكمها وال إسرائيلي. وأصبح كل الأدوميين من رعايا داود (سفر صموئيل ٨ : ١٤).

وعندما تهاوت مملكة يهوذا سنة ٥٨٧ق.م. بعد سقوط القدس بيد الملك نبوخذ نصر، ثأر الأدوميون لأنفسهم ثأراً شديداً جراء إذلالهم السابق واستغلوا سقوط المدينة. ولذلك وجه الأنبياء عدة نبؤات إلى أرض أدوم بعد ذلك التاريخ (سفر إشعياء ٣٤ : ٥؛ سفر حزقيال ٢٥ : ١٢-١٤):

«من أجل ظلمك لأخيك يعقوب يغشاك الخزي وتنقرض إلى الأبد. يوم وقفت مقابله يوم سبت الأعاجم قدرته ودخلت الغرباء ابوابه وألقوا قرعة على أورشليم كنت أنت كواحد منهم. يجب أن لا تنظر إلى يوم أخيك يوم مصيبته ولا تشمت ببني يهوذا يوم هلاكهم ولا تفغر فمك يوم الضيق ولا تدخل باب شعبي يوم بليتهم. ولا تنظر أنت أيضاً إلى مصيبته يوم بليته ولا تمد يداً إلى قدرته يوم بليته. ولا تقف على المفرق لتقطع منفلتيه ولا تسلّم بقاياه يوم الضيق». (سفر عوبديا ١٠-١٤)

«أذكر يا رب لبني أدوم يوم أورشليم القائلين هدّوا هدّوا حتى إلى أساسها» (سفر المزامير ١٣٧ : ٧، قارن Lam 4: 21).

صراع مع الفلسطينيين القدماء

يوم وصل بنو إسرائيل إلى حدود الأرض الموعودة أصيبوا بالرعب، لأن سكان الأرض بدوا في أنظارهم وكأنهم عمالقة. والسكان الذين كانوا يتحدثون عنهم كانوا الفلسطينيين القدماء الذين كانوا قد قدموا من كفتور التي يرجّح أن تكون جزيرة كريت، واستقروا في جنوب غرب فلسطين. وقد اعتبر هؤلاء الفلسطينيين القدماء عناقيين، «جبابرة طويلي الأعناق» (سفر يشوع ١١ : ٢٢) [p.164]. وقد اندمجوا سريعاً مع الكنعانيين واعتمدوا لغتهم وديانتهم إلى حد بعيد. وهم لم يكوّنوا دولة بل شكلوا كونفدرالية من خمس مدن هيغزّة، جَت، أشدود، عسقلان، وعقرون. كان داجون، إله الخصوبة، يُعبد في أشدود، حيث كان له معبد هام، وكان بعل زبوب (ربّ الذباب) يعبد في عقرون، وعشترت، إلهة الخصوبة الموازية لعشتار البابلية، «ملكة السماء» (سفر إرميا ٧ : ١٨؛ ٤٤ : ١٧) كانت تُعبد في عسقلان. كانت شعائر عشترت جنسية المنحى مع مرتفعات لتقريب القرابين، بنى منها سليمان لأسباب سياسية شرقي القدس (سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٣). وكانت عشترت ربة المدينة التي أودع فيها الفلسطينيون القدماء درع الملك شاول/ طالوت المتوفى (سفر صموئيل الأول ٣١ : ١٠).

كان بنو إسرائيل يعتبرون الفلسطينيين القدماء «غرباء». فقد كان هؤلاء ينطلقون من قواعدهم في المناطق الساحلية في محاولة لاحتلال المنطقة الممتدة إلى الغرب من نهر الأردن. وكان الفلسطينيون القدماء، قد قدموا، أسوة ببني إسرائيل، من خارج بلاد كنعان ويقاتلون للاستيلاء على المنطقة نفسها: كان الصراع من أجل التحرر بالنسبة إلى بني إسرائيل صراعاً ضد الفلسطينيين القدماء. كان هؤلاء يشكلون تهديداً

دائماً لهم، بعد أن طردوا بني دان، إحدى قبائل بني إسرائيل الإثنتي عشرة من أرضهم. وفي أيام القضاة، وهي الفترة السابقة على إقامة الملكية في إسرائيل، كانوا يحكمون «إسرائيل». والمعركة بين داود وجالوت/ جليات كانت رمزاً للصراع بين الفلسطينيين القدماء وبني إسرائيل. وقد اعتبر جالوت/ جليات بطلاً من الجبابرة في المعركة. ويعتقد أنه قدم من جت وكان من العناقيين. وقد تمكن داود من كسر الفلسطينيين القدماء. ولعل الكلمة العربية جالوت قد تأثرت بالكلمة العبرية الدالة على المنفى، جالوت، وهي عبارة يرجح أنها كانت تترد كثيراً على شفاه اليهود في شبه الجزيرة العربية. وفي «قصص الأنبياء» الإسلامية اعتبر جليات من العماليق الذين كانوا عند العرب من جملة بني عاد الذين أرسل إليهم النبي هود وقبيلة ثمود الذين أرسل إليهم النبي صالح. وقد أصبح جالوت/ جليات اسماً جماعياً لمن يظلمون بني إسرائيل قبل داود[١].

عماليق: «اشد الأعداء عداوة»

كان العماليق الأعداء الذين كان على بني إسرائيل أن يواجهوهم، علاوة على «إخوانهم» الأدوميين، والفلسطينيين القدماء. كانوا قبيلة بدوية أقامت حوالي سنة ١٠٠٠ق.م. في منطقة قادش بصحراء النقب وفي شبه جزيرة سيناء والقسم الجنوبي من المنطقة الواقعة في الثقافة الفلسطينية (سفر التكوين ١٤ : ٧؛ سفر العدد ١٣ : ٢٩) ولهم صلة بالأدوميين (سفر التكوين ٣٦ : ١٢-١٥). وكان عمالق، الذي لا يؤتى على ذكره في القرآن، يتصل، وفقاً لعلم الأنساب الإسلامي بسام أو

(1) *E.Q. s.v.* "Goliath"; *E.I. s.v.* "Djâlût"

حام. فأولاد حام أقاموا في مصر، والحبشة، وشبه جزيرة العرب (سفر التكوين ١٠). أخذوا مكان الفلسطينيين القدماء، قوم جالوت/ جليات والمديانيين[١]. ويعتقد أن الفراعنة قد تحدروا منهم أيضاً. وفي أيام النبي العربي هود، كانوا يقيمون بالحجاز ولكن يعتقد أيضاً أن النبي نفسه قد بشرهم في مدينة بابل. أرسل هود إلى قوم عاد الذين ترتبط بهم مدينة إرام بالقرب من عدن[٢]. كانت امرأة اسمعيل الأولى، التي طلقها لاحقاً، من العماليق. ويقال إن الانحلال الأخلاقي للعماليق كان يعني أنهم يستحقون الإبادة. فقد حارب يشوع، خليفة موسى العماليق. ويقال إن استيطان قبائل يهودية في يثرب، التي صارت تعرف بالمدينة لاحقاً، كان من النتائج غير المتوقعة لحرب الإبادة التي شنّت بقيادة يشوع. ولم تنجز عملية الإبادة تماماً. ذلك أن داود أيضاً كان لا يزال يحارب العماليق[٣]. وقد استحال العماليق قوماً من ألد أعداء بني إسرائيل! أجاج هو اسم أو لقب لملك العماليق، ونقرأ في الترجمة السبعينية، أي الترجمة اليونانية للعهد القديم، كلمة جوج بدلاً من أجاج (سفر العدد ٢٤ : ٧)[٤]. ويواجه بنو إسرائيل العماليق عند عبورهم البحر الأحمر بعد خروجهم من مصر[٥] (سورة الأعراف : ١٣٨)

---

(١) وقد جعل بلعام النبي غير اليهودي بني إسرائيل يرتكبون الزنا (سفر العدد ٢٢-٢٤).

(٢) قارن الفصل الثامن.

(3) *E.I. s.v.* "Amâlik"

(٤) أنظر الفصل التاسع.

(٥) قارن الترنيمة التي ترنمت بها مريم أخت موسى بعد عبور يَم سوف (بحر القصب) (سفر الخروج ١٥)

شاول/طالوت وعماليق

لِمَ اتصف العماليق بسمعة سيئة إلى هذا الحد؟ السبب هو أنهم هاجموا ذيل بني إسرائيل في أثناء مسيرهم في الصحرا من مصر إلى كنعان على غرار الجبناء. وكانوا يستهدفون الضعفاء، من نساء، وأطفال (سفر التثنية ٢٥ : ١٨). ومنذ ذلك الزمن حارب الله العماليق في كل جيل (سفر الخروج ١٧ : ١٦) [p.166] وقد كلف بنو إسرائيل بأن يمحوا اسم العماليق من على وجه الأرض عند دخولهم الأرض التي وعدهم بها ميراثاً، وبألا يهملوا هذا التكليف (سفر التثنية ٢٥ : ١٩).

يجوز للمرء أن يقول إن النبي صموئيل كان مكلفاً بتذكير بني إسرائيل بواجب محو كل ذكر للعماليق. وقد أعطى صموئيل الملك شاول/ طالوت الأمر الإلهي بتنفيذ العقوبة في العماليق: «فالآن إذهب واضرب عماليق وحرّم كل ما له ولا تعفُ عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً» (سفر صموئيل الأول ١٥ : ٣). هل هذا معنى امحُ اسم عماليق؟

القصص عن شاول/ طالوت تذكرنا بمأساة إغريقية[1]. في البداية أصبح شاول ملكاً رغماً عنه. فهو لم يكن يكترث لذلك - والواقع أنه اختبأ بين المؤن يوم كان سيعلن ملكاً. ولكن لما أعلن ملكاً مع ذلك تصرف تصرفاً جيداً جداً كقائد للعسكر، وشن حملات موفقة ضد أعدائه (قارن سفر صموئيل الأول ١١).

وبالرغم من ذلك، لم يستوف شاول/ طالوت مستلزمات الملك. ماذا

(1) Gerhard von Rad, *Weisheit in Israel* (Neukirchen-Vluyn, Neukirchener Verlag, 1985)

كان خطأه؟ كانت نقطة القطيعة في نظر صموئيل رفض شاول/ طالوت إفناء العماليق كلياً. فقد هاجم شاول مدينة العماليق وفتحها ولكنه قبض على الملك أجاج حياً ولم يقتله. وبالرغم من أنه أفنى الشعب بالسيف إلا أنه أعفى عن الملك وعن أسمن الأغنام والأبقار والمواشي، أي عن كل شيء قيّم. ثم كلّم الله صموئيل وأخبره أنه نادم على جعل شاول ملكاً، لأن شاول رجع من وراء الرب ولم يقم كلامه. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كلّه. ولما جاء صموئيل إلى شاول/ طالوت قال له شاول إنه قد أقام كلام الرب. ولكن صموئيل سأله: وما هو صوت الغنم هذا في أذني وصوت البقر الذي أنا سامع؟ فقال شاول إنه عفا عن خيار الغنم والبقر لأجل الذبح للرب.

ومع ذلك أبعد شاول من المُلك لأنه لم يطع الرب، ولم يعد ملكاً. اعترف شاول/ طالوت بأنه أخطأ ولكنه [p.167] طلب من صموئيل أن يرجع معه ليسجد للرب، لكن صموئيل رفض في أول الأمر. ثم طلب صموئيل أن يقدّم إليه أجاج ملك العماليق. فتشجع أجاج واقترب منه قائلاً: «حقاً قد زالت مرارة الموت. فقال صموئيل «كما أثكل سيفك النساء كذلك تثكل أمك بين النساء. وقطع صموئيل أجاج أمام الرب. ثم ذهب ولم يعد لرؤية شاول إلى يوم موته (سفر صموئيل الأول ١٥).

من الجائز لقائل أن يقول أن التوراة تتكلم عن الاستمرار في تذكر ما فعله العماليق ببني إسرائيل. فمتى ارتاح بنو إسرائيل من جميع أعدائهم ينبغي أن يمحى ذكر عماليق من تحت السماء. هل ما يقصده الله من هذا التذكر وتحريم النسيان هو إفناء العماليق، مثلما يفهم من قصة ما فعله صموئيل؟ هل من المقبول أن يوضع السيف في الرجال والنساء والأطفال؟ إن استنتاجاً كهذا لا يفي بما تتسم به القصة من التعقيد. ونحن لا نستطيع أن ننشئ «لاهوتاً»، «نظرية»، أو «أيديولوجية» حول

هذا، ناهيك عن تطبيقه مباشرة على محاربة الأعداء المعاصرين في الوقت الحاضر. ثمة توترات في هذه القصة حري بنا ألا نتجاهلها: إن ما يوصف هنا هو مأساة حقيقية.

يستطيع المرء أن يرى في هذه القصة أن النبي (صموئيل) نفسه يجد صعوبة كبرى في كلمة الله التي يجب أن ينقلها إلى شاول/ طالوت. صعب الأمر كثيراً على صموئيل واضطرب كثيراً حدّالذهول. عندما سمع هذا النبي الله يقول له إن شاول/ طالوت قد رفض لأنه لم يطع أمره، «اغتاظ وصرخ إلى الرب الليل كله» (سفر صموئيل الأول ١٥ : ١١). ولكن بالرغم من كثرة تضرع صموئيل ومما فعله شاول، ظل حكم الله على حاله. «لأنك رفضت كلام الرب رفضك من الملك» (سفر صموئيل الأول ١٥ : ٢٣). ويلاحظ هنا أن صموئيل نفسه هو الذي عيّن شاول/ طالوت أول ملك، على عكس التوقعات كلها، وبالرغم من رغبات شاول نفسه. لذلك شعر صموئيل أن إنهاء ملك شاول بمثابة خسارة شخصية أيضاً. ونسمع في نهاية القصة أن صموئيل تألم طيلة عهد شاول حتى مماته وظل ينوح على شاول (سفر صموئيل الأول ١٥ : ٣٥)! ولكن القصة لا تبدي أي اهتمام لمعرفة لِمَ لم يُصفح عن شاول المستغفر [p.168] بينما صُفِحَ عن داود المستغفر عما اقترفه من سوء (سفر صموئيل الأول ٣٠ : ١٩؛ سفر صموئيل الثاني ١٢ : ١٣)[١].

ثمة توترات أخرى أو، ربما جاز للمرء أن يقول تناقضات ظاهرة في القصة. فنحن نسمع، من جهة، أن إله إسرائيل «لا يكذب ولا يندم لأنه

---

(١) Walter Brueggemann, *Theology of the Old Testament: Testimony, Dispute, Avocacy* (Minneapolis: Fortress Press, 1997), p.370 (لاهوت العهد القديم: الشهادة، النزاع، المناصرة)

ليس إنسانا ليندم» (سفر صموئيل الأول ١٥ : ٢٩). ولكن صموئيل، من جهة أخرى، سمع قبل ذلك أن الله ندم على جعل شاول/ طالوت ملكاً. لذلك جاز للمرء أن يسأل: هل يندم الله أم لا يندم؟ يرفض صموئيل الاستجابة لطلب شاول بأن «يرجع معه» ليسجد لله مستغفراً ليحفظ ماء وجهه أمام شيوخ شعبه (سفر صموئيل ١٥ : ٢٤-٢٥، ٣٠). رفض صموئيل في بادئ الأمر، غير أنه لان ورجع وراء شاول/ طالوت ولم يطّرحه كلياً. أليس هذا أكثر إنسانية مما قد يبدو للوهلة الأولى؟ هل ينبغي لتهمة عدم نسيان ما فعله العماليق ووجوب تذكره (سفر الخروج ١٧ : ١٤؛ سفر التثنية ٢٥ : ١٧) أن تفهم باعتبارها استئصالاً إذاً؟ هل «محو» ذكرى العماليق وما فعلوه ببني إسرائيل يستلزم إبادة العماليق؟ يروي الفيلسوف اليهودي الشهير مارتن بوبر في سيرته الذاتية أن يهودياً عجوزاً سأله مرة يوم كان شاباً، «ماذا ترى في فصل سفر صموئيل؟ فأجاب بوبر بلا تردد «أعتقد أن النبي صموئيل أساء فهم الله». ظل اليهودي العجوز صامتاً فترة طويلة ثم قال «هذا ما أظنه أيضاً». وتابع بوبر ملاحظاً بذلت في حياتي جهداً كبيراً في ترجمة التوراة. وكان ذلك يجري دائماً في الخوف والارتعاد. ما هي كلمة الله؟ وما هي كلمة البشر؟»[1]

يمكن للتهمة أن تُفهم وتُفسر على أنه يتوجب على بني إسرائيل أن يمحو اسم العماليق من تحت وجه السماء، ومن بين الشعوب، بمعنى أن عليهم أن يصححوا فكرة «أن القوة تصنع الحق»، و«أن البقاء هو للأصلح». فالله يريد أن يبقى الضعيف! عبثاً يُبحث عن العماليق بين

(1) Martin Buber, *Voordrachten over opvoeding en autobiografische fragmenten* (Utrecht: Bijleveld, 1970), pp. 134-138

أنساب الأمم التي تجمع فيها الأمم المعروفة في ذلك الزمن وفقاً لمكانهم في التاريخ ومكان إقامتهم (سفر التكوين ١٠). فاسم «القوة تصنع الحق» [p.169] قد محي من هناك[1]. وفي النص الأصلي للتوراة نجد أن الله هو الذي يقاتل مجدداً في كل جيل (سفر الخروج ١٧: ١٦). ألا يعني هذا أن الانتقام هو انتقامه (سفر التثنية ٣٢: ٣٥-٣٦؛ قارن سفر إشعيا ٣٥: ٤؛ رسالة إلى أهل روميه ١٢: ١٩؛ رسالة إلى العبرانيين ١٠: ٣٠)؟

هامان وعماليق

يمتد العداء للعماليق من أيام التيه في الصحراء على امتداد تاريخ بني إسرائيل. فبعد شاول/ طالوت، تولى داود قتال العماليق (سفر صموئيل الثاني ٨: ١٢)، وحزقيا (ملك يهوذا من حوالي ٧٢٥ إلى ٦٩٧ق.م.) الذي قتل من نجا من العماليق (سفر الأخبار الأول ٤: ٤٣). وبعد عدة قرون، أي في أيام السبي والإمبراطورية الفارسية، نقع على ذكر هامان، وزير الملك الأخيميني أحشويرش (٤٨٦-٤٦٥ق.م.). ويذكر هنا أن هامان يوصف بأنه من نسل أجاج (سفر أستير ٣: ١): ويومئ نسبه فوراً إلى ذكرى الصراع بين بني إسرائيل بقيادة شاول/ طالوت والملك أجاج (سفر صموئيل الأول ١٥) خلال أيام الملكة أستير قرر هامان أن يقضي على اليهود في بلاد فارس. كانت أستير امرأة يهودية شابة، وابنة مردخاي بالتبني، وهو ابن عمها وولي أمرها، من جملة من سبي مع

---

(١) استناداً إلى T. J. M. Naastepad, *Van horen zeggen: Uitleg van het boek Deutornomium* (Baarn: Ten Have, 2001), p.289. Cf. Brueggemann, *Theology of the Old Testament*, pp. 369-72.

الملك يهوياقيم إلى بلاد بابل (سفر أستير ٢: ٥-٧) وقد تزوجها أحشويرش ملك فارس. (وجودها التاريخي مسألة خلافية لأن لا وجود لملكة فارسية معروفة بهذا الاسم. ويرتبط اسمها بالإلهة الأكدية عشتار، ولكن من الجائز أن يكون مستمداً من كلمة ستارا الفارسية القديمة، ومعناها نجمة). وقد أراد هامان، من قبيل مشاعر الانتقام الشخصية من مردخاي اليهودي، أن يقتل كافة اليهود المقيمين في الإمبراطورية الفارسية. وتتوصل أستير، بتحريض من مردخاي، إلى إحباط خطته والإيقاع به ووضعه على الخشبة التي كان قد أعدها لمردخاي اليهودي (سفر أستير ٧: ١٠). يوصف هامان في القرآن بأنه عبد أو وزير لفرعون (سورة القصص ٦، ٨؛ سورة العنكبوت: ٣٩؛ سورة غافر: ٢٤). وعلى الرغم مما يظن ويزعم، فإن القرآن لا يخلط بين القصص هنا[1]. فالقرآن لا يرسم أي خط تاريخي، بل يربط كما تربط التوراة، موتيفات من مختلف العهود تتصل بالقوى المعادية لله. وثمة في التفسير الإسلامي صلة بين عماليق وجليات/ جالوت، [p.170] وأهل مديان، بينما يُعتقد بأن الفراعنة يتحدرون من مجموعة العماليق.

هل البوريم عيد؟

يرتبط أحد أعياد اليهود بنجاة اليهود في ظل الملك الفارسي أحشويرش، والغاية من سفر أستير هو تبيين أصل هذا العيد. البوريم تعني «القرعة» (سفر أستير ٣: ٧، ٩: ٢٤، ٢٦): ويطلق على العيد اسم بوريم أو «عيد مردخاي» (2Macc 15: 36) لأن هامان قد ألقى «القرعة» لمطاردة اليهود واستئصالهم (أستير ٩: ٢٤). ويحافظ عيد البوريم (سفر

(1) *E.I. s.v.* "Haman"

أستير ٩:١٨) على ذكرى إنقاذ اليهود الذين هددوا بالموت في أيام الملك أحشويرش. وقد صدر الأمر بإبادة اليهود في ١٣ نيسان، الشهر الأول من السنة اليهودية (سفر أستير ٣:١٢)، اليوم الذي يسبق الفصح، عند الشفق في ليلة البدر (سفر الخروج ١٢:٦). وهذا ينشئ صلة بالهجرة من مصر. والسبت الذي يسبقه يسمى سبت التذكار، شبت *تسادور*، المستمد مباشرة من الأمر بعدم نسيان جريمة العماليق. والفقرة الكتابية التي تقرأ من الأنبياء، *هفتارا*، بعد قراءة التوراه في ذلك السبت هي الفصل المتعلق بقتال شاول/ طالوت للعماليق الموصوف آنفاً.

ومثلما أثار مارتن بوبر أسئلة نقدية حول تفسير الحرب بين شاول/ طالوت والعماليق (سفر صموئيل الأول ١٥)، علّق شالوم بن خورين (١٩١٣-١٩٩٩)، وهو من علماء الدراسات الدينية وصحافي، على كتاب أستير والحوادث في عيد البوريم، قائلاً: «ينبغي لذكرى هذه الأيام أن تحفظ في كل أسرة وكل جيل، في كل ولاية وكل مدينة. وينبغي ألا يفوّت اليهود إحياء أيام البوريم هذه - وألا تمّحي ذكرى هذه الأيام عند ذريتهم» (سفر أستير ٩:٢٨). ويصف بن خورين الفصل الذي ينص على أن الملك أحشويرش لا يستطيع أن يبطل أمره بتنظيم مذبحة بأنه أكثر فصول السفر إثارة للاشمئزاز (سفر أستير ٨:٨). الأمر الذي تولاّه هامان غير قابل للتغيير لأنه كتب «في سنن فارس ومادي» (أستير ١:١٩). ثم يترك الملك لأستير ومردخاي أمر وضع حد للكارثة التي تسبب هو بها. وأثبت مردخاي أنه «خير خلف لهامان» (كذا)! إنه الوجه الآخر لهامان. قرر أحشويرش تكريم مردخاي [p.171] بتعظيم وتفخيم (سفر أستير ٧-١١)، وماذا فعل مردخاي؟ قبل التكريم والتعظيم من يد عدوّه اللدود. فهو ليس مغروراً فحسب، بل هو غبي، لأنه لا يعارض التكريم. فهو لا يشخص أمام الملك ليقول: «أشكر جلالتكم على

اللباس الملكي والفرس، ولكنني أتمنى حماية وجود أبناء قومي العاري وحياتهم».

فهو يجلس مراوغاً على الفرس الملكي ويستمتع بانتصاره الشخصي. ماذا فعل مردخاي؟ هل تكرّم بالصفح عن أعدائه ومنحهم العفو عن أفعال العنف المرتكبة؟ لم يفعل شيئاً من ذلك بل ينخرط في ثورة بإذن الحكومة. هذا أفظع أشكال الإرهاب الذي يمكن تصوره: الإرهاب من دون مخاطرة. أما بالنسبة إلى أستير فإن مذبحة منظمة واحدة ليست إرهاباً كافياً. فهي تريد مذبحة ثانية وتمنح الإذن بذلك. لا يكفيها أن يقتل أبناء هامان العشرة بل هي تطلب أن «يصلبوا بني هامان العشرة على الخشبة»! انتقم اليهود المقيمون في العاصمة والمملكة انتقاماً دموياً جداً من أعدائهم، ويعلّق كاتب هذه الأخبار بفجاجة صارخة: «وفي كل بلاد ومدينة كل مكان وصل إليه كلام الملك وأمره كان فرح وبهجة عند اليهود وولائم ويوم طيب. وكثيرون من شعوب الأرض تهوّدوا لأن رعب اليهود وقع عليهم» (سفر أستير ٨: ١٧)[١]

ويختم شالوم بن خورين قائلاً: «نحن لا نحيي ذكرى بطلة سفر أستير بل الله الذي ندين للطفه بإرشادنا، كما في كل مرة، وإنقاذنا من الخطر الداهم». إن ما أوحي أبدي ولا يحق لنا أن نزيد عليه أو ننقص منه. وينبغي الالتزام بالأوامر *الإلهية*. «لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب الهكم التي أنا أوصيكم بها» (سفر التثنية ٤: ٢). أما البوريم فيتعلق بما أنشأه *الناس*

---

(١) مع تلميح إلى الهجرة من مصر والتحرر: «ترشد برأفتك الشعب الذي فديته. تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك. يسمع الشعوب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين» (سفر الخروج ١٥: ١٣-١٤)

(سفر أستير ٩: ٢٠-٣٢)، والمسألة، في نظر بن خورين، هي: هل يمكن النظر إلى هذا باعتباره «مثالاً صالحاً»، مثالاً يحتذى به في العمل؟ ولا يعتقد بن خورين ذلك، طبعاً[١].

قراءات جديدة متطرفة للتوراة والقرآن في ما يتعلق بالعماليق [p.172]

القراءات الحديثة والتطبيقات العنيفة لنصوص التوراة والإنجيل يمكن أن توجد في صفوف اليهود، والمسيحيين والمسلمين. بدأ بعض غلاة الإسرائيليين المتعصبين يقولون في الستينات إن القضاء على «العماليق» فريضة دينية. ويوم انتهت حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١ حوالي عيد البوريم، قورن الرئيس العراقي صدام حسين بهامان.

وذهب رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى القول خلال إحياء ذكرى المحرقة في أوشفيتز، في كانون الثاني ٢٠١٠، «إن عماليق الجديد قادم». وهو وإن لم يحدد إلى من كان يشير بقوله، فقد كان من الواضح في نظر وسائل الإعلام الإسرائيلية أنه يتكلم عن إيران. ولم يكن من قبيل الصدفة أنه اختار المكان والإحالة التوراتية إلى العماليق، العدو الأعظم للشعب اليهودي. والأغلب أن يدعو نتنياهو الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد هتلر الجديد الذي يريد أن يستعمل برنامجه النووي للتسبب بمحرقة جديدة. وقال في أوشفيتز «لن نسمح بذلك»[٢].

والإدعاء، كما يفعل بعض الصهيونيين، والمحافظون الجدد من

(1) "Schalom ben Chorin, *Kritik des Esther-Buches: Eine theologische Streitschrift* (Jerusalem: "Heatid" Salingré& Co., 1938), pp.9-11

(٢) *NRC* (صحيفة يومية هولندية، ١١ أيار ٢٠١٠) Guus Valk, "Steeds meer twijfel Israël over nut aanval tegenIran" (يتزايد الشك في إسرائيل أكثر فأكثر في شأن صوابية ضربة ضد إيران)

المسيحيين، والإسلاميين المعاصرين أن ارتكاب الأعمال الإرهابية يمكن تسويغه استناداً إلى نصوص كهذه، أمر غير صحيح. ولا تثبت قراءة كهذه إذا ما استمع الإنسان عن كثب لنصوص الكتب الثلاثة المستشهد بها. ويستبين مدى ما تنطوي عليه هذه القراءة من تشويه وتلاعب بتفسير النصوص متى التفت إلى ما يغفله الإرهابيون (وفيلم «الفتنة» أيضاً). فالنص المستند إليه في تسويغ الإرهاب هو: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» (سورة الأنفال: ٦٠). ولكن ما لا يستشهدون به هو الآية التي تليها وهي: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله» (سورة الأنفال: ٦١).

الانتقام والحزازات

يقال إن المردة كانوا يعيشون على الأرض قبل الطوفان. وهؤلاء المردة هم طغاة العصر الأول السيئي الذكر، ثمار [p.173] التزاوج بين المخلوقات الأرضية والكائنات السماوية. اختلاط الدائرتين الإلهية والبشرية يظهر فساد البشر وتسوّغ به قصة الطوفان[1]. فقد فسدت الأرض، في نظر الله، وامتلأت بأعمال العنف؛ بات كل الناس على الأرض يتبعون طريق الضلال. هذا هو سبب الطوفان (سفر التكوين ٦: ٤، ١١-١٣؛ قارن سورة المؤمنون: ٢٣-٣٠).

من المفيد أن نتفكر في الطريقة التي يتكلم فيها القرآن والتوراة على الجزاء والانتقام. الظاهر أنه من الجائز للناس أن يقتلوا انتقاماً. كان الانتقام جائزاً في ما مضى رداً على الأذى بمثله. نقرأ في سفر التكوين: «سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل

---

(1) KBS on Gen. 6: 1-4

الإنسان» (سفر التكوين ٩ : ٦). ويرقى هذا المفهوم إلى زمن كان الفرد فيه لا يزال يعيش ضمن أسرة وعشيرة. وكان يفترض أن الانتقام لم يزل عرفاً قائماً (سفر العدد ٣٥ : ١٩ وما يليها) : حسن انتظام المجتمع الذي لم تكن قد تطورت فيه سلطة مركزية، كان يستلزم معاقبة القتل بيد أقرب الأقربين (سفر القضاة ٨ : ١٨-٢١؛ سفر صموئيل ٣ : ٢٧؛ ٢١). ويجوز لولي الدم كالابن، أو الأخ، أو ابن العشيرة أخذ الثأر. ويوم لم تكن قد وجدت بعد حكومة تكفل حياة المرء وشرفه، كان للانتقام وظيفة اجتماعية هامة. كانت الغاية من «الانتقام» الحؤول دون العنف المفرط والتعدي، وكانت ثمة محاولات مبكرة جداً لوضع حدود «للانتقام». فقد كان في وسع من لم يقتل عمداً أن يهرب إلى مدينة حرة ويجد ملاذاً فيها (سفر التثنية ١٩ : ٤؛ سفر العدد ٣٥ : ١١-٢٩). كانت تلك المدن الحرة تحمي المذنبين من التعسف. وكان من الممكن أحياناً أن يستعاض عن الانتقام بدفع دية القتيل (سفر الخروج ٢١ : ٣٠).

تتصل تعاليم التوراة بفكرة أن كل تعدٍّ يستلزم عقوبة ومصالحة. لذلك حدد الرضا الموازي للضرر الناشئ عن التعدي. فالرجل الحر يحق له بصورة الرد الانتقامي، وهو قانون المعاملة بالمثل: الدم المسفوك يعاقب بقتل القاتل كمصالحة (قارن سفر الخروج ٢١ : ٢٢-٢٥؛ سفر اللاويين ٢٤ : ١٩). فالتوراة تحترم مبدأ المساواة: «نفس بنفس، وعين بعين، وسنّ بسن، ويد بيد، ورِجل برِجل، وكيّ بكيّ، وجرح بجرح ورضّ برضّ» (سفر الخروج ٢١ : ٢٤-٢٥؛ [p.174] سورة المائدة: ٤٥)[١]. ويصح الشيء نفسه على القرآن (سورة البقرة: ١٧٨): أي التناسب بين الجريمة والعقوبة[٢].

---

(1) *E.Q. s.v.*, "Vengeance"

(2) *E.I. s.v.* "Retaliation, Blood Money"

إن قاعدة كهذه، أي «عين بعين، سن بسن» تبدو فظة جداً «للناس العصريين». ولكن ينبغي أن يتنبه المرء تماماً ويتفهم ما كانت النية من ورائها. كان القصد من قانون كهذا هو وضع حد للانتقام غير المقيّد وغير المحدود. فإذا خلع امرؤ سن امرئ آخر لا يجوز للثاني أن يخلع كل أسنان الأول. ويعتبر لامك، أحد أحفاد قايين/ قابيل مثالاً على الحالة الثانية (سفر التكوين: ١٨). وربما كان اسمه يعني «شاب جبّار». وكان أحد أبنائه يدعى توبال قايين الذي كان أباً لكل الحدادين، ممن يضربون النحاس والحديد (سفر التكوين ٤ : ٢٠-٢٢). وهذا لا يعني صنع الأدوات فحسب، بل والأسلحة أيضاً! وينسب اختراع الموسيقى إلى يوبال بن لامك. ويروي المفسّر ابن كثير في قصص الأنبياء[١] أسطورة عبرية مفادها أن لامك المكفوف كلياً قتل أباه ثم ابنه المحبوب الذي رافقه في الصيد. وعقب هاتين الحادثتين أنشد أولى المراثي التوراتية. الموسيقى متصلة بالإفراط ووساوس الشيطان[٢]. أنشد لامك أنشودة عن الافراط في الانتقام: «إني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي. إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين». (سفر التكوين ٤ :٢٣-٢٤). ويشير هذا إلى كيفية تزايد العنف على الأرض: من قتل رجل لأخيه وصولاً إلى انتقام سبعة أضعاف، لا بل سبعين ضعفاً. إن قاعدة «عين بعين» إنما وضعت للحد من العنف المفرط كهذا الذي نلمسه في حالة لامك. يحد قانون الانتقام المتساوي الانتقام بتسوية كفتي الميزان: ينبغي لكل من يؤذي فرداً من قوم المرء أن يتحمل أذى كالذي أنزله بسواه: جرح بجرح، عين بعين، سن بسن.

---

(١) قصص الأنبياء، *E.I. s.v.* Al-Tha'alibi (d.1035).

(2) *E.I. s.v.* Lamak

يجب عليه أن يتحمل أذى كالذي أنزله بغيره (سفر اللاويين ٢٤: ١٩-٢٠). وينبغي ألا تأخذ الحاكم هنا رأفة (سفر التثنية ١٩: ٢١). وهكذا بات الانتقام محدوداً[١]. ويبين الشعر العربي أن موقف الرأفة، والاعتدال والتسوية كان محل احتقار في الجاهلية. أما العنف، في ذلك العصر، وإن بلغ درجة القتل [p.175] والرغبة في القتال والانتقام، فكان محل تمجيد واعتبار. فإذا ما تعرض امرؤ للأذى على يد امرئ آخر، كان عليه أن يرد الصاع صاعين. وقد نبذ القرآن عادة حل النزاعات القبلية بالانتقام المفرط التي كانت قائمة قبل الإسلام[٢]. ويحذر القرآن أيضاً من عدم الاعتدال في أخذ الثأر (سورة الإسراء: ٣٣)

ولكن التوراة اتخذت بوضوح الخطوة الأولى في كبح ثارات الدم: لا يجوز قتل الأبوين بسبب أفعال أولادهما، ولا يعدّ الأولاد مسؤولين عن أفعال أبويهم. ولا يمكن إعدام شخص إلا جرّاء ما فعل هو بنفسه (سفر التثنية ٢٤: ١٦؛ قارن سفر الملوك ١٤: ٥-٦). وقد شدّد النبي حزقيال لاحقاً على مسؤولية الفرد الشخصية هذه: «النفس التي تخطئ هي تموت. الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن. بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون» (سفر حزقيال ١٨: ٢٠). فالله يحكم في عدله على كل تعد، تعدي الناس وتعدي الفرد ويعاقب في الحالين.

ولئن كانت الوصايا العشر تقول إن الرب يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء (سفر الخروج ٢٠: ٥-٦) فينبغي أن نلاحظ أن *افتقاد* الذنوب ليس يعني الانتقام! الأب يجسد الأسرة ويمثلها، وذنبه يمتد إلى ذريته الذين

---

(1) KBS on Exod. 21: 24-25

(2) *E.Q. s.v.* Vengeance, Retaliation

يشاطرونه العقوبة (سفر الخروج ٢٠ : ٥ ؛ سفر التثنية ٥ : ٩)[1]. ويتابع النص فوراً: الرب يصنع إحساناً إلى ألوف من محبيه وحافظي وصاياه (سفر الخروج ٢٠ : ٦). الرب إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء حافظ الإحسان إلى ألوف (سفر الخروج ٣٤ : ٦-٧). هنا يرى المرء فوراً أن رحمة الله تتفوق تفوقاً لانهائياً على *افتقاده*. وينص هنا على أن رحمة الله تربو على عدله. لأن دينونة الله لا رأفة فيها بالذين لا يبدون أية رأفة، والرأفة تغلب على الدينونة (رسالة يعقوب ٢ : ١٣). ومن يقترف حسنة يزيد الله له فيها. والله غفور شكور (سورة الشورى : ٢٣).

يحاسب الناس على ما ارتكبوه من إثم (سفر عاموس ٣ : ٢)، ولكن الدينونة تقترن بالدعوة إلى الاستغفار والتوبة: «وأنت فارجع إلى إلهك [p.176]. إحفظ الرحمة والحق وانتظر إلهك دائماً» (سفر هوشع ١٢ : ٦). إذا تاب الناس، فإن الله يرقّ ويعدل عن الويلات التي توعدهم بها (سفر إرميا ١٨ : ٨). «فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا» (سفر حزقيال ١٨ : ٢١). والله «غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» (سورة طه : ٨٢). «رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار» (سورة ص : ٦٦). «ألا هو العزيز الغفار» (سورة الزمر : ٥).

لا تكافئوا الشر بالشر

الواقع، وهذا أمر هام جداً تجب الإشارة إليه، وهو أن المعاملة

(1). N.A. Schuman, Gelijk om Gelijk: Verslag en balans van een disusie oer goddelijke vergeldin in het Oude Testament (Amesterdam: VU Boekhandel/ Uiteverij 1993).

بالمثل، والدينونة، والانتقام، والعقاب إنما هي لله وحده. وهذا ليس مفهوماً يرد في العهد الجديد وحده ولا يرد قبله. فعندما يقول بولس إن الله يقول «لي النقمة والجزاء» فهو إنما يستشهد بالتوراه (رسالة رومية ١٢ : ١٩؛ تثنية ٣٢ : ٣٥). والانتقام من صفات الله استناداً إلى القرآن (سورة آل عمران: ٤؛ سورة المائدة: ٩٥؛ سورة إبراهيم: ٤٧؛ سورة العنكبوت: ٣٧). و«المنتقم» من أسماء الله الحسنى[1].

«لا تبغض أخاك في قلبك. إنذاراً تنذر صاحبك ولا تحمل لأجله خطية. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك. أنا الرب» (سفر اللاويين ١٩ : ١٧-١٨). استناداً إلى أفكار كهذه، وتكملة لهذا الخط، نبذ المسيح في الموعظة على الجبل ثارات الدم وما يرتبط بها من رد للأذى بمثله: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً» (إنجيل متى ٥ :٣٨-٣٩). ويؤكد الفكرة نفسها والموقف نفسه أحد تلامذة المسيح، ألا وهو بطرس: « [كونوا] غير مجازين عن شرّ بشرّ أو عن شتيمة بشتيمة» (رسالة بطرس الأولى ٣ : ٩). ويؤكد هذا بولس أيضاً: «أنظروا أن لا يجازي أحد أحداً عن شر بشر بل كل حين اتبّعوا الخير بعضكم لبعض وللجميع» (رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي ٥ : ١٥)، و«لا [p.177] تجازوا أحداً عن شر بشر معتنين بأمور حسنة قدّام جميع الناس» (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٢ : ١٧؛ راجع سفر التثنية ٣٢ : ٣٥). وهذا الكلام لا يستتبع أن الله يتجاهل الشر أو يستكين حياله، ولا أنه يطلب من البشر أن يفعلوا ذلك. الله يجازي ولكنه يفعل ذلك، في ما يظهر، من دون أية محاولة من

(1) Al-muntaqim, E.Q. s.v. Reward and Punishment

قبلنا لأن نثبت أننا محقون، أو أننا مبررون. المبدأ المطروح هنا هو: لا يمكن للشر أن يغلب بالشر، بل هو لا يغلب إلا بخير أكبر. ويذهب بولس خطوة أخرى إلى الأمام بقوله: «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء بل أعطوا مكاناً لغضب الله. لأنه مكتوب لي النقمة أنا أجازي. فإن جاع عدوك فأطعمه. وإن عطش فاسقه. لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه (رسالة إلى أهل رومية ١٢ : ٢٠).

من المهم جداً أن نرى من أين استمد بولس هذه الفكرة. كثيراً ما يزعم البعض أو يظنون أن هذه فكرة مسيحية حتماً، وأن العهد القديم والقرآن عنيفين، بينما العهد الجديد مختلف من هذه الناحية. لذلك كان من الجوهري أن نلتفت إلى أساس موقف بولس. تصدر فكرة بولس يقينا من مثال المسيح وهي مستعارة منه: «من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً» (إنجيل متى ٥ :٣٩؛ إنجيل لوقا ٦ :٢٩) ولا تأخذ سيفك، «لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (إنجيل متى ٢٦ : ٥٢). *ولكن هذه الفكرة هي في الوقت نفسه* مستمدة من توراة المسيح وبولس، أي من التناخ. ويبني بولس نظرته على قصة من «الأنبياء القدماء»، سفر الملوك، وسفر الأمثال. ويبين هذا إلى أي حد تعتبر التوراة «فلسفة في صورة سردية»[1]. والقصة هي قصة النبي أليسع/ أليشع خَليفة النبي إيليا/ إلياس/ ياسين.

الأعداء: أعطهم طعاماً

في أيام أليسع/ أليشع نشبت حرب بين ملك إسرائيل الذي كان

---

(١) "Erzählende Philosophie" عبارة مأثورة عن Eugen Rosenstock Huessy (1888-1973)

كرسي ملكه في السامرة، والآراميين المعادين له. وقد خاض كل من شاول/ طالوت، وداود، وسليمان حروباً ضد هذا الشعب. أرسل ملك الآراميين جيشاً ثقيلاً، مع خيل، وعربات لمهاجمة السامرة. وصلوا ليلاً وطوّقوا المدينة. استفاق غلام أليشع/ أليسع في الصباح الباكر ورأى الجيش يحيط بالمدينة وصرخ: «آه يا سيدي كيف نعمل؟» (سفر الملوك الثاني ٦ : ١٤-١٥). فأجاب النبي بجواب لافت: «لا تخف لأن الذين [p.178] معنا أكثر من الذين معهم» أي الأعداء الآراميين. وصلّى النبي قائلاً يا رب إفتح عينيه فيبصر .ففتح الرب عيني الغلام «فأبصر وإذا الجبل مملوء خيلاً ومركبات نار حول أليشع». من المهم أن نفهم ما يجري هنا وما هو القصد من وراء هذه القصة. فلو كان ثمة صحافيون لأخذ صور فوتوغرافية لهذا الحدث وتسجيله لصحيفة هاآريتز إسرائيل ذلك الزمان، لكانت الصور خالية. ومن اللافت أن بطرس استل سيفه في قصة المسيح في ضيعة يقال لها جتسيماني ليحول دون القبض عليه. فقال له المسيح: «رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» ثم أضاف «أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة؟» (إنجيل متى ٢٦ : ٥٢-٥٣) وفي وسع المرء أن يسأل هنا: ولكن أين كانت تلك الجيوش؟ لِمَ لم تأت؟ الواضح أن المسيح لم يكن يرى أن العنف خيار حقيقي. أليشع/ أليسع صلّى كي تفتح عينا غلامه. والظاهر أن هذه الجيوش لا يمكن أن ترى إلا بعين الإيمان والثقة.

«ولما نزلوا إليه صلّى أليشع إلى الرب وقال اضرب هؤلاء الأمم بالعمى. فضربهم بالعمى كقول أليشع/ أليسع. ثم قال لهم: ليست هذه هي الطريق ولا هذه هي المدينة. اتبعوني فأسير بكم إلى الرجل الذي تفتشون عليه. فسار بهم إلى السامرة». تمكن النبي من أن يقود الآراميين

الأعداء إلى السامرة. ثم فتح الله أعينهم ليروا أين أصبحوا: بين كونهم مضللين وكونهم أسرى في مدينة الأعداء. فلما رآهم سأل ملك إسرائيل أليسع/أليشع: «هل أضرب؟ هل أضرب؟» كانت تلك فرصة ذهبية. ولكن أليسع أجاب: لا تضرب. تضرب الذين سبيتهم بسيفك وبقوسك؟»

وبمَ يشير النبي في شأن ما يجب أن يعمل بالأعداء الذين أخِذوا؟ ماذا يقول للملك أن يفعل؟ «ضع خبزاً وماء أمامهم فيأكلوا ويشربوا ثم ينطلقوا إلى سيدهم». فأولم لهم وليمة عظيمة فأكلوا وشربوا ثم أطلقهم فانطلقوا إلى سيدهم. [p.179] وكيف انتهت القصة؟ «لم تعد جيوش آرام تدخل إلى أرض إسرائيل» (سفر الملوك الثاني ٦ :٨-٢٣). بعبارة أخرى، كان لإظهار الضيافة للأعداء، وإعطاءهم الطعام والشراب، أثراً طيباً ظاهراً بحيث نجا الفريقان من مزيد من العداوات. فمن ذلك الوقت وصاعداً كف الآراميون عن غزو أراضي بني إسرائيل.

عكس الانتقام

يستمد بولس حكمة «إن جاع عدوّك فأطعمه خبزاً وإن عطش فاسقه ماء» تلك القصة عمّا حدث في السامرة المحاصرة، من سفر الأمثال (٢٥ : ٢١-٢٢). هناك يشار إلى ما تكون النتيجة إذا ما تصرف المرء على هذا النحو: «فإنك تجمع جمراً على رأسه». ويومئ هذا القول بصورة لافتة إلى ما كان معروفاً عند شعبين من ألد أعداء بني إسرائيل، أي الطريقة التي كان الآشوريون يعاقبون بسكب القار على رأسه، وعادة المصريين القدماء بعقوبة وضع الجمر المتقد على رأسه. وهذا هو أصل عبارة «أجلب طريقهم على رؤوسهم» (سفر حزقيال ٩ : ١٠). يريد بولس أن يقول أن علينا أن نفعل العكس تماماً مما يفكر أعداؤنا في أن

يفعلوه: «بدلاً من القار والجمر المتقد، فلتنزل الطيبة على رأس هذا الشخص». ليكن هذا الخير هو العقاب، «العقاب» الذي يغلب الشر.

يستعين بولس صراحة بنص في سفرالأمثالالذي يسمى حُكمَه بالعبرية، ومنها جاءت كلمة غوشم الهولندية (التي تعني بارع، ماكر). بعبارة أخرى، يريد بولس أن يقول «إن كنت حكيماً فإنك سوف تفلت من دائرة الثأر والانتقام المدمرة». ولذلك فهو ينصح قائلاً: «لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير». (سفر الرسالة إلى اهل رومية ١٢ : ٢١). وبهذا، فإن بولس يشير تضميناً لا إلى ما أعلنه المسيح بل وإلى ما كان يمارسه أيضاً. لا يمكن كسر الحلقة الفاسدة إلا بتحويل الخد الآخر. وحده اللاعنف يستطيع وقف الشر.

«ادفع بالتي هي أحسن»

الواقع أن القرآن يؤكد رسالة العهدين القديم والجديد في مسألة عدم مجازات الشر بالشر: دع الخير يغلب على الشر. عمل الخير هو الرد على الشر، لأن لهذا النوع من الأفعال تأثيراً طيباً في الذي أقدم على الشر. «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة. [p.180] ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة وكأنه وليّ حميم». (سورة فصلت: ٣٤). «إدفع بالتي هي أحسن السيئة» (سورة المؤمنون: ٩٦). يوصف المؤمن بأنه امرؤ يدرأبالحسنة السيئة (سورة القصص: ٥٤). والمؤمنون هم «الذين يدرؤون بالحسنة السيئة» (سورة الرعد: ٢٢). «ادعُ إلى سبيل ربك بالحِكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» (سورة النحل: ١٢٥) هذا ما يجب على المؤمن أن يقوم به تجاه الآخرين. وهنا تستعمل كلمة حِكمة العربية المشابهة لكلمة حُكمة العبرية. وتسدى النصيحة الصريحة نفسها بعدم مجادلة أهل الكتاب (اليهود

والمسيحيون، باستثناء الذين ظلموا منهم) إلا بالتي هي أحسن (سورة العنكبوت: ٤٦). ولكن متى رفض العدو المعاملة بالحسنى، عندها يحق استعمال العنف بما يتوافق مع متطلبات العدل. ويوصي القرآن المرء في هذه الحال بأن يترفّق بمن ارتكبوا السيئات. فإن تاب المذنب فينبغي أن يُصفح عنه. ما هو الموقف الذي يجب أن يتميز به المؤمنون حيال الظلم والإساءة؟ الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون هم:

«الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله. والله لا يحب الظالمين» (سورة الشورى: ٣٧-٤٠).

أما العلاقة بين الثواب والعقاب في هذه الدنيا وفي الآخرة، فإن النص الذي كثيراً ما يستشهد به هو: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» (سورة الزلزلة: ٧-٨). يحاكم كل امرئ في الآخرة حسب أعماله. «ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون» (سورة الأحقاف: ١٩). وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا (سورة سبأ: ٣٧). ولا يظلم أحد أدنى ظلم. [p.181] «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً (سورة النساء: ٤٠؛ قارن السورة نفسها: ١٧٣). وفيما يتناسب العقاب مع الإثم، فإن الثواب يضاعف أضعافاً: «ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون» (سورة الأنعام: ١٦٠). فرحمة الله لا حد لها[1].

---

(1) *E.Q. s.v.* "Reward and Punishment"

للإجابة المختصرة على مسألة كيف تروي الكتب الثلاثة قصة الرد بالمثل، والعقاب، والمصالحة، من المفيد أن نستشهد بنص من سورة المائدة، وهي من بين أواخر السور تنزيلاً[1]. تعالج في هذا النص الرسالة المشتركة بين التوراة والإنجيل والقرآن من حيث علاقة كل من الثلاثة بالآخر. والرسالة التي حملها الرسول محمد موجهة، في السورة نفسها التي تتحدث عن قايين/ قابيل وهابيل (أنظر أعلاه)، إلى اليهود أولاً، ثم إلى المسيحيين، ثم إلى المسلمين، وأخيراً إلى الطوائف الثلاث معاً. والسياق هو مسألة العنف والرد بالمثل استجابة لأسئلة طرحها على محمد «أهل الكتاب» أي يهود المدينة[2].

يتوجه القرآن أولاً إلى اليهود «أهل التوراه»: «وكتبنا عليهم فيها (التوراة): النفس بالنفس [قارن سفر التثنية ١٩ : ٢١]، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص. فمن تصدّق به فهو كفارة له. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون». ثم يلتفت القرآن إلى «أهل الإنجيل»: «وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى[3] وموعظة

---

(١) Fred Leemhuis, "From Palmleaves to Internet," in *The Cambridge Companion to the Qur'an*, edited by Jane Damme McAuliffe (Cambridge, etc.: Cambridge University Press, 2006), p.154. E.Q. s.v. Law and the Qur'an". Cf. Regis Blachère, Le Coran. Traduction selon un essai de reclassement des Sourates (Paris: G.P. Maisonneuve & St. Germain, 1951)

(القرآن، ترجمة وفق. م.حاولة لإعادة ترتيب السور)

(٢) قارن E.Q. s.v. Torah

(٣) نقرأ في الآية ٩١ من سورة الأنعام: «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس»؟

للمتقين. [p.182] وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون». أما للمسلمين فيقول: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق». ثم يخاطب الكل قائلاً: «جعلنا لكل منكم شرعة ومنهاجاً[1] ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم: فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (سورة المائدة: ٤٥-٤٨)[2].

نشأت الكتب الثلاثة ودوّنت في عالم مليء بالحرب والعنف. وبهذا المعنى، تروى فيها قصص واقعية جداً وأصلية. وليس على المرء أن يتحمل بكل بساطة الشر الذي ينزل به مستسلماً. وهناك، في ما يبدو، أوضاع تكون فيها إرادة «الرد بالمثل» معقولة. وهناك ثلاث استجابات ممكنة: الرد بالمثل، الانتقام، والصفح[3]. وتشدد الكتب الثلاثة على أنه وإن حق للمرء أن يرد بالمثل، فمن الأفضل أن يختار طريقة مختلفة، طريقة التعويض والكفارة والمصالحة. فضلاً عن حق الرد بالمثل، يوصى بالرأفة والصفح والمصالحة. فعمل الخير الإرادي الحميد يمكن أن يقوم مقام التعويض والمصالحة. من ذلك أن اللغو في الأيمان يكفّر عنه بإطعام «عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة» (سورة المائدة: ٨٩)[4]. والصفح والقصاص أفضل - فهو يستتبع احترام الحياة (سورة البقرة: ١٧٨، ١٧٩)[5].

---

(١) شرعة قارن شريعة

(٢) قارن أيضاً سورة البقرة: ١٧٨-٧٩، ١٩٤.

(٣) وفقاً للفقهاء المسلمين. *E.I. s.v.* "Retaliation"

(4) *E.Q. s.v.* "Atonement"

(5) *E.Q. s.v.* "Life"

معنى هذا، إذا ما ترجم عبر مصطلحات حديثة أو عملية، أنه إذا ما قلع رجل سن رجل آخر، فإنه يحق للرجل الثاني أن يطلب «الرد بالمثل» عقوبة، أو ثمن بديل عن السن [p.183] كتعويض. وهكذا، فمهما كان الرد بالمثل أمراً مفهوماً ومسوغاً، فإن الكتب الثلاثة تنصح بالطريقة الأخرى.

مجموعة مدينة القدس

تنزّل هذه الدعوة إلى المصالحة، أو إلى عدم الرد بالمثل واللاعنف، وبخاصة من حيث علاقتها بموعظة المسيح على الجبل، وتداعيات ذلك بالنسبة إلى السياسة، تنزل بمنزلة قصص التفكير الهيبّي hippy الساذج، ويستهزأ بها مثلما يستهزأ بقصص «قوة الزهرة» الضحلة التفكير. ولكن هذه ليست قصة ضحلة التفكير أبداً. ولا هو القرآن هكذا. فالقرآن عندما يستشهد بالعهدين القديم والجديد، ثم يخلص إلى نصيحته الخاصة للفئات الثلاث اليهود، والمسيحيين، والمسلمين (قارن سورة البقرة: ١٤٨): «*ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا*»، إنها قصة عظيمة القوة - إنها قصة قوة المحبة اللطيفة. وهي في هذا قصة فطنة بصيرة. إن هذا «الإيمان الساذج» لا يرتكز إلا على الثقة بأن رحمة الله سوف تشمل الناس كلهم في نهاية المطاف. إن الله «كتب على نفسه الرحمة» (سورة الأنعام: ١٢؛ ٥٤).

يوم قتل ثيو فان غوغ، المخرج والكاتب، والصحافي في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٤، في أمستردام، ومثل قاتله محمد بويري أمام المحكمة، دار الحديث عما يسمى بجماعة هوفشتاد. هذا هو الاسم الذي تطلقه دائرة الاستخبارات الداخلية (AIVD) في هولندا على مجموعة من الشبيبة الإسلامية المتطرفة. كان «أعضاء» المجموعة يجتمعون بانتظام،

في ما زعم، في منزل محمد بويري بأمستردام، الذي شعر بأن عليه أن ينتقم، بأمر من الله، من فان غوغ لما أقدم عليه من شتم الرسول في فيلمه المعنون «الخضوع». كان فان غوغ قد أخرج الفيلم بالتعاون مع أعيان هرسي علي، وهي سياسية هولندية يمينية، كتبت النص وأدّت التعليقات الصوتية في الفيلم (الذي انتقد معاملة النساء في العالم الإسلامي). كانت أعيان قد تنكرت لعقيدة الإسلام التي ولدت عليها، وتلقّت عدة تهديدات بالقتل بعد أن بدأ عرض الفيلم. وقد أعلن محمد بويري في اليوم الثاني من محاكمته: «لقد استرشدت بالشرع الذي يأمرني بقطع رأس كل من يشتم الله ورسوله». لقد أراد أن ينتقم للإسلام بالعنف. وفي سنة الجريمة نفسها، أي في ٢ تموز ٢٠٠٤، كان محمد بويري هذا قد ترجم نصاً من القرن الرابع عشر بقلم ابن تيمية إمام الأصوليين: [(١)] [p.184] «الصارم المسلول في وجه شاتم الرسول».

يجوز للمرء أن يقول إن اليهود، والمسيحيين، والمسلمين ينتمون إلى، أو هم أعضاء في «مجموعة مدينة القدس». ومن شأن هذه التسمية أن تجمع معاً امرءًا يهودياً يدعى إسحق، وآخر مسلماً يدعى محمد، وثالثاً مسيحياً يدعى عيسى. والثلاثة يؤمنون استناداً إلى التوراة، والقرآن، والإنجيل بقصة هجر الظلم والرحيل إلى أرض موعودة، مدينة موعودة، عالم موعود، تسودها العدالة والبِرّ، وتطبق فيها التوراة، والشريعة ويلتزم بها، أي حيث تطبق العدالة والمحبة.

ونحن إذا ما استمعنا إلى القصة الواحدة المروية في الكتب الثلاثة، مثلما ورد وصفها أعلاه بالنسبة إلى مسألة العنف والرد بالمثل، فينبغي

---

(١) Anton Wessels, *Muslims and the West. Can They Be Integrated?* (Leuven: Peeters, 2006) Ch. 6 (المسلمون والغرب. هل يمكن أن يندمجوا؟)

لنا أن نخلص إلى الاستنتاج بأنه إذا كان إسحق، ومحمد، وعيسى يعتقدون اليوم بأن عليهم أن يطلبوا الثأر «باسم الله»، فإن ما يفعلونه لا يفعل باعتباره شيئاً أمر به الله إله إبراهيم، وإله المسيح، أو إله محمد. بل إن من يفعله إنما يفعله باسم إله استحضره هذا أو ذاك بنفسه (وهو أمر يستطيع أن يقوم به اليوم كل منهم عبر غوغل). وفي محاكمة محمد بويري أدلى شاهد خبير بشهادة وافية تتعلق بالمادة التي وجدها في الحاسوب الشخصي للمتهم: كان محمد بويري يستخرج معرفته بالله، والدين، والعنف عبر «غوغل». وفي وسع المرء أن يقول إن محمد بويري قد استحضر عبر ضرب من الشعوذة مفهومه لله.

الكلمة النهائية المفتاحية كانت بالنسبة إلى الديانات الثلاث، المصالحة واللاعنف. «لا عنف في الله» على قول ديوغنيتس، أحد آباء الكنيسة في القرن الثاني للميلاد. في عصر آبائنا وأمهاتنا (أو أجدادنا وجداتنا) كانت هذه الفكرة مصدر إلهام «لأشخاص سذّج» من أمثال الكاتب الروسي ليو تولستوي، والزعيم الهندي المهاتما غاندي، والقس مارتن لوثر كنغ الأصغر. فقد تجرأ هؤلاء على انتهاج هذا النهج والانخراط في التسابق على الخيرات. ولئن قيض لعالمنا أن يشهد أي عدل وسلام، فعلى قادة العالم أن يكتسبوا هذه الحكمة وأن يتحلّوا بهذه الفطنة وهذا الاستبصار. أي أن على قادة العالم أن يكونوا من عيار هؤلاء الثلاثة الكبار. [p.185]

الفصل الثامن

صلاة شفاعة لمدينة سدوم

ملكوت الله هو هذا العالم مقلوباً رأساً على عقب .

(هوب أوسترهوس)

[الله :]

ولكن، يا أبانا إبراهيم، هل تجرؤ

أن تقف أمام الله - إنسان واحد -

وتتشفع ليعفو عن هذه المدينة

أسوأ مدن بلاد كنعان؟

[إبراهيم :]

«عندما أفكر في الذين يعيشون هناك،

في كل شارع وفي كل بيت،

ألا يوجد فيها أحد يعفى عنه،

أنا إنما أقلق على الناس!»

[الله :]

ولكنهم أشرار يا أبانا إبراهيم!

لقد نبذوا قانون الإنسان

وتكتلوا معاً ليلعنوا العالم

ويحولوه إلى جحيم!

[إبراهيم :]

«إن ما يحدث هناك وإن كان شراً،

قتل ونار وتظالم،

ومع أن الجميع يساقون إلى اليأس

فهم لا يزالون بشر مثلنا!»

[الله :]

ولكن يا إبراهيم، أيها الشفيع المسكين،

أنت مجرد رجل من لحم ودم،

هل تأخذ مكان المعتدي على حدود الله؟

الديّان يعرف ماذا يفعل...؟!

[إبراهيم :]

«مجرد رجل من تراب ورماد... [p.186]

يدي على فمي

أنتظر ذاك الذي جاء من قبل
وذاك الذي سيأتي من بعدي..».

[الله:]

مرحى أبرام! وقت ثوابك
على عظيم إيمانك سيأتي يقيناً:
بشري عانى وتشفّع
من أجل كل سكان الأرض...

(يان ويت)[1]

مدخل

تظهر مدينتا سدوم وعموره في الكتاب المقدس وفي القرآن. وهما في القرآن تسمّيان «المؤتفكة» (سورة النجم: ٥٣). ماذا يقال عن هاتين المدينتين وما الأسباب التي يعزى إليها خرابهما؟ كان لوط، ابن أخي إبراهيم وعائلته من سكان هاتين المدينتين. وقد تدبر إبراهيم أمر إنقاذ ابن أخيه في حرب نشبت بين مختلف المدن ومن جملتها سدوم وعموره. وكان ملك سدوم ممتناً لتدخل إبراهيم (سفر التكوين ١٤: ١-١٧). ويوم هددت سدوم بالدمار تشفع إبراهيم لدى الله ليعفو عن المدينتين: «ألا تصفح عن المدينة إن وجد فيهما عشرة أبرار؟»

---

(١) ترجمت هذه القصيدة لأجل هذا الكتاب.

ويرتبط السبب في هلاك المدينتين عادة بالجنس، ولا سيما المثلية التي تعتبر «معصية» في تراث التفسير اليهودي، والمسيحي، والإسلامي. ولا حاجة إلى تعليق موسع لنبين مدى خطورة العواقب التي انجرّت وما تزال عن هذا الفهم. من ذلك أن الكاتب والمسرحي والناشط السياسي الأمريكي غور فيدال (المولود سنة ١٩٢٥) كتب كتاب The City and the Pillar (المدينة والعمود) سنة ١٩٤٨ فانتُقد انتقاداً شديداً جراء نزعته الجنسية المثلية الصارخة.

وسوف نلقي نظرة على مدينتي سدوم وعمورة أولاً ثم نثنّي على قصة إبراهيم ولوط معهما، ونخلص بعد ذلك إلى السبب الحقيقي للخراب حسب الكتب المقدسة الثلاثة. [p.187]

سدوم وعموره

كانت سدوم وعموره من مدن الكنعانيين (سفر التكوين ١٠: ١٩؛ ١٣: ١٢؛ ١٤: ٢-١٧) التي يُعتقد عموماً أنها كانت تقع على مقربة من البحر الميت، في بقعة على الجانب الجنوبي الشرقي تغمرها المياه حالياً. ويرى البعض أن خرابهما قد حدث في وقت ما من أواسط العصر البرونزي، أي بين سنة ٢٠٠٠ و١٦٠٠ق.م.، يوم غاصت القشرة الأرضية جراء زلزلة صاحبتها انفجارات غازية (قارن سفر التكوين ١٩: ٢٤-٢٨). ويتوهّج خراب سدوم على امتداد العهد القديم. ويتحدث عنها المؤرخ والجغرافي والفيلسوف الإغريقي سترابو (حوالي سنة ٦٤ق.م- ١٩.م)، وكذلك المؤرخ، والكاتب، والخطيب الروماني تاسيتوس (حوالي سنة ٥٦-١١٧). ومن الجائز أن تكون منطقة المدن

الملعونة كانت منطقة صحراوية مهجورة وغير قابلة للعمران (سفر صفنيا ٢ : ٩)، وأن تكون الخرائب المحترقة قد غمرتها مياه البحر لاحقاً[١].

قبل أن تخرب سدوم وعمورة كانت هذه البقعة معروفة بوفرة مياهها «كجنة الرب كأرض مصر» (سفر التكوين ١٣ : ١٠). ومن اللافت أن هاتين المدينتين اللتين ينظر إليهما نظرة سلبية ومعهما مصر، في قصص التوراة والقرآن، يمكن أن تشبها بالجنّة! ويطلق المفسرون المسلمون على مصر لقب الأرض المقدسة الطيبة المباركة[٢]. وعندما كان إبراهيم ولوط يتنقلان ويفتشان عن موضع يستقران فيه، شدد لوط على السكنى في سدوم وعموره. ويذكر بعد ذلك فوراً أن «أهل سدوم كانوا أشراراً وخطاة لدى الرب جداً» (سفر التكوين ١٣ : ١٣). وتسهب الروايات التالية في تفصيل ذلك (سفر التكوين ١٨ : ٢٠-٢١، و١٩ : ٤-١١).

لوط من سكان سدوم

كان لوط ابن أخي إبراهيم (سفر التكوين ١١ : ٢٧، ٣١)، الذي غادر معه حرّان (سفر التكوين ١٢ : ٤)، تلك المدينة الواقعة على طريق القوافل من نينوى إلى آسيا الصغرى. وبعد مخاصمة وقعت بين رعاة مواشي إبراهيم ورعاة مواشي لوط افترقا واختار لوط القسم الأفضل من وادي الأردن الغني بالينابيع والمراعي: سدوم وعموره. وفقد بخراب سدوم كل ذلك (سفر التكوين ١٩ : ١ وما يليه). [p.188]

يوصف لوط بأنه جد الموآبيين والعمونيين. والتفسير التأصيلي الشائع لهذين الاسمين هو أن أصلهما يرقى إلى سفاح لوط مع ابنتيه (سفر التكوين ١٩ : ٣٠-٣٨؛ سفر التثنية ٢ : ٩؛ سفر المزامير ٨٣ : ٩). فاسم

(1) *E.Q. s.v.* "Clay"
(2) *E.Q. s.v.* "Egypt"

موآب يعني «زرع الأب». فقد تحذّر الموآبيون من سفاح ارتكب في كهف التجأ إليه لوط مع بنتيه بعد أن هرب من سدوم وعموره. وإنما تروى هذه القصة لتفسير وتسويغ العداوة والكراهية حيال الأقوام المجاورة، وفي هذه الحال قوم الموآبيين وقوم العمونيين. والتفسير التاريخي لهذا الموقف المستهتر حيالهم يعزى إلى أن هذين القومين لم يزوّدا بني إسرائيل بالطعام والشراب أثناء رحلتهم بعد مغادرة مصر (قارن سفر العدد ٢٢-٢٤؛ سفر التثنية ٢٣: ٤-٧؛ سفر نحميا ١٣: ١-٣)[١].

شفاعة إبراهيم لسدوم

يسبق قصة الدينونة الفعلية «للمدن المؤتفكة» (سورة هود: ٧٧-٨٣؛ قارن سفر التكوين الأصحاح ١٨ و١٩) ما حدث في قصة زيارة رسل الله لإبراهيم عند بلوطات ممرا: البشارة بولادة غلام لإبراهيم وسارة هو إسحق، ثم ولادة يعقوب ابن اسحق، ومن ثم مجادلة إبراهيم معهم حول عقوبة قوم لوط في سدوم (سورة هود: ٦٩-٧٦) في القرآن. تشكل هذه الحوادث كلها مدخلاً إلى قصة الدينونة هذه.

فقد ورد على إبراهيم ثلاثة رجال فهرع لاستضافتهم وإكرامهم (سفر التكوين ١٨: ١٦-٣٣). وكثيراً ما يرمز «الغرباء» لله نفسه. يبشر الرسل إبراهيم بقرب ولادة إسحق، ويعقوب بعده، وهذا ما أضحك زوجته

(١) ثمة دير في الأردن مكرس للوط التقي، وهو دير عين أباتا، حيث التجأ لوط وبناته، وفقاً للروايات، بعد خراب سدوم. وكان هذا الموضع مكان عبادة يشارك فيه المسيحيون والمسلمون من أواخر القرن الثامن إلى القرن التاسع. T. Nagel, Der Koran und sein religioses und kulturelles Umfeld (Munich: Odedbourg, 2010), p.154 (القرآن ومجاله الديني والثقافي)

(سفر التكوين ١٨ : ١٣)[1]. وهم يخبرون إبراهيم أيضاً أن خطيئة سدوم قد عظمت وصراخها قد كثر. ومن اللافت أن إبراهيم يبدو وكأنه مقتنع بأن الله سينزل دينونته عندما أعلن الرسل أنهم سينزلون نحو سدوم، مع أن الله لم يتكلم إلا عن عِظَم خطيئة المدينة (قارن أيضاً سفر التكوين ١٣ : ١٣). ويجوز للمرء أن يتساءل هل كان الله قد صمم مسبقاً، استناداً إلى القصة، [p.189] أن يخرب سدوم. أم كان ذلك مجرد استنتاج قد توصل إليه إبراهيم؟ أياً يكن من الأمر، تشفّع إبراهيم من أجل أهل سدوم. هل يهلك الله فعلاً البار مع الأثيم (سفر التكوين ١٨ : ١٦-٢٣)؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، فهل يعاقَب الأبرار مع الأشرار؟ ينبغي ألا يحكم أحد بالإعدام من أجل خطايا آخر (سفر التثنية ٢٤ : ١٦)؟ ألا يمكن أن يصفح عن المدينة إذا وجد فيها خمسون، أربعون، ثلاثون، عشرون، أو حتى عشرة أبرار؟ لقد صلى إبراهيم متشفعاً ومسترحماً المولى. ألا تغلب الرحمة على الدينونة (رسالة يعقوب ٢ : ١٣)؟

يبدو فعلاً أنه من الممكن أن يتهاود الله: «لا أهلك المدينة من أجل عشرة». استجابة لإلحاح إبراهيم في شفاعته لا يهلك الله المدينة إذا وجد فيها عشرة أبرار (سفر التكوين ١٨ : ٢٣-٣٢). وقد يتساءل المرء لِمَ لا يلح إبراهيم أكثر على الله ليعفو عن المدينة لأقل من عشرة؟ هل سئم الله؟ هل أن كاتب السفر لم يتجرأ، إذا جاز القول، أن يجعل إبراهيم يبالغ في الإلحاح حتى يصل إلى بار واحد يمتنع الله لأجله عن إهلاك المدينة؟ من يستطيع أن يضع حداً لصبر الله وطول أناته، ومن

---

(١) وقد ورد في الإصحاح الذي يسبقه أن إبراهيم ضحك من هذه البشارة (سفر التكوين ١٧ : ١٧)

يضع حداً لطول أناته (سفر إرميا ١٥ : ١٥؛ رسالة إلى أهل رومية ٢ : ٤)؟ الله، أو المؤمن، أو «أبو كل المؤمنين»، في هذه الحال (قارن سورة هود: ٦٩-٧٦؛ سورة الحِجر: ٥٧-٦٠؛ سورة العنكبوت: ٣١، ٣٢؛ سورة الذاريات: ٣١-٣٤)؟ وقد كلّف النبي إرميا لاحقاً بما يلي: «طوفوا في شوارع أورشليم/ القدس وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحقِ فأصفح عنها» (سفر إرميا ٥ : ١). وقد تجرأ الكتّاب اليهود لاحقاً على المضي إلى أبعد من هذا - أنظر الكتاب المؤثر بقلم أندريه شوارتز بارت ***André Schwartz Bart, The Last of the Just*** *(آخر العدول)*.ففي هذه الرواية ينجو العالم من الهلاك من أجل شخص بار واحد فقط. شخص واحد كاف. وكان ثمة شخص كهذا في سدوم - ألا وهو لوط!

لوط يستقبل زواراً في سدوم

يتألم لوط، الرجل البار، بسبب عيشة الانحلال التي يعيشها أهل سدوم المتفلتون من القانون. هو يعيش في ظهرانيهم وتتألم نفسه البارة يومياً عندما يشاهد ويسمع كيف يتجاهلون الله وأوامره (رسالة بطرس الثانية ٢ : ٧-٨). ويحذر لوط أهل سدوم الذين بعث إليهم نبياً من ارتكاب المعاصي التي لم يرتكبها أحد من قبل «إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون» (سورة الأعراف: ٨٠-٨١). «كذّبت قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط ألاّ تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعوني...أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون. قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرَجين» (سورة الشعراء: ١٦٠-١٦٩؛ قارن سورة النمل: ٥٤-٥٦؛ سورة العنكبوت: ٢٨-٣٠).

ما إن وصل الغرباء الذين زاروا إبراهيم سابقاً (سفر التكوين ١٨: ١-٥) إلى منزل لوط في سدوم، تصرف كعمّه إبراهيم الملقّب «بأبي الأضياف»[١]. وعندما وصلوا «صنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا» (سفر التكوين ١٩: ٣) من أهم سمات الحياة البدوية تعظيمها شأن الضيافة. ويذهب أحد أمثال البادية إلى «أن الضيف أغلى عليك من أبيك». حتى أفقر الناس يذبح آخر شاة عنده ليكرم ضيفه ولا يريه بؤسه. وهم لا يتوقعون عرفان الجميل. ولا هم يريدون أكثر من إكرام الضيف وجعل إقامته الموقتة مريحة. وهم يقدمون كل ما يملكون له. ويكون الغريب خلال إقامته تحت حماية مضيفه. وواجب حسن الضيافة والحماية هذا على قدر من الأهمية بحيث تستعمل للقيام به أحياناً وسائل تبدو غير مقبولة كلياً، مثلما حدث مع لوط وابنتيه (سفر التكوين ١٩: ٣٠-٣٨؛ قارن سفر القضاة ١٩: ٥-٢٢)[٢]. سلوك لوط هو عكس سلوك السدوميين تماماً. فقبل أن يأووا إلى مضاجعهم، تقاطر الرجال كلهم - شيباً وشبّاناً - من أحياء سدوم كلها على بيت لوط وأحاطوا به طالبين من لوط أن يخرج إليهم ضيفيه «ليعرفوهما». «فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه وقال لا تفعلوا شرًّا يا إخوتي» (سفر التكوين ١٩: ٤- ٨). ويصبح الوضع محرجاً جداً بسبب زيارة الضيفين، ولا يعرف لوط ماذا يفعل مع السدوميين. فهو قلق جداً على مصير الضيفين ومستعد لأن يذهب بعيداً جداً: «هوذا لي ابنتان لم تعرفا

---

(١) على قول الثعالبي، مذكور في: Martin Bauschke, *Der Spiegel des Propheten: Abraham im Koran und im Islam* (Frankfurt am Main: Lembeck, 2008), p.128 (مرآة الأنبياء: إبراهيم في القرآن وفي الإسلام)

(٢) D. S. Attema, *Arabie en de Bijbel* (The Hague: Uitgeverij van Keulen, 1961), p.57 (جزيرة العرب في الكتاب المقدس)

رجلاً. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي» (سفر التكوين ١٩ :٨). وفي الرواية القرآنية يقول لوط: «هذا يوم عصيب. يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي [p.191]. قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد» (سورة هود: ٧٧-٧٩؛ قارن سورة الحجر: ٧١). وهكذا يبذل لوط محاولة يائسة لمنع أهل سدوم من انتهاك حسن ضيافته. ولكنه إذ يفعل ذلك هل يجد اغتصاب بناته أقل فظاعة من اغتصاب ضيفيه؟ ولكن السدوميين قالوا: «إبعد إلى هناك، ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرّب وهو يحكم حكماً! الآن نفعل بك شرًا أكثر منهما». فألحّوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب». ولكن الضيفان مدّا «أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما وأغلقا الباب. وضربا الرجال الذين على باب البيت بالعمى من الصغير إلى الكبير، فعجزوا عن أن يجدوا الباب. (سفر التكوين ١٩ :٨-١١).

هرب لوط وأسرته

«وقال الرجلان للوط: من لك أيضاً ههنا. أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان. لأننا مهلكان هذا المكان، إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه. فخرج لوط وكلّم أصهاره الآخذين بناته وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة. فكان كمازح في أعين أصهاره (سفر التكوين ١٩ :١٢-١٤). صلّى لوط إلى ربّه قائلاً «ربّ نجني وأهلي مما يعملون» (سورة الشعراء: ١٦٩). «ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنّا منجّوك وأهلك إلا امرأتك كانت من

الغابرين» (سورة العنكبوت: ٣٣؛ قارن سفر التكوين: ٢٦). ثم هرب لوط وأهله بعد أن حثّهما على ذلك الملاكان. أخرج الله المؤمنين من المدينة قبل أن ينزل فيها حكمه. فما وجد «فيها غير بيت من المسلمين» (سورة الذاريات: ٣٥-٣٦). وكاد لوط أن يكون في جملة من يهلك في سدوم ونجا في اللحظة الأخيرة. وهكذا فإن «البررة» الذين كانوا في سدوم قد أخرجوا منها ونجّاهم الله في السَحَر. (سورة القمر: ٣٤).

«وإذ أشرقت الشمس على الأرض...أمطر الرب علىٰ سدوم وعمورة كبريتاً وناراً. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض» (سفر التكوين: ١٩ : ٢٥). دمرت المدينتان أمطرتا «حجارة من سجيل منضود» (سورة هود: ٨٢؛ سورة الحِجر: ٧٤؛ قارن سورة الأعراف: ٨٤؛ سورة الشعراءَ: ١٧٣). أرسل الله رجزاً من السماء (سورة العنكبوت: ٣٤)، [p.192] ممطراً الكبريت والنار على الأشرار «وقلب تلك المدن وكل الدائرة». وفي وصف آخر كانت العقوبة صيحة وعاصفة رملية أو ثورة من السماء (سورة الذاريات: ٣٣؛ سورة هود: ٨٢؛ سورة الحِجر: ٧٤؛ سورة النمل: ٥٨). وعندما عاد إبراهيم في الصباح إلى المكان الذي كان رأى فيه الغرباء يقفون، في أعالي الخليل (الحبرون)، نظر إلى أسفل إلى المدن الواقعة في السهل ورأى الدخان يتصاعد من الأرض، كدخان الأتون. (سفر التكوين ١٩ : ٢٧، ٢٨)

«ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح» (سفر التكوين ١٩ : ٢٦). أنقذ الله لوطاً الذي كان قد تلقى من الله القوة والمعرفة للحكم، ونجّاه «من القرية التي كانت تعمل الخبيث»، وبات أهلها «قوم سوء فاسقين». وأدخله الله في رحمته لأنه «من الصالحين» (سورة الأنبياء: ٧٤-٧٥). ومضى الناجون إلى مدينة صوغر، ومعناها

«الصغيرة»، على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الميت (سفر التكوين ١٣ : ١٠؛ سفر التثنية ٣٤ : ٣) في موآب. ومن جراء ذلك، وكرمى للوط، نجّيت المدينة (سفر التكوين ١٩ : ٢٠-٢٣).

يستعمل إنقاذ لوط البار وإهلاك جيرته نموذجاً: «لم ينقذ الناس الذين كان لوط يعيش بينهم؛ بل كان يمقتهم بسبب كبريائهم» (حكمة بن سيرا. ١٦ : ٨) الحكمة هي التي أنقذت الرجل البار من النار التي أمطرت بها المدن الخمس [سدوم، عموره، أدمه، صبويم وصوغر] (حكمة بن سيرا[1]. ١٠ : ٦.؛ إنجيل لوقا ١٧ : ٢٨، ٣٢؛ رسالة بطرس الثانية ٢ : ٧) باستثاء ظاهر هو صوغر، بينما كان الكفرة يهلكون.

لِمَ أهلكت سدوم؟

ما هو السبب الفعلي لهلاك هذه المدن؟ يرتبط إهلاكها عادة «باللواط». وفي معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا: «لاط لِواطاً عمِل عمَل قوم لوط، وهو لوطي» وفي محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني: «لاط لِواطاً عمِل عمَل قوم لوط، أي أتى الذكور». فهل هذه هي طبيعة معصية سدوم؟ وهي تفسر في هذه القصة عادة بأنها رغبة الرجال في مضاجعة الرجال (سفر التكوين ١٩ : ٤ وما يليها). وما يزال الكثيرون اليوم، ولا يقتصر الأمر على المسلمين، يربطون إثم سدوم بالمثلية الجنسية. ويصح هذا [p.193] على المفهوم التقليدي عند اليهود والمسيحيين والمسلمين[2].

لا يرد لفظ اللواط في التوراة ولا في القرآن. وثمة حول هذا الأمر

(1) *Wisdom of Bin Sirah.*

(2) E.Q. and E. I. s.v. Liwât

آراء وحجج مختلفة ومتباينة في أعمال العلماء المسلمين. وقد حمل ذلك البعض إلى القول إن الظاهرة التي يدل عليها هذا اللفظ لم ترد في القرآن ولا يمكن أن تناقش في الأخلاق، تالياً. وذهب غيرهم إلى أن اللواط يقابل وصف الرجال من قوم لوط الذين ينظر بعضهم إلى بعض بعين الشهوة (سورة النمل: ٥٥؛ سورة الأعراف: ٨١؛ سورة العنكبوت: ٢٩؛ سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦). فعلماء التفسير المسلمون التقليديون يذهبون إلى أن قوم لوط قد أهلكوا بسبب معاصيهم الجنسية. ويتعلق الفعل المعتبر منحرفاً «بقطع الطريق»، أي أن اللوطيين لا يستطيعون التناسل، وهم بذلك يقطعون الطريق الطبيعي للأجداد والأحفاد. الفعل مرفوض. ولكن يجب التمييز بين الفعل وفاعله. فاللوطي لا يستبعد آلياً من الخلاص، وإن أشير إلى عقوبات في الآخرة. ويبدو أن بعض النوايا ذات المفعول الرجعي تنسب إلى *كارثة طبيعية*. ليس في القرآن إلا آية واحدة تحدد الوضع الشرعي لشخصين ارتكبا أفعالاً لاأخلاقية. يجب أن يعاقب كلا الشخصين ولكن يجب أن يعرَض عنهما «إن تابا وأصلحا» (سورة النساء: ١٦)[١].

واستناداً إلى تقليد متأخر، تستحق اللوطية عقوبة الإعدام لكلا الشريكين. يرجم اللواطيان مثلما رجم قوم لوط. وقد أوجب أحد أيمة الفقه الأربعة[٢] أن يطرح المرتكبين من موضع عال ثم يرجما، وهي عقوبة تذكر المرء بقصة أهل الناصرة الذين أرادوا أن يرموا المسيح من على صخر شاهق (إنجيل لوقا ٤: ٢٩).

(1) Abdulwahid van Bommel, *Islam, liefde en seksualiteit* (Leuven and Amsterdam: Bulaq, 2003), p.127

(٢) أبو حنيفة (المتوفى سنة ٧٦٧)

هل كانت هذه حقاً خطيئة سدوم، وصراخها الذي تناهى إلى الله؟ هل كان هذا ما فعله السدوميون ليستحقوا تلك العقوبة الرهيبة؟ هل هذا ما تقوله التوراة والقرآن؟ ينبغي للمرء أن يصغي بعناية لما تقوله النصوص فعلاً. [p.194] في صريح النص أن الله قد أهلك سدوم وقلبها (سفر التثنية ٢٩ : ٢٢؛ سفر إشعيا ١٣ : ١٩؛ سفر عاموس ٤ : ١١) جراء وصول الصراخ على الخطيئة التي ارتكبها سكانها إلى السماء (سفر التكوين : ٢٠)، جراء خطيئتها (سورة التوبة : ٧٠؛ سورة النجم : ٥٤؛ سورة الحاقة : ٩؛ راجع سورة التوبة : ٧٠؛ سورة النجم : ٥٤). معاصي قوم لوط هي رفضهم الإيمان، والإصرار العنيد على الرذائل *كعدم إكرام الضيف*. والخطيئة التي أدينت هي إصرار سدوم على إذلال الغريب، ويمكن لهذا طبعاً أن يكون خطيئة جنسية. والأمر لا يتعلق بكون المرء أو المرأة مثلياً أو غيرياً في شهوته الجنسية. بل الكلام على الخطيئة ينشأ عندما تنتهك العدالة والمحبة مهما كان الوضع أو العلاقة. الخطيئة الفعلية هي انتهاك حقوق الضيف. قلبت سدوم وعمورة لأنهما قلبتا العلاقات الاجتماعية على رأسها. ولذلك «انقلب ما فعلتاه على رأسيهما»، لقد ظلمتا نفسيهما عندما أقدمتا على عكس ما أراده الله. إن القصة وإن بدت وكأنها تتكلم على *المثلية الجنسية*، فإن الأنبياء يركزون على انتهاك الشريعة، والسكر، والزنا، والكذب، والاعتداد المفرط بالنفس (سفر إشعيا ١ : ١٠؛ سفر حزقيال ١٦ : ٤٦؛ سفر إرميا ٢٣ : ١٤). وهذا يستحق المزيد من التفحص.

المدن المؤتفكة: سدوم وعمورة في قصص الأنبياء

كثيراً ما يؤتى في القرآن على ذكر ثيمة العقاب الإلهي ومناقشتها بتفصيل أو إيجاز. وكثيراً ما تبدأ قائمة أمثال هذه العقوبات بقصة نوح

والطوفان[1]: كيف أهلك الله غير مدينة ارتكب أهلها الظلم وجاء بقوم غيرهم (سورة الأنبياء: ١١)، وكيف قوّض العديد من المدن وهي ظالمة فباتت «خاوية على عروشها»، وكم من «بئر معطّلة وقصر مشيّد» قد خلا من أهله (سورة الحج: ٤٥)! ويقال هذا كله لأهل مكة: «ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون؟» (سورة يس: ٣١).

قصة لوط وإهلاك قومه ثيمة أساسية في القرآن (سورة هود: ٧٤-٨٣). وهي تظهر مقرونة بالقصص السابقة عن نوح ومعاصريه (سورة هود: ٢٥-٤٩)، والأنبياء العرب من أمثال هود وقوم عاد (سورة هود: ٥٠-٦٠)، وصالح في ثمود (سورة هود: ٦١-٦٨)، وما يليه من قصص [p.195] يثرون، وشعيب وأهل مدين (سورة هود: ٨٤-٩٥)، وموسى وفرعون (سورة هود: ٩٦-٩٩). وتشكل قصة لوط وسدوم وحدة واحدة مع هذه القصص. وعندها يكون ختام الكل والعبرة المستخلصة: «ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك، منها قائم وحصيد» (سورة هود: ١٠٠-١٠٢).

وتترابط القصص نفسها على النحو نفسه في موضع آخر: قصة لوط تشكل وحدة مع قصة نوح السابقة عليها (سورة الأعراف: ٥٩-٦٤) وهود (سورة الأعراف: ٦٥-٧٢) وصالح (سورة الأعراف: ٧٣-٧٩) وقصة شعيب التي تليها (سورة الأعراف: ٨٥-٩٣). الله يقص قصص هذه المدن. أرسلت إليهم الرسل بآيات بيّنات. غير أن سكان تلك المدن ما كانوا قادرين أو راغبين في الإيمان بما كذّبوا من قبل (سورة الأعراف: ١٠١). وهكذا أنذرت المدن مراراً وتكراراً.

منذ أقدم الأزمان وصولاً إلى محمد في مكة، تكلم الأنبياء على الشر

(1) Rudy Paret, Der Koran, (Stuttgart: Kohlhammer, 1966, 2004) 9th printing, on

في المدن. ولكن ينبغي لنا أن نلحظ هنا أن هذه المدن يمكن أن تكون القدس ومكة! وتعطى هذه الأمثلة الصادمة على ما حدث سابقاً للمدن التي رفضت نذر الأنبياء. أما لوط، المذكور صراحة في جملة الأنبياء (سورة الأنعام:٨٦)، فكأنه صورة سبقية لأنشطة محمد نفسه كإنسان دخل في صراع مع أبناء قومه الذين كانت رسالته موجهة إليهم[1].

يدعو موسى الناس، من معاصرين له وأجيال قادمة، إلى الالتزام بأحكام العهد، بالتوراة وتأديتها. وينذرهم بأنهم إن لم يمتثلوا، فسوف يصابون بما أصيبت به سدوم وعمورة: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها التي يمرضها بها الرب. كبريت وملح كل أرضها، حريق لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب ما كانقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبويم» (سفر التثنية ٢٩ : ٢٢-٢٣). كانت أدمة عضواً في تحالف خمس مدن-دول كنعانية (سفر التكوين ١٤ : ٢). ويعود الأنبياء مراراً وتكراراً إلى هذه الثيمة. غير أن سدوم وعموره تستعملان مثلاً وإنذاراً لبقية المدن التي تخشى العقوبة في المستقبل (سفر التثنية ٣٢ : ٣٢؛ سفر إشعيا ١ : ٩؛ سفر صفنيا ٢ : ٩؛ إنجيل لوقا ١٧ : ٢٩؛ رسالة إلى أهل رومية ٩ : ٢٩؛ رسالة بطرس الثانية ٢ : ٦؛ سفر القضاة ٧). وقال المسيح: «ستكون لأرض سدوم وعمورة [p.196] يوم الدين حالة أكثر احتمالاً من حال أعداء ملكوت الله!» (إنجيل متى ١٠ : ١٥؛ ١١ : ٢٣).

أمر عاموس، وهو راع وزراع تين من تكوا بمنطقة اليهودية جنوبي القدس، بأن يترك غنمه ويكون نبياً. وقد وعظ ضد يربعام الثاني ملك

(1) E.I. s.v. Lût

إسرائيل حوالي سنة ٧٦٠ق.م.. في تلك الأيام كان المساكين يداسون تحت أرجل أصحاب السلطة والنفوذ. ندّد عاموس بالمظالم الاجتماعية وأدان عبادة الذين قلوبهم مستكبرة وأيديهم مليئة بالظلم (سفر عاموس ٤ : ٤-٥؛ ٥ : ٢١-٢٤). «ليجر الحق كالمياه والبِر كنهر دائم!» (سفر عاموس ٥ : ٢٤). ثم يقارن مملكة إسرائيل بسدوم «قلبت بعضكم كما قلب الله سدوم وعمورة فصرتم كشعلة منتشلة من الحريق فلم ترجعوا إلي، يقول الرب» (سفر عاموس ٤ : ١١).

في العام ٧٣٥ق.م. أعلن إشعياء الذي دعي لأن يكون نبياً في هيكل القدس (سفر إشعياء ٦ : ١) «الويل» لأمة خاطئة: «بلادكم خربة مدنكم محرقة بالنار أرضكم تأكلها غرباء قدّامكم وهي خربة كانقلاب الغرباء...لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة» (سفر إشعياء ١ : ٧-٩). ثم يدين إشعياء، وربما كان ذلك في أثناء حفل ليتورجي عظيم في مستهل دعوته النبوية، رياء الناس الذين يأتون بالذبائح لكنهم ضالعون في الظلم الاجتماعي. ويخاطب قادة القدس كقادة سدوم ويطلب من أهل عمورة أن يصغوا إلى تعاليم الله إلى التوارة. أيديهم التي تسوق الأضاحي لله ملطخة بدم الأبرياء المظلومين. «تعلّموا فعل الخير أطلبوا الحق. أنصفوا المظلوم، أقضوا لليتيم، وحاموا عن الأرملة». (سفر إشعياء ١ : ١٠-١٧)يعرضون خطاياهم مثلما فعلت سدوم - ولا يحجبون واحدة منها (سفر إشعياء ٣ : ٩). يتنبأ إشعياء بأن مدينة بابل، بهاء الممالك كلها، وفخر الكلدانيين، ستلقى نفس مصير سدوم وعمورة اللتين أهلكهما الله: «وقتها قريب المجيء وأيامها لا تطول» (سفر إشعياء ١٣ : ١٩، ٢٢). ويتنبأ إرميا، مثلما فعل إشعياء من قبله، بخراب بابل وأرض الكلدانيين أيضاً، الإمبراطورية البابلية الحديثة: «كقلب الله سدوم وعمورة

ومجاوراتها، [p.197] يقول الرب، لا يسكن هناك إنسان ولا يتغرّب فيها ابن آدم» (سفر إرميا ٥٠ : ١، ٤٠). في العام ٥٣٩ق.م. سقطت بابل في أيدي الفرس وفي العام ٣٢٠ق.م. في يد الإغريق، أي الإسكندر الكبير.

كان على النبي إرميا (حوالي ٦٤٥ -٥٨٧ق.م.) أن يطوف في شوارع مدينة القدس ويتفحص الساحات ليرى هل يجد «*إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب للحق*«فيصفح الله عن المدينة (سفر إرميا ٥ : ١)، تماماً مثلما كان من الممكن أن يصفح عن سدوم لو وجد فيها عشرة رجال أبرار. ولكن، عندما سئل إرميا لِمَ كان الله يفعل ذلك كله بالشعب، أي لِمَ تركهم يسبون إلى المنفى، أمر إرميا بأن يجيب: «كما أنكم تركتموني وعبدتم آلهة غريبة في أرضكم هكذا تعبدون الغرباء في أرض ليست لكم» (سفر إرميا ٥ : ١٩) حدث ذلك لأنهم ما عادوا يهتمون أبداً بالناموس، والتوراة التي أنزلها الله لهم وعصوا أمره وفرائض الناموس. بل عاندوه ومضوا في سبيلهم وعبدوا البعل (سفر إرميا ٩ : ١١-١٥؛ قارن سفر إرميا ١٦ : ١٠-١٣). ثم «يعبر أمم كثيرة في هذه المدينة ويقولون الواحد لصاحبه لماذا فعل الرب مثل هذا لهذه المدينة العظيمة؟» ويكون الجواب «من أجل أنهم تركوا عهد الرب إلههم وسجدوا لآلهة أخرى وعبدوها» (سفر إرميا ٢٢ : ٨-٩). صارت مدينة القدس كلها «كسدوم وسكانها كعمورة» (سفر إرميا ٢٣ : ١٤). وفي سفر مراثي إرميا عظم إثم الشعب وخطيئة بنت صهيون «أعظم من قصاص خطية سدوم التي انقلبت كأنه في لحظة ولم تلقَ عليها أياد» (مراثي إرميا ٤ : ٦).

أدوم، القوم الأشقاء لبني إسرائيل، والذين اعتبروا متحدرين من عيسو شقيق يعقوب الملقب بإسرائيل، تخضع لدينونة مماثلة على فم

إرميا: «وتصير أدوم عجباً كل مارّ فيها يتعجّب ويصفر بسبب كل ضرباتها. كانقلاب سدوم وعمورة ومجاورتهما...لا يسكن هناك إنسان ولا يتغرّب فيها ابن آدم» (سفر إرميا ٤٩ : ١٧-١٨).

نُفي النبي حزقيال مع نخبة قوامها عشرة آلاف شخص سنة ٥٩٧ وسكن في بابل، وقد عاش وعمل في موضع يدعى تل أبيب، وربما كان معناه «تل الطوفان». في الإشارة إلى مدينة القدس استعمل حزقيال صورة امرأة زانية أو عاهرة بسبب رفضها الله (سفر حزقيال ١٦ : ١٥؛ قارن [p.198] سفر إشعياء ١ : ٢١؛ سفر إرميا ٢ : ٢؛ ٣ : ٦-٧؛ سفر حزقيال ٢٣؛ سفر هوشع ١ : ٢؛ ٢ : ٤). وهو يقارن السامرة عاصمة إسرائيل بسدوم (سفر حزقيال ١٦ : ٤٦)، شقيقتها الصغرى. كما أنه يعرض للسامرة وسدوم باعتبارهما مستوطنات تابعة للقدس ومعروفتن بفسادهما (سفر حزقيال ١٦ : ٤٦، ٦١). ولكن مدينتي سدوم وعموره أفضل حالاً في نظر حزقيال من القدس. «حيّ أنا يقول السيد الرب، إن سدوم أختك لم تفعل هي ولا بناتها كما فعلت أنت وبناتك. هذا كان اثم أختك سدوم: الكبرياء والشبع من الخبز وسلام *الأطمئنان* كان لها ولبناتها ولم تشدد يد *الفقير والمسكين .وتكبّرن* وعملن الرجس أمامي فنزعتهن كما رأيت». وحري بالملاحظة أنه قيل إن «السامرة لم تخطئ نصف» خطايا القدس. «بل زِدتِ رجاساتك أكثر منهن وبرّرت أخواتك بكل رجاساتك التي فعلتِ» (سفر حزقيال ١٦ : ٥١). ثم يقول النبي ناطقاً بلسان الله: «وأرجِع سبيهن سبي سدوم وبناتها وسبي السامرة وبناتك وسبي مسبيّيك في وسطها لكي تحملي عارك وتخزي من كل ما فعلت بتعزيتك إياهن» (سفر حزقيال ١٦ : ٥٣-٥٤). وترجع كل من السامرة وسدوم والقدس إلى حالتهن السابقة (سفر حزقيال ١٦ : ٥٥).

ويذكر النبي صفنيا، وهو معاصر لإرميا أكبر منه سنًّا، سخرية

موآب، أحفاد لوط عبر ابنته، وكيف لعنوا مملكة إسرائيل ولم يحترموا حدودها. «فلذلك حيّ أنا يقول رب الجنود إله إسرائيل إن موآب تكون كسدوم وبنو عمون كعمورة ملكَ القريص وحفرة ملح وخراباً إلى الأبد» (سفر صفنيا ٢ :٨-٩).

سدوم وعمورة والمسيح

تكلم المسيح على نحو كلام الأنبياء السابقين. ويوم أرسل تلامذته الإثني عشر، قال: «ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة انفضوا غبار أرجلكم. الحقّ أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة». حينئذ ابتدأ يوبخ مدن الجليل التي لم تتب: «ويل لك يا كورَزين، ويل لك يا بيت صيدا! لأنه لو صنعت في صور وصيداء القوات المصنوعة فيكما لتابتا [p.199] قديما في المسوح والرماد. ولكن أقول لكم إن صور وصيداء تكون لهما حالة إكثر احمتالاً يوم الدين مما لكما. وأنت يا كفرناحوم [وهي من أهم الأمكنة التي أجرى فيها المسيح معجزاته، واعتبرت بلدته بعد أن غادر الناصرة (إنجيل متى ٩ :١؛ ٤ :١٣)] المرتفعة إلي السماء ستهبطين إلى الهاوية. لأنه لو صنعت في سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم. ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لك» (إنجيل متى ١٠ :١٥؛ ١١ :٢١-٢٤).

وعندما يتكلم المسيح عن مجيء ملكوت الله ويوم ظهور ابن الإنسان، يقوم بمقارنات بزمان نوح حتى صعوده السفينة، وبزمان لوط أيضاً. في تلك الأزمنة، كان الناس يأكلون ويشربون ويتبايعون، ويغرسون ويبنون، ولكن يوم غادر لوط سدوم أمطرت السماء ناراً

وكبريتاً وأهلكت الجميع. وهذا على التحديد ما تكون عليه الأحوال يوم يظهر يسوع/عيسى، ابن الإنسان (إنجيل لوقا ١٧ : ٢٧-٣٠).

ويتحدث آخر أسفار الكتاب المقدس [وهو رؤيا يوحنااللاهوتي] عن «الوحش» الذي يخرج من الهاوية (قارن سفر الرؤيا ١١ : ٧ ويحارب القديسين ويغلبهم، وهو تجسيد لسلطة الشيطان المناوئة لله على الأرض. وسلطانه المقيت كان عند النبي دانيال تمهيداً لبزوغ فجر ملكوت الله (سفر الرؤيا ٢١ : ٧)[١]. أول ظهور «للوحش»[٢] يفضي إلى صراع دموي. يعاني الشهود ويموتون من أجل الحقيقة (قارن سفر الرؤيا ٦ :). الشهيدان هما شهود دم. وهما يتعرضان للإهانات حتى من بعد موتهما. فالناس من كافة الأعراق يرون جثتيهما على الأرض ولا يسمحون بدفنهما. وهما عرضة للاحتقار والاستهزاء (سفر المزامير ٧٩ : ٣-٤؛ سفر إرميا ١٦ : ٤؛ سفر إشعيا ١٤ : ١٩). والمدينة تدعى «سدوم» و «مصر»! تظل جثتاهما في ساحة المدينة العظيمة، التي تسمى رمزياً سدوم ومصر، حيث صلب سيدهما. سدوم ومصر هما المعدودتان مثالين على الفسوق وظلم شعب الله. وهنا المقصود هو القدس (سفر الرؤيا ١١ : ٨)! [p.200]

سدوم وانتهاك حرمة الضيف

«سدوم» مضرب المثل في الخطيئة(سفر إشعياء ١ : ٩ وما يليها؛ سفر حزقيال ١٦ : ٤٦ وما يليها)، ومصر في القسوة والعداوة لشعب الله.

(١) Johannes Behm, *Das Neue Testament Deutsch: Die Offenbarung des Johannes* (Göttingen: Vandenhoeck and Ruprecht, 1949), p. 60 (العهد الجديد بالألمانية: رؤيا يوحنا اللاهوتي)

(٢) وفي هذا إشارة إلى طاغية أنطاكية الشرير أبيفانس (١٧٥-١٦٤ق.م.) (سفر دانيال ٧ : ٢١)

وتذكر سدوم ومصر جنباً إلى جنب في كتاب الحكمة. لم يقبل السدوميون أن يضموا الغرباء الذين قدموا إليهم في مجتمعهم؛ أما المصريون فكانوا قد قبلوا الأجانب، أي بني إسرائيل الذين أحسنوا إليهم - عن طريق يوسف الذي أنقذهم من سبع سنين من المجاعة - أولاً كضيوف ثم كعبيد لاحقاً. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يتعداه إلى الحكم على آخرين جراء سوء استقبالهم للأجانب. تنكّر السدوميون لواجب الضيافة (سفر التكوين ١٩ : ٥). على الضد من ذلك أظهر المصريون الحفاوة باستقبالهم، ثم لما شارك بنو إسرائيل في حقوق المصريين، قلبوا لهم ظهر المجنّ وأذاقوهم عذاب العمل الشاق. لقد ضُربوا بالعمى - تماماً مثل الآخرين على باب لوط البار (سفر التكوين ١٩ : ٦، ٩ : ١١) - لما أحاقت بهم ظلمة دامسة وراح كل منهم يتلمس الطريق إلى باب بيته (Wis. 19: 14-17) والسخرية اللاذعة هي أن «المدينة المقدسة» هي التي قتلت الأنبياء وصلبت المسيح[١].

خرائب مدينة إرَم (ذات العماد)

دعا محمد في بلاغه مستمعيه للالتفات إلى بيئتهم والتأمل فيها. وقد قام بذلك هو نفسه مراراً أيام كان يسافر في قافلة أيام شبابه، مثلما يفعل أي مسافر. وقد مرّ محمد لاحقاً بخرائب الأنباط في طريقه إلى غزوة تبوك سنة ٦٣١ م. ولم يستطع جنده الاستقاء من النبع لأن المكان كان

(1) Behm, *Das Neue Testament Deutsch*, pp. 60-61. Wis. 19:14 (KBS)

(٢) Alfred Guillaume, *The Life of Muhammad: A Translation of Ishâq's Sirat Rasûl Allah*, reprint (Lahore, Karachi, and Dacca) Oxford University Press, 1967, p.605 (سيرة محمد)

ملعوناً[1]. كان هذا الموضع المعروف بمدائن صالح والواقع إلى الجنوب من الأردن الحالي، أهم مدينة بعد البتراء. وفي القرآن أن هذه البقعة كانت ديار ثمود الذين نحتوا بيوتهم في الصخور (سورة الأعراف: ٧٤) والذين أرسِل إليهم صالح نبياً. وقد أدينوا وعوقبوا بزلزال (سورة الأعراف: ٧٧-٧٨)[2]. واسم مدينة عاد «إرم ذات العماد [p.201] التي لم يخلق مثلها في البلاد» (سورة الفجر: ٦-٩). ويقال إن المدينة قد شيّدت بالقرب من عدن كمحاكاة للفردوس وأنها قد عوقبت على تجبرها واستكبارها، بالريح العقيم. واتهم قوم ثمود باستعمال أبنيتهم لضمان خلودهم عبر شهرتهم (سورة الشعراء: ١٢٨-١٢٩).

اكتشف مدينة إرَم في أيام معاوية بن أبي سفيان، أول الخلفاء الأمويين، (٦٠٢-٦٨٠) رجل خرج من صنعاء في طلب إبل له ضلّت في صحراء اليمن. ويروى أن شدّاداً بن عاد لما سمع بالجنة وما أعدّ الله فيها لأوليائه قرر أن يتخذ في الأرض مدينة على صفتها في مدة عشرين سنة. فكانت مدينة من الذهب والفضة والدر والياقوت والجواهر والعنبر، وغرس الأشجار المثمرة في الشوارع. ولما أخبر شدّاد بالفراغ من بناء المدينة أراد أن يزورها. ولما انتهى إلى مسافة مرحلة منها أرسل الله عليه وعلى أصحابه الكافرين صيحة من السماء فمات هو وأصحابه أجمعون جراء قوة الصيحة. لم يصل شداد ولا صحبه إلى المدينة ولا عاينوها حتى من بعد، ومحا الله كل آثار الطريق المفضية إليها. ولكن المدينة ظلت هناك حتى يوم الدين. وقد كتب على شاهد قبر شدّاد:

إعتبر يا أيها المغـ ـرور بالعمر المديد

(1) E.I. s.v. "al-Hidjr"

أنـــا شـــدّاد بــــن عـــاد   صـاحـب الـحـصـن الـمـشـيـد
وأخـــو الـــقـــوّة والـــبـــأ   سـاء والـمـلـك الـحـشـيـد
دانَ أهل الأرض طرّاً لي من خوف وعيدي
فـــأتـــى هـــود وكـــنّـــا   فـــي ضـــلال قـــبـــل هـــود
فـــدعـــانـــا، لـــو أجـــبـــنـــا   ه، إلـــى الأمـــر الـــرشـــيـــد
فـــعـــصـــيـــنـــاه ونـــادى   مـــا لـــكـــم، هـــل مـــن مـــحـــيـــد؟
فـــأتـــتـــنـــا صـــيـــحـــة تـــهـــ   وي مـــن الأفـــق الـــبـــعـــيـــد

يُنظر أحياناً إلى فردوس إرَم المفقود باعتباره سابقاً لمدينة مسلمة معاصرة. ويجعل المسعودي (٨٩٦-٩٥٦) وهو مؤرخ وجغرافي عربي يلقب «بهيرودوتس العرب» نسخة مطابقة للمدينة العجيبة والنقوش في الاسكندرية. ويقال [p.202] إن الإسكندر ذا القرنين وجد خرائب صرح ضخم ذي أعمدة رخامية ونقشاً يقول إنه بني محاكياً لإرَم الأولى[١].

العبر من خرائب المدن

ثمة طبعاً كثرة كاثرة من خرائب الصروح أو المدن التي يمكن أن يشير إليها المرء والتي يمكن أن ترتبط بها حكاية تروي لِمَ انهارت هذه الحضارة وتلك الثقافات. «ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّنّاهم في الأرض ما لم نمكّن لكم؟» (سورة الأنعام: ٦). بعض هذه المدن ما تزال آثارها قائمة بينما اختفت الأخرى من على وجه الأرض. وما غلبها القدر الأعمى، ولا ملامة للإنسان إلا على نفسه، «وما ظلمناهم ولكن

(1) *E.I. s.v.* "Iram"; Richard Stoneman, *Alexander the Great: A life in Legend* (New Haven and London: Yale University Press, 2010), p. 163. Cf. Branon M. Wheeler, *Mecca and Eden: Ritual, Relics, and Territory in Islam* (Chicago and London: The University of Chicago Press, 2006), pp. 113-114

ظلموا أنفسهم» (سورة هود: ١٠٠-١٠١). وقد أتت أصحاب هذه المدن، كسدوم وعمورة، الرسلُ بالبيّنات. «فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (سورة التوبة: ٧٠). وهذه من الثيمات المتكررة باستمرار في القرآن. فالإنسان يظل مسؤولاً بصفة شخصية عن أعماله أو أعمالها: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم أشدّ منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق» (سورة غافر: ٢١؛ قارن سورة غافر: ٨٢؛ سورة فاطر: ٤٤؛ سورة الروم: ٩).

فلا عقوبة من دون سبب يسوّغها. كم أهلك الله «من قرية بطرت معيشتها»؟ هجرت مساكنها و«لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً». «وما كان ربّك مُهلِك القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً» (سورة القصص: ٥٨-٥٩). «تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل» (سورة الأعراف: ١٠١). وما أهلك الله من قرية إلا وقد أنذرها بلغة أهلها، «إلا ولها كتاب معلوم» (سورة الحِجر: ٤). لقد اكتسب كل إنسان معرفة الخير والشر، لأن الله أخذ من «بني آدم» [p.203] من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنّا عن هذا غافلين (سورة الأعراف: ١٧٢). لكل الناس ضمير يميزون به بين الخير والشر (سورة الشمس: ٧-١٠). «وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا» ليميزوا بين الخير والشر (سورة القصص: ٥٩). فعل الخير يستتبع اتباع الشريعة التي أظهرها الله على الأرض، كما هي مثبتة في الكتاب والاقتداء بالرسول. فلا عقوبة إذاً من دون رسول أو من دون كتاب منزل. «وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» (سورة هود ١١٧). وكثيراً ما يشير القرآن إلى فاعلي

الخير باعتبارهم «صالحين» (سورة الأنبياء: ١٠٥؛ سورة الحج: ١٤). والنبي الذي أرسل إلى بني ثمود اسمه «صالح» أي فاعل الصلاح (سورة الأعراف: ٧٣-٧٩؛ سورة هود: ٦١-٦٨؛ سورة الشعراء: ١٤١-٥٩؛ سورة النمل: ٤٥-٥٣). «ومن يُطِع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (سورة النساء: ٦٩). زكريا، والد يوحنا المعمدان/ يحيى، ويحيى/ يوحنا نفسه، والمسيح، وإلياس، هم جميعاً من الصالحين (سورة الأنعام: ٨٥)[١].

صلاة من أجل المدينة والعالم

كان إبراهيم، مثله مثل يسوع/ عيسى المسيح، منادياً بالحقيقة، صادقاً وصالحاً (سورة النحل: ١٢٢). كان امرءًا حليماً أيضاً (سورة التوبة: ١١٤؛ سورة هود: ٧٥). والحليم لطيف، دمث يصبر على ما ينزل به، وهو شكور، لا يفقد الأمل أبداً، مفعم بالثقة بأن لما يلمُّ به من كرب معنى وغاية ويمكن أن يتحول إلى شيء خيّر. وينسب القرآن هذه إلى إبراهيم وابنه فضلاً عن الله (سورة آل عمران: ١٥٥)[٢]. وقد «اتخذ الله إبراهيم خليلاً» (سورة النساء: ١٢٥)؛ سفر إشعياء ٤١: ٨؛ رسالة يعقوب ٢: ٢٣). ويرى ابن عربي(ت ١٢٤٠)، المتصوف الشهير، في لقب «الخليل» هذا تعبيراً عن «التداخل» بين إبراهيم والله[٣]. صلّى إبراهيم متشفعاً لسدوم. ومثلما قيل إن إبراهيم صلى صلاة شفاعة لسدوم، يتحدث القرآن أيضاً عن صلاة كهذه (سورة هود: ٧٤-٧٥). «قل لله الشفاعة» [p.204] (سورة الزمر: ٤٤). «من ذا الذي يشفع عنده

---

(1) *E.Q. s.v.* "Good Deeds"; "Good and Evil"

(2) Bauschke, *Der Spiegel des Propheten*, p. 55

(3) Bauschke, *Der Spiegel des Propheten*, p. 57

إلا بإذنه» (سورة البقرة: ٢٥٥؛ قارن سورة يونس: ٣)؟[1] الملائكة «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا» (سورة غافر: ٧)، «ويستغفرون لمن في الأرض» (سورة الشورى: ٥).

ولا تغني الشفاعة شيئاً «إلا من بعد أن يأذن الله ويرضى» (سورة النجم: ٢٦؛ سورة طه: ١٠٩؛ سورة سبأ: ٢٣)[2]. إبراهيم، أبو المؤمنين، مثال للمسلم الحقيقي، وهو على قول القرآن مثال لليهود والمسيحيين و«المسلمين» (بالمعنى السوسيولوجي للكلمة) (سورة البقرة: ١٤٠؛ سورة آل عمران: ٦٧) وهو مثال للجميع، مثال للأمة. وفيما يصمد هذا الشفيع أمام وجه العلي، فإن «أبناء إبراهيم» يصبحون *أمة شفيعة*، *أو* كنيسة، *أو قاهال* أي جماعة الذين يسمعون نداء الأنبياء في كل مدينة. ثم على «الأمة» أن تكون كإبراهيم، فلا تحوّل قلبَها إلى وكر للقتلة المجرمين. يريد الله أن يسمع من أفواه جماعة المصلين ما يحدث في صفوف الناس، ما هي المعاصي؛ ما هي المظالم، وانتهاكات حقوق الإنسان. يتقدم إبراهيم متشفعاً للسدوميين. ويبدو أن مهمة «أبي المؤمنين» هي أيضاً مهمة أبنائه المؤمنين: الصلاة من أجل مدننا، من أجل المدينة، ومن أجل العالم. *والصلاة* أيضاً تعني *العمل* في الوقت نفسه، وباللاتينية *ora et labora*، صلِّ واعمَل. ويبين إبراهيم أنه قد فعل ذلك عبر محاولته الفعلية لإنقاذ ابن أخيه لوط وسدوم (سفر التكوين ١٤: ١٣-١٦). ويمكن للمدينة والعالم أن يستمرا في الوجود بسبب هذا النوع من الصلاة والعمل!

---

(1) *E.I. s.v.* "shafâ'a"

(2) *E.Q. s.v.* "Intercession"

يجب أن تستمر الصلاة من أجل المدن وأن يستمر العمل عليها بحيث تزول عنها الصفات السدومية: اغتصاب القانون والمحبة بالمعنيين الحرفي والمجازي للكلمة. هناك الكثير من الغرباء المقيمين في المدن، أي غرباء بعضهم عن بعض. فإذا اتسمت المدينة بصفة اللاضيافة التي لا تحتمل أي غريب، إذا حصل هذا في مدننا، فإنها تشرع في مشابهة سدوم. عرّج المسيح يوماً في طريقه إلى القدس على قرية سامرية فلم يُرحَّب به جراء العداوة بين اليهود والسامريين. فاقترح تلميذاه يعقوب ويوحنا أن يستنزل على القرية ناراً من السماء فتفنيهم (إنجيل لوقا ٩ : ٥٤). «فالتفت إليهما وانتهرهما» ووصفهما بابني الرعد (بوانَرجِس) (إنجيل مرقس ٣:١٧)! ما هذا بالرد على عدم الضيافة. من أجل المدينة ومن أجل العالم [p.205] يجب على المرء أن يستمر في الصلاة والعمل، وإلا فإن هذه المدن ستمضي على طريق سدوم، وهو أمر يحظره الله.

«ملكوت الله هو هذا العالم مقلوباً رأساً على عقب» (هوب أوسترهوس)، أي متغيراً، ومتحوّلاً كلياً. هذا هو الانقلاب الحقيقي بالمدن الذي يريد الله أن يحدثه. [p.206]

الفصل التاسع

ما الذي يهدد المدينة؟

يأجوج ومأجوج، مامون ومولوخ

خلال الاستعدادات لغزو العراق، لاحظ الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن خلال محادثة دارت بينه وبين الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك أن يأجوج ومأجوج ينشطان في الشرق الأوسط وأن ثمة حاجة إلى إنزال الهزيمة بهما: «هذه المواجهة أمر أراده الله الذي يريد أن يستعمل هذا الصراع ليمحو أعداء شعبه قبل أن يبدأ العصر الجديد».

مدخل

من الأصوات المتنوعة التي يستطيع المرء أن يسمعها في القرآن صوت هو، قبل كل شيء، الصوت الرؤيوي[1]، أو المزاج الرؤيوي في بعض الفقرات، مصحوباً بصور دراماتيكية للجنّة والنار، مشاهد من يوم

(١) والنسبة إلى سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، آخر أسفار العهد الجديد التي تصور أحوال يوم الدين

الدين وأحوال الآخرة[١]. بعض الفقرات من الكتب الثلاثة حول الأيام الأخيرة المتسمة بالسمة الرؤيوية تقع أيضاً في إطار قصة مدينتين، أي الزمن الذي يتوقف فيه كل شيء. في الحالات الثلاث كلها تقدم «رؤيا»، وحي أو تفسير للزمان، في تلك المرحلة الحاسمة، يطبق في التاريخ المتأخر، وصولاً إلى الحاضر:

بابل والقدس/ أورشليم كانتا على طرفي نقيض أيام الملك نبوخذنصر الذي احتل القدس وخرّبها في القرن السادسق.م.. ويعالج هذا الأمر في كتابي النبيين حزقيال ودانيال.

كذلك كانت القدس وروما في أواخر القرن الأولق.م.. وفي السفر الأخير من أسفار الكتاب المقدس، أي في رؤيا يوحنا اللاهوتي، كانت بابل ترمز إلى روما، مركز الإمبراطورية الرومانية القوية.

وكانت القسطنطينية والمدائن/ طيسفون على طرفي نقيض في أوائل القرن السابع أيام بعثة الرسول محمد.

تنشأ النصوص الرؤيوية، التي تقوم بدور فهم وتفسير ما يحدث وما سيحدث، في أزمنة الأزمات والحرب. كان أوائل من سمعوا رسالة القرآن يألفون بعض الصور الرؤيوية، وسوف يظل الوضع على هذا النحو خلال القرون الأولى من توسع الإسلام، [p.207] ولاحقاً في الشرق الأوسط. كانت الجماعات اليهودية، والمسيحية، والمسلمة المتعايشة في تلك المناطق تتشارك توقعات ورؤى متشابهة. كان ثمة

---

(١) Tarif Khalidi, Images of Muhammad: Narratives of the Prophet in Islam across the Centuries (New York, London, etc: Doubleday, 2009), p.22 (صور النبي محمد عبر العصور)

أنواع متعددة من السيناريوهات في شأن آخر الزمان[1]. وفي أوائل القرن الثامن كانت «الرؤى» منتشرة على نطاق واسع في بيزنطية و«الغرب اللاتيني» في مناطق متنوعة ولغات وثقافات مختلفة[2].

في هذا الفصل، سننظر أولاً في كيفية استعمال بعض الصور في الكتاب المقدس والقرآن في الوقت الحاضر من أجل تفسير العلاقات المتوترة القائمة بين الناس. من أين استقيت هذه الصور وما معناها؟ ماذا تعني النصوص «الرؤيوية»، في سفري دانيال ويوحنا اللاهوتي، المتعلقة بتوقعات نهاية الزمان؟ دانيال، استناداً إلى الرواية الإسلامية، هو كاشف المستقبل والأسرار المحيطة «بقيام الساعة»، بداية النهاية. ويقال إن العساكر الإسلامية عثروا على سفر دانيال «صدفة» خلال فتح المسلمين لتُستَر بجنوب غرب بلاد فارس أيام الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤). وكان السفر مودعاً في تابوت ظنوا أن فيه رفات دانيال. ثم إن عمراً أمر بدفنه ثانية مع رفات النبي[3].

ويشير الأثر اليهودي، والمسيحي، والإسلامي إلى يأجوج ومأجوج الذين يعادون الله ويظهرون في الفترة الأخيرة التي تسبق يوم الدين في آخر الزمان. والقرآن يسميهم يأجوج ومأجوج. وفي التفسير اليهودي والمسيحي، تتصل هذه الحوادث «بأزمنة النهاية». وظهورهم من أشراط الساعة، وهم يطلقون من عقالهم لارتكاب شرورهم بانتظار عودة المسيح عيسى الذي يملك «علم» الساعة أو أنه هو نفسه من نذرها

(1) Hayzettin Yücesoy, *Messianic Beliefs & Imperial Politics in Medieval Islam: The Abbasid Caliphate in the Early Ninth Century* (Columbia, SC: The University of South Carolina Press, 2009), p.28

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤. قارن David Cook, *Studies in Muslim Apocalyptic* (Princeton: The Darwin Press, Inc., 2002)

(٣) Cook, op. cit. قارن *E.I. s.v.* Dâniyâl; Yügesoy, op. cit., p. 33

(سورة الزخرف: ٦١؛ قارن أعمال الرسل ١: ٦). ولما كان القرآن يربط يأجوج ومأجوج «بذي القرنين»، أي الاسكندر الكبير، على ما سوف نرى، فإن الأخير مرتبط بالكتاب المقدس و بالقرآن. وينبغي لنا، في هذا المقام أن ننظر في ما يسمى [p.208] بقصة الإسكندر البطولية التي ترقى إلى القرن الثالث للميلاد وأسطورة الإسكندر التي ترقى إلى القرن السابع. وترقى الأسطورة الأخيرة إلى زمن نشاط محمد كنبي، يوم كان الإمبراطور البيزنطي منشغلاً بالحرب على فارس، ووقوع المجابهة الأولى بين عسكر المسلمين والبيزنطيين. وهكذا، بدأت قصة مدينتين خلال حياة محمد ونشاطه: بيزنطية وطيسفون/ المدائن.

الحروب المعاصرة وهرمجدّون[١]

في زمن الحروب والأزمات هذا، ثمة أفراد وجماعات، من بين يهود، ومسيحيين ومسلمين، يحملون أفكاراً متطرفة مستلهمة من نصوص من الكتب الثلاثة. وهم يستعملونها لتفسير وتوضيح ما يحدث أو ما يوشك أن يحدث. ثم إن الأوصاف الرؤيوية، كتلك المتعلقة بحلول عهد الألف سنة من السلام، تطبّق على الوقت الحاضر. وملك الألف سنة من السلام الموصوف في سفر الرؤيا ٢٠: ١-٦ هو مملكة مسيحانية أرضية موقتة تسبق ملكوت الله الكوني الأبدي[٢].

---

(١) هرمجدّون اسم عبري معناه «جبل مجدّو» الواقع في مرج ابن عامر بفلسطين، وهو موقع تنبأ يوحنا اللاهوتي، كاتب الرؤيا، أنه سيتحول إلى ساحة للحرب النهائية الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر - ملحوظة المترجم استناداً إلى قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من ذوي الاختصاص واللاهوتيين، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨١).

(2) KBS on Rev. 20: 1-6

يروي الكاتب، والمسرحي، وكاتب المقالات والناشط السياسي غور فيدال في مقالة له كيف أن الرئيس رونالد ريغان الذي حارب «مملكة الشر»، كناية عن الاتحاد السوفييتي في وصفه، كان مقتنعاً بأن معركة هرمجدون كانت قاب قوسين أو أدنى. والأرجح أن اسم هرمجدون مستمد من جبل مجدو (سفر الملوك الثاني ٢٣:٢٩-٣٠)، وهو موضع بفلسطين جرت فيه عدة حروب في الماضي (سفر القضاة ٥:١٩؛ سفر الملوك الثاني ٩:٢٧؛ ٢٣:٢٩؛ سفر الأخبار الثاني ٣٥:٢٢). وتتصل أوصاف نهاية التاريخ بهرمجدون باعتباره ساحة المعركة العنيفة النهائية، آخر المعارك (سفر رؤيا يوحنا ١٦:١٦). و«الجنون» المسيحي الذي يعاني منه بعض رؤساء الولايات المتحدة مرعب، في نظر فيدال. ففي رأيه أنه يصدر عن مسيحانية أمريكية طهرانية مقرونة بنزعة توسعية في السياسة تستند إلى *المصير الظاهر*الواضح الذي يرون أنه ينتظر الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الأرض الموعودة لشعب اختير لغايات إلهية، نظراً لكون «الله قد بارك هذا المسعى؛ وهو نظام جديد للأجيال». ثم إن قطاعاً كبيراً من النخبة السياسية الأمريكية مقتنع اقتناعاً راسخاً بأن الولايات المتحدة سوف [p.209] تعيد، بصفتها «إسرائيل الجديدة»، العدالة الكونية وتساعد العالم على أن يولد من جديد. وهكذا برأيهم سوف يتصالح الله مع البشر في نهاية الأمر.

ونلمس النحو نفسه من التفكير في القرن الحادي والعشرين. في تشرين الثاني ٢٠٠٢، كان الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن منشغلاً بإجراء الاتصالات لتشكيل ما أسماه «تحالف المريدين»، تحالف مريد ومستعد لشن الحرب على العراق بسبب افتراض وجود أسلحة الدمار الشامل المزعومة في عراق صدّام حسين. وقد استعمل بوش هذه العبارة لمدة طويلة في الإشارة إلى تلك البلدان التي قدمت الدعم العسكري أو

السياسي، وهي مجموعة ضمت هولندا مثلاً، بينما عارضتها فرنسا وألمانيا. في ذلك الزمن أخبر الرئيس بوش الرئيس الفرنسي جاك شيراك أن شخصيات يأجوج ومأجوج التوراتية كانت ناشطة في الشرق الأوسط وأنه لا بد من إنزال الهزيمة بها. كان يعتقد أن الوقت قد حان لهذا القتال، إذ إن هذا الصدام كان أمراً شاءه الله الذي أراد استعماله لمحو أعداء شعبه قبل أن يبدأ العصر الجديد[١]. ويروى أن شيراك انذهل وانفعل جراء استعانة بوش بنبؤات التوراة لتسويغ الحرب على العراق، ويقال إنه تساءل «كيف يمكن لأحد أن يكون على هذا القدر من السطحية والتعصّب في معتقداته».

ويروى أن بوش قال في السنة نفسها لوزير الخارجية الفلسطيني أنه في غزوه للعراق وأفغانستان إنما يؤدي مهمة إلهية وأنه قد تلقى الأوامر من الله نفسه. وكشفت مجلة جي كيو GQ Magazine (Gilbert Magazine) أن دونالد رامسفيلد، الذي كان وزيراً للدفاع يومها، كان يرصّع مذكرات حربية سرية جداً باقتباسات من التوراة، وهذا ما يثير السؤال لِمَ كان يظن أن في وسعه التأثير في بوش على هذا النحو. والظاهر أن الرئيس كان يعتقد معتقدات أخروية ألفية، أي كان يؤمن بحلول عهد الألف سنة من السلام: «ثم متى تمّت الألف السنة يُحَلّ الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ويأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من السماء وأكلتهم» (سفر الرؤيا ٢٠ : ٧-٩). [p.210]

---

(١) خرجت رواية هذا الحديث إلى العلن لأن قصر الإليزيه الذي أدهشته كلمات بوش طلب النصح من أستاذ في اللاهوت بجامعة لوزان. وقد أكد الرئيس شيراك هذه الرواية في كتاب كتبه الصحافي جان كلود موريس؛ قارن الحاشية رقم منه.

لا شك وهذا بيِّنٌ أن السبب وراء شن الرئيس الأمريكي الحرب على العراق، بالنسبة إلى ذاته على الأقل، كان في أساسه سبباً دينياً. فقد صدر عن الاقتناع بأن الهجوم على عراق صدام حسين كان إتماماً لنبوءة توراتية وأنه قد تم اختياره هو لإدارة الحرب كأداة بيد الله. وقد لقي عدة آلاف من الأمريكيين والعراقيين حتوفهم في حملة موجهة للقضاء على يأجوج ومأجوج. إن اعتبار الرئيس الأمريكي نفسه مطية لله لا يمكن إلا أن يعزز في الشرق الأوسط الظن بأن الولايات المتحدة تشن حرباً صليبية على الإسلام(١).

ويمكن أن توجد النظرات الرؤيوية في المجتمعات الإسلامية ماضياً وحاضراً، مع إشارات مماثلة إلى قصص يأجوج ومأجوج. من ذلك أن الناشط الإسلامي المتطرف المولود في حلب سنة ١٩٥٨ المعروف باسمه المستعار، أبو مصعب السوري، قد استشهد بحوالي عشرة نصوص قرآنية في «دعوته إلى المقاومة الإسلامية العالمية» وهو يتحدث عن مجيء المسيح ثانية أو الصراع مع يأجوج ومأجوج(٢).

رؤى أخرى: سفر دانيال

بدأت كتابة الأسفار الرؤيوية بعد سبي اليهود إلى بابل. سفر دانيال

---

(١) ثمة جانب لافت للنظر في هذه القصة. يوم كان جورج بوش في سنة تخرّجه من جامعة يال بالولايات المتحدة، كان عضواً في جمعية حصرية هي جمعية الجمجمة والعظام Skull & Bones Society، تماماً كوالده وجده من قبله. ويمنح المبتدئون في هذه الجمعية ألقاباً، وكان لقب جورج بوش الابن ميأجوج. راجع تحت .Bush, God, and Magog www.alternetorg/news/140221.

(2) Gilles Kepel, *Beyond Terror and Martyrdom: The Future of the Middle East* (Cambridge, MA; The Belknap Press of Harvard University Press, 2008), pp. 110, 169

مثال على ذلك، ومثله أيضاً بعض فصول سفر النبي حزقيال (٣٨ و٣٩) وسفر رؤيا يوحنا آخر أسفار العهد الجديد الذي كُتب في نهاية القرن الأول. وتحتوي هذه الأسفار على «إعلانات» عن حوادث آخر الأزمنة؛ وهي تبدأ ببعض الوقائع المعاصرة وتريد دعوة الناس إلى الإيمان والتحلي بالشجاعة حتى الموت في حال حصول محن واضطهادات وأن يظلوا أوفياء لإيمانهم. سأنظر أولاً في سفر دانيال. بالنسبة للذين يألفون ترتيب أسفار الكتاب المقدس كما يستعملها المسيحيون، أي ترتيب الترجمة اليونانية للكتاب المقدس، أي الترجمة السبعينية التي ترقى إلى القرن الثانيق.م.، يوضع سفر دانيال في جملة الأسفار *النبوية* ويلي سفر حزقيال مباشرة. أما في التوراة اليهودية، التناخ، فيوضع سفر دانيال في جملة «الكتابات» (كتوبيم) ويوجد في أواخر النسخة اليهودية الرسمية. تستند الرؤى إلى [p.211] تراث الأنبياء. و«البطل» في سفر دانيال هو شاب يهودي سُبي في عهد نبوخذ نصّر (حوالي ٦٠٥-٥٦١ق.م.) مع سواه إلى المنفى ببابل (سفر الملوك الثاني ٢٥) وأقام في بلاط الأخير مع بعض رفاقه. وهو لم يكن نبياً ومفسراً للأحلام فحسب، بل كان يتجاوب بلطف وصبر مع نزوات الملوك. ويبدو نبوخذ نصّر في كتابه لا مجرد طاغية ظالم وحسب بل وملك يحترم حكمة دانيال وجبروت الله إلهه[١].

والشخصية الرئيسية في الكتاب هي مثال في الحكمة، والعقيدة، والإيمان في أشد المحن. وتتدرج مختلف القصص والرؤى من حيث تسلسلها في عهد هذا الملك وخلفائه. ليس من المؤكد، بل هو من

(1) L L. Finkel and M. J. Seymour, *Babylon: Myth and Reality* (London: The British Museum Press, 2008), p.157

الممكن جداً أنه كان ثمة رجل ذو وجود تاريخي في المنفى يدعى «دانيال» في أواخر العصر البابلي وبداية العصر الفارسي. ولهذا السبب كثيراً ما كانت أسماء الأشخاص ذوي الوجود التاريخي تستعمل غطاء في الأدبيات الرؤيوية.

تقوم الحوادث التاريخية في هذه الرؤى بدور وصف ممنوه لحوادث آخر الأزمنة، قبل مجيء «ملكوت الله»، الزمن الذي يملك فيه الله. في بابل رأى نبوخذ نصر في ما يراه النائم تمثالاً ضخماً: رأسه من ذهب *خالص*، صدره وذراعاه من *فضة*، بطنه وحقويه، من *نحاس*، ورجلاه نصفها من حديد ونصفها من *فخار*. وقد فسرت هذه المعادن المختلفة بأنها تمثل الإمبراطورية البابلية، والفارسية، والإغريقية، والرومانية. ثم رأى صخرة تنفصل عن التمثال، من دون تدخل أية يد بشرية، وتضرب رجليه اللتين من حديد وفخار. ثم إن الصخرة تهشّم تمثال الحديد والفخار والنحاس والفضة والذهب إلى شظايا.

يفسّر دانيال هذا الحلم الذي أقلق الملك كثيراً، على النحو التالي. الرأس الذهبي يمثل نبوخذ نصّر والإمبراطورية البابلية. ثم تليها أربع إمبراطوريات: الصدر والذراعان من فضة ترمز إلى إمبراطورية الميديين، والبطن والحقوين الإمبراطورية الفارسية، ورجلي الحديد والفخار إمبراطورية الإسكندر الكبير الإغريقية. والصخرة هي ملكوت الله الذي سوف يسود في النهاية. ولكن الله يسمح بقيام مملكة لن تزول. وهي سوف تمزق تلك الإمبراطوريات كلها، وتدوم إلى الأبد (سفر دانيال ٢: ١٩-٤٥). [p.212]

ثم إن دانيال رأى حلماً خاصاً به وفيه كل ألوان الصور: حكام أقوياء لإمبراطوريات عظيمة مزينون بقرون الحيوانات (قارن سفر دانيال ٧: ٨،

٢٤) رأى كبشاً واقفاً أمام قناة وله قرنان، أحدهما أعلى من الآخر، وهذا رمز إلى قوة الميديين والفرس. وتدل كيفية نمو القرنين على أن الميديين ملكوا أولاً ثم الفرس. ثم رأى دانيال تيس معز آت له قرن بارز بين عينيه. والقرن يشير إلى الاسكندر الكبير (٣٣٦-٣٢٣ق.م.) الذي كسر الفرس سنة ٣٣١ق.م. والملك داريوس الثالث الذي حكم من سنة ٣٣٦ إلى ٣٣٠ق.م.، آخر ملوك السلالة الأخمينية. وفي ذروة عزّته ينكسر قرن التيس وتبرز في موضعه أربعة قرون أخرى. وتلك هي ممالك خلفاء الإسكندر، البطالسة في مصر والسلوقيون في بلاد الرافدين، وشمال سوريا، وآسيا الصغرى ومقدونيا موطن الإسكندر الأصلي. ويرى دانيال بين القرون قرنا صغيراً يشير إلى الملك أنطيوخس الرابع أبيفانس (١٧٥-٦٤ق.م.) والذي كان من شأنه أن يهدد بقاء اليهود مرة أخرى. ويرقى سفر دانيال نفسه إلى أيام هذا الملك (قارن سفر دانيال ٨: ١-١٢).

القرن والسلطة

صورة القرن تشير إلى سلطة الملك. فالله يمنح القوة لملكه ويعلي قرن «ملكه» الممسوح بالزيت، المسيح (سفر صموئيل الأول ٢: ١٠). والله نفسه يمنح القوة للأبطال ذوي القرون، ويختارهم ليكونوا عبيده، كالملك الفارسي قورش الكبير (٥٥٩-٥٢٩ق.م.). فقد ترك قورش للشعوب من رعاياه أن يعتنقوا الديانة التي يرونها، ومنها الديانة اليهودية. وفي سنة ٥٣٨ق.م. أذن لليهود المنفيين أن يعودوا إلى القدس وأن يعيدوا بناء الهيكل مع إعادة كنوز الهيكل المسروقة (سفر عزرا ١: ١-١١). ويوصف قورش بأنه «راعي الرب»، وهو لقب ملكي، المتمم مشيئته(سفر إشعياء ٤٤: ٢٨)، لملكه الممسوح بالزيت، «لمسيحه»،

والرجل البار(سفر إشعياء ٤٥ : ١) الذي أنهضه الله من المشرق وأحبّه (سفر إشعياء ٤١ : ٢؛ ٤٨ : ١٤-١٥). في الترنيمة التي ترنم بها زكريا والد يوحنا المعمدان/ يحيى، إشارة إلى ما سوف يفعله يوحنا: «مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه، وأقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه» (إنجيل لوقا ١ : ٦٩) أي «قوة خلاص». وفي الكتاب الأخير من العهد الجديد من الكتاب المقدس يمتلك الخروف، إشارة إلى المسيح عيسى/ يسوع، سبعة قرون وسبعة أعين رمزاً للقوة (قارن سفر التثنية: ٣٣ : ١٧) والعلم الكلي. وهذه هي أرواح الله السبعة [p.213] المرسلة إلى الأرض كلها (سفر الرؤيا ٥ : ٦). وللتنين الشيطاني سبعة رؤوس، في مقابل الأرواح السبعة، وعشرة قرون، دلالة على القوة العظيمة، وعلى رأسه سبعة تيجان (سفر الرؤيا ١٢ : ٣). ويصوّر الشيطان في علم الأيقونات المسيحية ككائن له قرنا معزى.

توقعات «الأيام الأخيرة»

تتحدث التوراة والقرآن عن «اليوم الآخر»، ولكن الله وحده هو الذي يعلم متى يكون ذلك: «السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده» (إنجيل متى ٢٤ : ٣٥-٣٦؛ قارن أعمال الرسل ١ : ٧). ويؤكد القرآن هذه الفكرة: «يسألك الناس عن الساعة، قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً» (سورة الأحزاب: ٦٣؛ قارن سورة الأعراف: ١٨٧؛ سورة النازعات: ٤٢؛ سورة الذاريات: ١٢؛ سورة القيامة: ٦).

ثمة حوادث تعتبر سابقة على قيام الساعة. تحدث كل أنواع الحوادث الكونية ومنها انطلاق يأجوج ومأجوج من عقالهم بعد انهيار السد (سورة

الكهف: ٩٤؛ سورة الأنبياء: ٩٦). و*الدابّة* مستلهمة من رؤيا دانيال للحيوانات الأربعة أو مستعارة منها. والدابة تخرج من البحر، موطن كل المسوخ الأسطورية (سفر دانيال ٧). والثلاثة الأول من بين الحيوانات الأربعة التي يراها دانيال هي الأسد، رمز نبوخذنصر، والدب رمزاً لإمبراطورية الميديين، والفهد للفرس. أما الرابع فهو مخيف ومرعب وقوي جداً، له أسنان حديدية كبيرة يسحق بها كل فرائسه ويدوس بأقدامه ما يبقى منها. وهو يختلف عن الحيوانات الأخرى وله عشرة قرون (سفر دانيال ٧:٧) ويمثل إمبراطورية الاسكندر الكبير. والدابّة الثانية يسمّى أيضاً «النبي الكذاب» (رؤيا يوحنا ١٦: ١٣؛ ١٩: ٢٠؛ ٢٠: ١٠). ويرى يوحنا صاحب الرؤيا وحشين واحد يخرج من البحر والآخر من الأرض (رؤيا ١٣: ١، ١١). ويرمز هذان الوحشان إلى السلطتين الدينية والسياسية للإمبراطورية الرومانية التي لم تكن مقبولة عند المؤمنين بسبب عبادة الإمبراطور، أي عبادة السلطة. وما يذكر في الإصحاح السابع من سفر دانيال وفي رؤيا يوحنا (١٣: ١١) مذكور في القرآن كما يلي: «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون... [p.214] ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون» (سورة النمل: ٨٢، ٨٥). ويطلق على الوحش في التراث الإسلامي اسم الدجّال أوالمسيح الدجّال (رسالة يوحنا الأولى ٢: ١٨، ٢٢؛ ٤: ٣؛ رسالة يوحنا الثانية ٧)، وهو أحد الشخصيات الشريرة التي سوف تضل الناس في الأيام الأخيرة والتي يكون ظهورها من العلامات الدالة على أن «الساعة» باتت وشيكة. والمسيح الدجال يغتصب محل الله والمسيح (الرسالة الثانية إلى تسالونيكي ٢: ١ وما يليها؛ رؤيا يوحنا ١٣). وهو يتصرف كمسيح مزيف ونبي مزيف (إنجيل مرقس ١٣: ٤-٢٣). ومن المتوقع أن يعود

عيسى/ يسوع (راجع سورة الزخرف: ٦١) ويهزم الدجّال. ويذكر المهدي في هذا السياق ويعتبر أنه هو الذي يهزم الدجّال[١]. وهو يهتدي بعدل الله ويأتي في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً وبِرًّا. ويعتبر عيسى/ يسوع والمهدي شخصاً واحداً: «لا مهدي إلا عيسى/ يسوع»[٢]. ويذهب إفراييم السرياني (حوالي ٣٠٦-٣٧٣) إلى أن المسيح الدجال سيخرج من خراسان. وفي البشيتا السريانية، أي الترجمة السريانية القديمة للعهد القديم، نقلت الكلمات اليونانية للكذاب والمسيح الدجال بكلمة دجالا ومشيحا دجالا. وسوف يطلق المسيح الدجال من عقاله بعد حرب تدوم ست أو سبع سنوات بين العرب والبيزنطيين، وتصل إلى ذروتها في فتح القسطنطينية واحتلالها. وتمنح تلاوة الآيات العشر الأولى أو الأخيرة من سورة الكهف الحماية من المسيح الدجال.

«وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونُفِخ في الصور فجمعناهم جمعاً. وعرضنا جهنّم يومئذ للكافرين عرضا. الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً. أفتحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعددنا جهنّم للكافرين نزلاً. قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. [p.215] أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزؤاً. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنّات الفردوس نزلاً. خالدين فيها لا يبغون عنها

---

(١) ويطلق على العام ٢٠٠ في التقويم الهجري الميعاد الأخير لمجيئه. Yücesoy, *Messianic Beliefs & Imperial Politics*, pp. 55-56

(2) *E.Q. s.v.* "Eschatology"; "Apocalypse". Cf. KBS on Daniel and Revelation

حولاً. قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً[١]. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً». (سورة الكهف: ٩٩-١١٠)[٢].

وما من شك في أن النبي وأصحابه كانوا قلقين حيال مجيء المسيح الدجّال[٣].

يأجوج ومأجوج

يأجوج هو ملك بلاد يأجوج، تجسيد القوى المعادية من الشمال (سفر حزقيال ٣٨: ٢-٣٩: ١٥). أي الشعوب الحقيقية هو المقصود هنا تحت اسمي يأجوج/ يأجوج ومأجوج؟ ذهب البعض أحياناً إلى أن المقصود هنا هم السكيثيون. وهذا مذهب مؤرخ القرن الأول جوزفس فلافيوس اليهودي (حوالي ٣٧-١٠٣) وجيروم (حوالي ٣٤٧-٤٢٠) من آباء الكنيسة مثلاً. فهما يعتبران أن يأجوج ومأجوج هم هذا الشعب البدوي الذي اكتسح غربي آسيا في العام ٦٢٦ق.م. والذي توغل حتى بلغ مصر، وتسبب بذعر عظيم في سوريا وفلسطين. كانوا يركبون الخيل، مولعين بالقتال ومتقدمين تقنياً. وقد جاؤوا أصلاً من أواسط آسيا وأقاموا مملكة في تلك المنطقة امتدت من بلغاريا الحالية حتى جبال القوقاز (٧٠٠-٢٠٠ق.م.). ويستعمل يأجوج علماً لفرد من الناس (سفر التكوين: ٢). وقد حوّلت التقاليد اليهودية يأجوج إلى ملك رؤيوي ثان

---

(١) إنجيل يوحنا ٢١: ٢٥

(2) Tarif Khalidi, The Quran A New Translation (London and New York: Penguin Books, 2008)

(3) *E.Q. s.v.* Antichrist

إلى جانب يأجوج. ويأجوج في الأصل هو اسم أحد أبناء يافث، أحد [p.216] أبناء نوح الثلاثة (سفر التكوين ١٠ : ١؛ سفر الأخبار الأول ١ : ٥). ويعتقد البعض أن يأجوج هو جد الأتراك الأكبر[١]. وكان جوج من أبناء شمعيا بن يوئيل (سفر الأخبار الأول ٥ : ٤). ويتردد الاسمان في رؤيا حزقيال: «يا بن آدم اجعل وجهك على جوج أرض يأجوج رئيس روش ماشك وتوبال». ماشك وتوبال هما أيضاً من أبناء يافث الذي كان من أبناء نوح الناجي من الطوفان (سفر التكوين ١٠ : ٢). ولكن الإحالة في سفر حزقيال هي إلى المناطق. و اسم ماشك الذي كثيراً ما يتوارد مع توبال، يدل على شعب جبلي من القوقاز يعيش في آسيا الصغرى إلى الجنوب الشرقي من البحر الأسود. واسم جوج يذكر المرء بجايجس ملك ليديا في القرن السابع ق.م. الذي حكم من ٦٨٠ إلى ٦٥٠ق.م. وأدى دوراً هاماً في آسيا الغربية. وقد حظي بالاعتراف به من كاهن دلفي عند توليه السلطة: أعلنت البيتيا آلهة دلفي رضاها عن توليه الملك. ويروي هيرودوتس أنه أرسل لذلك هدايا إلى دلفي[٢]. ويبدو أن النبي حزقيال جعل هؤلاء الأعداء في جملة السكيثيين لأن ماشك وتوبال يذكران في السياق نفسه.

يأجوج ومأجوج (سفر التكوين ١٠ : ٢؛ سفر حزقيال ٣٨-٣٩) شخصيتان يؤتى على ذكرهما في أوصاف الأيام الأخيرة في التوراة والقرآن. ويقال إن هذا العدو سوف يأتي في آخر الأزمنة من الشمال، مثلما جاء البابليون من الشمال (سفر إرميا ٦ : ٢٢). كان «الشمال» يحيل

---

(١) الطبري، أنظر *E.Q. s.v.* Gog en Magog

(2) Herodotus, *The Histories*, translated by Aubrey de Sélincourt, revised with an Introduction by A. R. Burn (Harmondsworth: Penguin Books, 1972), I, 13-14 (p. 46)

بصورة خاصة إلى ممالك كآشور (سفر صفنيا ٢ :١٣)، أو بابل (سفر زكريا ٢ :١٠؛ ٦:٦، ٨). فالشمال في هذه النصوص الرؤيوية هو المكان الذي تبدأ منه الدينونة (سفر إشعياء ١٤ :٣١؛ سفر إرميا ١ :١٣؛ ٤ :٦؛ ١٣ :٢٠). لئن كان الشمال عادة بلاد الدمار، ثمة أيضاً رواية عن جبل الله في الشمال الأقصى (سفر حزقيال ١ :٤)[١].
و«الشمال» يحيل إلى طريق السير من بلاد الرافدين إلى بلاد المشرق (سفر إرميا ١ :١٣-١٥؛ ٣ :١٨؛ ٤ :٦-٧؛ ٦ :١؛ ١٠ :٢٢؛ ١٣ :٢٠)[٢].

كان النبي حزقيال أحد الرجال اليهود الذين تم نفيهم من يهوذا إلى بابل. وينتهي به المطاف في مستعمرة من المنفيين في بابل تسمى تل أبيب (سفر حزقيال ٣ :١٥)، التي ربما تعني «تل الطوفان». في السنة الخامسة من منفاه دعي حزقيال في رؤيا إلى أن يكون نبياً (سفر حزقيال ١ :١-٣ :١٥). وقد نشط لمدة تنوف على العشرين سنة بين [p.217] المنفيين في بابل وقد قبلت مرجعيته النبوية في صراع شاق ضد مقاومة مواطنيه المتعصبين (سفر حزقيال ١٨ :١؛ ١٤ :٢٠ :١). ويرى حزقيال إن يأجوج يقف على رأس جيش غاز عظيم من الشمال يزحف على بني إسرائيل، ومعه حلفاء من فارس وكوش وفوط (ربما كانت ليبيا)، مجهزين بدروع وخوَذ (سفر حزقيال ٣٨ :٥) - جيش من أمم متحالفة. من أقصى الشمال، وبمعيّة حلفائه يهجم يأجوج على إسرائيل، القوم الذين يقيمون في مركز الأرض (سفر حزقيال ٣٨ :١٢). كانت القدس تعتبر سرّة الأرض. ولكن الله يقضي على تلك القوى ويمطر ناراً على

(1) *BW s.v.* "Noorden"
(2) Gwendolyn Leick, *The Babylonian World* (New York and London: Routledge, 2009), p. 552

يأجوج: «فيعلمون أني أنا الرب قدوس إسرائيل» (سفر حزقيال ٣٨-٣٩: ١٦).

حزقيال ورؤيا يوحنا

يستعمل سفر الرؤيا في العهد الجديد قصص يأجوج ومأجوج من حزقيال ويقوم بتحديثها لتعاصر القرن الأول للميلاد، أيام الإمبراطورية الرومانية. ثمة في سفر الرؤيا، قصة مدينتين، قصة القدس وبابل وإن كانت بابل هنا تشير إلى «روما». أصبحت «بابل» رمزاً للقوة المعادية لله والبشر في كل عصر. ويرى يوحنا في حرب الشيطان وأتباعه على القديسين توسعاً للصراع القديم الذي يشنه يأجوج ومأجوج على بني إسرائيل. الإمبراطورية الرومانية مجتمع مبني على علاقة السيد بالعبد، أو أنها بعبارة أوغسطين، من آباء الكنيسة، عصابة كبرى من اللصوص[1]. لأن ملوك الأرض قد هلكوا مع جيوشهم (رؤيا يوحنا ١٩: ١٩-٢١)، يلتفت الشيطان إلى الشعوب في أقطار الأرض كلها مع اعتماد اسمي يأجوج ومأجوج المأخوذين من حزقيال. بعد سقوط «بابل» أو روما، يبقى أعداء الله: «الشيطان»، «الوحش»، و«النبي الكذاب» مع أتباعهم. هؤلاء هم ملوك العالم. «النبي الكذاب» أو نبي الأكاذيب يشيران إلى البروباغندا الخادعة، ماكنة الدعاوة السياسية المروجة لعبادة الإمبراطور، وتأليه السلطة الذي يحتاج إليها الحكام دائماً كي يتمكنوا من استخدام تلك السلطة. [p.218]

يرى يوحنا في رؤياه كوكباً كالملاك نازلاً من السماء معه مفتاح

---

(1) Augustine, *The City of God*, translated by Marcus Dods, The Nicene and Post-Nicene Fathers. 1st series, vol. 2, edited by Philip Schaff, reprint (Grand Rapids: Eerdmans, 1983) Book IV, ch. 4.

الهاوية وسلسلة عظيمة على يده كأنه حارس أو سجان الهاوية. قبض الملاك على التنين، الحيّة القديمة الذي هو إبليس والشيطان، من قفا عنقه. والشيطان هو خصم الله، وعدو المؤمنين المبين، وهو الذي يضلّ الناس. قيّده الحارس بالسلسلة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يضل الأمم في ما بعد حتى تتم *الألف* سنة. يبقى الشيطان عاجزاً عن التصرف على هواه مع الناس لفترة من الزمان. والفكرة هنا هي أن تاريخ العالم مقسّم إلى سبع حقب، تمتد كل منها ألف سنة. وهي تنتهي بحقبة سبتية، ألف سنة مسيحانية سبتية، تليها في *اليوم الثامن* حقبة كونية جديدة غير زمنية. يعتقد يوحنا أن المسيح سوف يؤسس مملكة سلام، وعدل، وبر، وهو يراها تقوم أمام عينيه. وحدهم الشهود الذين يموتون أحياناً من أجل إيمانهم ويصبحون شهداء، يشاركون في هذه المملكة الألفية عبر القيامة الأولى، وهم يحكمون كالملوك والكهنة مع مسيح الله. أرواح الذين قطعت رؤوسهم تعود إلى الحياة ويقومون من بين الأموات. والشهداء الذين يقومون من بين الأموات يحاكمون العالم (إنجيل متى ١٩ :٢٨؛ إنجيل لوقا ٢٢ :٢٩-٣٠؛ الرسالة الأولى إلى أهل كورنثس ٦ :٢). لِمَ يمنحون هذا الامتياز؟ لأنهم قُتلوا من أجل الإيمان. ويصف يوحنا القديسين والشهداء بالمباركين.

ثم يرى يوحنا عروشاً[١]. والعروش رمز للسيادة الإلهية. والدينونة يمكن أن تصدر عن عرش. ولكن من يصدرها؟ من يجلس على العرش ومن له سلطان إصدار الأحكام؟ إنهم *الشهداء*. إنهم يصبحون ديانين، أرواح الذين قطعت رؤوسهم جراء شهادتهم للمسيح وكلمة الله، الذين

---

(١) راجع الفصل السادس

لم يسجدوا «للوحش». إنهم أولئك الذين لم يعووا مع الذئاب في الغابة، والذين لم توضع علامة الوحش على جباههم ولا علامة عبوديتهم له على أيديهم، إنهم أولئك الذين تبعوا المسيح، وساروا معه، وظلوا أوفياء له. إنهم يشكلون مجلس العلي، الدينونة العليا، التي تصدر الآن حكمها على الوحش وعلى الذين تبعوه. [p.219]

ثم يحكم القديسون مع الملك الممسوح بالزيت، المسيح. الآن أصبح المُلك أخيراً مُلكاً عادلاً يباشره ملك مسيحاني، «خليفة»، ملكاً مثلما أراده الله أن يكون. ليس كل ما يفعله ملك من الملوك فاسداً، ولم يعِش القديسون والأولياء عبثاً. فالعيش عيشة إنسانية نزيهة أمر ممكن في هذه الحياة الدنيا، هنا والآن. وصاحب الرؤيا يريد أن يقول: من الطيّب أن نشارك في ذلك، وأن نقوم بدور نشط فيه لأن ذلك خير على الأرض، والذي يقوم بذلك يشارك في القيامة الأولى بعد موته: «مبارك ومقدّس من له نصيب في القيامة الأولى». الموت الأول هو ذهاب الفرد في نهاية حياته الأرضية؛ والموت الثاني يحصل في نهاية الألف سنة .*والموت الثاني*، الموت الأبدي خلاف الموت الجسدي، هو الموت النهائي الحاسم: وهو ليس موتاً أرضياً بل هو الهلاك النهائي المبرم في بحيرة الكبريت المتقد. وهذه الكلمات هي الأساس الذي بني عليه التفسير اللاحق لمفهوم الجحيم. ولكن الموت الثاني لا يشير إلى الجحيم أكثر مما تشير أورشليم/ القدس الجديدة إلى *الحياة الأخرى*.

ثم متى تمت الألف السنة يطلق الشيطان لفترة قصيرة. ويبدو عندها أن الجحيم كله قد أطلق من عقاله. ويبدو أن هذا يجب أن يكون - ولا يمكن إيقافه. ثم تعقب ذلك النصوص المأخوذة من يأجوج ومأجوج: «يخرج [الشيطان] ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ويأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على

عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة. فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلّهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين» (رؤيا يوحنا ٢٠ : ١-١٠)[١].

قصة الإسكندر

نشب الصراع مع البيزنطيين في شمال غرب شبه الجزيرة العربية في السنوات الأخيرة من حياة محمد. ويشير القرآن إلى ذلك، وهنا تبرز صور يأجوج ومأجوج. ويبرز في السياق نفسه ذو القرنين، وهو الإسكندر الكبير الموصوف في نص النبي دانيال الرؤيوي [p.220] الذي تناولناه آنفاً بأن له قرن. وهذا يتيح لنا سبباً للنظر إلى شخصية الاسكندر الكبير عن كثب.

تحوّل الإسكندر إلى أسطورة خلال حياته ثم وبصورة أخص بعد وفاته. وهو يبدو في عدة صياغات فولكلورية وصولاً إلى بغداد المعاصرة، حيث تخوّف الأمهات أولادهن إذا ما عصوهن بأن «ذا القرنين سيأتي ويأخذهم»[٢]. ويمكن الوقوع على آثار هذه الأسطورة في الثقافات الشرق أوسطية والأوروبية. وفي سلسلة محاضرات نظمتها المكتبة البريطانية سنة ١٩٩٦ تحت عنوان «The Mythological Quest» (المسعى الأسطوري)، ذكرت خمسة أمثلة على هذا المسعى: مسعى

---

(1) T.J.M. Naastepad, *Geen vrede met het bestaande: Utleg van het Boek Openbaring* (Baarn: Ten Have, 1999), pp. 217-23

(2) Richard Stoneman, *Alexander the Great: A life in Legend* (New Haven and London: Yale University Press, 2010), p 144: Richard Stoneman, *The Greek Alexander Romance* (London etc.: Penguin, 1991).

جلجامش، البحث عن الغرايل المقدس، جايسون والجزّة الذهبية، ورحلات سندباد، ومسعى الإسكندر. وقد نسج الشاعر الإنكليزي جايمس إيلروي فليكر أساطير الإسكندر الإغريقية والشرقية في أنشودة إسكندر، محوّلاً إياه إلى شيء مثل «الهولندي الطائر»[١].

ومن روايات أسطورة الاسكندر قصة الإسكندر الهيلينية المتأخرة. وقد كانت تنسب في ما مضى إلى المؤرخ كاليسثينيس من رجال حاشية الاسكندر، ولكنها تنتمي إلى الأدب الفولكلوري الاسكندراني وقد نشأت في القرن الثالث للميلاد. وقد شاعت قراءة هذه القصة في العصر الوسيط، ويقال إنها العمل الذي أتى بعد الكتاب المقدس من حيث كثرة عدد الطبعات. وقد عرف العرب قصة الإسكندر عبر صورتها السريانية التي كانت متداولة في صفوف السريان الأرثوذكس من المسيحيين. وقد أثرت هذه الصيغة التي ترقى إلى القرن السابع في القرآن[٢]. وكانت ثمة عدة صيغ من هذه القصة في لغات مختلفة، ومن جملتها الهولندية. وحوالي العام ١٢٦٠ قام ياكوب فان ميرلانت (حوالي ١٢٢٣-٨٨) وهو شاعر، وكاتب، ومترجم من جنوب هولندا، بكتابة الصيغة الهولندية الأولى بعنوان Alexandersgeesten (مآثر الإسكندر

---

(١) Stoneman, *Alexander the Great*, p.229. راجع أيضاً الملحمة الإسبانية الوسيطية عن الاسكندر الكبير: De Libro de Alexander, Jerrilynn D. Dodds, Maria Rosa Menocal, and Abigail Krasner Balbale, *The Arts of Intimacy: Christians, Jews and Muslims in the Making of Castilian Culture* (New Haven and London: Yale University Press, 2008), pp. 217-20. (المسيحيون، واليهود والمسلمون في صناعة الثقافة بقشتالة.

(٢) Patrick De Rynck, translator, *Avonturen van Alexander de Grote: De Alexander Roman* (Amsterdam: Athenaeum Polok &Van Gennep, 2000), p. 9. Cf. Anton Wessels, *Islam in Stories* (Leuven, Paris and Dudley MD: Peeters, 2002), pp.243-44 (الإسلام في القصص)

البطولية). ويشدد فان ميرلانت على الحوادث العجيبة والباهرة في حياة الإسكندر من أمثال زيارته كهنة شجرتي الشمس والقمر المقدستين في الهند وسؤاله عما يخبئ له المستقبل. يصف فان ميرلانت [p.221] كيف صمد الاسكندر في وجه داريوس الثالث، ملك الفرس والميديين. كان على رأس جيش صغير عظيم الاندفاع والتحفيزيوم قاتل داريوس. ويوم توفي عن ثلاثة وثلاثين سنة كان يحكم إمبراطورية، ولكنه كان قد أصبح متكبّراً. يصف فان ميرلانت الإسكندر لقرائه من النخبة كنجم في سماء *الفرسان*، نجم تمكن من إنجاز مآثر جليلة وهو بعد في شرخ الشباب، بفضل مقدرته وحسن تربيته (كان أرسطو مؤدبه مثلما كان سينيكا مؤدب نيرون). كان المطلوب من بيئة الفرسان تلك أن تعجب بهذا الأمير «الصغير القامة العظيم الأفعال». كان الإسكندر يعرض كقدوة للكونت فلوريس الخامس (١٢٥٤-١٢٩٦)، كونت هولندا وزيلاندا، الذي لقبه عامة الشعب «بإله الفلاحين». كان فان ميرلانت يريد أن يستعمل سيرة الإسكندر «كمرآة» لسيرة فلوريس. وكان القصد من الكتاب أن يكون بمثابة دليل للملوك، وفي هذه الحالة دليلاً للحياة في هذا العالم للأمير الشاب فلوريس وحاشيته. وسيرة الإسكندر هي في الوقت نفسه ملحمة بطولية ودرس في التواضع. ولكن يبدو أن الكبرياء قد سبق السقوط، في نهاية حياته. وحين وقف فيلسوف عند قبر الإسكندر قال: «يوم كان الإسكندر حياً، كان العالم صغيراً جداً؛ واليوم بات يكفيه تابوت طوله بضعة أقدام»[١].

---

(١) Van Oostrum, *Stemmen op schrift: Geschiedenis van de Nederandse Literatur vanaf het begin to 1300* (Amsterdam: Bert Bakker, 2006), pp.516-17. Michael Wood, *In the Footsteps of Alexander the Great: A Journey from Greece to India*. Reprint (London: BBC Books, 2004). (على آثار الإسكندر الكبير: رحلة من اليونان إلى الهند)

موسى والغريب، الخضر

تسبق قصة ذي القرنين في القرآن مباشرة قصة تتصل، من بعض الأوجه، بقصة الإسكندر التي تناولناها للتو. والقصة تتعلق بموسى الذي خرج مع فتاه يطلب مجمع البحرين. فلما بلغا مجمع البحرين وجدا أن السمكة التي تزودا بها للسفر عادت حية بعد أن لامست الماء واتخذت سبيلها في البحر. ثم وجدا عبداً من عباد الله فقال له موسى «هل أتبعك على أن تعلّمني مما علّمت رشدا». فوافق الرجل على شرط وهو ألا يسأله عن شيء وألا يطلب أي [p.222] تفسير لسلوكه. فاتفقا على ذلك ولكن الرجل يقول لموسى منذ البداية «إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً». ومع ذلك وافق موسى على هذه الشروط.

وسرعان ما تبين أن موسى لا يستطيع أن يلتزم بما يرتبه عليه الاتفاق عند التحقيق. فقد أقدم الرجل أثناء الرحلة على ثلاثة أشياء مستنكرة، إذ خرق سفينة الصيادين المساكين بحيث منعهم من الصيد. ثم قتل غلاماً لقياه في الطريق، وأخيراً أقام جداراً يريد أن ينقض لقوم أبوا أن يضيفوهما. وقد أستنكر موسى كل فعل من هذه الأفعال وطالب بتفسير. ولكن هذا مخالف للاتفاق. ولذلك قال له الرجل: «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟» ثم قال له: «هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا

أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك. وما فعلته عن أمري. ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً. (سورة الكهف: ٦٠-٨٢).

ويسمى هذا العبد من عباد الله الخضر في كتب التفسير الإسلامية المتأخرة. والفكرة هي أن هذه القصة تستعمل القصص السابقة على الإسلام. فعنصر الرحلة إلى مجمع البحرين في القصة مستقى من ملحمة جلجامش السومرية الأكدية التي ترقى إلى العام ٢٥٠٠ق.م.. كان جلجامش ملك مدينة أوروك السومرية الأسطوري في جنوب بلاد بابل (سفر التكوين ١٠: ١٠)، إحدى المدن التي يُظن أنها [p.223] مسقط رأس إبراهيم[1]. وجلجامش هو الشخصية الأساسية في الملحمة المسماة باسمه، وهي أهم عمل أدبي أنتجته بلاد الرافدين القديمة. وفيها أنه ذهب إلى *ملتقى النهرين*.

وثمة عنصر آخر من هذه الرواية القرآنية مرتبط بقصة الإسكندر[2]. ونقرأ فيها كيف أن الإسكندر وطاهيه ذهبا إلى ملتقى النهرين، وكيف أن السمك النافق عاد إلى الحياة بطريقة عجائبية في ماء الحياة: «وصلنا إلى موضع فيه بئر صافية يلتمع ماؤه كالبرق، وفيه آبار أخرى كثيرة. وكانت رائحة الهواء في ذلك الموضع طيبة ولم تسيطر العتمة تماماً فيه. شعرت بالجوع واحتجت إلى شيء آكله فطلبت الطاهي المدعو أندرياس وقلت له: إصنع لنا طعاماً. فأخذ سمكة مملحة وذهب بها إلى ماء البئر الصافية ليغسلها. ولكن ما إن لامست السمكة الماء حتى عادت حية وانزلقت من يد الطاهي. ولما كان الخوف قد استولى على الطاهي فهو لم يخبرني بما حدث. فأخذ شيئاً من الماء لنفسه وشربه ووضع بعضاً منه في إبريق

(1) *B.E. s.v.* "Erek"; *E.I. s.v.* "al-Warkâ"

(٢) Stoneman, *Alexander the Great*, p. 154 (الإسكندر الكبير)

فضي ليحفظه. كان ثمة وفرة من الآبار هناك وشربنا منها كلها. ولكن، من نكد الحظ أنه لم يقيّض لي أن أشرب من بئر الخلود التي تعيد الموتى إلى الحياة؛ بينما كان من حسن طالع الطاهي أن حظي بذلك»[١].

إن قصة موسى والخضر في القرآن تبيّن أن العالم وإن لم يعرف بطلاً أعظم من جلجامش، ولا نبياً أعظم من موسى، ولا ملكاً أعظم من الإسكندر الكبير، فقد كان لا بد من تذكير الأخير، وبالرغم من قوته وشهرته اللتين فاقتا التصور، بهشاشة الحياة وسرعة زوالها، تماماً كسرعة زوال ثروات الدنيا[٢].

أسطورة الإسكندر

في العام ٦٢٨-٢٩ وضع في السريانية - ربما بعد ٦٢٨ - مؤلف بعنوان مآثر الإسكندر المجيدة. فقد اعتمد الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠-٦٤١) وإبان الحرب على الفرس، [p.224] على الدعاوة الدينية لتأليب حلفائه وتعزيز المعنويات البيزنطية وتقويتها.

وكان القصد من هذا الكتاب، بُعيد نهاية الحرب، الترويج لقضية الإمبراطور السياسية، إعادة بسط السلطة البيزنطية على الولايات التي كانت تحت الحكم الفارسي لردح من الزمن. بعد حوالي ٣٠ سنة من الحرب المهلكة للمعنويات، وخسائر عسكرية لا تضاهى، كان هرقل يحتاج إلى استعادة ولاء سكان مناطق الإمبراطورية التي تمت استعادتها وتعزيز تلك المناطق في أسرع وقت ممكن. كانت تسود في تلك

---

(١) De Rynck, *Avonturen van Alexander de Grote*, p.92 (مغامرات الإسكندر الكبير)

(٢) Wessels, Islam in Stories, Chapter 10 (الإسلام في القصص)

المناطق بعض الآراء المسيحية التي يعتقدها السريان الأرثوذكس والتي تختلف عن آراء البيزنطيين الأرثوذكس التابعين لسلطة بيزنطية. وقد أدى ذلك إلى علاقات متوترة لفترة طويلة من الزمن بين الفريقين على الصعيدين الديني والسياسي.

ومن المرجح أن يكون صحابة محمد قد سمعوا شيئاً من مضمون أسطورة الإسكندر. ويتبين هذا من السؤال الذي طرح على محمد: «ويسألونك عن ذي القرنين» (سورة الكهف: ٨٣). ومن الجائز أن يكونوا قد سمعوا عن الأسطورة خلال حملة عسكرية قاموا بها. في أيلول من العام ٦٢٩ ذهبت فرقة قوامها ٣٠٠٠ رجل إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية، وللمرة الأولى توغلت عساكر المسلمين في الإمبراطورية البيزنطية! وكان في مواجهتهم رجال من المناطق الحدودية في «فلسطين»، منطقة إدوم جنوبي شرق البحر الميت. وهذا ما نقله مؤرخ بيزنطي - وهي بالمناسبة المرة الأولى التي يستعمل فيها مصدر غير إسلامي لقصة من حياة محمد. وكان لواء تلك الحملة معقوداً لزيد بن حارثة. وفي الروايات العربية أن هؤلاء الرجال الثلاثة الآلاف قد واجهوا قوة قوامها ١٠٠٠٠٠ جندي بيزنطي وبدوي. وقد ذكر أيضاً أن الإمبراطور هرقل نفسه قام بحشد العساكر. ويعتبر هذا مستبعداً[1]. كانت معركة مؤته الدامية سنة ٦٢٩ أولى المعارك بين العرب وحامية بيزنطية. ولا تزال آثار مسجد للشهداء شيد إحياء لذكرى المسلمين الذين قتلوا في مؤته قائمة. ويقال إن زيداً بن حارثة نفسه قد قتل فيها. وقد وقعت هذه المعركة بعد أشهر قلائل من انسحاب الفرس وأشهر قلائل من عودة هرقل الظافرة بذخائر صليب المسيح الحقيقي إلى القدس. [p.225]

(1) *E.I. s.v.* Mu'ta

تروي أسطورة الإسكندر السريانية كيف أن الإسكندر الكبير استدعى حاشيته ليسأل عن أقاصي بقاع الأرض، لأنه يريد أن يعرف ويشاهد بعينيه ما الذي يحيط بالعالم. وينبغي ألا يغيب عن ذهن المرء أن الناس في ذلك العصر كانوا يظنون أن العالم مسطح. وحذره مستشاروه بأن ثمة محيطاً نتناً يحيق بالأرض، وأن ملامسته قد تعني الموت. لم يتهيب الإسكندر من ذلك بل أصر على استكشافه، فمضى إلى أطراف الأرض حيث وجد بحراً مليئاً بالمياه المميتة وعبر مضيقاً تعبره الشمس كل ليلة. فتضرع إلى الله مخاطباً إياه بأنه الذي زرع القرنين على رأسه، ومعنى هذا أنه منحه السيطرة على العالم كله. وفي طريقه، استكرى الإسكندر سبعة آلاف صفّار وحداد من ملك مصر ليصاحبوا جيشه العظيم. ثم مضى في سفره أربعة أشهر واثني عشر يوماً، وبلغ بلداً قصياً. وسأل أهل البلد إن كان لديهم سجناء محكومين بالإعدام. وعندما جيء «بالمجرمين»، أرسلهم إلى البحر ليختبر الماء السام. فلما ماتوا، رأى الإسكندر مدى سمية الماء وعدل عن عبور البحر. وذهب بدلاً عن ذلك إلى موضع صافي المياه، إلى «نافذة الفردوس» التي تدخل منها الشمس عندما تغرب وتعبر الفردوس إلى الموضع الذي تشرق منه في الشرق. ثم رحل الإسكندر إلى منابع دجلة والفرات. ثم تابع في الجبال الواقعة إلى الشمال منها، عبر القفقاس في ما يبدو، حتى بلغ موضعاً خاضعاً لحكم الفرس واكتشف فيه مضيقاً. واشتكى إليه السكان من وحشية الهون النازلين في الجهة الأخرى من المضيق، وهم خليط شعوب مختلفي اللغات والثقافات، كالترك، والمغول، والإيرانيين، وربما أقوام آخرون من شعوب آسيا الوسطى. وقد طردوا من الشرق في القرن الرابع فتوجهوا غرباً.

أسماء الملوك المذكورين هنا هي يأجوج ومأجوج، يلي ذلك وصف

لبربرية الهون. اشتكى الناس إلى الإسكندر من أن غزوات هؤلاء المتوحشين لا تعاقب وأملوا أن يبسط الإسكندر حكمه عليهم. فأمر الإسكندر الحدادين والصفارين الذين جاء بهم من مصر أن يشيدوا سداً من الحديد والنحاس لصد الهون. ثم وضع نبوءة في السد عن الأمور الكائنة بعد وفاته. بعد ٨٢٦ سنة يخرق الهون السد [p.226] ويعبرون المضيق وينهبون البلاد التي يغزونها. ثم بعد ٩٤٠ سنة تندرئ حقبة من المعاصي وتنشب حرب عالمية لا مثيل لها. فيجمع الله الملوك وجيوشهم ويأمر بنقض السد وتشتبك جيوش الهون والفرس والعرب في القتال. ويمر عبر بوابة السد من العساكر الكثيرة ما يجعلها أوسع مما كانت. وتذوب الأرض من كثرة دماء الناس وقذارتهم. ثم تشتبك مملكة البيزنطيين في حرب ضروس ويظفر البيزنطيون بكل شيء حتى حدود السماء. ثم يستشهد الإسكندر بالنص القائل «من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض» (سفر إرميا ١ : ١٤). وتنتهي الأسطورة بإقامة الإسكندر عرشه في القدس عند نهاية حياته.

أسطورة الإسكندر نص رؤيوي، أي نص يخبر بما يكون في آخر الأيام، ونهاية العالم. الإمبراطورية البيزنطية تغلب الإمبراطورية الفارسية وتنهض إمبراطورية مسيحية على امتداد الأرض. يوصف الإسكندر بأنه رجل ينبئ بالكائنات، ولكن تلك الحوادث المستقبلية ترتبط أيضاً بما يحدث في عصره وتحيل إليه. نبوءة الإسكندر المنقوشة على السد الذي بناه تشير إلى تاريخين لاجتياح بدو آسيا الوسطى. الأول حين يخترق الهون السد ويصلون إلى دجلة، وهذه علامات هامة على الصراع النهائي الذي يسبق عودة المسيح في آخر الزمان، والثاني يحيل إلى السنتين ٦٢٨ و٦٢٩، وهو التاريخ الذي يتطابق مع نهاية حرب طويلة وعسيرة للغاية بين فارس وبيزنطية (٦٠٣-٦٣٠)، خربت فيها القدس

خراباً ذريعاً وسرقت فيها ذخائر الصليب الحقيقي من المدينة. فالتاريخ الذي تشير إليه نبوءة الإسكندر هو تاريخ تلك الحروب المدمرة وانتهائها بانتصار البيزنطيين. كان مؤلف أسطورة الإسكندر يريد أن يقيم تصنيفاً للإسكندر/ هرقل بحيث يرى معاصروه إسكندراً جديداً في الإمبراطور هرقل الذي ذهب إلى الشرق وحارب الفرس.

ما الغرض من جعل الإسكندر يمضي أولاً نحو الغرب، ثم نحو الشرق، ثم الشمال، ثم يعود أخيراً نحو الجنوب؟ في وسعنا أن نجد الإجابة إذا ما ألقينا نظرة على خريطة الرحلة. الواقع أن رحلات الإسكندر ترسم صورة الصليب على [p.227] العالم كله. والصليب بالنسبة إلى الإمبراطورية المسيحية هي علامة الفتح، وتشير النبوءات في الأسطورة إلى قرب سيطرة الإمبراطورية المسيحية. ومن الجائز الافتراض بأن رحلة الإسكندر صليبية الشكل(والنسبة إلى الصليب هنا) إنما يقصد منها أن تشير رمزياً إلى عودة هرقل بذخائر الصليب الحقيقي في بداية سنة ٦٣٠ إلى القدس، أي إلى المدينة التي يقيم فيها الإسكندر عرشه وفقاً للأسطورة. رحلات الإسكندر تصور رمز قوة الإمبراطورية المسيحية الرومانية (الشرقية) البيزنطية. وفي النهاية، تشتمل الأسطورة على نبوءة مفادها أن الإمبراطور البيزنطي سوف يبسط بسرعة سيطرة المسيحية على العالم كله ويلي ذلك عودة المسيح[١].

---

(١) Kevin van Bladel, "The Alexander Legend in the Qur'an 18: 83-102" in *The Qur'an in Its Historical Context*, edited by Gabriel Said Reynolds (London and New York: Routledge, 2008), pp. 175-203. (القرآن في سياقه التاريخي)

«ذو القرنين»

بعد عرض هذا التفسير وهذا السياق، سننظر إلى الفقرة القرآنية التي تتحدث عن يأجوج ومأجوج من حيث صلتهما بقصة ذي القرنين، حيث يمكن أن تفهم على نحو أفضل على الخلفية الآنفة الذكر.

يجيب القرآن عن السؤال الذي طرحه صحابة الرسول عن قصة «ذي القرنين» على النحو التالي:

«ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً. إنا مكّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً. فأتبع سبباً. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً. قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه فيعذّبه عذاباً نكراً. وإما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً. ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً. كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً. ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً. قال ما مكّنني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال أتوني أفرغ عليه قطراً. فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً. (سورة الكهف: ٨٣-٩٨).

يوصف الإسكندر بأنه «ذو القرنين» (سورة الكهف: ٨٣، ٩٤). القرن يرمز إلى القوة والسلطة (سفر صموئيل الأول ٢: ١٠؛ سفر أيوب

١٦ : ١٥). والقرون جزء من الغطاء التزييني لرؤوس الآلهة الشرقية، ويمكن أن تكون القرون من صفات الآلهة عندما يمثلون بهيئة بشرية. من ذلك أن الآلهة المصرية القديمة هاتحور (منزل حورس)، وهي الصورة الأقدم عهداً للإلهة إيزيس، كانت تحمل قرص الشمس بين قرنيها. بعد زيارة مقام هاتحور طلب الإسكندر، بصفته ابن زيوس أمون، أن يصور مع قرنين. وأصل كلمة القرنين العربية مجانس لكلمة قاران العبرية. وترد هذه في التوراة عندما ينزل موسى من جبل سيناء حاملاً لوحي الشهادة اللتين تسلمهما من الله. ولا يدرك موسى أن كلامه مع الله قد جعل وجهه يلمع (سفر الخروج ٣٤:٢٩-٣٠، ٣٥). يمكن لهذه الكلمة العبرية أن تعني في الوقت نفسه «يلمع» و«له قرنان». والترجمة اليونانية التي قام بها آكيلا، المبشر اليهودي في القرن الثاني تقرأ «ذو قرنين» والترجمة التي قام بها جيروم حوالي العام ٤٠٠ للميلاد تتحدث عن «ذي قرنين». ومن اللافت أن تمثال موسى الشهير الذي نحته مايكل أنجيلو في [p.229] كنيسة القديس بطرس في الأغلال بروما له قرنان!

عندما يقدم الإسكندر على قوم ويشيد لهم، نزولاً عند طلبهم، سداً حديدياً بينهم وبين يأجوج ومأجوج ليمنعهم من تخريب الأرض، فإن استعمال الحديد هذا يحمل المرء على التفكير في الصفة الحديدية التي أطلقت على ملك الإسكندر في سفر دانيال.

يأجوج ومأجوج في علم التفسير عبر التاريخ

كيف فسرت هذه القصة وكيف يجب أن تفهم؟ تكلمنا في مستهل هذا الفصل على استعمال صور رؤيوية كيأجوج ومأجوج حتى اليوم. فقد حاول الناس في كل عصر أن يفهموا الأزمة التي يعانون منها ويفسرونها على هذا النحو. ولم يزل اليهود، والمسيحيون، والمسلمون

يقرأون هذه القصص عن يأجوج ومأجوج ويطبقونها على زمنهم الخاص. وهم يستعملونها - كما لا يزالون إلى اليوم - بعضهم ضد بعض! من ذلك أن الراهب الفلمنكي الفرنسيسكاني، فيلهلم فان روسبروك (حوالي ١٢١٠-١٢٧٠)، كتب تقريراً من أول التقارير عن المغول. فقد شارك هذا الراهب في الحملة الصليبية التي قادها الملك لويس التاسع التقي على فلسطين، وهنا سمع عن المغول. وهو يربط التتر بيأجوج ومأجوج[١]. كما كانت الغزوات البدوية التي شنتها أقوام من أمثال السكيثيين، والهون، والمغول، والترك، أمثلة متعددة على قيام يأجوج ومأجوج بخرق السد الحديدي الذي أقامه الإسكندر.

التطبيق اليهودي لهذه الفكرة

يروي اللاهوتي اليهودي مارتن بوبر أن اليهود الحسيديين في القرن التاسع عشر قد ربطوا بين يأجوج ومأجوج والحروب التي شنّها نابليون على روسيا وكل ما استجرّته وكانت تعنيه بالنسبة إلى أوروبا. وقد حاول بعض «الصدّيقين» أن يحوّلوا جوج من أرض مأجوج إلى «نابليون»، وذلك عبر ضرب من التعاليم الصوفية التي يسمونها *«كبالا»*.وكان مجيء المسيح (للمرة الأولى عندهم) سيعقب الحروب النابليونية. ولكن بعض «الصديقين» الآخرين حذّروا، خلافاً لذلك، من أن توبة البشر كلهم هي التي تؤشر إلى انبلاج فجر الخلاص، لا أمثال هذه الأفعال[٢].

---

(١) Brett Edward Whalen, *Dominion of God: Christendom and Apocalypse in the Middle Ages* (Cambridge, MA, and London: Harvard University Press, 2009), p.298, no. 50 (المسيحية ورؤيا يوحنا في القرون الوسطى)

(٢) Martin Buber, *Werke, vol. III: Schriften zum Chassidismus* (Munich: Kösel Schneider, 1963), p. 1257 (كتابات حول الحسيدية)

في أواخر القرن السابع للميلاد جمعت مجموعة من النبؤات تحت اسم ميثوديوس الذي مات شهيداً حوالي العام ٣٠٠ للميلاد[1]. وقد كتب الكتاب السرياني المعنون برؤيا *ميثوديوس المزيف*، ردّاً على فتح الإسلام للشرق الأوسط، وشكّل الخيال المسيحي في القرون الوسطى. وتحتوي هذه الرؤيا على ثيمات مألوفة حول آخر الأيام: ظهور المسيح الدجال وسيادته، واجتياح يأجوج ومأجوج، والكوارث التي تسبق نهاية العالم. عدد عساكر يأجوج ومأجوج المتوحشة التي تهاجم المسيحيين في آخر الأزمنة كعدد رمل البحر (رؤيا ٢٠:٧). وتذهب الأسطورة الوسيطية إلى أن الإسكندر ذا القرنين قد أسر يأجوج ومأجوج منذ زمن قديم وحبسهم وراء حائط في جبال قزوين حيث ما يزالون منذ ذلك الزمن. ولكن من المتوقع أن يخرقوا الحائط ويفلتوا من عقالهم وينقضوا بقيادة المسيح الدجال على الصالحين القديسين[2].

في القرن الثاني عشر للميلاد اعتقد يواكيم الفيوري، وهو متصوف إيطالي ومفكر رؤيوي، أن اضطهادات المسيحيين كانت من علامات نهاية الزمان المتنبأ بها في سفر رؤيا يوحنا. وهو يشير بانتظام إلى الخطر الإسلامي كعامل بارز في الحوادث التي قادت إلى نهاية الزمان. وقد اعتبر يواكيم الذي وضع تفسيراً لسفر الرؤيا أن الرؤوس الرابع والخامس والسادس للتنين الأحمر الكبير ذي الرؤوس السبعة والقرون العشرة

(1) De Rynck, *Avonturen von Alexander de Grote*, p. 168

(2) Debra Higgs Strickland, *Saracens, Demons, Jews: Making Monsters in Medieval Art* (Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2003), pp. 228-229

تتماهى مع بعض معتنقي الإسلام المحددين الذين يمثلون في رأيه سبّاقاً للمسيح الدجال الذي يشكل الرأس السابع. وهو يعتبر أن التنين ذي الرؤوس السبعة والقرون العشرة يمثل الاضطهادات التاريخية الملموسة عبر التاريخ (سفر الرؤيا: ١٠). والرؤوس الرابع والخامس والسادس تمثل على التوالي محمد، ميزوموثيوس وهو طاغية مسلم، وصلاح الدين، الأمير الإسلامي الذي استعاد القدس من الصليبيين سنة ١١٨٧، والذي يسبق الرأس السابع: المسيح الدجال. وممثلو الإسلام هؤلاء، المعتبرين خطرين، يطاردون المرأة المرتدية الشمس بهدف افتراس طفلها. ونظراً للاعتقاد بأن المرأة هي مريم العذراء أو الكنيسة، يفهم من ذلك فوراً أن الإسلام سوف يضطهد الكنيسة. والرؤوس تمثل أسوأ مضطهدي الكنيسة المسيحية منذ البداية وحتى أيام يواكيم. وكان يواكيم يعتقد أنه ما إن يُهزم المسيح الدجال فإن اليهود وسواهم من غير المؤمنين سوف يعتنقون المسيحية[1].

يأجوج ومأجوج في إنكلترا

في دار البلدية بلندن صورتان هائلتان ليأجوج ومأجوج. فقد كتب جيفري أف منماوث (حوالي ١١٠٠-١١٥٤) وهو رجل من الإكليروس ومؤرخ بريطاني هام، تاريخاً مختلطاً بالأسطورة للملوك البريطانيين قبل الغزو الساكسوني. فعلى قول جيفري كان جايموت أو جايماغوت، وهما تحويران ليأجوج ومأجوج، عملاقاً طاغية يتحكم مع أخيه غورينيوس بالقسم الغربي من إنكلترا قبل أن يهزمه الغزاة الأجانب. ومن

(1) Strickland, *Saracens, Demons, Jews,* pp. 224-226

الجائز أن يكون الأنغلز أو الساكسون قد احتكوا بالسكيثيين أو بسواهم من القبائل التي كانت تنزل في شمال القفقاس أو البحر الأسود.

إن من شأن نظرة عامة إلى كيف يمكن للشعوب الأخرى أن تبدو «كمسوخ» في الفن المسيحي الوسيطي أن تخلص إلى الاستنتاج بأن النصوص والتصاوير إذا ما تم تقويمها معاً إنما تظهر مواقف ومعتقدات مسيحية إيجابية وسلبية في الوقت نفسه. فالأقوام المشبهة بالمسوخ توصف في النصوص والأعمال الفنية كعلامات للخطيئة والفضيلة، الإثيوبيون يوصفون بأنهم شيطانيون وأبرياء من العيب، واليهود يوصفون بأنهم شهود فضلاء وقتلة المسيح، والمسلمون العرب يوصفون بأنهم فرسان محترمون وجلادو الشيطان، والتتر يوصفون بأنهم حلفاء الصليبيين وعملاء المسيح الدجال. وتبرز هذه المقاربة عند الكلام على أفراد منهم من أمثال الإسكندر الكبير الذي ينظر إليه أحياناً باعتباره شيطانياً وأحياناً أخرى باعتباره تقياً، وصلاح الدين الذي ينظر إليه أحياناً باعتباره فارساً نبيلاً، وأحياناً أخرى باعتباره من أتباع المسيح الدجال. فالنظرة المسيحية إلى غير المسيحيين ليست مجرد حقد أعمى، بل هي نظرة معقدة وملتبسة ومتغيرة مع مرور الزمن[١]. في القرن الخامس عشر شُبّه السلطان العثماني محمد الفاتح بـ«الوحش» المذكور في سفر الرؤيا، مثلما وصف هتلر في القرن العشرين بالوحش أيضاً.

التطبيق الإسلامي [p.232]

يتسم «آخر الزمان» في بعض التفاسير الإسلامية بصور من أمثال يأجوج ومأجوج، ومجيء المهدي، وهو ضرب من الشخصيات

---

(1) Strickland, *Saracens, Demons, Jews*, p.242

المسيحانية، والمسيح الدجال، والمسيح. يطلق شعبا يأجوج ومأجوج ليعيثوا فساداً في الأرض مع توقع مجيء المسيح إلى الأرض. ويرقى ارتباط الاسمين بشعبين كاملين بدلاً من الارتباط بفردين من الناس بالروايات اليهودية والمسيحية ما بعد التوراتية[١].

من ذلك أن المسلمين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ماهَوا كالمسيحيين الأوروبيين بين الغزاة المغول ويأجوج ومأجوج. لم يكن المغول قد اعتنقوا الإسلام بعد وكانوا لا يزالون شعباً بدوياً يركبون الخيل ويرتكبون فظائع كانت تنتهي بالتدمير، مثلما دمرت بغداد قلب مملكة العباسيين[٢]. اعتبر يأجوج ومأجوج ممثلين واضحين للشعوب البدوية التي كانت تعيش وراء جبال القفقاس وما وراء النهر، والتي كان قدومها يترافق مع انتشار الخوف والذعر في صفوف شعوب المنطقة، وفارس بخاصة. ماذا يحصل إذا ما اندفعوا في الغزو مثلما فعل السلاجقة، والترك، والمغول؟ يأجوج ومأجوج تمثل مخاوف الشعوب المستقرة في بلاد فارس الشمالية حيال سكان الجبال في المناطق التي لم يفتحها المسلمون. وكان من مصلحة الجميع أن يصوّر هؤلاء بأرهب صورة ممكنة لتنمية النفور والخوف من هذه المخلوقات نصف البشرية[٣].

ويبدو أن الجوالي اليهودية قد رحبت بالفاتحين المسلمين باعتبارهم

(1) *E.Q. s.v.* Apocalypse; *E.I. s.v.* Yadjûdjwa-Madjûdj

(2) D.S. Attena, *De Mohammedaanscheopvattingenomtrent het tijdstip van den jongsten dag en zijnvoortekenen* (Amesterdam: Noord-HollandscheUitge-versmaatschappij, 1942), p. 135

(٣) Cook, *Studies in Muslim Apocalyptic*, pp. 182-86 (دراسات في النظرة الأخروية الإسلامية)

محررين لها، ورأوا في الحكم الإسلامي أداة لخلاصهم من الإضطهاد البيزنطي وعلامة على مجيء المسيح (الذي ينتظرونه)[١].

في التفسير الذي قدمته حركة المهدية، وهي جماعة مسلمة نشأت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر في شبه القارة الهندية، إشارة إلى الأحاديث الإسلامية عن إطلاق يأجوج ومأجوج. فمن شأنهم أن يحكموا العالم كله: «لا يقوى على قتالهم أحد». «وهم [p.233] يشربون ماء العالم كله». «لا يقوى عليهم أحد، إلا أنا الله، القادر على إفنائهم». كانت الأقوام السلافية والتوتونية تعتبر أجداد يأجوج ومأجوج، كما أن سيطرة يأجوج ومأجوج كانت تشير، في نظرهم، إلى سيطرة الأمم الأوروبية على العالم كله. وهذه النبوءة قد تحققت في زماننا، أي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يأجوج ومأجوج هم الأمم الأوروبية. ولما كانوا قد سيطروا على العالم بأسره، فقد اتخذ النزاع أبعاداً عالمية. ولذا فقد اعتبر الإسلام الأداة التي تجمع الناس معاً (سورة الكهف: ٩٩). ويكون الإسلام حقاً الديانة الوحيدة في العالم التي تنجح في توحيد البشر على اختلاف قومياتهم وتقضي على التمييز القائم على العرق واللون[٢].

يأجوج ومأجوج: مُلوخ ومامون.

ماذا تقول لنا *اليوم* الكتب الثلاثة فعلاً عن مسألة الأوصاف الرؤيوية؟ من الحيوي ألاّ نقرأ هذه النصوص الرؤيوية ونفسر بعضها ضد بعض،

(1) Yücesoy, *Messianic Beliefs & Imperial Politics*, p. 31

(2) Maulana Muhammad Ali, The Holy Qur'an (Dublin, OH: Almahdiyya AnjumanInsha'at Islam, Lahore, 2002), pp. 649-50, 652 on Q 18: 98

كما يحدث في كثير من الأحيان. ولئن شئنا أن نفهم الكتب الثلاثة حول هذه النقطة، فلا بد لنا من أن نصرح بداية بأن لا فرق بين أن يحيل يأجوج ومأجوج إلى السكيثيين، أو إلى المغول، أو إلى الترك، أو بين أن يكون يأجوج ومأجوج اسمين لأفراد فعليين أو لشعوب. فليس هذا ما تعنى به هذه القصص في جوهرها. إن ما يريد قوله النبيان حزقيال ودانيال، ويوحنا صاحب الرؤيا، والقرآن أيضاً ليس هو ما يحدث أو يتوقع أن يحدث، أي القتل والموت، والأفراد والأقوام الذين يتذابحون. هذا ما لم تزل عليه الحال. يمكن لأي كان أن يكتب قصة كهذه. إن ما يريد قوله النبي أو صاحب الرؤيا إنما هو التبصر بما هو حادث في كل الأوقات، إنه لبّ ما يدور حوله التاريخ، والجدية النهائية للأشياء. إن ما تعنى به التوراة والقرآن إنما هو الوحي، والرؤيا، وكشف القناع عن مجريات التاريخ. يمكن لهذه القصص أن تفهم على هذا النحو في عصرنا هذا، كإيضاح، وإماطة للثام عن تاريخنا المعاصر. والأولى بذهن المرء عندما يقرأ عبارة «أرض يأجوج» ألا يذهب إلى بقعة من بقاع الأرض بل إلى مجال أو أكثر من مجالات الحياة، مجال ما زال «الشيطان» ألدّ أعداء البشر، [p.234] يقاوم فيه لأن هذه المجالات هي آخر معاقله. إنه تحديداً هذا المجال من مجالات الحياة الذي يبدو أن الناس قد وجدوا بعضهم بعضاً فيه، وربما أكثر من أي وقت مضى: مجال التجارة العالمية والقوة العالمية. يستعمل ملوخ ومامون في التوراة للإشارة إلى مجالي الحياة هذين. وهما بمعنى من المعاني يأجوج ومأجوج عصرنا هذا؛ تشخيص البخل والشح، قال المسيح: «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين...لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» (إنجيل متى ٦: ٢٤؛ إنجيل لوقا ١٦: ٩-١٣). وكلمة «مامون» مستمدة من «آمين»؛ وهي تحيل إلى ما يضع فيه الإنسان ثقته وإيمانه. ومامون يمثل المال،

صرة المال. والمال هو القوة المعادية لله. إنه تشخيص البخل: «لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً» (إنجيل لوقا ١٢ : ٣٤).

وملوخ في مصطلح اليوم هو «المنظومة العسكرية الصناعية»[١] العاملة على إهلاك أبناء البشر. وليتمكن ملوخ من التدمير فهو يحتاج إلى مامون، أي المال. إلى مجال الحياة الأول، أي ملوخ، تنتمي قصص الملوك الظَلَمَة من أمثال نمرود وفرعون، كما تنتمي إليه أيضاً القصص النبوية عن ملوك يهوذا وإسرائيل الظَلَمَة، أو الخلفاء غير الراشدين. مع مامون، كما مع البعل، إله الامتلاك، يتعلق الأمر بقوة المال الشريرة، على ما يتبين من قصة قورح/ قارون. يطرح القرآن السؤال البلاغي على قورح/ قارون: «أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً» (سورة القصص: ٧٨)؟ ملوخ يمثل القوة؛ مامون يمثل المال. وكلاهما معبود النبي الكذاب، النبي المضل، وسائل الإعلام والبروباغندا، كما تسمى اليوم.

فما هو الخطر الحقيقي الذي يشكله يأجوج ومأجوج في نظر النبي حزقيال ويوحنا صاحب الرؤيا (رؤيا ٢٠)، والقرآن؟ إنهم خطر على المؤمنين الذين يدعوهم الله، *القاهال*، *الكنيسة*، *الأمة*، كما تسمى أمة النبي محمد: كل بُناة الأرض وحَفَظَتها، الملتزمون بالتوراة، خلائف الله الحقيقيين على الأرض، الذين لا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء. إن استمرار المعمورة على المحك. القوى الدنيوية تطوّق معسكر

---

(١) هذه هي العبارة التي استعملها الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور للإشارة إلى المنظومة القائمة وراء العسكر في الولايات المتحدة، في سياق خطابه الوداعي في ١٧ كانون الثاني ١٩٦١. ولكن من الممكن، يقيناً، أن تنطبق على أي بلد يمتلك بنية تحتية متطورة.

الصالحين، المدينة المحبوبة، القدس، المدينة، المدينة رمز مدينة العدل والنور، مركز الأرض التي يعيش فيها شعب الله بسلام. [p.235]

«الأمة» الحقيقية مهددة ومكروهة لأن أفرادها، الصالحين والشهداء، لا يؤمنون بمامون وملوخ ويناوئونهما بشدة! «جهاز مامون» لا يقبل أن يزعجه أحد، وبخاصة أمة الله «الحقيقية». يرى صاحب الرؤيا ذلك كله يحدث، الصراع النهائي والحاسم بين الأمة، أتباع الأنبياء، والذين لا ينحنون ليركعوا للبعل (سفر الملوك الأول ١٩ :١٨). وهو يرى أن القوى الدنيوية انتهت. والتفاؤل بالانتصار يرتكز إلى شهادة القديسين الذين لا يحملون علامة *الوحش* و *النبيالدجال*! وهو يسير بعكس كل تجار الموت، وضد كل «أوغاد قوى العالم اليوم ومحتاليها». «ها هو قد أتى وصار، يقول السيد الرب!» عندها يخرج سكان البلاد أو الأرض من مدنهم، أي ينتمون إلى الأمة، سكان «أورشليم/ القدس» الحقيقية، «المدينة المنورة» الحقيقية ليشعلوا ناراً من حطام الأسلحة. ويقول النبي متفكهاً إنهم سوف يحرقون تلك الأسلحة: القسي، والنبال، والهراوات، والمجان، والرماح. ويستطيعون تغذية نيرانهم سبع سنوات من خشب تلك الأسلحة، ولا يحتاجون إلى جمع الحطب من الحقل أو قطعه من الغابة، لأنهم يوقدون نيرانهم من تلك الأسلحة! وهكذا «ينهبون الذين نهبوهم ويسلبون الذين سلبوهم، يقول السيد الرب» (سفر حزقيال ٣٩ :٩-١٠). ويرى يوحنا صاحب الرؤيا الأمر حاصلاً! لن يستطيع الشيطان أن ينتصر في النهاية. ستفنى قوى الشر بالنار وتقذف في بحيرة النار ويرمى في هذه البحيرة أيضاً الوحش والنبي الكذاب أيضاً: في أتون النار المتقد بالكبريت. لقد انتهيا، سقطت الستارة وخيضت المعركة. والآن سيبدأ حقاً شيء جديد. فالأمة، الكنيسة، تستطيع أن تثق

بالله الذي يدعو من «أورشليم/القدس»، من جبل «صهيون»، من «المدينة المنورة»، من مكة، من حيث يخرج العدل:

ينحني العنف المسلح أمام الله
أنت تسحق بريق الحرب
ولا تريد حرباً من بعد...

الذين تجهزوا للحرب
ولم يعرفوا قوتك
أقلقتَهم في أحلامهم
وأحبطت عزيمة أشداء القلب
رميت في البحر الفرَس والمركبة

يأتي يوم يقوم كل رأس
وكل حي على الأرض يمجد اسمه
وحتى الذين يقاتلونه الآن
سيرتعدون أمام عظمتك
سوف تلجم الغِضاب،
أجل، ويأتون إليك جميعا[1]. [p.237]

---

(١) ترجمة لصيغة منظومة للمزمور ٧٦ من سفر المزامير، في Naastepad, Geen vrede met het bestaande, pp. 217-23, 255

الفصل العاشر

كيف ينظر إلى الانتصار على المدن؟

الظلم ينتشر كالنار في الهشيم، يحرق المدن ويذرها متفحمة.
لكنك تعيش في جنائن مبرّدة، وتحيط بقلبك الجدران الصماء.
أنت تعلّم الأقوياء أن يطاردوا الضعفاء، تعلمهم أن يجوروا في سلوكهم،
كأنهم عرق قائم بذاته.

هوب أوسترهوس، «رجل يصرخ: ظلم»

مدخل

ننظر في هذا الفصل إلى عدد من الأمثلة الصارخة على كيفية الإجابة في الماضي عن السؤال «لمن النصر؟»: الفتوح أو الانتصارات التي حققها هذا الفريق أو ذاك، وبخاصة المسيحيين والمسلمين.

ويتناول الفصل القصص المسيحية عن فتح الإمبراطور قسطنطين الكبير روما سنة ٣١٢ م ووقوع المدينة نفسها في قبضة الفاتح الجرماني ألاريك الأول سنة ٤١٠ وكيفية تعاطي أوغسطين (ت ٤٣٠) من آباء الكنيسة مع هذا الأمر في قصته عن المدينتين، مدينة الله ومدينة الإنسان، أي في كتابه «مدينة الله». وهو يتيح في كتابه هذا استبصارات

هامة حول قصة مدينتين أخريين، روما وقرطاجة. وفي أيام النبي محمد كانت ثمة قصة مدينتين، بيزنطية وطيسفون/ المدائن. كيف نظر المسلمون إلى فتح القدس سنة ٦٣٨، وتحدثوا عن فتح أقوى مدينة مسيحية، أي القسطنطينية؟ ماذا كانت التوقعات يوم لم يكن الفتح الإسلامي قد حدث بعد، وما كان الموقف يوم تمكن الترك من الاستيلاء على المدينة سنة ١٤٥٣؟ لمن النصر؟

قسطنطين الكبير: «بهذه العلامة تنتصر» [p.238]

كان قسطنطين الكبير (حوالي ٢٨٥-٣٣٧م) أول إمبراطور روماني يعتنق الديانة المسيحية. في العام ٣١٢ اشتبك مع زميله الإمبراطور مكسنتيوس (حوالي ٢٧٨-٣١٢م) في معركة وبعد حرب أهلية طويلة هزمه عند جسر ملفيان. تبدّد جيش مكسنتيوس وفي خضم الفوضى التي دبّت وقع مكسنتيوس نفسه في نهر التيبر وغرق. ومع أن قسطنطين لم يعمّد حتى سجي على سرير موته، فإن تنصّره يعزى يقيناً إلى عوامل سياسية. فقد أراد أن يضع حداً للصراع بين الكنيسة المسيحية التي كان نفوذها يتزايد تدريجياً وبين دولة روما. لقد مال علانية إلى الكنيسة من دون أن يضطهد الوثنيين. وفي العام ٣١٣م أصدر قسطنطين مع زميله ليسينيوس (حوالي ٢٦٥-٣٢٥م) مرسوم ميلان، الذي منح بموجبه المواطنون الرومان حرية اختيار ديانتهم. وقد وضع هذا المرسوم حداً لاضطهاد المسيحيين وأقر حرية الاعتقاد الديني. فكيف يُنظر إلى فتح روما وكيف يتم تفسيره؟ يقال إن قسطنطين رأى قبيل المعركة صليباً في السماء والكلمات المذكورة باللاتينية *In hoc signo vinces* أي «بهذه العلامة تنتصر».

كان يوزيبيوس، من آباء الكنيسة، (حوالي ٢٦٣-حوالي ٣٣٩)

أسقف القيصرية، عاصمة فلسطين الرومانية، مستشار قسطنطين. ثم إنه كتب لاحقاً سيرة لحياة الأخير. يشير يوزيبيوس إلى أن قسطنطين دخل روما بعد معركة ٣١٢م كإمبراطور مسيحي. ويتحدث يوزيبيوس عن تشكيل ميسم المسيح *labarum* أي الحرفين اليونانيين الأولين من اسمه، خريستوس. والصيغة المنقحة لرؤيا قسطنطين تنظر إليها باعتبارها موازية لرؤيا موسى للعليقة الملتهبة (سفر الخروج ٣). والتربية التي تلقاها قسطنطين في البلاط تشبّه بتربية موسى في بلاط فرعون، وقد قيّض له مثل موسى أن يحرر شعبه. ويصف يوزيبيوس الإمبراطور مكسنتيوس بأنه طاغية ظلم شعب روما. وهو يغرق في نهر التيبر مثلما غرق فرعون في البحر الأحمر (سفر الخروج ١٥ : ٤). والمسيحية بالنسبة إلى قسطنطين هي «ديانة النصر». وقد تأكد ذلك على جسر ملفيان، ولكن ذلك لم يتضح له تماماً إلا بعد ١٢ سنة. في ١٨ أيلول ٣٢٤م وقعت معركة أخرى في كريزوبوليس بالقرب من خلقيدونية، وهو مرفأ إغريقي قديم بالأناضول مقابل إستانبول الحالية، بين الإمبراطورين: قسطنطين وليسينيوس، وانتصر فيها قسطنطين أيضاً. وبينما يعترف يوزيبيوس بأهمية هذا الانتصار الأخير، فهو لا يبدي [p.239] كبير اهتمام بطريقة انتصار قسطنطين على ليسينيوس. وفي كتابه عن سيرة قسطنطين تعرض المعركة كلها باعتبارها مقابلاً للانتصار عند جسر ملفيان قبل اثنتي عشرة سنة. وبدلاً من مكسنتيوس يعرض ليسينيوس هنا باعتباره «كارهاً لله» وطاغية، طبعاً. ولتكريس انتصاره أسس قسطنطين مدينة النصر الخاصة به والتي سميت باسمه: قسطنطينية. وتذهب الأسطورة إلى أن قسطنطين نظر أولاً في اختيار طروادة، التي كانت أصلاً سابقة لروما، عاصمة جديدة له. وقد أصبحت بيزنطية موقع مدينته نظراً لقربها من ساحة معركة كريزوبوليس. كانت مدينة إغريقية قديمة تم تأسيسها في القرن

السابع ق.م.، وسميت باسم ملكها بيزنطوس[1]. كان خياراً باهراً، نقطة التقاء أوروبا وآسيا، تحد للعالم الروماني القديم في الغرب، وصد لتهديدات قد تصدر من الشرق في وجه السلطة الرومانية سواء من البرابرة أم من غيرهم[2]. وقد أطلق على هذه المدينة اسم قسطنطين كشهادة باقية على أحدث وأعظم انتصار له، وقد ارتبطت بغيرها من «مدن النصر» التي أسسها أسلافه. شُبّهت القسطنطينية بروما وتمت الإشارة إلى «روما الجديدة»[3]. حاول قسطنطين أن يحوّل هذه المدينة إلى عاصمة مسيحية، مركز إمبراطورية أكثر مسيحية. وهو إذ جعلها على مستوى روما نفسه، حظر بالقانون أن تسمى هذه المدينة altera Roma «روما الأخرى». وثمة خلاف حول قيامه شخصياً بتسميتها قسطنطينية. وقد أصبحت كرسي ملكه ابتداء من ١١ أيار سنة ٣٣٠م حتى وفاته سنة ٣٣٧م. وتعرف القسطنطينية أيضاً باسم أورشليم الثانية[4].

ومن أبهى مباني قسطنطين ضريحه الخاص في القسطنطينية الذي أهداه لرسل المسيح. كان اهتمامه الأول ينحصر في التأكد من أن رفاته تثوي قرب رفات رسل المسيح التي جاء بها إلى المدينة لهذه الغاية[5].

---

(١) Paul Cartledge, *Ancient Greece: A History in Eleven Cities* (Oxford and New York: Oxford University Press, 2009), pp. 167-76 (بلاد الإغريق: تاريخ في إحدى عشرة مدينة)

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٣) Paul Stevenson, Constantine: Unconquered Emperor, Christian Victor (London: Quercus, 2009), pp. 209 (قسطنطين الإمبراطور الغالب)

(٤) Martin Goodman; Rome & Jerusalem: The Clash of the Ancient Civilizations (London and New York: Penguin Books, 2008) pp. 554, 556 (روما وأورشليم: صدام الحضارات القديمة)

(5) Stephenson, Constantine, p.203

قسطنطين والقدس/أورشليم [p.240]

أراد قسطنطين أن يروّج الزيارات للأماكن المقدسة. ولذلك أوجد بلاداً مسيحية مقدسة حول مدينة القدس/أورشليم. كانت أورشليم القديمة في ذلك الزمن مدينة خاملة الذكر. وكان تخريبها قد استكمل على يد الإمبراطور هادريان (إمبراطور من ١١٧ إلى ١٣٨م)، الذي شيّد مدينة جديدة فوقها سنة ١٣١م وسماها باسمه، كولونيا أيليا كابيتولينا. والاسم الأول يأتي من الإمبراطور هادريان، والثاني يشير إلى جوبيتر كابيتولينوس. حظر هادريان على اليهود دخول المدينة؛ وأضحت ساحة الهيكل خرائب تافهة ولم يكن يسكن فيها إلا نفر ضئيل من المسيحيين. غير أن أسقف القدس لفت انتباه الإمبراطور قسطنطين إلى المدينة خلال المجمع المسكوني الأول في نيقية سنة ٣٢٥م.، وعاد إلى مدينته مع خطة لبناء كنيسة. وعثر تحت هيكل المدينة الروماني الذي أنشأه الإمبراطور هادريان على موضع صلب المسيح والقبر الذي دفن فيه[١].

كان قسطنطين قد أمر بالتنقيب وكشف المكان الذي قتل فيه يسوع/عيسى ودفن، وهو مكان يقعخارج أسوار المدينة خلال عهد الملك هيرودس، لكنه بات مع مرور الأيام داخل حدود المدينة الرومانية. ولم يكتف المنقبون بالعثور على مكان الصلب، بل وجدوا الصلبان الثلاثة أثناء الحفريات. وقد تم، بصورة عجائبية، تحديد أي الصلبان كان صليب المسيح[٢].

---

(١) Diarmaid MacCulloch, A History of Christianity (London, etc.: Penguin Books, 2009), 193-94 (تاريخ المسيحية)

(٢) Frank E. Peters, *Islam en de joods-christelijke traditie: Een verkenning* (Amsterdam: Boom, 2005), pp. 249-50. Dutch translation of *Islam: A Guide for Jews and Christians* (Princeton and Oxfordshire: Princeton University Press, 2002 (الإسلام: دليل لليهود والمسيحيين)

في العام ٣٢٥م، وتكريماً لقبر المسيح المكتشف حديثاً وللجلجلة، أمر قسطنطين بتشييد كاتدرائية جديدة. ولما كان السكان في معظمهم من الوثنيين واليهود والمسيحيين، فقد رأوا في ذلك غزواً من قبل المسيحيين البيزنطيين، أي المسيحيين المرتبطين بالكنيسة «الملكية» أو الإمبراطورية، ولم يؤيدوا المشروع لهذا السبب.

يصف يوزيبيوس بناء كنيسة القيامة. وبفضل ثروة قسطنطين وتقواه، وبفضل رعايته، أصبحت أورشليم مركزاً دينياً هاماً، مغنطيساً للحجاج، ولكنها كانت محظورة بشكل صارخ على «اليهود الأشرار» الذين خرب هيكلهم بسبب قتلهم البشع للسيد يسوع غير أن قسطنطين [p.241] نفسه لم يزر الأراضي المقدسة بعدما نفذت خطته؛ بل زارتها حماته يوتروبيا، ووالدته هيلانه. وتذهب الروايات إلى أن ذلك حدث يوم عثر على خشبة الصليب الأصلي! ولم يتحول اكتشاف والدة قسطنطين «للصليب الحقيقي» إلى أسطورة إلا في الجزء الأخير من القرن الرابع. ولم يكن يوزيبيوس، فيما يظهر، مطلعاً على هذه القصة. ولا بد أنها قد نشأت في مخيلة الأتقياء بعد عهد قسطنطين[١]. وقد وزعت ذخائر الصليب بسرعة وعلى نطاق واسع بعد ذلك «الاكتشاف». وقد حفظت بإجلال في أوعية خاصة سميت ستوروتيكية *staurotheke*[٢].

(1) Goodman, *Rome & Jerusalem*, pp. 560, 564-66. Stephenson, *Constantine*, p. 201

(٢) Byzantium, Jerusalem, Pilgrim Treasures from the Hermitage (Zwolle and Amsterdam: Waanders Publishers/Hermitage, 2005), p. 37-40 (كنوز الحجاج من الأرميتاج)

سقوط روما سنة ٤١٠ وقصة مدينة الله ومدينة الإنسان لأوغسطين

في الرابع والعشرين (أو الرابع عشر من آب ٤١٠م، عند منتصف الليل اجتاحت الجحافل الغوطية بقيادة ألاريك (حوالي ٣٧٠-٤١٠) ملك الفيزيقوط، مدينة روما ونهبتها مدة ثلاثة أيام. وقد جاء سقوط هذه المدينة الإمبراطورية بعد ١١٦٣ سنة من تأسيسها، وبعد أن أخضعت قسماً كبيراً من بني البشر وجاءت بـ«المدنية». أسلمت المدينة للقبائل الجرمانية والسكيثية الهائجة. سقطت روما! وكان وقع ذلك بالنسبة إلى أهل ذلك الزمن وكأن آخر الأزمنة قد وصل. «عندما انطفأ أكثر الأنوار إشعاعاً على الأرض كلها»، على ما كتب جيروم، أحد آباء الكنيسة والمترجم الشهير للكتاب المقدس إلى اللاتينية المعروف باسم فولغايت Vulgate. سمع جيروم النبأ وهو في بيت لحم: «عندما قطع رأس الإمبراطورية الرومانية، أو قل على نحو أدق، يوم انهار العالم كله في مدينة واحدة، أعياني الكلام. سكتُّ، حتى عن الخير، وشعرت بألم. من كان يصدق أن روما التي بنيت على فتح العالم كله، قد انهارت فجأة، من يصدق أن أم الأمم قد أصبحت مقبرة لها؟»

أراد أوغسطين أن ينافح الرومان الوثنيين الذين ظنّوا أن الآلهة القديمة الغاضبة هي السبب وراء هجمات البرابرة لأن الرومان هجروا آلهتهم واعتنقوا المسيحية. رد عليهم بالقول إن الرومان كانوا قد عانوا نكبات كهذه قبل مجيء المسيحية بزمن طويل. ففي رأيه أن الوثنية ورذائلها هي التي أدت إلى انهيار [p.242] الإمبراطورية الرومانية. فقد أبدى ألاريك احتراماً لكنوس الكنيسة وأشخاصها، قائلاً إنه كان في حرب على

الرومان لا على *الرسل*. ورأى أوغسطين أن روما لم تدمر كلياً مثلما دمرت سدوم بسبب وجود المسيحيين فيها![1]

كان فرجيل قد تنبأ في الإنياذة بأن الرومان سوف يحكمون إلى الأبد. وكانت روما تسمى بالمدينة الأبدية. وقد رأى بعض آباء الكنيسة يد «العناية الإلهية» في صعود الإمبراطورية الرومانية. كان القيصر أغسطس (٢٧ق.م- ١٤.م) والمسيح متعاصرين، وبدت الإمبراطورية الرومانية في تلك الأثناء معقلاً للإيمان المسيحي. وقد سوّغ ترتوليان (١٦٠-٢٣٠م)، من آباء الكنيسة، المولود في قرطاجة ابناً لضابط روماني، الصلاة من أجل صحة الأباطرة الرومان. أما في عيني جماعة «الوثنيين» في روما، فإن المسيحيين تحديداً هم السبب في سقوط روما.

والمناسبة التي حدت بأوغسطين (ت ٤٣٠م) لكتابة كتابه مدينة الله De Civitate Dei كانت نهب روما سنة ٤١٠م على يد ألاريك المسيحي، ورد فعل الوثنيين الرومان على ذلك. كان ألاريك قد اعتنق المذهب الآريوسي، وهو من الفرق المسيحية المعتبرة مبتدعة. وقد كان لسقوط المدينة وقع هائل على شعوب الإمبراطورية الرومانية؛ ومن الممكن مقارنته بالصدمة التي خلفها تخريب القدس سنة ٧٠ م على يد الرومان، ومن بعدها سقوط القسطنطينية في يد المسلمين في القرن الخامس عشر. وقد زعم الوثنيون الرومان بعد نهب روما أن الآلهة قد أدارت ظهورها لروما لأن «الملحدين» الذين يسمون أنفسهم مسيحيين، قد اجتاحوا المدينة وقمعوا أو أنهوا عبادة آلهة الوثنيين.

لم يكن أوغسطين، المواطن الروماني الذي نشأ وتأدب على أعمال

---

(١) للاطلاع على خلاصة أنظر Daniel J. Boorstin, *The Creators: A History of Heroes of the Imagination* (London: Phoenix Press, 1992), pp. 59-60

فرجيل وشيشرون، غير مكترث بعظمة روما وامتيازها. هذا كان الدافع الرئيسي لأب الكنيسة هذا الذي عاش وعمل في هيبو، بشمال أفريقيا، أي تونس اليوم، الذي دفعه إلى كتابة قصة مدينة الله ومدينة الإنسان. لقد قسم الواقع الإنساني إلى قسمين: بابل، مدينة الإنسان التي انتهت حتماً في الخراب والموت، وأورشليم الجديدة، مدينة الله، «التي ستبقى إلى الأبد فوق كل خلاف وشقاق، [p.243] وصراع». عمل أوغسطين ثلاث عشرة سنة على كتابه هذا (٤١٣-٢٦) وابتكر نوعاً جديداً من الدفاع عن الدين الجديد.

قصة المدينتين عند أوغسطين

كان أوغسطين يريد أن يكتب مقالاً في أصول *المدينتين*، الأرضية والسماوية وتطورهما، ونهايتهما. أراد أن يكتب عن المدينتين اللتين تتعايشان وتتداخلان موقتاً في هذا العالم(1). والصراع الفعلي في التاريخ، وهو صراع كلّي لأنه موجه نحو هدف واحد، إنما هو صراع بين مدينة الله *civitas Dei*، والمدينة الأرضية برأيه *civitas terrena*. وهاتان المملكتان ليستا متماهيتين بالكنيسة المنظورة والدولة، بل هما جماعتان صوفيتان نشأتا عبر شكلين متضادين من الوجود الإنساني. فالمدينة الأرضية تبدأ مع قابيل/ قايين قاتل أخيه، ومدينة الله تبدأ مع هابيل. قابيل/ قايين هو مواطن من هذا العصر، يصبح مؤسساً للممالك الأولى عبر جريمته. هابيل عنده هو الغريب في هذا العصر، وهو في رحلة حجّ إلى محجة أسمى من العالم. نسل هابيل الروحيون يعيشون

(1) Augustine, *The City of God*, Translated by Marcus Dods, The Nicene and Post-Nicene Fathers, 1st series, vol. 2, edited by Philip Schaff, Reprint (Grand Rapids; Erdmans, 1983), Book XI, Ch.1, p.205

في هذا العصر في مملكة قابيل/قايين، ولكنهم ليسوا مؤسسي هذه المملكة ولا مواطنين فيها. ولهذا السبب يرى أوغسطين أنه لا يمكن لتاريخ مدينة الله أن يتناسق مع مدينة الإنسان: فالحدث الخلاصي فعلاً والمسار التاريخي لمدينة الله يتكونان من مسيرة حج. و«العملية» ليست إلا حجًا لا كلل فيه إلى المحجة الأسمى من العالم. ولما كانت الكنيسة مواطَنة في الحج، فهي تتصل بحوادث العالم بقدر ما تروّج للأهداف الأسمى من العالم، الأهداف المتمثلة في بناء بيت الله. ولكن المدينة الأرضية إذا ما قيست بحسب معاييرها فإنها تسمح لنفسها بأن تنقاد لاعتبارات المنفعة، والراحة، والطموح، بينما تنقاد مدينة الله، وخلافاً لذلك، لاعتبارات التضحية، والطاعة، والتواضع. واعتبارات الأولى الغرور، واعتبارات الثانية، الحقيقة. والمدينة الأرضية توجد جراء التكون الطبيعي، أما مدينة الله فتوجد جراء الولادة الثانية الفائقة للطبيعة. فالأخيرة تستلهم محبة الله وإنكار الذات، أما الأولى فتستلهم حب الذات الذين يقود إلى احتقار الله[١]. [p.244]

روما وقرطاجة: قصة مدينتين

من اللافت أن نلحظ كيف أن أوغسطين نفسه يشير إلى قصة أقدم عهداً لمدينتين. في الباب الأول من كتابه *مدينة الله*، يتناول أوغسطين الحرب الشنيعة التي دارت رحاها بين روما وقرطاجة. وعن شيبيو ناشيا، الذي تولى منصب القنصل سنة ١٦٢ و١٥٥ق.م.، والذي اعتبره مجلس

---

(١) Karl Löwith, Wereldgeschiedenis: Wijsgerig en Bijbels gezien (Utrecht and Antwerpen: Aula Bocken, 1960), pp. 150-5; Meaning in History: The Theological Implications of the Philosophy of History (Chicago: University of Chicago Press, 1957) (المعنى في التاريخ: التضمينات اللاهوتية لفلسفة التاريخ)

الشيوخ بأجمعه أفضل مواطن في الإمبراطورية الرومانية، كتب أوغسطين ما يلي: لم يكن يريد القضاء على قرطاجة، العدوة السابقة للإمبراطورية الرومانية. وفي هذا المجال الهام، عارض شيبيو كايتو (٢٣٤-١٤٩) الجندي الروماني، ورجل الدولة، والكاتب. فقد كان كايتو ينهي كل خطاب له بالكلمات التالية: «أنا متيقن من أن قرطاجة يجب أن ندمر» وهو القول الذي يجب على كل دارسي اللاتينية أن يعرفوه. طالب كايتو وسواه من الشيوخ البارزين بأن يرسل فوراً جيشاً إلى شمال أفريقيا، غير أن ناشيا أصر على رأيه بأن قرطاجة لا تمثل أي سبب للحرب[١].

ظل كايتو يشدّد مراراً وتكراراً، بين الحربين البونيتين الثانية والثالثة، على القضاء على قرطاجة التي كانت تزداد قوة باستمرار. كان ناشيا يخشى *الشعور بالأمان* باعتباره عدواً للمشاعر الضعيفة. فمن رأيه أن *الخوف* هو الحارس المأمون لمواطنيه غير الناضجين. وهو هنا لم يجانب الصواب في رأي أوغسطين: فقد أثبتت الوقائع أنه كان على حق. ذلك أن الرومان لما تخلّصوا من أعظم مخاوفهم بعد تقويض قرطاجة سنة ١٤٦ق.م.، أفضى *الازدهار* بهم فوراً إلى بعض الكوارث. فكان أول ما تخلخل الوفاق بينهم، واندلعت الحروب الأهلية وأعمال الشغب الدموية التي استجرت الكثير من الخراب والكثير من سفك الدماء: «كمية من الأحكام الجائرة والنهب، بحيث أن أولئك الرومان الذين ما كانوا يتوقعون الإصابة، أيام فضيلتهم، إلا على أيدي أعدائهم، باتوا اليوم، وبعد أن ذهبت فضيلتهم، يعانون فظاعات أدهى على أيدي

(١) Brian Caven, *The Punic Wars*, (London: Book Club Associates, 1980), p. 268
(الحروب البونية)

مواطنيهم»[1]. ولم يرتو التعطش إلى السلطة في قلوب بعض الأكابرالمتسلطين حتى توصلوا، بعد تمديد فترات ولايتهم، إلى *سلطة* تضارع سلطة *ملك*! بات الناس بخلاء ومتلهفين للوفرة التي كان شيبيو ناشيا العظيم [p.245] يريد أن يحميهم منها في حكمته البعيدة النظر يوم عارض محو أعظم، وأقوى، وأثرى مدينة عدوة لروما. كان ناشيا يعارض بشدة دعوة كايتو إلى محو قرطاجة لأنه كان يعتقد أن وجود قرطاجة كان بمثابة محفّز لروما[2]. كان يريد أن يبقي طلب الرومان للملذات ملطفاً بالخوف، بحيث يحول هذا الحد لطلب اللذة دون الإفراط وبحيث يقضي على البخل عبر لجم الإفراط. وقد كتب سالّست (٨٦-٣٥ق.م.)، وهو مؤرخ روماني يستشهد به أوغسطين، يقول:

«ومع ذلك فبعد القضاء على قرطاجة، زاد الشقاق، *والبخل*، والطموح، وسوى هذه من الرذائل التي يولدها الازدهار عادة، زيادة فائقة»[3].

بيزنطية، الروم، وطيسفون/المدائن

ويمكن أن تروى قصة مدينتين عن زمن النبي محمد، بداية القرن السابع للميلاد. كانت قوتان عالميتان عظميان مشتبكتين في صراع متماد: الرومان الشرقيون أو البيزنطيون من جهة والفرس أيام الساسانيين من الجهة المقابلة. والاسم الذي يستعمله القرآن للإشارة إلى بيزنطية هو

---

(١) Augustine, *The City of God*, Book 1, ch.XXX, p. 20 (مدينة الله)

(2) *Grote Winkler Prins Encyclopedie in 25 delen*, edited by R.C. van Caenegen et al. reprint (Amsterdam, 1979), *s.v.* Scipio

(٣) Augustine, The City of God, Book II, ch. 18 التشديد من الكاتب.

الروم، وهو يدل على روما. والقسطنطينية، بيزنطية، أي استانبول الحالية، هي «روما الثانية».

في العام ٦٠٢م خلع فوكاس (حكم إمبراطوراً من ٦٠٢ إلى ٦١٠م) الإمبراطور البيزنطي فلافيوس موريشس طيبريوس (٥٨٢-٦٠٢م) وبدأ حكماً إرهابياً. أعلن كسرى الثاني برويز ملك فارس (٥٩١-٦٢٨م) الحرب على فوكاس، فانهارت الدفاعات البيزنطية. وخُلع فوكاس المكروه من معظم الناس، بدوره، على يد هرقل (٦١٠-م٦٤١) وقُتل شر قتلة، وأعلن هرقل إمبراطوراً. في العقد التالي احتل الفرس سوريا البيزنطية، وفلسطين، ومصر، فضلاً عن الأناضول. ثم هوجمت القسطنطينية نفسها أخيراً. وكان الجيش الفارسي قد عسكر منذ ٦١٣م على الجانب المطل على القسطنطينية من البوسفور. ولكن الأزمة الكبرى التي حلّت بالبيزنطيين جاءت سنة ٦٢٦م يوم حاصر الفرس المدينة، يؤازرهم شعوب الأفار والسلافيين البدو الذين هاجموا من الشمال. وفي غياب [p.246] هرقل الذي كان يقود حملة عسكرية، دعا البطريرك الأرثوذكسي الشعب إلى حمل الإيقونات وشوهدت امرأة، قيل إنها مريم العذراء، على رأس المدافعين عن المدينة. كان ذلك دافعاً قوياً لشعائر إجلال مريم التي كانت مزدهرة في الكنيسة الشرقية[١]. وفي العام ٦١٤م أصيب البيزنطيون بضربة قاسية إثر احتلال القدس وسلب ذخيرة «الصليب الحقيقي» من «كنيسة القيامة».

وقد حدث هذا كله أيام كان محمد ناشطاً بدعوته في مكة كنبي. وقد تنبأ القرآن يوم فقد الروم القدس تحديداً، أن الفرس سوف يُغلبون بعد بضع سنوات. ويأتي النص على ذكر «أدنى الأرض»، والأرجح أنها

(1) MacCulloch, A History of Christianity, p. 435

إشارة إلى فلسطين، ويمكن أن يشير إلى كون هذه الآيات قد أنزلت بعد زمن غير طويل من استيلاء الفرس على القدس سنة ٦١٤م. «في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء (سورة الروم: ٤، ٥). ولفظ «المؤمنون» يشير بلا شك إلى المسلمين. وما يتبيّن من هذا هو أن المؤمنين المسلمين يشاطرون ما مني به البيزنطيون من خسارة، وفي وسع المرء أن يلمس ثقة المسلمين بأن البيزنطيين سوف ينتصرون في النهاية. ومن الجليّ أن المسلمين في ذلك الزمن كانوا يتعاطفون مع المسيحيين البيزنطيين.

ولكن، في العام ٦٢٢ شن هرقل هجوماً مضاداً على الفرس. وقاد سلسلة من الحملات وتمكن من استعادة أرمينية، وسوريا، وفلسطين، ومصر من الحاكم الفارسي وأمر بشن غارات في الممتلكات الغنية المحيطة بطيسفون/ المدائن عاصمة الفرس. وانقلب الدهر بعد سلسلة من الحملات التي هزم فيها الفرس هزيمة حاسمة في نينوى سنة ٦٢٧م[١]. انسحبت العساكر الفارسية في العام ٦٢٩م وفي العام ٦٣٠م أعاد هرقل بنفسه ذخيرة «الصليب الحقيقي» إلى القدس باحتفال رسمي.

ولكن سرعان ما أصبح البيزنطيون بعد ذلك، من حوالي ٦٢٩/ ٦٣٠م، أهدافاً لغزوات المسلمين التي أدت إلى قدر كبير من العداوة على امتداد القرون السبعة التالية. [p.247]

ما كانت أسباب هذا التغير في موقف المسلمين من البيزنطيين أثناء حياة محمد؟ أولاً، كان ثمة توقع أن يغلب الروم بعدما غُلِبوا (سورة الروم: ٣)، واعتبر المسيحيون الأقرب مودة إلى المسلمين (سورة المائدة: ٨٢). وقد تغير هذا لاحقاً. فقد وقعت أولى الصدامات العسكرية

---

(1) *E.Q. s.v.* Byzantines

بين المسلمين والبيزنطيين في شمالي غرب شبه الجزيرة العربية على الحدود الفلسطينية في معركة مؤته التي وقعت في آب ٦٢٩م[1].

يعتقد أن هذا التغير في الموقف من المسيحيين البيزنطيين يتصل بعودة الإمبراطور البيزنطي الانتصارية بـ«الصليب الحقيقي» ومساواة المسيحيين بالمشركين، بينما كان المسيحيون يعتبرون سابقاً من جملة الموحدين. ومن المهم أن نعلم أن هرقل استعمل كنوزاً لا يستهان بها من كنوز الكنائس في بلاد الرافدين وبلاد الشام لتمويل مجهوده الحربي. فالحرب بين البيزنطيين والساسانيين التي كانت سياسية في طبيعتها، كان لها جانب ديني. فقد جمع هرقل العساكر لإنقاذ «الإمبراطورية المسيحية»، وإعادة «الصليب الحقيقي» إلى القدس، «وربما كان عمله هذا أول مثال على حرب إمبريالية دينية المسوغات»[2].

وفي أثناء زيارته للقدس لإعادة «الصليب الحقيقي»، حمله هو بنفسه على طول طريق الآلام *via dolorosa*. ويمكن اعتبار معركة مؤته رداً على إعادة «الصليب الحقيقي»[3]. وقد دوّن المؤلفون المسيحيون اللاحقون المقيمون في ديار الإسلام إعادة الصليب بصورة انتصارية، ولا بد أنهم عرفوا كم كان إجلال الصليب مغيظاً للمسلمين. ومن

(١) راجع الفصل التاسع.

(2) Fred M. Donner, Muhammad and the Believers: At the Origins of Islam (Cambridge, MA and London: The Belknap Press of Harvard University Press, 2010). p. 24

(3) Cook, "Why Did Muhammad Attack the Byzantines?" in *Political Islam: From Muhammad to Ahmadinijad, Defenders, Detractors, Definitions*, edited by Joseph Skelly (Santa Barbara: Greenwood Publishing Group, 2010), pp.27-28.

الممكن التأكد عبر الوثائق من أن العداوة قد تطورت بعد وقت قصير لدى المسلمين في سوريا ومصر بالنسبة إلى رمز الصليب.

عندما يتحدث القرآن عن المسيحيين باعتبارهم أقرب الناس «مودة للذين آمنوا» فإن تفسير ذلك أن «منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون» (سورة المائدة: ٨٢)! وقد قيل ذلك يوم كان قوم من المسيحيين في صحبة المسلمين العائدين من [p.248] مصر قبيل ذلك سنة ٦٢٨. والصلات الأولى التي كانت لمحمد بالمسيحيين في شبه جزيرة العرب لم تكن بالبيزنطيين بل بالمسيحيين السريان الأرثوذكس والنساطرة أو المسيحيين الآشوريين. كانت روحانية الأواخر بعيدة كل البعد عن ذلك الضرب من الأبهة الانتصارية التي اتسم بها دخول هرقل الانتصاري إلى القدس، حيث أجلّ الجميع «الصليب الحقيقي». وكان لا بد لإجلال الصليب الذي روجت له الكنيسة البيزنطية الإمبراطورية من أن يبدو مستهجناً في نظر المسلمين كما كان يبدو أشبه بالشرك[١].

أسس هرقل وهو واحد من أعظم أبطال القصة البيزنطية وأكثرهم شرًّا، سنة ٦١٠م سلالة إمبراطورية استمرت مدة سبعة قرون تالية. ولكنه كان على قدر من الانشغال بصد الأعداء من الشرق والغرب بحيث فاته التنبه إلى أهمية الغارات التي شنها العرب المسلمون في الجنوب. فبعد هزيمة الجيش البيزنطي سنة ٦٣٦م سرعان ما «ضاعت» الولايات الجنوبية ووقعت في أيدي المسلمين، ومن جملتها القدس[٢].

---

(1) Cook, 2010, Why Did Muhammad Attack the Byzantines?" pp. 30-32; Robert G. Höyland, *Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam* (Princeton: The Darwin Press Inc., 2007), pp. 549, 596-97

(2) MacCulloch, *A History of Christianity*, p. 435

رسالة القرآن عن هزيمة الروم ثم انتصارهم لاحقاً تأتي صريحة: «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (سورة الروم: ٤-٥).

فتح المسلمين لمدينة القدس

بُعَيدَ وفاة محمد فتح العرب المسلمون المناطق التي كان البيزنطيون قد فازوا بها منذ فترة غير بعيدة من أيدي الفرس والتي قال القرآن إنهم يفرحون بها (سورة الروم: ١-٤). بعد وفاة محمد حلّ العرب المسلمون محل الفرس بانتزاعهم سوريا، فلسطين، ومصر من بيزنطية. ومن أهم ما استولوا عليه هنا مدينة القدس. [p.249]

أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت ٧٠٥م) بإنشاء قبة الصخرة في القدس، وبدأ العمل بذلك سنة ٦٨٥. وقد ذكر أن النبي محمد قد وضع قدمه على تلك الصخرة قبل المعراج. كانت خطط البناء موجودة منذ أيام معاوية، أول خلفاء بني أمية. وقد تم بناء القبة سنة ٦٩١م. ويكاد يكون من المؤكد أن مصممي المبنى وبنّائيه كانوا من مسيحيي سوريا وفلسطين. ويشير غياب أية تصاوير بشرية إلى موافقة مقصودة على الأفكار الإسلامية. ولعل الغاية الأولية من البناء كانت، وبمعزل عن تشييد صرح يذكر بالإسراء والمعراج، تتعلق بفكرة عرض الدين الجديد في مدينة اليهودية والمسيحية. وقد أظهر «الإسلام» باختياره هذا الموقع، أنه بمثابة الوارث للعقيدتين، في إعلان انتصاري لتفوق الإسلام على اليهودية والمسيحية[١].

---

(1) Carole Hillenbrand, "Some Medieval Muslim Views of Constantinople," in *World Christianity in Muslim Encounter, Essays in Memory of David A. Kerr*, edited by Stephen R. Goodwin, vol. 2 (London and New York: Continuum, 2009), pp. 71-83, 72

كان القصد الواضح من بناء قبة الصخرة أن تنافس كنيسة القيامة، وبالسياق نفسه أن تكون تمجيداً لانتصار «الإسلام» على «المسيحية»: كان القصد من قبة الصخرة أن تفوق كنيسة القيامة حسناً. وهكذا لعبت قبة الصخرة دوراً في امتلاك الإسلام للأرض بصورة «رمزية». وتنم النقوش عن هذا القصد إذ توجه الرسالة الإسلامية إلى المسيحيين. وكما في الكثير من المساجد نجد فيها النقش التالي: «لم يلد ولم يولد» (سورة الإخلاص: ٣). ومع أن هذه الفقرة كانت تخاطب الوثنية العربية، وتنفي فكرة أن يكون لله ولداً، وبنات بصورة أخص، فقد كانت تعبر أيضاً عن إنكار أن يكون لله ولد، وبصورة أخص أن يكون المسيح ابناً لله. ثمة تشديد على أن المسيح كان من جملة الرسل والأنبياء وإنكار لكونه ابن الله (سورة البقرة: ١١٦؛ سورة مريم: ٣٥). وتتردد عبارة «لا شريك له» خمس مرات داخل قبة الصخرة. كما تتكرر الصلاة القائلة: «صلّ على عبدك ونبيك» التي تفسر بأنه تشير إلى أن المسيح ليس ابن الله. وتشدد هذه العبارات على وحدانية الله. وفي هذا الصدد يعترف الكتاب المقدس والقرآن بأن الله واحد وينظران إلى المسيح باعتباره نبياً. حاول عبد الملك بن مروان (حكم من ٦٨٥ إلى ٧٠٥) [p.250] أن يجعل القدس مركزاً للشعائر الإسلامية بمعنى أنه أعلن أن في وسع المرء أن يؤدي الحج، أحد أركان الإسلام الخمسة في مكة أو في *القدس*. ويمكن تأدية شعائره ومنها الطواف حول الكعبة بمكة بالطواف حول قبة الصخرة. غير أن هذا الرأي كان محل خلاف[1].

(1) D.S. Attema, *De Mohammedaanscheopvattingenomtrent het tijdstrip van den jongsten dag en zijnvoortekenen* (Amsterdam: Noord-HollandscheUit-geversMaatschappij, 1942), p.90; *The Ummayyads: The Rise of Islamic Art* (Amman: Ministry of Tourism, 2000), pp.44-45

القسطنطينية والإسلام

كان فتح القسطنطينية أو بيزنطية فعلاً على رأس أجندة المسلمين. ولا يكاد يكون مفاجئاً أن يريد الأمويون ضم القسطنطينية إلى ممتلكاتهم، المدينة العظيمة، رمز المسيحية والتقاليد الإمبراطورية المسيحية[١]. فقد كانت بيزنطية مركز الثقافة العالمية وجسراً بين الشرق والغرب مدة ١٢٠٠ سنة.

والوسيلة التي اعتمدت في البداية لتحقيق الفتح كانت الغزو من البحر. فقد أرسلت الأساطيل في فترات مختلفة لفرض الحصار البحري عليها، إعداداً للهجوم. ومن المحتمل جداً أن أوائل الخلفاء، وبخاصة الأمويين بعد تولي معاوية الخلافة سنة ٦٦١م، رأوا في إمبراطوريتهم خليفة طبيعية لإمبراطورية بيزنطية. فقد كانت نقودهم، ونظامهم الإداري، ورموز الدولة تشبه نظيراتها البيزنطية. ومع ذلك، فإن العلاقات بينهم وبين البيزنطيين لم تكن دائماً عدائية.

كان الخليفة الأموي الأول، معاوية، في صراع مع البيزنطيين، حتى إنه هدد مرتين أن يتلو الشهادة والتكبير بضع مرات حتى تنهار أسوار القسطنطينية، كما انهارت أسوار أريحا (سفر يشوع ٦)[٢]. وقد شنّت غارتان محددتان على القسطنطينية. من ذلك أن أبا أيوب الأنصاري من صحابة الرسول، قد شارك في الحصار الذي قاده يزيد ابن معاوية ومات هناك من الزحار، ودفن تحت أسوار القسطنطينية نزولاً عند طلبه. [p.251]

فتح الوليد بن عبد الملك (٦٦٨-٧١٥)، الذي حكم من ٧٠٥م إلى

(1) Hillenbrand, "Some Medieval Muslim Views of Constantinople", p. 73

(2) Attema, *De Mohammedaanscheopvattingen,* pp. 88, 92

٧١٥م، الأندلس فضلاً أن أماكن أخرى. وجدد مسجد النبي محمد في المدينة وشيّد مسجد دمشق الكبير في المكان الذي كانت تقوم فيه كاتدرائية يوحنا المعمدان/ يحيى الذي ما زال «رأسه» محفوظاً فيها حتى اليوم. كما أنه بنى عدداً من قصور الصحراء، أحدها حمام قصير عمرة الواقع على مسافة ٨٠ كلم من عمان، عاصمة الأردن. ومن القرائن على أن العلاقات مع البيزنطيين لم تكن عدائية دائماً أنه لما نقض الخليفة الوليد بن عبد الملك مسجد محمد في المدينة (٧٠٧-٧٠٩)، أرسل الإمبراطور البيزنطي رجالاً، ومالاً ومواد لإعادة بنائه. بنى المهندسون اليونانيون والأقباط المسجد من الحجارة، وزينوه بالرخام والفسيفساء. وتعكس قبة الصخرة بالقدس والمسجد الأموي شيئاً من الانصهار الثقافي بين بيزنطية والإسلام في الفنون. وتشهد اللوحات الجدارية في قصير عمرة على ذلك. فثمة صورة لستة ملوك: الخليفة الأموي محاطاً بغيره من الحكام وهم الإمبراطور البيزنطي، والفارسي، والصيني، وملك إسبانيا الفيزيقوطي، وحاكم الحبشة، وحاكم هندي أو تركي. وكان المقصود من اللوحة أن تصوّر أسرة الملوك التي رأى الأمويون أنهم جزء منها. والخليفة يتقبل التكريم المقدم له من سواه من حكام العالم المهمين[1].

أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك (حكم من ٧١٥ إلى ٧١٧م) أخاه مسلم في حملة على القسطنطينية جراء حديث نبوي توقع أن تسقط المدينة على يد خليفة يدعى سليمان. بدأ مسلم في ٢٥ آب عام ٧١٥م بحصار استمر سنة ولكن كان عليه أن ينسحب في النهاية. ويرتبط اسمه بمسجد قيل إنه بناه في القسطنطينية، وإن كان الأرجح أنه من بناء البيزنطيين أنفسهم للمسلمين الذين كانوا يقيمون هناك كأسرى، منفيين،

(1) *The Ummayads*, pp. 120-121, 123; Attema,*De Mohammedaanscheopvattingen*, p.90

أو تجار ورحّالة. وفي القرن التاسع اتضح أن المدينة لن تؤخذ في فترة قصيرة[1]. وقد شكل هذا الحصار الأخير لبيزنطية منعطفاً بالنسبة إلى الإمبراطوريتين. فقد ساد التوقع في بيزنطية والبلاط الأموي بأن تاريخ العالم اقترب من نهايته وأن حقبة جديدة كانت على وشك أن تبدأ. فقد أثار فتح [p.252] القسطنطينية الذي كان المسلمون يرتجونه، ومثله اقتراب السنة المائة بعد الهجرة موجة من التوقعات الأخروية. فقد نظر إلى سليمان باعتباره فعلاً المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. وفي أيام الخليفة التقي عمر ابن عبد العزيز (ت ٧٢٠) نقل المؤرخون الأوائل أن رجلاً من الناس سأل أحد العلماء: «هل عمر هو المهدي؟» فكان جوابه: «إنه مهدي ولكنه ليس المهدي»[2].

كان العرب يطلقون على الإغريق أو البيزنطيين اسم «*بني الأصفر*». وقد فسر هذا الاسم بأنه مستمد من أحد أحفاد عيسو، وهو جد الروم، المسمى أدوم[3]. وكانت عبارة «ملوك بني الأصفر» تستعمل للإشارة إلى حكام بيزنطية المسيحيين. الأصفر لون الفرار والجبن. وقد جعلت عيون التعصب، والفروق الدينية، والبروباغندا، وانعدام المعرفة الوثيقة حكام البيزنطيين يبدون كالطغاة. كانت «دار الإسلام» وبيزنطية تشعر كل منهما بأنها متفوقة على الأخرى؛ وكانت كل منهما تشعر أنها تمتلك الحقيقة. كان خلفاء بني العباس (٧٥٠-١٢٥٦) يعتقدون أن عليهم شن حملة جهاد على حدود بيزنطية. وظلت بيزنطية مدة عدة قرون العدو الأول للعالم الإسلامي وتعتبر دار حرب. وقد وصف الصراع الطويل بين دار

---

(1) Hillenbrand, Some Medieval Muslim Views of Constantinople," p. 73

(2) Cyril Glassé, *The Concise Encyclopaedia of Islam*, revised edtion (London: Stacey International, 2001), *s.v.* "al-Mahdi".

(٣) على الرغم من عيسو، فإن أدوم يرتبط بلون الحمرة، أي لون الأرض.

الإسلام والإمبراطورية المسيحية الشرقية في قصيدة للمتنبي الشاعر العربي الشهير (٩١٥-٩٦٥) يمتدح فيها وقوع بلدة الحدث على الحدود البيزنطية في يد سيف الدولة الحمداني سنة ٩٥٤)، ومنها قوله:

ولستَ مليكاً هازماً لنظيره   ولكنّك التوحيدُ للشِركِ هازمُ

كانت القسطنطينية تمثل السلطة الإمبراطورية مع قدر كبير من الاستعراض الذي كان الحكام المسلمون يقيسون به عظمتهم. كانت دمشق، وبغداد، وقرطبة والقاهرة تقيس عظمتها عبرالصلات الدبلوماسية بملوك أوروبا الغربية. وكان للعجز عن فتح المدينة عواقب بعيدة الأثر. فقد تحول الطموح إلى احتلال القسطنطينية إلى مستقبل مسيحاني [p.253] بعيد الأجل. ترك زوال الإمبراطورية الساسانية ونجاح العساكر الإسلامية في كل مكان الإمبراطورية البيزنطية في موضع العدو العنيد الذي ما زال صامداً. لم يكن لهذه الإمبراطورية هذه الصفة في أيام محمد. «أيّنا خلق لإهلاك الآخر؟» كان فتح القسطنطينية يبدو بمثابة حدث كوني في روايات أخروية[(١)].

وفي الروايات الإسلامية المتأخرة التي تطورت حول ثيمة «اليوم الأخير»، كانت أشراط الساعة تبدأ بوفاة محمد، ويليها فتح القدس، وتنتهي بالنزاع العنيف بين المسلمين والبيزنطيين. والعلامة التي تسبق الساعة كانت فتح القسطنطيني[(٢)].

(1) *E.Q. s.v.*, "Byzantines"

(2) Hillenbrand, "Some Medieval Views of Constantinople",pp 73-75; Attema,*De Mohammedaanscheopvattingen,* pp.87-89*; E.I, s.v.* "Asfar"; al-Sa'a; Sulayman b. Abd al-Malik,

في التاسع والعشرين من أيار سنة ١٤٥٣ م أفلح السلطان العثماني التركي محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١م) أخيراً في تلبية الرغبة التي طالما راودت المسلمين بفتح القسطنطينية. ولذلك لقّب محمد بالفاتح. كان ذلك تحقيقاً لرغبة وغاية في نفس المسلمين منذ سبعة قرون! حدث شيء لم يتوصل أي فاتح مسلم إلى تحقيقهمن قبل.

اعتبر محمد الفاتح نفسه وريثاً للخلفاء العرب وللأباطرة البيزنطيين. اتخذ لنفسه لقب «إمبراطور» وطالب، باعتباره سيد المدينة الإمبراطورية بالسيادة على كل مناطق الإمبراطورية البيزنطية: البلقان، والساحل الجنوبي لبلاد القرم، وإيطاليا. وادعى أن لبيزنطية الولاية على روما. وعقب الفتح مباشرة استملك محمد الفاتح كنيسة آيا صوفيا التي ما زال شكلها يطغى على أفق استانبول، وأمر بتحويلها إلى مسجد. وما لبث الأذان أن سمع ينطلق من مآذنها. كان الإمبراطور المسيحي يوستينيانوس الأول (٤٨٢-٥٦٥) قد بدأ تشييد آيا صوفيا سنة ٥٣٢م وأستكمل بناءها بعد خمس سنوات. وظلت هذه الكنيسة مدة عدة قرون كبرى الكنائس المسيحية. وقد تأثر يوستينيانوس نفسه بما شيده إلى حد أنه قال، فيما روي، عند تكريس الكنيسة في ٢٦ كانون الأول ٥٣٧م: «الحمد لله الذي اختارني للقيام بعمل كهذا. إيه سليمان، لقد تفوقت عليك» (قارن سفر الملوك الأول ٨). كانت تكاليف البناء مرتفعة جداً بسبب [p.254] محاولاته لاستعادة آخر أمجاد «روما» عبر الفتوحات والعمارة. ولكنه خلّف وراءه جرّاء ذلك شعباً مفتقراً وناقماً، وخزينة فارغة، وجيوشاً موهنة[1].

بدأ العمل على تحويل آيا صوفيا إلى مسجد فوراً أو كاد. وسرعان ما

(1) Donner, *Muhammad and the Believers*, p. 7

شيّدت مئذنة وتم تبييض الفسيفساء المشتملة على تصاوير أشخاص باستثناء صور الملائكة الحَفَظَة تحت القبة، لأن محمداً الفاتح اعتبرها أرواح الموضع. وفي الثاني من حزيران ١٤٥٣ أقيمت صلاة الجمعة للمرة الأولى في ما بات يسمى الآن مسجد آيا صوفيا وارتفع الدعاء باسم السلطان محمد خان غازي. وأضاف محمد الفاتح عدة منائر لمسجد آيا صوفيا. وفيما يتعلق بزعمه الخلافة، فمن اللافت أن ثمة لوحات مدلاّت في المسجد بأسماء الخلفاء الراشدين: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي وابنيه الحسن والحسين الإمامين الثاني والثالث حفيدي النبي محمد، فضلاً عن اسم الله. وقد درجت عادة تصوير الأسماء في سوى هذا من المساجد بتركيا.

جمع السلطان محمد المال لبناء المساجد، كمسجد الفاتح الذي بني على موقع «كنيسة الرسل» *Hagion Apostolon*، الذي كان أيضاً مثوى معظم الأباطرة البيزنطيين. وقد عانت «كنيسة الرسل» المحتوية على ضريح قسطنطين مصيراً أسوأ على يدي محمد الفاتح. فقد أزيلت قبور الأباطرة المسيحيين ونقض البناء ليحل محله مسجد الفاتح الذي أقيمت فيه أضرحة الحكام الجدد من الترك العثمانيين. واستعملت حجارة الكنيسة مصدراً لبناء المسجد الجديد. غير أن كنيسة آيا صوفيا (الحكمة) هي التي ألهمت عمارة مسجد السلطان محمد الفاتح. وقد صار هذا المسجد رمزاً هاماً للتغيير، ولكن المسجد الجديد بقبته يذكر المرء ببناء كان مسيحياً. فإذا ما اقترب المرء من استانبول بحراً، فإن مسجد السلطان أحمد، المعروف بالمسجد الأزرق بسبب لون بلاطه، يبدو منافساً لآيا صوفيا، المبنية قبل ألف سنة. ولأن المسجد الأزرق [p.255] يقع أدنى منه على الربوة فإن عظمة الأول تطغى على المشهد[1].

(1) Judith Herrin, Byzantium: *The Surprising Life of a Medieval Empire* (London, etc: Penguin Books, 2007), p.60

أطلق السلطان محمد اسماً جديداً على المدينة: إسلامبول، وفيه تلاعب باسمها التركي، أي «شعب الإسلام»، ولكن هذا الاسم لم يرق للأذن التركية لسبب ما. وسرعان ما «اكتشف» قبر أيوب، حامل لواء النبي محمد الذي قتل سنة ٦٦٩م، وكان مقتله دافعاً قوياً للجهاد ضد هذه المدينة. لقد حققت فتوحات محمد الفاتح المطامح الإمبريالية للامبراطورية البيزنطية والجهاد الإسلامي!

تسبب سقوط القسطنطينية بردة فعل هائلة في أوروبا. صوّر محمد الفاتح بصورة الوحش الذي تصفه رؤيا يوحنا اللاهوتي، والذي خرج من البحر. (سفر الرؤيا ١٣ : ١). وقد انتشرت أنباء سقوط المدينة لا في البلاطات والقلاع، بل عند ملتقى الطرق، والأسواق والحانات. وبلغت أقصى بقاع أوروبا وأدنى الناس مرتبة. من ذلك أن كتاب الصلوات اللوثري في أيسلاندا اشتمل على صلاة تطلب من الله أن ينجي الناس من خدع البابا وإرهاب الترك[١].

بعد مرور قرن على فتح القسطنطينية

بعد مرور قرن على الفتح، ختم سعد الدين، أحد أشهر المؤرخين العثمانيين، وصفه الأدبي المسهب للفتح بالكلمات التالية:

«تلك البقعة الواسعة، تلك المدينة القوية والمتعالية... تحولت من كونها وكراً لبوم الضلالة إلى عاصمة للمجد والشرف. وبفضل الجهود الحميدة التي بذلها السلاطين المحمديون استعيض عن ضرب نواقيس الضالين بأذان المسلمين، الدعاء الحلو المتكرر خمس مرات إلى ملة

(1) Roger Crowley, *Constantinople: The Last Great Siege 1453* (London: Faber and Faber, 2005), pp.237-239; Stephenson, *Constantine*, p.190

الشعائر المجيدة، وامتلأت آذان المجاهدين بألحان الأذان. أفرغت الكنائس التي كانت داخل المدينة من أصنامها المخزية، وطهرت من نجاساتها الوثنية؛ وبفضل طمس تصاويرها وإقامة محاريب الصلاة الإسلامية ومنابرها، تحولت عدة أديرة وكنائس إلى ما يشابه جنائن الفردوس. تحوّلت معابد [p.256] الضالين إلى مساجد للأتقياء، وطردت أشعة نور الإسلام جحافل الظلام من ذلك المكان الذي ظل زمناً طويلاً مقاماً للكفار الممقوتين، وأبعد بوارق فجر الإيمان سواد الظلم الشاحب، لأن كلمة السلطان المسعود، أصبحت لا تقاوم كالقدر، وباتت هي العليا في حكم هذه الولاية الجديدة...»[1].

لمن النصر؟

هل ادعاء النصر على المدن والاستيلاء عليها هو ما توحي به الكتب الثلاثة؟ هل هي مسألة انتصارات تنسب إلى المسيحيين أو إلى المسلمين؟ لمن النصر *في الواقع*؟ هل تفصح الكتب الثلاثة عن رسالة واحدة أم أن لها رسائل مختلفة؟ هل كان انتصار قسطنطين الكبير بعلامة الصليب سنة ٣٢٨م *يتسق وما يقوله الكتاب المقدس*، ويسوغ له بناء «مدينة النصر» خاصته، القسطنطينية؟ هل كان النصران نصرين مسيحيين؟ كان يوزيبيوس يرى أنهما كذلك. هل انتصر الأمويون انسجاماً مع *روح القرآن* الذي بنيت من خلاله قبّة الصخرة في القدس في القرن السابع، كرمز لانتصار المسلمين على المدينة بعد فتحها سنة ٦٣٨م في خلافة عمر بن الخطاب؟ هل الله هو الذي منح للسلطان

(1) Bernard Lewis, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire* (Norman OK: University of Oklahoma Press, 1963), p.9

التركي النصر على القسطنطينية، ذلك النصر الذي استتم باستيلائه على أضخم الكنائس المسيحية، كنيسة آيا صوفيا (الحكمة المقدسة). هل كان يحق لمحمد الثاني أن يصف نفسه بالفاتح استناداً إلى القرآن وأن يبني مسجداً على هذا الاسم؟ هل هذا هو الفتح الذي يقصده القرآن يوم فتح مكة؟ هل هذا النصر هو نصر الله الذي يذكره القرآن في سورة النصر؟ هل هذا هو مغزى قصة ذي القرنين، بالرغم من أن المسلمين هم المنتصرون اليوم لا المسيحيين؟[١]

لقد قرئت النصوص على أنحاء متعارضة مع مر القرون: على نحو معاد لليهود، أو للساميين، أو معاد للمسيحيين أو معادٍ للمسلمين. هل هذههيروح التوراة، والإنجيل، والقرآن؟ ولكن هل يجب أن يفهم الأنبياء على هذا النحو؟ هذا ما سيتناوله الفصل الأخير. [p.257]

(١) راجع الفصل الحادي عشر.

الفصل الحادي عشر

لمن النصر

«ومع ذلك، كان ثمة زمن كانت فيه هذه الكلمات الكبيرة: الله، الجنّة، مقدّس، تجلّ الحياة بدلاً من تدميرها، تكرّم الشريك البشري ولا تستهين به. ولم يكن تأثيرها سلبياً في وقت لاحق. أعتقد أنه يجب أن يكون من الممكن إعادة بنائها بهذا المعنى، وفي رأيي أن هذا ما نحتاج إليه أيضاً، لأنه ربما كان في وسع المرء أن يتخلّص من هذه الكلمات الكبيرة ولكنه لن يستطيع التخلص من الرغبة التي أعطتها الحياة».

فرانز كلندونك، مقالة بعنوان «كلمات كبيرة»

مدخل

كيف تعرض قصة مدينتين الأولى، القدس وبابل، النصر وماذا يعني هذا بالنسبة إلينا اليوم؟

سوف أنظر إلى كيفية عرض النبيين صفنيا وإرميا قصة المدينتين. يتحدث صفنيا عن مدينتين (القدس ونينوى) وإرميا يتحدث عن قصة

مدينتين أخرى (القدس وبابل). ثم سنرى أن محمداً قدم قصة مدينتين أخرى (المدينة ومكة).

من المقصود بالمدينة؟

النبي صفنيا وقصة مدينتين: القدس ونينوى

ظهر النبي صفنيا في عهد الملك يوشيا، بين ٦٤٠ و٦٢٠ق.م.. ويمكن اعتباره الرجل الذي هيّأ للإصلاحات في عهد ذلك الملك. والسلك الذي ينظم كل نبوءاته هو «يوم الرب»، «يوم الدين»، «اليوم الآخر»، القريب والمقترب بسرعة. والله سوف يعاقب المعصية، التي يعتبر الاستكبار جوهرها، عقوبة قاسية. في ذلك الزمن كانت اليهودية تخضع بقوة لنفوذ آشور (سفر الملوك الثاني ٢١). شجب صفنيا أكثر شيء الكفر الذي اتخذ صورة تقليد ديانة القوة الأجنبية. وقد جهد يوشيا في اتباع إصلاح يستهدف الاستقلال الروحي والسياسي[1]. [p.258]

يعلن الأنبياء أن يوم الرب، اليوم الذي يأتي فيه الرب ليدين الأمم (يوئيل ٢ : ١١) آت. ولا يعلن عن هذا اليوم تصريحاً، في أي موضع آخر، بقدر ما يعلن عنه النبي يوئيل (يوئيل ١ : ١٥؛ ٢ : ١١؛ ٣٤؛ ٤ : ١٤). وهذا اليوم موجه ضد كل ما هو مستكبر ومتغطرس(إشعيا ٢ : ٦-٢٢). والله يحكم بالعدل. وكل إنسان يعمل الشر يمكن أن يتوقع الضيق والكرب، واليهود أولاً، على ما يكتب الرسول بولس، ومثلهم اليونانيون أيضاً - لأن ليس عند الله محاباة (رسالة إلى أهل رومية ٢ : ٥، ٩-١١). وقد حذر النبي محمد لاحقاً من هذا اليوم، يوم الدين.

---

(1) KBS. B.W., *s.v.* "Sefanja, boek van"

فالإيمان بالله وباليوم الآخر هو ما يسم المؤمن (سورة البقرة: ٨، قارن سورة البقرة: ٦٢، ١٢٧، ٢٢٨، ٢٦٤، إلخ)[١].

من كان صفنيا؟ ثمة أمر لافت في شأنه، لأننا نجد في الأخبار أن له له أصلاً مزدوجاً. فهو من جهة من نسل حزقيا ملك يهوذا، وعبره من نسل الملك داود، ويجري في عروقه دم ملكي. وكان حزقيا واحداً من الملوك الجياد القلائل بعد داود.

ولكنه يوصف من جهة ثانية بأنه ابن كوش. وينظر إلى الكوشيين باعتبارهم من البدو الذين كانوا يعيشون قرب العرب (سفر الأخبار الثاني ٢١: ١٦)[٢]. وكان كوش يعد شقيقاً لمصر وكنعان. ويقال أيضاً إنه أبو الملك نمرود، الملك الجائر المعاصر لإبراهيم كما رأينا[٣]. المعروف عن نمرود أنه كان ملكاً عنيفاً للغاية. وهكذا فإن كوش ترتبط بمملكتين قويتين: آشور وبابل، الخطرين الأكبرين الآخرين على إسرائيل طوال حقبة وجودها (سفر التكوين ١٠: ٨-١٢). وبذلك يكون صفنيا متحدراً من شعبين لم يزل على بني إسرائيل أن يتعاملوا معهما كثيراً على امتداد تاريخهم. فقد صد كلا الشعبين رحلة بني إسرائيل إلى الأرض المباركة، الأرض الجديدة التي سيسودها العدل، وعارضا إقامتهم فيها.

كان النبي صفنيا، بخلفيته المزدوجة، يتحدر إذاً من نوعين من الملوك: أحدهما صالح والآخر سيء، خليفة وملك، على نحو ما يصفهما القرآن. كيف نقرر كون امرئ ما صالحاً أو طالحاً؟ ما إن يكف ملك ما، أو أمير، أو بعبارة معاصرة: ما إن يكف رئيس، أو حكومة

---

(1) KBS on Joel 1: 15

(2) D.S. Attema, *Arabië en de Bijbel* (The Hague: Uitgeverij van Keulen, 1961)

(٣) راجع الفصل الثالث.

عن الإقرار بأن الملك لله وحده، تصبح هذه الحكومة طاغية مستبدة. فالملك [p.259] يصبح مولوخ، أي شيئاً يذبح له الناس والأطفال منهم بخاصة ذبح الأضاحي.

كيف كانت الحال يوم ظهر هذا النبي؟ كان ذلك أيام خضوع مملكة يهوذا خضوعاً شديداً لسطوة آشور، وعاصمتها نينوى. وينبغي للمرء أن يلحظ أن مجرد ذكر «آشور» في تلك الأيام كان كافياً لاستيلاء القشعريرة على بدن الإنسان. كانوا حكاماً قساة؛ وثمة أوصاف من ذلك الزمن تبيّن كيف كانوا يشنون الحرب ومقدار الدمار الذي كانوا ينزلونه بمن يحاربهم. كان على القادة الروحيين والسياسيين لدولة-مدينة أورشليم/ القدس في اليهودية أن يتلقوا الأوامر من تلك القوة العالمية. ظهر صفنيا يوم صار يوشيا ملكاً، ولكنه لم يكن يمتلك في الواقع أية سلطة (سفر الملوك الثاني ٢١:١٩-٢٢:٢). ولم يكن له من العمر إلا ثمان سنوات؛ أجلس على العرش صبياً. ولم يعتمد الإصلاحات المتسقة مع روح التوراة إلا لاحقاً[1].

نشط صفنيا في القدس التي كان قادتها يتعلقون بكل كلمة تأتي من القوة العظمى نينوى. كان من جهة سليل الملك العادل داود «الذي كان يصنع العدل في عين الرب»، ومن جهة أخرى سليل الملك الجائر نمرود. خاطب صفنيا جمهوره، وفي مقدمهم قادة القدس يوم كانت نينوى لا تزال قوة عظمى.

وأنتم أيها الكوشيون، قتلى سيفي هم،

ويمد يده على الشمال ويبيد آشور

(١) راجع الفصل الثالث

ويجعل نينوى خراباً يابسة كالقفر
فتربض في وسطها القطعان، كل طوائف الحيوان.
القوق أيضاً والقنفذ يأويان إلى تيجان عمدها
صوت ينعب في الكوى
خراب على الأعتاب لأنه قد تعرّى أرزيها
هذه هي المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة [p.260]
القائلة في قلبها
أنا وليس غيري
كيف صارت خراباً مربضاً للحيوان.
كل عابر بها يصفر ويهز يده.
ويل للمتمردة المنجسة المدينة الجائرة.
لم تسمع الصوت
لم تقبل التأديب،
لم تتكل على الرب
لم تتقرب إلى إلهها
رؤساؤها في وسطها أسود زائرة
قضاتها ذئاب مساء لا يبقون شيئاً إلى الصباح
أنبياؤها متفاخرون أهل غدرات
كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة
الرب عادل في وسطها لا يفعل ظلماً
غداة غداة يبرز حكمه إلى النور لا يتعذر.

أما الظالم فلا يعرف الخزي.

(صفنيا ٢ : ١٢ -٣ : ٥)

يوم كان صفنيا يتكلم هنا كانت مملكة آشور لا تزال قوية ولم تكن مدينة نينوى قد سقطت بعد. كانت آشور لا تزال تهيمن على اليهودية والقدس. ومع ذلك فهو يسخر من آشور ونينوى: آشور سوف تسحق، وتصبح عاصمتها يباباً مهجوراً ولا يبقى منها إلا الخرائب الموحشة التي تأوي إليها حيوانات البرية: «ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى، من يرثي لها؟ من أي أطلب لك معزين؟» (سفر ناحوم ٣ : ٧). وكل من يمر بعد ذلك يصفر ويحرك يده حركة مستهزئة ساخراً منها (سفر صفنيا ٢ : ١٥) .*هكذا يزول مجد* [p.261] *العالم*. هذا ما سوف يتبقى من العاصمة المفعمة بالحيوية، الواثقة جداً والآمنة المطمئنة التي تصوّرت نفسها سيدة العالم وقالت في قلبها: «أنا وليس غيري».

لا بد أن كلمات النبي هذه قد بدت أشبه بالتبجح لآذان سامعيه في ذلك الزمن، ذلك أن نينوى كانت فريدة في قوتها. ولكن هذا ما يفعله الأنبياء: يعطينا صفنيا استبصاراً في الوضع *الحقيقي* وفهماً له. فهو ينفذ إلى الجوهر عبر المظاهر الخارجية ويكشف كل شيء. فهو يبرز ما يمكن وصفه بالصورة الشعاعية ويبدي لمستمعيه ما لا يستطيعون أن يروه بالعين المجردة. وهو يريد من مستمعيه أن يروا هذا أيضاً: لن يبقى من المدينة إلا «هيكلها العظمي». فشكلها الحقيقي إنما هو عالم الموت، أرض يباب، مدينة أشباح، مسلوخة النفس والقلب، باردة، بائدة، خاوية.

ينبغي أن ينتبه المرء إلى الموضع الذي ينطق فيه صفنيا بهذه

الكلمات، وأين ينشد نشيده الساخر هذا. فهو لا يتجوّل في نينوى كما فعل ذلك النبي الآخر، يونان/ يونس (يونان، سورة يونس؛ سورة الصافات: ١٣٩-١٤٨، سورة يونس: ٩٨). فهو يخاطب قادة المدينة والبلد في القدس.

يصيح صفنيا «أيها الكوشيون!» ومستمعوه يعرفون، طبعاً، أن هذا النبي كوشي أيضاً فضلاً عن كونه من سلالة داود. وهو حين يخاطبهم بالكوشيين فهو يخاطب نفسه أيضاً. ومعاصروه يفهمون جيداً ما يكلمهم عنه. «كل ما تقوله ينطبق عليك». فهو يخاطب قومه أنفسهم في القدس، ولعله يخاطبهم في الهيكل، ويدعوهم بالكوشيين. وهو لا يبالي كثيراً بإطلاعهم على الحال في نينوى بقدر ما يهتم بإطلاعهم على حالهم في القدس. فهؤلاء الزعماء هم «تحت» نينوى ويأتمرون بأوامرها. «أيها الكوشيون!» يمكن أن تفهم بمعنى «إذا كانت هذه صفتكم فاسمعوا». إنه يشير إلى ما يحدث فعلاً في القدس. وهو إذ يدعوهم بالكوشيين إنما يوضح أن قادة القدس كانوا يصنعون بأنفسهم فعلاً ضرباً من نينوى أخرى ويفعلون ما تمثله نينوى: الظلم والتعسف في استعمال السلطة. الله يتكلم من خلال صفنيا ابن الكوشي. كان الأنبياء يميلون إلى تبليغ رسائلهم عبر الأسماء. وكانوا يتجولون وكأنهم تجسيد لكلمة الله! «نعم، أنتم أيها الكوشيون!» على ما يشير صفنيا - وفي هذا ما فيه من صدمة - للخلفية المشتركة التي تجمعهم مع قومه. ولذلك، فليست هذه [p.262] قصة بسيطة بالأبيض والأسود: فلا وجود لنحن لا التباس فيه ولا هم لا التباس فيه، القدس من جانب ونينوى من جانب آخر، مدينة العدل والسلم من جهة ومدينة الظلم من الجانب الآخر، مملكة الديمقراطية من جهة ومملكة القهر من الجانب الآخر. نحتاج إلى واحد لنعرف الآخر، وهي قصة تأخذنا إلى جذور الشر، حتى في داخلنا.

فالروح الشرير المحوّم في سماء القدس قد حول القدس إلى نينوى أخرى. فمدينة نينوى التي كان يؤخذ عليها شرّها وكانت تبدو على مسافة مريحة في المكان، بدأت تتخذ شكلاً مرعباً *داخل* القدس. وبات على الجماعة المحتشدة في ساحة الهيكل أن تشعر بأن الخطاب موجه إليها أكثر فأكثر، وأن براقش قد جنت على نفسها، في آخر المطاف. النبي يخاطب قادة القدس أنفسهم.

ثلاث فئات من الناس يخاطبون هنا: الحكام، والأنبياء، والكهنة. فهو يقول للحكام، أي للوزراء والكتّاب: أنتم كالأسود الزائرة، تنفذون إجراءات لا تؤدي إلا إلى هلاك الناس العاديين. انتم أيها القضاة ذئاب مساء لأنكم تمارسون القضاء كأنكم سباع. وأنتم أيها الأنبياء أيضاً، أي قادة مكتب التخطيط الثقافي بالقدس، تجار متفاخرون وأهل غدرات. إنهم ذئاب في ثياب الحملان، رمز «الأنبياء الكذبة» (إنجيل متى ٧:١٥). كانت الذئاب تعتبر حيوانات رهيبة متعطشة إلى الدماء (سفر إشعيا ١١:٦؛ ٦٥:٢٥) تسفك الدماء وتمزق الفرائس إرباً في المساء أو الليل (سفر صفنيا ٣:٣؛ سفر حبقوق ١:٨). وكانت ترمز إلى الأشخاص الذين يجمعون الأسلاب (سفر التكوين: ٢٧) أو تقوم بالتخريب: «رؤساؤها في وسطها كذئاب خاطفة خطفاً لسفك الدم لإهلاك النفوس لاكتساب كسب» (سفر حزقيال ٢٢:٢٧)[1]. وأخيراً، أنتم أيها الكهنة، أي زمرة الهيكل، أنتم تنجسون المقدسات، وتخالفون التوراة.

فأين يكمن الداء إذاً في نينوى والقدس؟ إن نينوى التي كانت تبدو

(1) *BW, s.v.* wolf; Hans Biedermann, *Prisma van de symbolen*, 4th ed. (Utrecht: Prisma-Bocken, 1993), *s.v.* Wolf

على ذلك القدر من الضخامة، والفخامة، والحيوية، والنشاط، بموقعها الآمن المنيع، المبني على نظامها الأمني الخاص، وثقتها بذاتها كانت تؤمن بمناعتها وألوهيتها. لقد جعلت نينوى من ذاتها، ومثلها حلفاؤها كزعماء القدس، منافسين لله: «أنا وليس غيري». لا قوة إلا قوتي، و«لا إله إلا أنا» على ما قال فرعون. [p.263] عندما يبدأ القادة بالتكلم على هذا النحو، فهم إنما يدّعون الألوهية. وعندها يصبح الأمر خطراً بالنسبة إلى الناس العاديين: الرجال والنساء والأطفال. هذا النوع من الكلام ما يزال ينطق به حتى اليوم من الجانبين، في الغرب كما في الشرق. ولكن هذه ليست لغة التوراة أو القرآن. وهي ليست لغة الأنبياء؛ إنها لغة بابل ونينوى.

ويل لمدينة الظَلَمَة، المتمردة والمدنّسة!

يخاطب صفنيا القادة، والقضاة، والأنبياء الكذبة، وكهنة القدس الذين يؤدون نظير الدور الذي يقوم به أمثالهم في نينوى. فكبار موظفي الدولة يظلمون الناس، والقضاة ينتهكون العدالة، والكهنة يدنسون كل ما هو مقدس، والأنبياء الكذبة أبواق وتجار نميمة. لقد أصبحت مدينة القدس نفسها مدينة ظالمة، وهي لا تريد الاستماع إلى صوت الله، ولا تقبل القواعد والتأديب: باتت مدينة متمردة، عنيفة، ظالمة، دنسة.

ما المخرج من هذا المأزق؟ ما الحل؟ كيف يمكن للمرء أن يخلص من هذه الحال الخطرة، من قلة الروحانية، من هذا الهلاك، والقهر وانتهاك العدالة؟ لا يمكن الخلاص من هذا إلا بسيف الله، بسلاح روح الله.

يستعمل النص العبري هنا كلمة *يانا*التي تترجم في NIV بـ«مدينة الظَلَمَة». وإذا ما غيّرت الصوائت في هذه الكلمة يتعرف المرء فوراً على

كلمة يونا، وهو اسم النبي يونان/ يونس الذي كلّف بأن يدعو مدينة نينوى إلى التوبة. وقد حدث ذلك في هذه الحالة، وأدى إلى إجفال يونس/ يونان وانذهاله بينما كان غارقاً في تأملاته تحت تلك الشجرة، ومنتظراً بهدوء هلاك المدينة في أسرع وقت ممكن. ولكن نينوى تابت! وأصبحت مدينة توبة: «ورجع كل واحد من أهلها عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم» (سفر يونان ٣:٨؛ سورة يونس:٩٨؛ سورة الصافات:١٤٧-٤٨)!

وثمة أيضاً معنى ثالثاً لكلمة *يانا*، ألا وهو «حمامة». حمامة الله هذه تحضن العالم، مثلما كان روح الله يرف فوق مياه فوضى التكوين، وتخرج حياة جديدة وكأنما من بيضة (سفر التكوين ١ : ٢). عندما تأتي حمامة الله، تكون خليقة جديدة في طريقها إلى البروز! [p.264] وعندئذ تخرج مدينة مقدسة حقيقية إلى الوجود، قدس جديدة تنزل من السماء إلى الأرض (سفر الرؤيا ٢١ : ٢، ١٠).

في وجه الذين ينتهكون العدالة كلهم يقف الله نفسه: الشخص الصالح، الذي ينفذ التوراة، ولا يستطيع أن يكون حاكماً جائراً، أو شخصاً ظالماً.

يرتكب القضاة جورهم *ليلاً*. يفعلون ذلك مساء لأن شمس العدالة تغيب عندئذ. ويحدث عكس ذلك بالنسبة إلى الله: فهو يفعل العدل في الصباح (قارن سفر صموئيل الثاني ١٥ : ٢(. كانت أحكام القضاء تصدر، في إسرائيل القديمة، صباحاً مثل الليتورجيا، لأن كل أحكام العدالة كانت بمثابة الصدى لإصدار الله قضاءه العادل. لذلك كانت أحكام العدالة تصدر دائماً في الصباح. لأن الشمس ترتفع في الصباح، وهو

زمن القيامة. فشمس البر (سفر ملاخي ٤ : ٢) تشرق مع شروق الشمس في الشرق[1].

ما هي الرسالة التي يتوخى النبي إبلاغها؟ إن لها صلة بالمعركة الروحية، بسيف الروح. أليست هذه لغة الحرب التي يتكلم بها صفنيا، ألا يدعو إلى الحرب المقدسة، الجهاد، أو الحرب العادلة؟ من الجائز أن تقرأ على هذا النحو، ولا شك في أنها قد قرئت على هذا النحو. ولكن تلك اللغة ليست هنا. فهو إنما يتكلم على معركة روحية، على الجهاد الأكبر. فالدمار، والجور، والعنف لا يمكن أن تطرد إلا بسيف الله، بسلاح روحه الأقدس[2].

النبي إرميا وقصة مدينتين: القدس وبابل

في العام ٥٨٧ق.م. خرّب الملك البابلي نبوخذ نصر أورشليم/ القدس وهيكلها. وقد غدا هذا الحدث معلماً على فترة انتقالية تفصل بين ما هو قبل ذلك العام وما هو بعده، مثلما بتنا نميز بين ما قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها. كان هذا الحدث يعني نهاية السلالة الداوودية ونفي أبرز السكان من اليهودية وأورشليم/ القدس إلى بابل. كانت نهاية العالم الذي كانوا يعرفونه من قبل.

كيف كان الرد على حال المنفى؟ يبدو أن عدة أنبياء يتكلمون باسم الله حول هذه المسألة: إرميا كان وحيداً. فقد اختبر الصعود القاهر للإمبراطورية البابلية الجديدة [p.265]. وقد حمله التحليل الصارم

(١) ثمة لعب على الألفاظ بين كلمة شيم (الإسم) وكلمة شميش (شمس).

(2) Hans van Leeuwen, *Zefanja: Verklaring van een Bijbelgedeelte* (Kampen: Kok, 1979)

للوضع السياسي إلى الاستنتاج بأنه من العبث والجنون أن يحاول قومه شيئاً سياسياً أو عسكرياً ضد بابل الجبارة. كان خراب اليهودية وأورشليم/ القدس أمراً مفروغاً منه بالنسبة إليه.

لكن إرميا لم يجد آذاناً صاغية لبصيرته عند ملكي اليهودية، يهوياكيم (٦٠٨- ٥٩٧ق. م.) وصدقيا (٥٩٧-٥٨٧ق.م.)، الذي كان آخر الملوك، ولا لدى مستشاريهما. وقد عارضه «أنبياء» آخرون. كان إرميا وحيداً. وهو، كأي نبي حقيقي أصيل لم يتملّق أحداً ولم يصدّق على ما فكّر فيه آخرون. وعلى الرغم من تحذيرات إرميا، حنث صدقيا ملك اليهودية بيمين الولاء الذي أقسمه لملك بابل، مع ما انجر عن ذلك من عواقب متوقعة. فقد قبض عليه واقتيد إلى المنفى ليلاقي مصيراً فظيعاً. قتّل أبناؤه أمام عينيه ثم سملت عيناه وأخذ إلى بابل حيث سرعان ما مات (سفر الملوك الثاني ٢٥ : ٧؛ قارن سفر إرميا ٣٩ : ٧-١٠). ولئن كان شيء من الأشياء واضحاً فهو أن التعليق الناقد الذي يقوم به نبي ليس ضرباً من الهواية والتسلية بل هو تكليف أساسي. إن إرميا نبي متردد ومتلكئ، إذ إنه صار نبياً بالرغم من نفوره، ثم إنه رجم حتى الموت في مصر لاحقاً.

كتب إرميا الرسالة التالية إلى المنفيين ببابل:

هذا هو نص الرسالة التي أرسلها النبي إرميا من القدس إلى الكهنة والشيوخ والأنبياء الذين اقتادهم نبوخذنصر إلى المنفى من القدس/ أورشليم إلى بابل.

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: أبنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنّات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلّوا. واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلّوا

لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام. لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل. لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرّافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها. لأنهم إنما يتنبأون [p.266] لكم باسمي بالكذب. أنا لم أرسلهم يقول الرب.

لأنه هكذا قال الرب: إني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضع. لأني عرفت الأفكار التي مفتكر بها عنكم، يقول الرب، أفكار سلام لا شر لأعطيكم آخرة ورجاء. فتدعونني وتذهبون وتصلوا إلي فأسمع لكم. وتطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم. فأوجد لكم، يقول الرب، وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التي طردتكم إليها يقول الرب، وأردكم إلى الموضع الذي سبيتكم منه». (سفر إرميا ٢٩:١، ٤-١٤)

النص الأول الذي قرأته من اللاهوتي السويسري الشهير، كارل بارت، كان «رسالة إلى قس في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية)» كتبها أيام «الحرب الباردة». لم يكن جدار برلين قد أنشئ بعد، وكان العديد من الألمان الشرقيين، ومن جملتهم عدة قسوس، ينتقلون إلى «الغرب الحر». كان من الممكن القيام بذلك بسهولة نسبية في ذلك الزمن. وفي تلك الرسالة ناشد بارت القساوسة أن يمكثوا حيث هم وأن يعملوا من أجل سلام مجتمع ألمانيا الشرقية الشيوعية. كانت تلك نصيحة مشبوهة في ذلك الزمن. وقد لاح للبعض أن بارت قد أصبح من جملة «المتعاونين» مع الشيوعيين، بينما كان قد قاوم النظام النازي بصورة واضحة من قبل.

استلهم بارت في رسالته هذه رسالة إرميا إلى كل السبي في بابل.

كانت نصيحة إرميا في زمنه تعتبر مشبوهة كرسالة بارت. ألم يكن إرميا يتعاون مع العدو؟ ألم يتكلم بشكل مفرط في الإيجابية عن العدو الأعظم الذي كان مسؤولاً عن السبي؟

كان إرميا يعظ من خلال رسالة لأن عدداً كبيراً جداً من المخاطبين بخطابه كانوا منقطعي الصلة به بصورة شخصية. فهم قد سيقوا إلى المنفى ببابل بينما ترك هو في أورشليم/القدس. لم يزج السبايا في السجن هناك، ولا ووضعوا في مخيم للاجئين، أو في ملجأ. بل وزعت عليهم قطع الأرض ليستوطنوا فيها. وكان لهم قادتهم، شيوخهم، وكان هؤلاء أول المخاطبين برسالة إرميا. [p.267]

يتبين من مضمون الرسالة أن المنفيين قد وجدوا أنفسهم في مأزق فريد من نوعه. فهم، من جهة، كانوا يشعرون بأنهم مشلولي الحركة داخلياً كما كانوا، من جهة ثانية، يعيشون مع آمال كبار. وكان كل شعور من الإثنين يقود إلى وضع مختلف تماماً. وفي مجتمعنا أيضاً يوجد العديد من المهاجرين الذين يتمنون أن يعودوا إلى ديارهم في أقرب وقت ممكن. كان المنفيون يشعرون بالشلل لأنهم لم يقدروا أن يفهموا لِمَ سمح الله للأمور بأن تصل إلى هذا الحد، إلى حد أن يؤخذوا هم، أبناء الشعب المختار، سبايا إلى إلى هذه الأرض الأجنبية. وكانوا يشعرون بالحنين إلى الديار، ككل الناس الذين اعتادوا في أحوال مشابهة على «تشريح الوحشة». كان المنفيون في بابل تراودهم مشاعر كهذه. كان كدرهم الأعظم يتأتى عن اضطرارهم إلى العيش في أرض غريبة غير نظيفة وعن اضطرارهم إلى أن يموتوا هناك أيضاً (سفر عاموس ٧ : ١٧ ؛ قارن سفر هوشع ٩ : ٣).

من ناحية أخرى، كانت لهؤلاء المنفيين آمال كبيرة. كانوا يأملون في

العودة سريعاً لاستئناف مسيرة حيواتهم ثانية - فتلك السعادة التي فقدوها والتي تتشوق إليها قلوبهم، ستعود قريباً، على ما كانوا يرتجون. كانوا ميالين إلى اعتبار منفاهم عابراً جداً. فالمنفي، كالسجين، لا يهتم بالحاضر إلا بمقدار ما هو عابر. كان ذلك صحيحاً أيضاً بالنسبة إلى المنفيين في بابل. فحيواتهم كانت فيما مضى غنية ومقنِعة في رأيهم، إلى أن تم نفيهم. وهي لا تستعيد معناها إلا متى سمح لهم بالعودة. والزمن بين النفي والعودة لم يكن شيئاً إلا مقاطعة لمجرى حيواتهم. فهم ما كانوا يرون وزناً لها ولا معنى؛ كانوا يرفضون أن يقولوا «نعم» للعيش في المنفى. كانوا يستنفدون بالماضي من جهة، وبالأمل الشغوف في مستقبل لم يصل بعد.

كان إرميا يناوئ هذا المنحى في التفكير وهذا الموقف. وهو اتخذ مقاربة أخرى، كان يريد أن يبيّن لهم أن الله هو من وضعهم في هذه الحال؛ «أنا سبيتكم من أورشليم إلى بابل». فالله نفسه هو الذي أسلم الشعب إلى أيدي الإمبراطورية البابلية. لم يكن سبيهم صدفة واتفاقاً بل تم بترتيب من الله نفسه. «والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذناصر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه» (سفر إرميا ٢٧ : ٦). وينصح إرميا بأن يقبل المنفيون ظروفهم الجديدة: «أبنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنّات وكلوا ثمرها». (سفر إرميا ٢٩ : ٥). «خذوا نساء ولدوا بنين وبنات... واكثروا [p.268] هناك ولا تقلّوا». (سفر إرميا ٢٩ : ٦؛ سفر التكوين ١ : ٢٨). والهدف من ذلك كله ليس (فقط) سعادة المرء كزوج ووالد، كزوجة ووالدة، بل واستمرار وجود الشعب أيضاً. وإلا فإن الشعب يقل ثم ينقرض. (سفر إرميا ٣٠ : ١٩). إن ما كان إرميا يريد إيضاحه لهم هو تحديداً هذا: كل مكان لله، وكل وقت لله. ومهما كانت الحال التي يجد المرء نفسه فيها، عليه أن يعرف أن الساعة

الحاضرة هي ساعة الله وعليه أن يستعملها (رسالة إلى أهل أفسس ٥ : ١٦). على المرء أن يعمل ويعيش على نحو موجه إلى المدى الطويل، هذا هو ما يقوله إرميا للمنفيين. لأنه مهما طال زمن النفي، فهو لن ينتهي قبل أن تؤتي الشجرة المثمرة المغروسة اليوم ثمارها. إذا قال المرء «أنشئ أسرة، واجعل بنيك يفعلون الشيء نفسه»، فهو يفكر تفكيراً مستنداً إلى الأجيال.

أبنوا بيوتاً واغرسوا جنّات، أمر لا ينفع إلا إذا كان المرء يتهيأ للإقامة مدة طويلة. معنى هذا أن على اليهود ببابل أن يحاولوا إيجاد مكانهم، وأن يضربوا جذوراً في ذلك المجتمع. إلى متى؟ سبعون سنة! إن ما يعنيه إرميا هو: إن على اليهودية وسواها من الدول الصغيرة أن تخدم العالم البابلي طيلة مدة حياة امرئ من الناس. فمدة حياة الإنسان تمتد في أقصاها على ثلاثة أجيال. «السنون السبعون» التي يذكرها إرميا تدل على أن الأطفال الحديثي الولادة سوف يموتون قبل مجيء الخلاص. والبالغون الذين يؤخذون إلى بابل لن يروا موطنهم ثانية.

إن توصيات إرميا تتعارض مع ما يؤكده أنبياء كذبة - في نظر إرميا - وعرّافون وعائفون. فقد كان هؤلاء مقتنعين بقوة، في ما يظهر، بأن الله لم يرد أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه، وأن النفي لن يدوم طويلاً، وأن الله سوف يخرجهم قريباً من بابل بيده القوية وذراعه الممدودة (سفر إرميا ٢٨ : ٢-٤). فإرميا يناقض ذلك مباشرة: «لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب» (سفر إرميا ٢٧ : ١٤).

هذا التضاد بين كلمة الله هذه التي جاء بها إرميا والنبوءة الكاذبة إنما هو التضاد بين المديين القصير والطويل. والرسالة هي أن السبي سوف

يستمر فترة طويلة. فإرميا يجرّد المنفيين من التوهم الجائز بأنهم سوف يفيقون قريباً من هذا الحلم المزعج. وهو يدعوهم إلى الهبوط على أرض الواقع. فالله يمهل أحياناً. وعليهم أن يتوقعوا المثابرة لمدة طويلة. والفرق بين إرميا وخصومه لا يكمن في كون إرميا [p.269] يبشر *بالكارثة* بينما خصومه يبشرون *بالخلاص*، فحسب. بل هو يكمن في مسألة متى يصبح الخلاص حقيقة؛ ذلك أن إرميا أيضاً نبي مبشر بالخلاص.

ولكن هذه الكلمات تنزل في بابل بمنزلة السباب في الكنيسة أو بالأحرى في محفل اليهود. «كيف نرنّم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني» (سفر المزامير المزمور ١٣٧ : ٤-٥). إرميا لا ينكر ذلك ولكنه يحاول أن يلجم الحماسة السابقة لأوانها: فهذه الطريق لا تؤدي إلا إلى الخيبة. ومن الدلائل على أن تدخله لم يلق استحساناً بل إن الشعب فضل الاستمرار في مداعبة الأحلام اقتباس من رسالة جاءت من بابل «أرسل إلينا إلى بابل قائلاً إنها مستطيلة. ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنّات وكلوا ثمرها» (سفر إرميا ٢٩ : ٢٨).

ولكن ما يطلبه منهم إرميا ليس بالقليل. فقد كتب فرانز كافكا يوماً: «وفرة من الآمال، ولكن ليس لنا»! معرفة أن أملاً كهذا موجود ولكنه لن يتحقق لنا يجعل اليأس في حيواتنا أثقل وطأة. لأن «الرجاء المماطل يمرض القلب» (سفر الأمثال ١٣ : ١٢). إذا كنا نرغب في شخص أو في شيء فإن الشوق قد يمرضنا.

على المنفيين ألا يكتفوا بإجبار أنفسهم على القناعة بمصيرهم في بابل، بل عليهم أيضاً أن يستفيدوا منه إلى أقصى حد. عليهم أن يطلبوا السلام للمدينة. عليهم أن ينخرطوا مباشرة في طريقة بناءة لتحقيق

سلامها، لأن في سلام بابل سلامهم. لقد ربط الله مصيرهم بمصير بابل: عليهم الالتزام الأمين بمصالح بابل. الجديد وغير المسبوق في وصية إرميا للمنفيين هي أن يصبحوا مقيمين ناشطين في منفاهم. وذروة ذلك في المهمة المستهجنة بأن يصلّوا من أجل رفاهة بابل. ولا بد أن ذلك قد بدا كضرب من الخيانة في نظر معاصريه، أو كضرب من التجديف في آذانهم.

ولكن حتى الصلاة وحدها لا تكفي. ولا يستطيع المنفيون الاكتفاء بها. بل عليهم أن يصلوا وأن يعملوا، وهو يطلب منهم أن يعملوا على ترقية ازدهار بابل. عليهم أن يطلبوا الأفضل للمدينة وأن يصلّوا لذلك. عليهم القيام بدور الكهنة (سفر إرميا ٢٩ : ١٢). يقيناً، إن لبابل حكومة لها ما لها وعليها ما عليها من اعتراضات كثيرة، ولله الكلمة الفصل في شأن بابل: «ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك [p.270] بابل وتلك الأمة على إثمهم» (سفر إرميا ٢٥ : ١٢-١٤). ولكن على المسبيين، في هذه الأثناء، أن يطلبوا السلام، والخلاص للمدينة. عليهم أن ينذروا نفوسهم لذلك. ومثلما كان على اليهود أن يصلّوا من أجل بابل، كذلك كان على الكنيسة المسيحية لاحقاً أن تصلّي من أجل الحكام، الأباطرة الرومان أولاً والحكومات (الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ٢). ولا يزال سلام القاهال، الكنيسة، الأمة يتوقف على سلام العالم(١).

(1) Gottfried Voigt, Der Helle Morgenstern (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 1961), pp.151-55

محمّد وقصة مدينتين: المدينة ومكة

كما ذكرنا في مستهل الكتاب، يروي القرآن أيضاً قصة مدينتين: مكة، مدينة الظلم، والمدينة مدينة العدالة. كانت ثمة عداوة بين المدينتين ازدادت حدة بعد هجرة النبي من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢، وما كان من فتح مكة وإسلامها سنة ٦٣٠.

يتحدث القرآن، في سورة النصر، عن فتح مكة على الشكل التالي: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً». (١-٣)

ما هو طابع هذا النصر؟ لمن يجب أن يُعزى النصر وما هو دور الله فيه؟ لا بد لنا للإجابة عن هذا السؤال من أن ننظر إلى كيفية التكلم على سلام الله، حضور الله، وكيف يجب أن تفسر كلمتا «نصر» و«فتح» في هذا السياق.

يعرّف «حضور الله» بلفظ *السكينة* التي تعني سكن الله في ذاته[١]. شكينه، التي تعني «العيش»، هو من أسماء الله التي تسمح لليهود أن يتحاشوا التلفّظ باسم الله، يهوه. وتوصف أورشليم/ القدس التي اختارها الله مسكناً لاسمه (سفر التثنية ١٢ : ١١) على هذا النحو. وفعل شكن الذي تشتقمنه هذه الكلمة يعني النزول، الإقامة، الاستراحة، العيش. وهو يستعمل في الكلام على مجد الله وللشعب كإشارة إلى حضور الله (سفر الخروج ٢٤ : ١٦؛ سفر العدد ٩ : ١٧). يقيم الله في جبل صهيون [p.271] (سفر إشعيا ٨ : ١٨)[٢]. وهذه العبارة تومئ إلى عساكر الله غير

---

(1) *E. Q. s.v.*, Shekhinah

(٢) *Christelijke Encyclopedie*, edited by F.W. Grosheide and G.P. van Itterson, 2nd ed. (Kampen: J.H. Kok, 1956), *s.v.* "Schechina" (الموسوعة المسيحية)

المنظورة التي يرسلها من السماء. أرسل الله النصر إلى محمد يوم طرده كفار مكة منها وقت الهجرة: عندما التجأ محمد وصاحبه ومؤيده أبو بكر، الذي أصبح خليفته لاحقاً، إلى كهف أثناء فرارهما، قال محمد لأبي بكر: «لا تحزن إن الله معنا». ثم أرسل الله «سكينته» عليه وأيّده بجنود سماوية لا ترى (سورة التوبة: ٤٠؛ سفر الملوك الأول ٦:١٦-١٧؛ إنجيل متى ٢٦:٥٣)[1].

أرى الله محمداً في الرؤيا أنه سيصلي في مكة (سورة الفتح: ٢٧). في آذار ٦٢٨ ذهب محمد مع ألف رجل عزّل طالبين الحج إلى الكعبة بمكة. وعندما دنا من مكة، أوقفته الجنود المكية. ثم بدأ المكيون يفاوضون على مسافة تقارب الستة عشر كلم من المدينة عند بئر الحديبية، وأبرم محمد معهم الصلح المعروف بصلح الحديبية. اعتبر المسلمون هذا الصلح مذلاً، ولكن محمداً شرح لأتباعه أن الصلح كان في الواقع فتحاً (أنظر سورة الفتح: ١). الله «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً» (سورة الفتح: ٤). ويأتي هذا القول بعد قوله: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً... وينصرك الله نصراً عزيزاً» (سورة الفتح: ٣). معنى هذا أن صلح الحديبية فتح باب الانتصار على مكة أمامهم، أي أمام الإسلام. «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة (في الحديبية) فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً». (سورة الفتح: ١٨؛ قارن سورة الفتح: ٢٦)[2].

عقد المسلمون مع المكيين صلح الحديبية لمدة عشر سنوات، ولم

---

(١) قارن الفصل السابع حول النبي إليشع ومدينة السامرة.

(٢) إشارة إلى فتح خيبر من قرى اليهود.

يسمح لمحمد وأتباعه بالحج تلك السنة بل [p.272] في سنة ٦٢٩م. والواقع أنهم قاموا بالحج فعلاً في السنة التالية. وبعيد ذلك، أي في سنة ٦٣٠م، استعمل محمد خرقَ المكيين للصلح سبباً للسير على مكة التي لم تبدِ مقاومة تذكر. وتذهب الرواية إلى أنه قبل أشهر قلائل من وصول الإمبراطور البيزنطي هرقل إلى القدس سلّم أهل مكة مدينتهم سلماً لمحمد ونزلوا عند حكمه. استسلمت المدينة فعلياً من دون أية مقاومة. وقد أراد محمد أن يتصالح مع المكيين بدلاً من أن يسحقهم بالقوة. بعد أربعة عشر يوماً من الفتح، وقعت موقعة حنين التي تبعد مسيرة يوم عن مكة (سورة التوبة: ٢٥-٢٦). كانت مجموعة كبيرة من البدو قد تجمعت هناك. كان عدد الجنود ١٢٠٠٠ بقيادة محمد، وكان ١٠٠٠٠ منهم قد رافقوه من المدينة وشاركوا في فتح مكة. أما الألفين الآخرين من المقاتلين فكانوا من قريش ممن أسلموا حديثاً، وتحت إمرة أبي سفيان[١]. أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين انتصاراً حاسماً، وإن كانوا قد انهزموا في بداية القتال، ولكن ذلك تغيّر بعد أن «أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها» (سورة التوبة: ٢٥-٢٦). «سكينة الله» تنزل لتبين دعم الله لأداته المختارة، محمد، في وجه كفر الكفار، وكفر أتباع محمد أيضاً في بعض الأحيان[٢].

عيّن رجل مسلم شاب والياً على مكة، وظلّت المدينة المنورة «عاصمة». الكعبة التي ظلّت قبلة المصلين لسنين جرّدت من أصنامها

(1) *E.I. s.v.* Hunayn

(٢) E.Q. s.v. Shekhinah. Frantx Buhl, *Das Leben Muhammads* (Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1961) pp.311-14 (حياة محمد)

بعد الفتح[1]. المدينة التي كانت رمزاً لمدينة الظلم والقهر، مكة، قد طهّرت وباتت مدينة للعدل.

يصف القرآن استيلاء محمد على مكة بالفتح والنصر (سورة النصر). فهل هذا النصر كالنصر الذي حققه الملك الفارسي سنة ٦١٤م ثم الإمبراطور البيزنطي سنة ٦٢٩م في القدس؟ وما هو معنى النصر وطابعه؟

النصر، النصرة [p.273]

لا بد للمرء إذا ما أراد أن يفهم فهماً أفضل المراد من النصر والفتح من أن ينعم النظر في السياقات المخصوصة التي ترد فيها اللفظتان في القرآن: فالله قد نصر نوحاً «ونجاه وأهله من الكرب العظيم» (سورة الأنبياء: ٧٦-٧٧؛ سورة الصافات: ٧٥-٧٦). «ولما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله (سورة آل عمران: ٥٢). وقد تشجع النبي محمد من كون الرسل الذين سبقوه قد اعتبروا كاذبين لكنهم صبروا حتى أتاهم نصر من الله (سورة الأنعام: ٣٤). وقد حصل محمد أيضاً على هذا النصر من الله في ربيع سنة ٦٢٤ في معركة بدر، بالرغم من قلة عدد أصحابه (سورة آل عمران: ١٢٣؛ قارن سورة الأنفال: ٢٦؛ سورة آل عمران: ١٣). ويصح هذا على النصر الذي منّ به الله في موقعة حنين بعد فتح مكة (سورة التوبة: ٢٥). ففي نهاية الأمر لله ملك ما في السماوات والأرض. وهو «يحيي ويميت وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير» (سورة التوبة: ١١٦؛ قارن سورة التوبة ٧٤). ويطلق اسم الأنصار على الذين

---

(1) *E.I. s.v.* Makka

نصروا محمداً بالمدينة (سورة التوبة: ١١٧)، لكن اللفظ يطلق أيضاً بمعنى أعم على كل الذين يسيرون على طريق الله بالانحياز إلى جانب يسوع/عيسى والأنبياء الآخرين. «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (سورة الصف: ١٤).

الفتح

اعتبر دخول محمد الانتصاري إلى مكة الفتح الأعظم. ولكن ما هو طابع هذا الفتح؟ من الخطأ فهم كلمة فتح في عصر محمد بالمعنى اللاحق الذي يفيد الاغتنام، بل إن معناها أقرب إلى النجاح، والانتصار الذي يمنّ به الله على المؤمنين. والواقع أن كلمة فتح قد استعملها الجيل التالي في الإشارة إلى إخضاعهم للإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية. وقد اكتسبت الكلمة معنى الاكتساب أو الفتح بالمعنى الحرفي (لفتح الباب، مثلاً) وتوسع الإسلام، تحديداً،[١] [p.274] وهكذا أصبح توسع المسلمين في نشر الإسلام يسمى فتوح البلدان. ولكن من الواضح، كما يتبيّن من القرآن، أن تحقيق الفتح والنصر واستعمال العنف، مهما كان ضئيلاً، يستتبع «تلطيخ الأيدي». «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً». (سورة النصر: ١-٣؛ قارن سورة غافر: ٥٥؛ سورة نوح: ١٠). لقد ذكّر النبي محمد بما تتسم به ممارسة

---

(١) أنظر سفر التثنية ٢٨: ١٢، «يفتح لك الرب كنزه الصالح السماء ليعطي مطر أرضك في حينه وليبارك كل عمل يدك فتقرض أمما كثيرة وأنت لا تقترض».

المدينة وتخريبها في العام ٥٨٦ق.م.. ثم أعيدت السيطرة على المدينة إلى اليهود بعد عودتهم من السبي في ظل الملك قورش الفارسي (٥٥٩-٢٩ق.م.). عقبت ذلك فترات تولى فيها السلطة خلفاء الإسكندر الكبير، السلوقيون، وبخاصة أنطيوخس أبيفانس وتخللتها فترة حكم المكابيين. ثم حكم الهيروديون تحت إشراف الرومان. وفي العام ٧٠ للميلاد خرّب الرومان الهيكل وكانت عواقب المقاومة اليهودية في القرن الثاني للميلاد كارثية على المدينة. فبعد هزِم تمرد بار كوخبا (١٣٢-١٣٥م) حظر على اليهود العيش في القدس. واستمر ذلك حتى القرن الرابع للميلاد. وخضعت المدينة بعد ذلك لسلطة البيزنطيين المسيحية، التي تخللتها لفترة وجيزة سيطرة الفرس (٦١٤-٢٩). وفي القرن السابع، وفي أثناء خلافة عمر بن الخطاب، استولى العرب المسلمون على المدينة. وظلت القدس تحت حكم المسلمين مدة [p.276] أربعة عشر قرناً لم يقطعها إلا حكم الصليبيين (١٠٩٩-١٢٨٦). في أيامنا هذه تدّعي إسرائيل أن القدس كلها عاصمة لا تتجزأ للدولة اليهودية، كما أن الفلسطينيين يطالبون بالقدس الشرقية عاصمة للدولة الفلسطينية.

خلال الفترة الأولى من نشاط محمد كنبي، كانت مكة مدينة الظلم (٦١٠-٢٢). وهذا هو سبب الهجرة أولاً إلى الحبشة، ثم في العام ٦٢٢ إلى المدينة. غير أن الوضع لم يبق على هذه الحال. فقد تغيّر الوضع في مكة تدريجياً ومثله موقف محمد والمسلمون منها. وتظهر الرغبة في مكة كوجهة أساسية للمنفيين بالمدينة إلى العلن بعد سنتين من الهجرة. فقد تغيرت قبلة الصلاة التي كانت القدس جراء تجارب محمد السلبية مع معظم اليهود بالمدينة: «سيقول السفهاء من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» (سورة البقرة: ١٤٢-١٤٣). على

المرء الآن أن يستقبل المسجد الحرام، أي الكعبة بمكة، في صلاته؛ ولا بد له حيثما كان من أن يتخذها قبلة للصلاة.

هل هذا يعني أن القدس قد أُلغيت من تلك اللحظة فصاعداً واستعيض عنها بمكة؟ علينا أولاً أن ننظر إلى المعنى الرمزي الذي تمثله المدينتان. ففي صلاة تكريس الكعبة التي أداها إبراهيم (سورة البقرة: ١٢٦-١٢٧) لم يعتبر المكان محجّة لفئة من الناس بل «مثابة» *للبشرية جمعاء*، «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر». وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» (سورة البقرة: ١٢٥-١٢٧).

لذلك ليست المسألة هل حلّت مكة محل القدس، بل هي تتعلق بالاستعانة بإبراهيم لجعل مكة أو القدس «أورشليم الحقيقية» أو [p.277] «مكة الحقيقية». ففي صلاة إبراهيم تظهر الكعبة بمثابة صرح لمؤسسة إلهية جديدة أو متجددة. وهي بسبب أصلها أول «بيت لتوحيد الله» (قارن سورة آل عمران: ٩٦). «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدى للعالمين» (سورة آل عمران: ٩٦)،[1] لكل «ذرية إبراهيم».

وهذا ليس بالمكان المناسب، وليس في نيتي هنا أن أناقش الظروف والأسباب أو التفسيرات التاريخية والسياسية المتعلقة بالاستحواذ على مدينتي القدس ومكة وملكيتهما. والسؤال المطروح هو: ماذا يتسق جوهرياً مع هذه الكتب الثلاثة؟ هل هناك قصة واحدة بالنسبة إلى السؤال: «لمن هذه المدينة؟»

---

(1) *E.Q. s.v.* Geography

الرأي الإسلامي السائد في ما يتعلق بمكة هو أنها ليست مكاناً لغير المسلمين، أي لليهود والمسيحيين. وثمة حديث مفاده أن لا مكان لتجاور ديانتين في شبه الجزيرة العربية. ويروى أن محمداً قد قاله على فراش موته. ويبدو هذا مستبعداً. فالواقع أن عمر بن الخطاب أخرج اليهود من الحجاز والمسيحيين من نجران سنة ٦٤٠م، بالرغم من أن محمداً كان قد عقد صلحاً معهم وسمح لهم بالبقاء. وفي أيام معاوية كان ثمة فريق من ٢٠٠ مسيحي يقومون بعمل الشرطة في المدينة كما ظلت مقبرة «للكفار» لمدة طويلة بمكة[١]. ومهما يكن من الأمر فمن المعروف أن دخول غير المسلمين محظور إلى مدينة مكة اليوم وأنه لم يزل كذلك منذ عدة قرون. وقد علّقت لوحات تفيد ذلك على الطرق المؤدية إلى مكة. ولهذا السبب يطلق شعبياً على الطريق التي تلتف حول مكة اسم طريق «المسيحيين».

دانييل فان در مولن Daniel van der Meulen (١٨٩٤-١٩٨٩)، دبلوماسي هولندي، ومستكشف (حضرموت، اليمن) وكاتب عمل في آخر أيام الهند الشرقية الهولندية/ إندونيسيا لدى الحكومة الهولندية. وقام بمهام قنصل هولندا بجدة في المملكة العربية السعودية. كانت قنصلية جدة هامة بسبب الأعداد الكبيرة من الحجاج القادمين من الهند الشرقية الهولندية. وكان عدد لا يستهان به من مسلمي إندونيسيا يتحدرون من حضرموت. وقد كتب فان در [p.278] مولنسيرة حياة ابن سعود (١٨٧٦-١٩٥٣) مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية. وقد سأل فان در مولن الملك

---

(١) Y. Courbage and P. Fargues, Chretiens et Juifs dans l'Islam arabe et turc (Paris: Petite Bibliotheque Payot, 2005), pp. 25-26 (مسيحيون ويهود في الإسلام العربي والتركي)

مرة أن يأذن له بالذهاب إلى مكة. غير أن الملك رفض لأنه غير مسلم. عندها سأل الملك سؤالاً آخر: «لو كان من الممكن أن أسأل محمداً نفسه هل يسمح لمؤمن حقيقي سواء أكان يهودياً، أم مسيحياً، أم مسلماً، بالذهاب إلى مكة، ألا تعتقد أن النبي كان ليسمح له بالذهاب؟» فأجاب الملك «نعم أعتقد أنه يفعل، ولكنني لن أسمح *لك* بالذهاب إلى مكة».

لعله من المعقول، ولشتى أنواع الأسباب التاريخية، والتقليدية، والسياسية، أن نفهم لِمَ أبعد اليهود والمسيحيون من مكة، ولكن هل يتسق هذا مع القرآن أو حتى من سنّة النبي محمد؟ أما بالنسبة إلى السنّة، ففي تشرين الأول من العام ٦٣٢ م قام وفد من مسيحيي مدينة نجران المسيحية في جنوبي الجزيرة العربية وعلى رأسهم أسقف، بزيارة محمد في المدينة[1]. وقد دار حديث بات مشهوراً، يومئ إليه القرآن (سورة آل عمران: ٦١) وسمح محمد للمسيحيين بأن يصلّوا في مسجده.

لِمَ لا يمكن لمكة، المرتبطة بإبراهيم، أن تكون مدينة مفتوحة لكافة المؤمنين؟

مدينة الله الواحدة والبشرية

إن قراءة الكتاب المقدس والقرآن وفهمهما باعتبارهما قصة مدينتين تبيّن بدقة ما يكون أمر المدن. أحياناً تعود المدن الظالمة إلى رشدها وتتوب. وهذا ما حدث لنينوى، المدينة التي تابت بسبب رسالة يونس/ يونان. فقد طلب أهلوها العون من الله وأعلنوا الصيام، وارتدى الجميع من كبيرهم إلى صغيرهم، من بشر وحيوان أثواباً خشنة علامة على

(1) *E.Q. s.v.* "Najran", "Curse"

التوبة. وقد رأى الله ما فعلوا؛ رأى أنهم اطّرحوا سبل الشر، فلان ولم ينزل بهم البوار الذي توعدهم به. لم ينفذ حكمه فيهم (سفر يونان ٣ : ٥ ؛ قارن سورة الصافات: ١٤٧-١٤٨). بدا الله متعاطفاً حيال نينوى» «المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة» (يونان ٤ : ١٠). [p.279]

ولكن من الجائز أن يحدث العكس. فالقدس مدينة البر والسلم يمكن أن تصبح مدينة الظلم تماماً مثل ما كان من أمر مكة والمدينة) وأن تصير نظيرة سدوم وعمورة (سفر إشعيا ١ : ٩).

ولكن المنظور المستقبلي الذي يصدر عنه الأنبياء حتى يوحنا الإنجيلي صاحب الرؤيا هو *أورشليم الجديدة*. ففي قصة يوحنا الإنجيلي عن المدينتين، في سفر الرؤيا، نجد أورشليم/ القدس وبابل. فكما أن إبليس قد أخذ المسيح إلى قمة جبل عال وأراه ممالك الأرض (إنجيل متى ٤ : ٨)، كذلك أرى الله يوحنا أورشليم الجديدة المدينة المقدسة التي أنزلت من الجنة مشرقة من مجد الله (سفر الرؤيا ٢٢ : ٢). إن وصف هذه المدينة بارز ولافت: مدينة على ضفتي النهر كثيرة الشجر (سفر الرؤيا ٢١-٢٢). كل من زار القدس يعرف أن المدينة الأرضية بفلسطين لا تبدو أبداً على هذا النحو. فهي ليست مدينة قائمة على نهر. ولكن أية مدينة تقع على نهر؟ بابل! بابل، وهذا حقيق بالانتباه، هي النموذج للقدس الجديدة! يمكن للقدس أن تصبح مدينة للظلم كما في أيام المسيح ويمكن لبابل أن تستعمل صورة للقدس الجديدة. يمكن لبابل أن تتوب، تماماً مثلما تابت مكة الشريرة، وتحوّلت إلى مكة المكرّمة. فالقدس في الكتاب المقدس ليست المركز الجغرافي، بحيث تكون القدس الجديدة هنا أو هناك في الشرق الأوسط. لقد حلم يوحنا

صاحب الرؤيا بعاصمة عالمية يشعر فيها الناس كلهم بأنهم في وطنهم، وتظل بواباتها مفتوحة على مصراعيها للقادمين من أقطار الأرض بصورة دائمة. هذه القدس الجديدة ليست موجودة بعد، ولكن من الممكن توقعها في أي مكان. هذه القدس الجديدة يمكن تخيلها في كل مكان - في نيويورك، بلفاست، سراييفو، بغداد، رام الله، ولكن بصورة أخص أيضاً في القدس، لا بل حتى في أمستردام.

فهي، في نهاية المطاف تعني مدينة واحدة لله وللبشرية جمعاء.

أمستردام، روما، و...بيت لحم

طُلب من الشاعر الهولندي يوست فان دن فوندل (١٥٨٧-١٦٧٩) يوماً أن يكتب مسرحية لافتتاح المسرح الجديد في أمستردام. وقد جعل عنوانها «خراب مدينة أمستل، مدينته، ومنفاه». بنى فوندل مسرحيته على تقرير قصير في مجموعة أخبار من القرون الوسطى، وصنع منه مأساة. كان مملوءاً [p.280] من اليقين بأن الدمار شرط لا بد منه لمستقبل مشرق:

«ومع أن المدينة باتت خرائب هامدة، فهي لن ترتجف من ذلك: بل إنها سوف تنهض أكثر تألقاً من الرماد والتراب».

كان فوندل يود كتابة نظير مسيحي للإنياذة، ملحمة الرومان الوطنية التي وضعها الشاعر الروماني فرجيل وصوّر فيها خراب طرواده الذي نهضت منه مدينة روما الكونية منتصرة. هل قام فوندل بنظير ما قام به الشاعر الروماني؟ أليس ما فعله مجرد خطاب قومي استنهاضي؟ ملحمة بطولية شامخة عن أمستردام؟ لا بد في فهم جواب فوندل فهماً صحيحاً

من النظر إلى المدن التي تقوم بأدوار في مسرحية فوندل. ثمة ثلاث مدن: أمستردام، طرواده، والثالثة هي: بيت لحم!

تتحرك المسرحية على خلفية أحداث بيت لحم في عيد الميلاد. جرى العرض الأول للمسرحية يوم الإهداء[1]. وتعرض المسرحية التناقض بين الانحطاط البربري للعظمة الأرضية وديمومة دلالة القيم الأبدية كالتواضع والتسليم الواثق بالله، أي إسلام الوجه لله بأعمق معاني الكلمة. ففي مواجهة المدينة الكونية الثرية، اللامعة، المتألقة، نرى في بيت لحم بساطة يسوع/عيسى الطفل ووالدته. لقد فهم فوندل أن *مدينة الله* ليست «القدس» بل بيت لحم (إنجيل لوقا ٢ : ٤)! القدس/ أورشليم تسمى في مواضع أخرى مدينة داود (سفر صموئيل الأول ٥ : ٧). ولكن الأمر يتعلق في نهاية المطاف ببيت لحم باعتبارها «مدينة داود»، وهي فكرة أطلقها النبي ميخا الذي قال: «أما أنت يا بيت لحم أفراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم من أيام الأزل» (سفر ميخا ٥ : ١؛ إنجيل متى ٢ : ٦؛ قارن سفر صموئيل الأول ١٧ : ١٢). هناك يولد الملك المسيحاني الحقيقي، داود، بمعنى الخليفة الحقيقي، تماماً مثل يسوع/عيسى الذي استطاع أن يقاوم، كآدم ثان، إغراء الشيطان (إنجيل متى ٤ : ١-١١). خراب المدينة الأرضية الشامخة يقع ليلة عيد الميلاد التي يولد فيها الطفل المتواضع. الصخرة الصغيرة التي تمثل ملكوت الله تمزق صورة نبوخذنصر الأبية (سفر دانيال ٢ : ٤٥).

---

(١) أي يوم ٢٦ كانون الأول، اليوم التالي لعيدا لميلادالذي تقدم فيهاالهدايا لصغارالمستخدمين كسعاةا لبريد والفرّاشين، إلخ- . المترجم

«الصغير» هو ما تختاره [p.281] السماوات، لأن من *يولد ثانية بتواضع يولد من السماء* (يوست فان دن فوندل).

هذه هي القصة الواحدة التي تحكيها الكتب الثلاثة عن المدينة الواحدة ومن أجلها. [p.282]

الفهرس

هذا الكتاب

في هذه الأيام المظلمة من الجهل، والتعصب، واللاتسامح، والمخاوف المرَضية والمخاوف المضادة لها، كتب أنطون فيسل كتاباً يذكرنا بالبواطن العميقة الكامنة تحت سطح النصوص المقدسة الثلاثة: التوراه، والإنجيل، والقرآن. هذا عمل ينتمي إلى نوع قد نسمّيه «الأركيولوجية الدينية أو علم الآثار الديني»، عمل لا يتجاهل خطوط الصدع، بل يسعى بإيمان عميق وعلم يضارعه عمقاً، إلى تتبع أسلاك الرواية الكبرى المشتركة بين الكتب الثلاثة كلها.


ISBN 978-9933350772

